



الحسين أحمد السيد

عند الله

التتبع

ثقافة المستقبل

دراسة في الثقافة المستقبلية والحضارة الإنسانية

دار المحمد البيضاء

الحسين احمد السيد

التتبع
قائمة
المستقبل

دار النخبة البيضاء



التتبع

ثقافة المستقبل

Designed by CMYK Studio



لرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

E-mail & FB: info@daralmahaja.com

www.daralmahaja.com

ISBN 978-614-426-516-1



9

786144

265161

التشيع
ثقافة المستقبل

التَّشْيِعُ ثَقَافَةُ الْمُسْتَقْبَلِ

(دراسة في الثقافة المستقبلية
والحضارة الإنسانية)

بقلم

الحسين أحمد السيد

دارُ المِجْدِ البِيضَاءِ

© جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

ISBN 978-614-426-516-1

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

علم المستقبل أو المستقبلية

صناعة المستقبل؛ هبة ربانية، ونعمة ومسؤولية

إنسانية فهل نقدرها ونشكرها ونؤدي حقها!!

أرجو ذلك

♦ المؤلف

تمهيد

المستقبل: هو مولود الغد من الزمان.. فالأيام حبلى ولقاحها الزمان القادم.. ولذا قيل بأنه غداً ابن اليوم؛ والقادم ابن الماضي، وصحيح أن مستقبل كل أمة هو من إنتاجها وابن ماضيها.. فإن أحسنت صناعته نعمت بظله وبنيت حضارتها وإلا فلا تلوم إلا نفسها.

فالمستقبل هو جزئ من الزمن الممتد من اللحظة القادمة وإلى عمق الأزمان الآتية من الأيام والسنوات وحتى القرون القادمة.. فكلها مستقبلنا جميعاً، وصناعتها مهمتنا جميعاً كذلك.. فلماذا لا يُفكر الإنسان بالمستقبل، ويُكرس كل تفكيره بالماضي كتاريخ، وبال حاضر كواقع، ويُهمل الآتي من الأيام عادة؟

والإنسان بطبيعته قلما يفكر جدياً بالزمن الآتي لأنه محكوم عليه بالموت في أي لحظة، فالموت سيف جبار مُسلط على رقاب العباد، سبحانه الذي استله وسلطه عليهم فقهرهم به.

المستقبل هو نوع من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وأهل العلم به من عباده المكرمين (عليهم التحية والسلام)، أما بقية الناس فهم بجهل تام بالمستقبل، ولا يهتمهم إلا الحاضر فقط.

والحديث عن المستقبل هو حديث مقرون بالأخطار والمتحدث به لا يأمن الزلل والخطأ في تفكيره لأن كلامه أشبه بالأوهام منها بالحقائق، وهي إلى الخيال أقرب من الواقع فاحتمال الكذب فيها كبيراً جداً.

والحديث عن المستقبل يحتاج لعقلية خاصة، وفكر عميق يتجاوز الواقع، ويبني الآتي بخياله ويسطره على الورق كتوقعات هي أقرب للنبوءات، وهذا ما يخيف بالحقيقة والواقع، فالمتحدث عن المستقبل سيرميه الجهال بالتنبؤ وبالتالي يخرجونه من الناموس الديني.

وبالحقيقة؛ إن كل من يتحدث عن المستقبل من هؤلاء الذين يسمونهم (المستقبليون) لا يفكرون مجرداً فينبون المدن الفاضلة، كأفلاطون، والفارابي وغيره من أصحاب المدن المثالية في أدبيات الأمم في العصور الخوالي.. بل هم يفكرون بالمستقبل على أساس الأرضية العلمية والبنى الحضارية للبشرية اليوم، فهم لا يبنون في الفراغ، ولا ينطلقون من فراغ، بل يعتمدون على حسابات دقيقة جداً ومتواليات عديدة، أو حسابية فتعطيهم نتائج حسابية في المدى الذي يفكرون به.

فعلماء اليوم يعتمدون على وقائع حاضرة ملموسة بين أيديهم ليتوقعوا الغد المشرق للبشرية فيسمون أنفسهم (بالمستقبلين) وما هم من هذا بشيء فالمتقبلي هو الذي يتجاوز المستقبل المنظور والمحسوب إلى ما بعده من عالم الغد البعيد الذي لا يمكن رؤيته فهل يستطيع المتقبلي أن يقول لنا ويحسب لنا أحوالنا في منتصف الألفية الثالثة كيف سيكون؟ لهذا نتحفظ ولا نقول لمن يفكر بالمستقبل (مستقبلي) بل هو مفكر استراتيجي.

ولذا فإذا قرأت ما كتبه أكبر علماء المستقبلية المعاصرون وصاحب
وكبير (جمعية مستقبل العالم) الأمريكية، ادوارد كورنيس، الذي كتب
كتابين عن المستقبلية، وهما؛

المستقبلية.. مقدمة في فن وعلم فهم وبناء عالم الغد.
الاستشراف.. منهاج استكشاف المستقبل.

وعندي الأول منهما ولا أعلم حقيقة عن وجود الآخر وهل هو
كتاب مستقل أم أنه نفس الكتاب ولكن بترجمة مختلفة.. والمهم أن
هذا الكتاب فيه نقاط مهمة ولكن أحب أن ألفت نظر الأخوة الكرام
لعدة نقاط مهمة، هي؛

المؤلف ينظر للمستقبل من خلال المنظار الأمريكي البحت، فنظرته
قاصرة، ومقصورة جداً.

وهو ينظر للإمبراطورية الأمريكية فقط وليس للإنسانية.

وهو يكتب ما يرى فيه مصلحة لبلده وشعبه ولا تهمة البشرية إلا
بما يخدم تلك المصالح الأمريكية فقط.

الكاتب مُحاصراً بالثقافة، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة الأمريكية
ولذا فهو لا ينظر إلى الآخرين إلا كأرقام في الحسابات.. لأن حضارته
الذي تربى بها بلا جذور ولا أخلاق ولا قيم حضارية فكيف سيعطي
للعالم مستقبلاً مشرقاً ففاقد الشيء لا يعطيه..؟

وقبل ذلك كله هو ينظر للسياسة الأمريكية، وكيف ستسيطر على
العالم، وتمتص خيراته، وتفرض عليه الثقافة الأمريكية الاستهلاكية،
والقيم الأمريكية التافهة والساقطة أخلاقياً.

فالكتاب الذي تناوله المثقفون العرب بالترحاب، وهو بالحقيقة يُرْحَبُ به ولكن ليكون لنا نافذة لتتعلم كيف يفكرون، وبماذا يحلمون للغد، فنعمل بتكليفنا العقلاني والشرعي بما نحمي به أنفسنا وبلادنا من الأطماع المستقبلية للأمريكان، ونعدُّ لهم ما نستطيع من مخططات معاكسة لمخططاتهم في كل مجال من مجالات الحياة فنحصن أنفسنا من أخطارهم.. ولكنهم - ويا للأسف - أرادوا أن يجعلوا منه دستوراً مستقبلياً لنا، ويخاطبون الأمة بما ورد فيه وبأمثاله من أفكار، وما أخطرها على الإنسانية، وإليك ما يتوقعه من أهوال - كما يسميها هو - على البشرية في تنظيره المستقبلي لكوكبنا هذا، فيتوقع المستقبليون عدد من الكوارث، منها:

الجريمة النووية: فهم أصحاب الحق بامتلاك القوة النووية وكل من يسعى للحصول عليها يصبح (إرهابياً وخطراً حقيقياً).. وهم الوحيدون في العالم الذين استخدموا القوة النووية للإبادة في (الناغازاكي وhiroshima) اليابانية.. فواجب العالم الحضاري في المستقبل أن يسعى لنزع هذا السلاح من أيديهم الأثمة والملوثة، والواجب محاكمتهم جميعاً.

الانهيار الاقتصادي: وها نحن الآن نعيش أزمة الاقتصاد العالمي وانهياره تدريجياً، وذلك لأن أزمة التصنيع عامة وهي تتجاوز كل أزمة أخرى، هي (أزمة تمزق فوراً ومعاً قاعدة طاقاتنا ونظام قيمنا، وبنى أسرنا، ومؤسساتنا، وأنماط اتصالاتنا، وإحساسنا بالزمان والمكان ونظيرتنا بالمعرفة وحتى اقتصادنا.. وما يحدث هو: تقريباً انهيار التصنيع في كوكبنا

والظهور الأول المتفتت لنظام اجتماعي جديد كلياً ومختلف جذرياً، إنها حضارة فوق - صناعية، ستكون تقنية ولكنها غير صناعية..^(١)

موت المحيطات: (والأصح قتل المحيطات المتعمد) وذلك بسبب التلوث الذي جاءه من الأعلى والأسفل، من الأعلى؛ بالسموم والزيوت وأنواع النفط المتسرب من الناقلات والناج من الحوادث، والمجارير ومياه الصرف الصحي، وبقايا المصانع النفطية والكيماوية الهائلة، ومن الأسفل بما يدفنون في أعماقها من أنواع النفايات النووية التي لا يعلم خطرها إلا الله تعالى الذي لا يؤمنون به، فيقول أحد الأدباء برواية من روايات الخيال العلمي عندهم سبباً قوياً جداً للاعتقاد بأن تلوث محيطاتنا، بسبب السموم والمواد الكيماوية والمجارير وتصريفها فيها، قد يكون بلغ نسباً لا يمكن إنقاصها، فالبحيرات الكبرى وبحر البلطيق، والبحر المتوسط، تحتضر الآن احتضاراً سريعاً، وباتت عاجزة عن إعالة الأنواع الحياتية التقليدية فيها.. ولذا ما هذا سوى بداية لعملية انتهاء ووفاة للمحيطات، وبوفاة المحيطات سوف يموت باقي العالم^(٢)

التغيرات المناخية (الدفئية): وهذا من أخطر ما تواجهه الحياة على هذا الكوكب، فالبرودة تشتد في الشمال والحرارة تزداد في الجنوب، وتتخلخل أنظمة ودورات الحياة على الكرة الأرضية كما نراها ونعيشها اليوم. وسيأتي اليوم الذي تنقلب فيه الأرض رأساً على عقب بسبب ذلك كما يقول العلماء الآن، وينظرون لذلك في المستقبل، وعند ذلك يكون دوران الأرض بالعكس وتشرق الشمس من المغرب.

(١) - (المستقبلية ادوارد كورنيش: ص ٦٥)

(٢) - (ن م ٦٦٠)

تدمير طبقة الأوزون: وهو يتم بتزايد غاز (الفيرون) في الجو فيضعف الطبقة الواقية للأرض من الأشعة فوق بنفسجية التي تسبب أنواع السرطانات، وكلنا نشعر بزيادة هذا المرض في واقنا الذي نعيشه الآن، هذا وقد كنتُ في إحدى الدول العربية، وأذهلني أنه ما من بيت إلا وفيه مرض مُزمن أو أكثر لا سيما السرطانات القاتلة فقد انتشرت بشكل غريب فعلاً.

الغزو الثقافي للأرض: وهو الغزو الأخطر على إنسانية الإنسان لأن الأمريكيان يريدون مسخ البشر من أصلاتهم ويعيدوا تأهيلهم وصناعتهم ثقافياً ليكونوا على أشكالهم النشاز دونما الاهتمام بخصوصيات الشعوب والأمم الأخرى ولا ثقافات الحضارات الأُممية مهما تجذرت في التاريخ.. وثقافتهم - كما تعلم - هي ثقافة المياعة والخلاعة، ثقافة السفور والفجور، ثقافة هوليدو بكل ما فيها من سقاطات، وسخافات.. ويريدون أن يطبعوا العالم كله بهذا الطابع الذي تعافه النفس ويأباه الضمير، ولا يقره العقل السليم.

انحلال النظام الأسري: تنتهي معظم الزيجات في بلاد الغرب عامة إلى الطلاق أو الانفصال، وقد ارتفعت نسبة الطلاق ارتفاعاً مطرداً في الولايات المتحدة وبلغت أعلى مستوى لها في التاريخ، فالأمريكي الذي يتزوج اليوم يواجه احتمالاً كبيراً بأن زواجه سيفشل أخيراً.. والإحصائيات في المجال الاجتماعي مرعبة حقاً، رغم أن رئيس فيلق السلام الأمريكي في عام ١٩٧٦/ قال محذراً: كلما ازداد المجتمع تعقيداً تصبح الأسرة أكثر أساسية، حيث أنها المكان الوحيد للإحساس بالثقة ودرجة النظام والانضباط والقدرة على المحبة والذي تتغذى وتنمو فيه

الأمر جميعها، وغالبا ما تكون هي المكان الوحيد الذي يرمى فيه الناس ويتعلمون به من هم وما هم..^(١)

البطالة المفرطة عالمياً: فدخل الآلة الصناعية والتطور الهائل للصناعات الإلكترونية الدقيقة والحاسوب وحتى الروبوت، جعل الناس بحيرة من أمرهم فلا أعمال ولا وظائف ولا مال ولا أسرة ولا مسؤولية جعلهم يتجهون للجريمة المنظمة أو للمخدرات للهروب من البطالة العالمية.

فقدان الإيمان الديني: يؤكد المستقبليون الأمريكيون أن الإيمان الديني أصبح أقل، وتردى الإيمان بالله - والعياذ بالله - وانهارت الآلهة، وبنه وارين واغر قائلاً: لست واثقاً من أن أي نوع من الحضارة تستطيع البقاء طويلاً بدون دين، أو بدون التماس معنى سام في الحياة والذي هو الشيء نفسه، فهذا يشبه الطلب من إنسان أن يعيش بلا إرادة، أو رغبة مهما كانت قواه العقلية أو صحته البدنية، على أننا نقرب سريعاً من نظام اجتماعي لا ديني في قرننا..^(٢)

تلك هي النتيجة: فالمستقبلية الأمريكية هل هي حضارة كونية أم محرقة كونية؟ وهل هي حضارة أم أشلاء حضارة بائدة، وركام من تفاهات الأبالسة، واليهود، والماسونية، والمتصهينيين الجدد وأشباههم من ممسوخات البشرية؟

فالعصر الذهبي الذي يبشرون به هو يمثل قاع الانحطاط القيمي والأخلاقي والإنساني في بني البشر، وهذه بالحقيقة هي أحلام اليهود

(١) - (ن م : ٦٨)

(٢) - (ن م : ٦٩)

وآمالهم بمستقبل البشرية الأسوأ عالمياً ليكون ذلك مقدمة لظهور (مخلصهم ومسيحهم المنتظر) كما يظنون بالله ظن السوء.

فهذا الذي نراه بأم العين ونعيشه ونتلظى بنيرانه لحظة بلحظة هو ما كان يبشر به المستقبليون الأمريكيون، وما هو آت أشنع وأبشع وأظلم بما لا يقاس بهذا لأن الأزمة العالمية بدأت والوحش الأمريكي بدأ يحس بالجوع والعطش للدماء ومخالبه طويلة، وأسنانه حادة، ويده ممتدة بالصواريخ العابرة للقارات تدمر الكرة الأرضية مئات المرات، ولا شيء يمنعهم من استخدام الإبادة لأي شعب، أو أمة، أو دولة، أو دين لأنهم أصلاً قاموا على الإبادة الجماعية للهنود الحمر، وبدؤوا حضارتهم بتدمير اليابان بالنووي، ودماء أطفالنا تضحج إلى الله منهم ومن صنيعتهم الغدة السرطانية التي يسمونها بـ (الدولة اليهودية) في لبنان وفلسطين والجولان.

فالمستقبل الأمريكي الذي يبشروننا به هو أسوأ من هذا بكثير حتى أن كاتباً إيطالياً (روبرتو فاشا) يشبهه كالتالي، في كتابه (العصر المظلم): فكل فرد منشغل البال بها (الأزمات العالمية اليوم) هو مثل سجين في عربة شحن مكتظة ومقفلة يتشكى من الرحلة المتعبة ولا يفكر بمعسكر الإبادة الذي ينتظره..^(١)

وأما كاتب آخر يتحدث عن المستقبل الأمريكي في كتابه (نهاية العصر الأمريكي)، ويقول: في الكتب عن المستقبل ثمة سيناريو واحد لا يريد أحد أن يكتبه، وكسبب رئيسي لأن أحداً ما لا يُعنى بقراءته، فهو سيظهر ملايين (البشر) يهلكون من الجوع، والسلب والنهب

والمنتشرين على نطاق عالمي، وبقاء القُساء عديمي الرحمة (الذين أبادوا البشر والحجر في الناغازاكي وجارتها) على قيد الحياة، وأرضاً تقاسم الجردان وأسراب الذباب فيها الرماد المُشع وبقايا الأجيال الماضية.

والناس حتى النهاية المرؤعة، سيقون مقتنعين جداً بنوعيتهم الخاصة، المتميزة التي سيتمسكون بها لأنفسهم بدل تقبل التقسيمات والتوزيعات الموحدة (الأمريكية)، فمن الغابة أتينا وإلى الغابة نعود، وليس ثمة من قانون وضعه الإنسان، أو سنته الطبيعة، ويقول: إن الحضارة الإنسانية يجب أن تستمر إلى الأبد أو حتى إلى نصف قرن قادم..^(١)

فالمستقبل المنظور لنصف قرن يكون بهذه الصورة المرعبة فما رأيك بما بعد القرن القادم؟ فإذا أراد البشر العيش بهناء نسبي عليهم أن يمنعوا المستقبل الأمريكي الذي يرسمونه، وهذا ما دعا إليه غوردن تايلور في كتابه (كيف تتجنب المستقبل؟) لأن صورته مشوهة وسيكون (أكثر عنفاً من أي شيء نستطيع أن نتذكره، وأكثر اضطراباً اجتماعياً، وأشد قلقاً وعدم استقرار، وستكون الحياة أكثر إزعاجاً، وضيقاً، وإحباطاً، ولسوف يهبط مستوى الحياة المادي، وستقع كوارث مالية، وسوف تمحي من الوجود طبقات اجتماعية كاملة، وسوف تقل الموارد والأغذية، وسيكون الضجيج والتلوث أسوأ، وستقع مجاعات وتندلع حروب أهلية وهمجية..)^(٢)

(١). (م ن : ٥١)

(٢). (ن م : ٥٠)

صورة وحشية، صورة مرعبة، صورة أبشع بعشرات المرات مما يصورونه على شاشات هوليود الداعرة، من أنواع المخلوقات الفضائية المتخيلة، أو الشياطين وأمثالهم مما يصوره لهم أجهارهم من شياطين العالم المتحضر، التي تشير الإشمئزاز في النفس من منتج أمريكي، يصنع لتدمير القيم والأخلاق وحتى النفس البشرية.

التطور الكوني والمستقبل

نحن في عصر الأرقام الصفيرية، وأباطرة القرية الإلكترونية، بل نحن صرنا براغي في هذه الآلة العالمية، وقيمتك بما تقدمه من خدمات، وعندما تنتهي صلاحيتك تقذف في النفايات، أو على المزابل، إلى أن يأتيك اليقين (الموت) فإما يبيعون جثتك للطلاب، أو يصنعونها طعاماً للكلاب، أو يلقونها في حوض الأسيد الذي لا يبق منك شيئاً ولا يعيد.. وهكذا تنتهي قصة حياتك المأساوية.

يقول الدكتور حسن الشريف بمقدمته لكتاب كورنيس إن: «العالم يتغير حولنا بتسارع لم يسبق له مثيل في التاريخ البشري».. فالتغيرات التي طرأت على الحياة البشرية خلال العقد الأول من هذا القرن يفوق بكمه وكيفه التطورات التي رافقت الحياة البشرية منذ البداية وحتى اليوم بما لا قياس بينها، فالذي حدث هو تحول العالم إلى قرية إلكترونية صغيرة تتحكم بها بالأزرار من بيتك - إذا كان لديك بيت، تسكنه - فالعالم بين يديك وتحت تصرفك أينما كنت، وحيثما شئت، فالكل طوع بنانك.

وهذا الواقع الذي نعيشه الآن كان ضرباً من الأحلام في سنواتنا الأولى التي عشناها نحن ومن كان يفكر بمثلها فهو مجنون حتماً،

فأنى للإنسان أن يخاطب آخر في أقاصي الدنيا متى يشاء وبجهاز في جيبه بحجم علبة الكبريت التي كتب عن بائعتها فكتور هوجو روايته الرائعة.. فذاك الكلام هو من قبيل روايات الخيال العلمي.

والتطورات في العصور القديمة كانت تتم بهدوء وصمت ولا يشعر بها إلا أهلها ومن هم من حولهم والعالم لا يشعر بها إلا بعد سنوات طويلة، كما أن إيقاع التغير وحركته كانت بطيئة جداً، لا تشعر بها البشرية عادة بل تعيشها مع الأجيال المتلاحقة.. وأما اليوم فإن العالم يتطور بقفزات كبيرة وواسعة قد يعجز الإنسان العادي عن ملاحظتها فتراه بحيرة من أمره.

فالحقيقة تقول بأن الحياة تتغير بسرعة هائلة.. ولكن الجميل أن الناس كل الناس يتابعون ويراقبون هذا التغير.. والأجمل أنهم يعرفون بأنهم يتغيرون، ويتطورون فيتهيؤون نفسياً، وعقلياً، وحياتياً للتغير والتحديث مع تطورات وتغيرات الحياة المعاصرة.

وقديماً قال ستييس: لا جديد تحت الشمس.. والعالم تغنى بهذه الجملة التي صارت مثلاً إنكليزيا عالمياً.. ولكن هل هي صحيحة الآن؟ فنحن لدينا في هذا العصر كل يوم، وربما كل لحظة جديد تحت الشمس من أنواع الصناعات والاختراعات البالغة الدقة والجمال.

وهذا التطور الكبير لم يخلق أزمات ويحل أزمات كونية بل هو بنفسه أصبح أزمة كونية حقيقية، فالإنسان محدود بإمكانياته واستيعابه لهذا التطور أصبح مشكلة لكل إنسان فتعقدت الحياة الاجتماعية وضعفت الروابط الأسرية، وضاعت الأجيال ما بين المدارس والمعامل.. فلا تكاد تسأل أحد من الناس عن حاله إلا ويقول لك مشغول وليس لي

الوقت اللازم للعلاقات الإنسانية فتغرب الإنسان عن نفسه لأنه مخلوق اجتماعي بالطبع، وألغت الحضارة الإلكترونية المجتمع العادي لتزرع مكانه مجتمعها الافتراضي فصار مجتمعك غرفتك وحاسوبك وكل صداقاتك ومعارفك عن طريق الأزرار والماسنجر والباتوك والتواصل بالهوتمل أو الياهو وما أشبه.

فالبيت الذي فيه أربع أولاد ترى فيه خمس مجتمعات مستقلة فلكل واحد منهم غرفته وحاسوبه وعلاقاته الخاصة، ولا يجتمعون مع بعضهم إلا في الأسبوع مرة فتراهم مشتتين ليس لهم رأي واحد تجاه قضية ما فأحدهم يهتم، والآخر يقول: لا علم لي بها لأنها لا تهمني في شيء، وربما تكون بأخص الخصوصيات له أو لبلده.

فهذا التغيير الزائد قد أفقد الإنسان إنسانيته اليوم في الغرب، ولذا فالعقلاء منهم راحوا ينادون ويناشدون بتبطئة الأتمة والتغيرات الغير الضرورية والمدمرة اجتماعياً، فالتحولات الحضارية يجب أن ترافقها تطورات اجتماعية إنسانية، وإلا دمرت الإنسانية نفسها وهو ما يعرف ب (انتحار المجتمع البشري) فما قيمة الحياة إذن؟

وبالحقيقة (إننا نتكلم عن التغيرات التي تجعل أنماط الحياة جميعها تافهة (ولا قيمة لها لأنها متبدلة ومستهلكة) هذا مما يشوش نُظْم القيم، ويخلق الاغتراب ويجعل الحياة مُملة مُضجرة، أو تدعوا إلى الإحباط، أو غير جديرة بالعيش، فترتفع نسب الجريمة والانتحار، والإدمان على الكحول (والمخدرات).. بل أكثر من ذلك؛ إننا وبعبارات إنسانية أنثربولوجية نتكلم عن انقطاع الثقافة، فنفعل بأنفسنا (كورنيش الأمريكي) ما فعلناه بكثير من الشعوب البدائية حين أغرقناهم في عالم تقني لم تكن مؤسساتهم وقيمهم ملائمة له.. ومن المعروف أن ذلك

يحطم الثقافة البدائية، ويؤدي إلى فقدان الحافز، والإدمان الكحولي، وأخيراً إلى الشذوذ الكلي، وتكون كلفة التغيير (الاجتماعية) باهظة..^(١)

فالتطور التكنولوجي يُدمّر الإنسان بقتل الإنسانية والشعور بالقيمة فيه، ويفسد قيمه وأخلاقه ويسلخه عن نفسه أولاً، ثم عن أسرته ثانياً، ثم عن أهله وعائلته ثالثاً، ثم عن مجتمعه رابعاً، فيتحول إلى حلزون يتفوق على نفسه، وهذا ليس من البشر في شيء.

(وللتقدم التكنولوجي تأثيرات لا تحصى على التعليم والحكومات والكنائس وحتى على العلاقات الداخلية الحميمة والقيم الإنسانية... وهكذا تتسع الفجوة بين الأجيال مع نمو الشبان في عالم يختلف باطراد عن الذي نشأ عليه آباؤهم، وهذا التحول يحول الأخلاقية القديمة إلى لا أخلاقية جديدة.. فالأمومة (تلك العاطفة المقدسة) التي نُظر إليها باحترام من قبل غالباً ما تُرى (ويُنظر إليها) الآن على أنها شيئاً رديئاً لأنها عبثاً على الوالدين وتساهم في المشكلة السكانية للدول والحكومات.. وأصبحت الوطنية محط ريبة في عالم يتميز بالاتكالية المتبادلة..)^(٢)

وبناء عليه فإننا يمكن أن نُبيّن بعض حسنات التطور المعاصر كما يراها الغربيون أنفسهم:

١. القضاء على السلطة المجتمعية التقليدية.

٢. فقدان الخصوصية وزيادة العزلة.

٣. فقدان المقياس والمنظور الإنساني تماماً.

(١). (المستقبلية: ص ٣٠)

(٢). (ن م: ص ٣١)

٤. تجريد الحياة الاجتماعية من إنسانيتها، ورفض حتى الوضع البيولوجي - النفسي للإنسان.
٥. زيادة سلطة الحكومة بمراقبة خصوصيات الأفراد.
٦. تراكم أسلحة الدمار الشامل وازدياد انتشارها.
٧. نمو النظم الإدارية أو التقنية، وهي دائما معرضة للسقوط، والمخادعة، والاحتيال.
٨. خلق قدرات جديدة تهدد بالمخاطر والإساءات الخطيرة.
٩. تسارع التغيرات بسرعة كبيرة ومفاجئة وعنيفة ولذا فهي لا تسمح بالتكيف والتلاؤم الناجح معها.

قيمة الإنسان الحقيقية

تلك هي معطيات التقدم والتطور التقني الهائل على الحياة برمتها تلغي الإنسانية، وتقتل الضمير، وتمنع الدين، وتُحرِّم الخُلُق القويم، فيكون الإنسان كقطعة إلكترونية، أو عنصر في لوحة أو دارة صغيرة إن كان صالحاً تُرك، وإن تعطل رُمِيَ به في سلة المهملات دون النظر إلى أهميته فقد فَقَدَ صلاحيته في الحياة.

وقيمة الإنسان - بالحقيقة - ذاتية نسبية، لأن ربنا سبحانه هو الذي أعطاه هذه القيمة في الحياة، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)

أي جعلناه مخلوقا ذا كرامة ذاتية، وذا كرامة كونية لأن الخالق خلق الأشياء كلها خادمة لهذا الإنسان، وخلق الإنسان خادما لربه مطيعا لمولاه فقط قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١)

وبالحديث القدسي: «عبدني خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي، وهبتك الدنيا بالإحسان، والآخرة بالإيمان» (٢)

وفي رواية: «أطعني بما أريد أطيعك بما تريد».

وكان فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام «قل لعبادي: لم أخلقكم لاربح عليكم ولكن لتربحوا عليّ» (٣).

ورسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «في صحف موسى بن عمران عليه السلام: يا عبادي إنني لم أخلق الخلق لاستكثر بهم من قلة، ولا لأنس بهم من وحشة، ولا لاستعين بهم على شيء عجزت عنه، ولا لجر منفعة ولا لدفع مضرة، ولو أن جميع خلقي من أهل السماوات والارض اجتمعوا على طاعتي وعبادتي لا يفترون عن ذلك ليلا ولا نهارا ما زاد ذلك في ملكي شيئا، سبحانه وتعالى عن ذلك» (٤).

فالله تعالى غني بالمطلق، والإنسان فقير ومحتاج لخالقه ورازقه في كل شيء، ولكنه مخلوق بفطرة مميزة وسليمة: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً

(١) - (الذاريات: ٥٦)

(٢) - (كلمة الله للسيد الشهيد السعيد حسن الشيرازي: ص ١٥٩ عن مشارق أنوار اليقين للبرسي)

(٣) - (شجرة طوبى: ج ٢ ص ٢٥٤، وإرشاد القلوب للدليمي)

(٤) - (بحار الأنوار للشيخ المجلسي: ج ٥ ص ٣١٣، كلمة الله للسيد حسن الشيرازي: ص ١٥٩ عن علل الشرائع للصدوق).

فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِلَّهِ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي الْقَيْمُ وَلَكِنْ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾

وهي فطرة التوحيد والطاعة والعبادة لله تعالى، فليس من طبيعة الإنسان السوي الخروج عن هذا الإطار المرسوم له من خالقه ولكن العالم اليوم يمسح الإنسان من طبائعه الأصلية ويضع مكانها الخصال النفعية والميكانيكية، ويغرس فيه الأنانية، وحب الذات، هذا إذا علمه الحب وغالباً يتركه بلا نوازع خيرة فيه ليكون لا يعرف معنى الرحمة، والرافة، والإنسانية، ولا حتى يشعر بالآخرين من حوله، فتحول إلى أقل أنواع الحيوانات وهو أرقى المخلوقات على الإطلاق.

ولقد غرس الله سبحانه فيه نوازع وحاجات ضرورية لتكامله ونموه عقلياً وعلمياً وفيزيولوجياً، ومن تلك الحاجات الضرورية:

الحاجات الفيزيولوجية: فكل ما يحتاجه الإنسان ليقبى على قيد الحياة من طعام وشراب ولباس ومأوى وراحة.

الحاجات للأمن والأمان: حين يُلبّي الإنسان حاجاته الضرورية فإنه يحتاج لحمايتها والاحتفاظ بها لتستقر حياته.

الحاجات الاجتماعية: قيل أن الإنسان مخلوق اجتماعي، وحين يصبح محيط الإنسان أكثر استقراراً يسعى ليكون جزءاً من شيء أكبر منه (المجتمع) فهو يريد أن ينتسب ويشارك ويعطي ويتلقى المحبة والصداقة مع الآخرين.

الحاجات الذاتية: فالناس يريدون أن يحسوا بالرضا عن أنفسهم، وأن يكونوا واثقين بذواتهم، يحترمون ويحترمون.

الحاجات الشخصية: فالإنسان بحاجة للنمو والتطور وتكامل الذات وتحقيق الشخصية المستقلة كإنسان حر له قيمة.

الحاجات الروحية (الدينية): لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش في هذه الحياة بلا انتماء عقائدي وتعلق روحي تأوي نفسه وروحه إليه عند الاضطراب والقلقلة والمرض والضيق.. فالإنسان اللا منتمي يشعر بالضياح في الحياة وما أتعس الإنسان الضائع الذي لا يهتدي إلى سبيل يدلّه على النجاة.

وتلبية هذه الحاجات ضرورة ملحة لتنمية الإنسان السوي وأي نقص بحاجة من هذه الحاجات يشعر الإنسان بنقص في الشخصية فما رأيك بالحضارة اليوم التي سلبتها كلها؟

فالحضارة الرقمية حولت الإنسان إلى صفر لا قيمة له لأن القيمة الحقيقية والاعتبارية للمكان الذي يشغله في الآلة الإدارية أو الصناعية فتلك تكون الرقم واحد وهو الرقم صفر، وأحياناً يكون أمام فتكون له قيمة وأحياناً يكون خلف فلا قيمة له.. ولنعطي بعض الأمثلة على الواقع الإنساني وما ضيعت الحضارة من قيم يحتاجها الإنسان ليحقق ذاته ويعيش سعيداً.

﴿ فقدان الوقت: لا وقت لدي، كل شيء يمضي بسرعة، ووقتي لا يسمح لي.. تلك هي عبارات الكبير والصغير الآن، وذلك بسبب أساليب الحياة المعاصرة المعقدة، فبات الناس يفتقرون للوقت لفعل أي شيء خارج البرمجة اليومية لهم، وتلك هي حياة الروبوت لا الإنسان الحي..

والوقت مهم جداً فهو «كالسيف إن لم تقطعه قطعك»^(١) فأنت العامل فيه لا العكس.

فقدان التعارف الاجتماعي: مجال التعارف الاجتماعي تدنت إلى أخفض مستوياتها الآن، فإما تعارف عن طريق المدرسة والجامعة أو عن طريق الحاسوب والشبكة العنكبوتية نت.. وإن خرجت عن هذا الإطار فهي تقع بما هو أسوء فيتعلق الناس بما يسمونه اليوم (بنجوم الفن) من خلال التلفاز أو الجرائد والمجلات فحولت هؤلاء الساقطين وتلك الساقطات إلى قدوات وأية قدوات سافلة وسيئة.

فقدان العلاقات الإنسانية (كالحب والصدقة): هذه تكاد تكون معدومة في المجتمعات الحضارية، فاقتصروا الحب بالفعل الحيواني العابر مع المرأة أو الرجل لا يهم عندهم، وأعدموا الصداقة بالمقصلة لعدم الحاجة إليها لأنها مضيعة للوقت ولا مصلحة أو فائدة منها.

عدم الاستقرار: فطبيعة الحياة الآن ليس فيها استقرار في مكان بحيث تبدأ رحلة الدراسة من عمر أربع سنوات وتستمر إلى ما شاء الله لهذا الإنسان وهو يتنقل ما بين المحابر والمخابر، أو ما بين المراجع والمصانع، أو ما بين المكاتب والمشافي إلى أن يزور المقابر فهو لا يستقر في مكان، وإن استقر فهو لا يعرف من يعيش معه في نفس البناية أو المنزل.. هذا عدا عن الحي أو الحارة أو المحلة التي يسكنها.

فقدان الاحترام المتبادل: لقد فقدنا الاحترام المتبادل فيما بيننا وفقدنا أخلاقيات المجتمع من تواصل وتبادل للتحية والسلام والحب والوئام، فيخرج الإنسان من بيته يكاد لا يجد مَنْ يُسَلِّم عليه أو يلقي عليه

(١) - آداب المتعلمين : ج ٧٣، عن منازل السائرين (ص ٣٩٩).

تحية الصباح، واللطف أن بعض المتحضرين إذا سلمت عليه يستغرب منك وربما سألك خيراً لماذا تُسلم عليّ.. أمر خدمة.. ومن أين تعرفني لتسلم عليّ؟

فقدان السلطة الشخصية: يريد الإنسان أن يكون له بعض السلطة على أشياءه، وأهله وزوجته وأولاده، وأغراضه.. إلا أن الحياة المعاصرة لم تترك له أي حق بأبسط الأشياء وأتفه الحقوق كأن يربي ولده كما يريد هو، لا فعليه أن يربيه كما تريد الدولة أو الحكومة.. يريد أن يفكر، أن يصنع، أن يلعب، أن يتصيد، أن يبني، أن يبكي.. براحتة وكما يريد ويرغب لا كل ذلك ممنوع عليه إلا برخصة رسمية يدفع ضريبتها.

فقدان الحكمة: فمن أين ستأتي الحكمة إذا لم يكن هناك مجتمع وتجارب اجتماعية ناجحة وفاشلة.. فالإنسان بحاجة في كثير من الأوقات للحكمة ليتخذ قراراً مصيرياً فلا هو يستطيع وليس هناك من أحد يستشير به إلا أصحاب المكاتب الذين فتحوا مكاتب لبيع الكلام.. ألا ترى كم الحياة المعاصرة عقيمة بالحكماء حتى على المستوى العالمي؟

فقدان المعاني الروحية: الأديان عامة ترشد الإنسان إلى السمو والتكامل والرفعة وهو ما نطلق عليه بتزكية النفس وتطهيرها من الأمراض النفسية والمعنوية ليعيش الإنسان سليم القلب صافي اللب نقي الثوب خلياً من العيب.. وهذا ما جعل أمراض الحضارة المعاصرة نفسية بدرجة أولى وذلك بسبب الخواء الروحي الذي جعل من الإنسان بلا هدف ولا انتماء فتحوّلت حياته إلى جحيم لا يطاق.

فقدان الأمل: فلولا الأمل لبطل العمل - كما في الرواية - والإنسان لا يستطيع العيش بلا أمل، ولا أحلام، ولا عالم جميل يسعى إليه.. وكل هذا الذي وصل إليه الإنسان اليوم هو نتيجة طبيعية لأحلام آباءه وأجداده القدماء من السعي للسعادة وتطوير الحياة ولذا قالوا قديما: الحاجة أم الاختراع.. فحاجة الإنسان للراحة والسعادة هو ما دفعه لتحقيق هذه الحضارة التي نسيت أهلها، وتنكرت للمعروف لهم، فغدا الحلم مصيبة، والأمل جريمة لأن مجرد التفكير بالمستقبل يحتاج إلى إذن مسبق وإذا فكرت بما لا يتوافق مع المصالح الغربية والأمريكية بالخصوص فأنت إرهابي يجب أن تحارب ألم يفعلوا ذلك باليابان قديما وإيران حديثاً؟

المستقبل الذي نريد

صناعة المستقبل تحتاج إلى إرادة وهناك ثلاث إرادات متصارعة في حياة الإنسان يجب الانتباه إليها جيداً، هي:

١- إرادة عليا هي إرادة الله تعالى: تلك هي الإرادة الحقيقية في الوجود وكل إرادة غيرها اعتبارية، ولا قيمة للاعتبارية إذا لم تكن طولية مع الإرادة الإلهية فالعرضية زائلة حتماً.

٢- إرادتي أنا: وهي قوة الفعل والتركي في كإنسان خلقه الله ومنحه هذه القوة ليفعل ما أمره به وينتهي عما نهاه عنه، وإرادة الإنسان وعقله هو ما يميزه عن غيره من المخلوقات الأقل شأنًا من الإنسان حتماً.. لأن ربنا سبحانه أعطى الإنسان العقل للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والنور والظلمة.. وأعطاه الإرادة ليختار الحق والخير والنور ويترك الشر والباطل والظلام.

٣- إرادة الغير ال (أنت وهو): وهو كل صاحب إرادة حرة من بني جنسك ولكن غيرك.. فالإنسان ليس له أن يخضع لأحد غيره بما يسخط

الله فأمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك (أو خلقك) الله حراً»^(١).

فأنت مأمور بأن تكون عبداً للواحد الأحد فقط وحر أمام الكون كله والبشر جميعاً وكل ما عليك أن تُعطي كل ذي حق حقه، ولا تظلم أحداً من بني جنسك البشر، أو غيرهم من المخلوقات، ولهذا أشار أمير المؤمنين ومولى الموحدين عليه صلوات المصلين بقوله الشريف وموقفه المنيف ذاك الذي ندر نظيره من حكام البشر، فقد روي في نهج البلاغة الشريف هذه القصة المختصرة التي يرويها أمير المؤمنين ويعلق عليها:

(وَاللَّهِ لَأَنَّ أَبَيْتَ عَلِيَّ حَسَكِ السَّعْدَانَ مُسَهَّداً أَوْ أُجْرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَعَاصِياً لَشَيْءٍ مِنَ الْحَطَامِ وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلاً وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرُكُم صَاعاً وَرَأَيْتُ صَبِيَانَهُ شُعَثَ الشُّعُورِ غُبَرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعَظْمِ وَعَاوَدَنِي مُوَكِّداً وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَاتَّبَعُ قِيَادَهُ مُفَارِقاً طَرِيقَتِي فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبَرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيحَ ذِي دَنْفٍ مِنْ أَلْمَا وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مَيْسِمِهَا فَقُلْتُ لَهُ تَكَلَّتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَتَتُّنُ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعَبِيهِ وَتَجْرُنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِعُضْبِهِ أَتَتُّنُ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَتُنُّ مِنْ لَظَى وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقُ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَعَانِهَا وَمَعْجُونَةٍ سَنَنْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرَبِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا فَقُلْتُ أَمْ صَلَّةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ

(١) - نهج البلاغة: الكتاب ٣١، تحف العقول: ٧٧، عيون الحكم والموعظ: ٩٥٧٩/٥٢٦؛ ينابيع

المودة: ٧١٠/٢٥٣/٢ وج ١٠/٤٤١/٣.

صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَالَ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ فَقُلْتُ
 هَبْلَتِكَ الْهُمُولُ أَعَنْ دِينَ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتُخَدَعَنِي أَمْ مُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ
 تَهْجُرُ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَيَّ أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ
 فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ
 فِي فَمٍ جَرَادَةٍ تَقْضُمُهَا مَا لِعَلِّي وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ
 الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ..^(١)

وبناء على ذلك نرى بأن المؤثر في الكون هي الإرادة ولكن بأية
 إرادة نتعامل مع الكون هل هي إرادتي، أم إرادتك، أم إرادة الله؟

الإرادة الفاعلة في هذا الكون هي إرادة الله العليا في الماضي
 والحاضر والمستقبل، وهي النافذة في كل شيء في هذا الكون ولا إرادة
 لأحد ولا لشيء إلا بعد إذنه وفي طول إرادته لأن التعارض أو العرض
 لإرادته تعالى ملغية ولا وجود لها، وأما أنا وأنت وأبناء البشر فإنهم
 نقطة في يَمٍ أو حبة من رمل في صحراء، ونحن عادة نقول: أنت تريد
 وأنا أريد والله يفعل ما يريد.. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)

وفي الحديث القدسي، أوحى الله إلى داود عليه السلام: «يا داود تريد وأريد
 * ولا يكون إلا ما أريد * فإن سلمت لما أريد أعطيتك ما تريد * وإن لم
 تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد * ولا يكون إلا ما أريد»^(٣)

(١) - نهج البلاغة: خ ٢٢٤، بحار الأنوار: ج ٤١ ص ٤١٢

(٢) - (يوسف: ٢١)

(٣) (كلمة الله بالشهيد حسن الشيرازي: ص ٥٥ عن البحار)

وبلغة المناطقة (إرادة الله تعالى ذاتية) وإرادة الغير (أنا وأنت) عرضية، فلا إرادة لنا إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته المباركة الخيرة، وبلفظه وعنايته بهذا المخلوق وكرامته عليه منحه العقل وأعطاه قسطا من الإرادة المحدودة في الزمان والمكان المحدود، فصار الإنسان ذا إرادة جزئية، ولكنها مضبوطة وليست مطلقة، وضوابطها الأوامر والنواهي الشرعية للمولى ﷺ، الذي أمر بالخير والمصلحة ونهى عن الشر والمفسدة.

فالإسلام شريعة سماوية، وضابطة كونية، لتصرفات البشر وبيان واضح لحقوق الجميع وواجباتهم، ولكن أصحاب المستقبلية يفتخرون بأنهم ألغوا الفكر الديني من المجتمع، وأبعدوا إرادة الله تعالى عن أنفسهم، وعن واقعهم، ومستقبلهم، هم يفتخرون بذلك ويعتبرونه إنجازا يستحقون به الإكبار والإعجاب منا.

ولم يدر أولئك المأفونين أنهم إنما يلغون أنفسهم، ويقصون حقيقتهم ويدفنون روحهم تحت أقدامهم الخشبية وشهواتهم الحيوانية.. لأن الله تعالى أعظم وأجل من أن تلغيه أنت يا كورنيس، كما لم يستطع سيدك لينين أو استالين من قبل أن يلغي الدين من الحياة فنفته الحياة إلى مزابلها بلحظات وصار عبرة للمعتبر، وأنتم لستم أفضل حالا منه ولكن الله تعالى يمدكم لتزدادوا طغياناً، وكفراً، وجحوداً، وتكون عاقبتكم متناسبة مع أعمالكم، وربنا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

فهذا الذي تراه وتتغطرس به ما هو إلا استدراج لكم، وتزيين من الشيطان اللعين الرجيم، وتسويل من أنفسكم الأمانة بالسوء، ولكن عواقب الأمور ليست كما تظنون أبدا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨١﴾﴾

في الكون حقائق، وأعظم وأجلى حقيقة فيه هو الله تعالى الخالق الرازق.. فكيف يسوغ لهم أن يلغوه من الحياة، ويقصوه من المجتمع الإنساني، أو يصادروا إرادته، ويطلقوا إرادتهم الشريرة كيف شاؤوا؟ فإذا قلت لهم الله تعالى.. قالوا: اتركنا من هذه الأساطير.

وإذا قلت لهم: العقيدة والدين.. قالوا: دعنا من هذا التخلف.

وإذا قلت لهم: الرسالة والنبوة.. قالوا: عظماء وعباقرة لا ننكرهم، غيروا البشرية ونحن لا نقل جدارة عنهم وسنغير العالم مثلهم.

وإذا قلت لهم: إنهم تحدثوا عن المستقبل البعيد في الدنيا والآخرة.. قالوا: نحن لا شأن لنا بالآخرة وأما في الدنيا فسنصنع المستقبل بأيدينا وكما نريد لا كما قال السيد المسيح قبل ألفي عام، أو محمد المصطفى قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن، فنحن في عصر الفضاء لا في زمن الأنبياء.

فإذا قلت لهم: وما الغضاضة وأين الغلط بأن تأخذوا من الأنبياء ما أخبروكم به عن المستقبل الذي أنتم سائرون إليه بأرجل من نار فلا أقل من أن تستفيدوا فتتجنبوا هذا الدمار لإنسانيتكم كلها.. قالوا: لا يمكن

لنا ذلك فإذا لم ندمر الآخرين ونقتلهم لن يسمحوا لنا بالسيطرة عليهم ومص دمائهم وأخذ خيراتهم.

لو قلت: فالقضية بهذا الشكل هي مستقبلكم أنتم وشعوبكم فقط، وما يهمكم هو ثراؤكم ونماء أموالكم ولو على حساب الآخرين، فأنتم تخططون ليس للبشرية أو للكرة الأرضية بل تخططون كيف ستسيطرون عليها وتنهبون خيراتها فقط.. لقالوا: نعم هذا صحيح تماما ألا يحق لنا أن ندافع عن مصالحنا ونسعى لتنمية قوتنا الذاتية ولا شأن لنا بالغير إلا بما يخدم تلك المصالح، فأنتم مسؤولون عن رعاية مصالحكم وتنمية مواردكم وحمايتها لا نحن.

هذا هو بالضبط منطلق المستقبليون الأمريكيان بالخصوص، يدمرون الحياة، ويقتلون البشرية، وينهبون الشعوب، ويثقبوا الأوزون، ويلوثوا المحيطات، ويفسدوا الأجواء بالبث الفضائي الداعر، ويغزوا المخادع بالشبكة العنكبوتية وينشروا فيها كل أنواع الفساد مما هبَّ ودب، ويفسدوا الأخلاق بالرذيلة، ويذبحوا القيمة والفضيلة بالدناءة والخسيسة، ويعبدوا الدين من الواقع ويعبدوا أصنامهم وأهواءهم، ويحاربوا الرحمن بالشیطان، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد.

وما أعظم القرآن الذي لخص لنا كل هذه الشرور بآية من كتاب الله تعالى قبل أكثر من ١٤٣٠/ عام، وهي: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿١﴾

نعم؛ لقد أفسدوا البلاد والعباد، وطغوا على أنفسهم، وبغوا على
المخلوق والخالق فهل هؤلاء يصنعن المستقبل أم يدمرونه؟

صناعة المستقبل النظيف

فالمستقبلية: هي علوم الزمن القادم، ولا يعلم الغيب إلا الله ومن علمهم الله علوم المستقبل الذي يريده الله لهذه البشرية لا الذي يريده الأمريكان لها.. فالله يريد لنا الخير والصلاح في الدنيا والجنة والرضوان في الآخرة.. والدراسة المعمقة والجيدة للظروف تساعدنا على التقدم والتطور والرقي بالأمم والشعوب ولكن يجب أن تكون على هدى من أمرها، وعلى بصيرة من ربها حتى لا تضل الطريق فتضيع في صحراء نيفادا القاتلة - وقلنا صحراء نيفادا لأن بعضهم لا يروقه حتى ذكر الصحراء العربية التي أنجبت لهم الحضارة الإسلامية المباركة - فالمسير على أي طريق بلا دليل خبير ينذر بالضياع والهلاك.

والحقيقة الدينية التي نؤمن بها، والعقلية التي نتحسسها في رؤوسنا تؤكد بأن الإنسان مسؤول، ومن ضمن مسؤولياته العمل الدؤوب لصنع مستقبله الذي يريده هو، وربنا سبحانه يقول: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾^(١)

كما أن ربنا سبحانه أمرنا بالعمل الجاد لصناعة الغد المشرق في الدنيا والمستقبل الرائع في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسَيْرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُونَ إِلَىٰ عَلِيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَدَةِ فَيُنْتَكِرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١)

واللطيف في آيات القرآن الحكيم تشعرك بأهميتك أنت وضرورة سعيك لبناء مستقبلك، ولكن برعاية رحيمة وإحاطة كريمة من الله ورسوله وهذا هو التسديد والتأييد الذي نرغب به ونرجوه في أعمالنا، لأن الإنسان وطبيعة الأشياء لا عصمة ذاتية لها عن الوقوع في الخطأ، أو الانحراف عن الصواب والعاصم من ذلك هو الله تعالى، والآيات تشعرك بهذه النفحات الرحمانية.

فمسؤولية الإنسان واضحة وجلية في صناعة المستقبل له ولأمتة وبلده الذي ينعم بالعيش على أرضه، وحفظه وحفظ ما عليه ومن عليه من بشر وحيوانات ونباتات وحتى الجمادات.. وهذا ما يعلمنا به ديننا الحنيف بتعاليمه المباركة، وتشريعاته السمحة، وقوانينه السهلة.. وليس علينا أن نستقي أو أن نتلقى أصول وأسس بناء المستقبل من كورنيش وزملاءه في المعاهد والإدارة الأمريكية فأولئك ليس عندهم إلا الشر لنا وللعالم من حولهم فما يهمهم مصالحهم فقط، والعالم مجال حيوي لنفوذهم وسيطرتهم ولا يفكرون إلا بهذه الطريقة الاستعمارية (والأجدر أن تسمى الإستهدامية) لأنهم ما فكروا يوماً بمصالح الشعوب وجل تفكيرهم باحتلال الشعوب ولا يُحتل شعب إلا بتدمير أرضه وقتل شعبه.

فالإسلام العظيم أعطانا مناهج لصناعة المستقبل للأجيال، وللأمة، وللعالم أجمع لأنه من الأمة الإسلامية في نهاية المطاف، وما على الباحث والمفكر إلا أن يرجع إلى الآيات القرآنية المباركة والأحاديث النبوية الشريفة ليعرف كم كان اهتمام الدين الحنيف بمسألة المستقبل الذي فطن إليه حاذقوا الغرب وفتاحلهم منذ سنوات معدودة فقط.

وأحيلك لكتاب واحد فقط ولن أتجاوزه إلى غيره من الكتب إنه كتاب (نهج البلاغة) الذي يضم بعض خطب وأقوال عظيم الإنسانية وبطل الإسلام الثاني بعد رسوله العظيم ﷺ عملاق العقل والفكر البشري أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ لتعرف كم في أقواله عن المستقبل، ولتأكد أن ما تحدث به ذاك الإمام العظيم لم نصل إليه اليوم ونحن نبتعد عنه أربعة عشر قرناً من الزمن، ونعيش في عصر الحضارة الرقمية، أو العولمة المادية.. وعباقرة المستقبلية اليوم يقسمون الزمن إلى مراحل هي:

- ١- الآن: الزمن الحاضر (وهو حتى سنة من الآن فقط).
- ٢- الزمن القريب: (من سنة وحتى خمس سنوات من الآن).
- ٣- الزمن المتوسط الأمد: (من خمس وحتى عشرين سنة).
- ٤- الزمن بعيد الأمد: (من عشرين حتى خمسين سنة من الآن).
- ٥- الزمن البعيد: (وهو ما فوق الخمسين عاما من الآن).

إذا كان عباقرة المستقبلية اليوم جُل اهتمامهم مُنصبَّ على الزمن المتوسط الأمد (أي حتى عشرين سنة) إذ أنه مَنْ يستطيع أن يتنبأ ماذا سيحدث بعد عقدين من الزمن في عصر التغيير اللحظي؟ إلا أن أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ تحدث لنا كثيراً عن الملاحم والفتن

في آخر الزمان، ولا ندري ربما تكون بعد ألفي عام وربما تزيد أو تنقص.. فراجعها لتتقين بأن الإسلام هو الحل وليس الديمقراطية النووية الأمريكية، وأن عظماء العالم هم رجال الفكر الإسلامي وأئمة وليس شواذ أمريكا من مجرمي شيكاغو، ودواعر هوليدود، وسواقط الدنيا الذين اجتمعوا هناك يخططون لتدمير العالم، ولن يدمروا إلا أنفسهم بإذن الله تعالى كما فعل (غورباتشوف) بالشيوعية، وصدق ربنا حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورَثُ﴾^(١)

وهذا من أمثال القرآن العجيبة وكم هي منطبقة على أولئك المجرمين من طغاة الغرب المتغطرس الذي طغوا في البلاد وبغوا على العباد: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢)

نعم صحيح ما يقوله الدكتور الشريف: «إن الاستشراف مهارة عملية تهدف لاستقراء التوجهات العامة في حياة البشرية.. فما نقوم به يكون له التأثير المباشر في جعل إمكانات إمساكنا بمسارات حياتنا أفضل..»
ويضيف: « الاستشراف أو دراسة المستقبل، أصبح فعلياً واحداً من علوم الإنسان والمجتمع المعتمدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة، يُدرّس في جامعات عدّة، كما أصبح له العديد من المؤسسات ومراكز الأبحاث». فعلياً أن نتعلم كيف يفكرون، ونفكر بطريقة حضارية إسلامية حقيقية، لا أن نترك لهم أعنتنا ليسوقونا إلى حيث شاؤوا، أو أن نجلس ونقول لهم فكروا لنا كيف نصنع مستقبلنا فهذا ما لن

(١) - (فاطر: ١٠)

(٢) - (الأنعام: ١٢٣)

يكون فعدوك لا يحبك ولا يودك ولا يفكر إلا بما يذلك ويهينك، وربما
يبيدك ويهلكك.

المستقبل صناعة الفكر لا الكفر

إن أول ما أمرنا به ربنا تعالى هو العلم بقوله سبحانه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾^(١)

فأنت بعلمك، وفكرك، وقراءتك، وفهمك إنسان فاعل في هذه الحياة، و(إن كل مفكر أو كل إنسان يستطيع السير بالتفكير، بسرعة أكبر من السرعة التي تجرى فيها الأحداث في الواقع، فانه يتخيل أو يتوقع المستقبل، وكذلك يستطيع السير إلى الماضي عن طريق عكسه الأحداث أو التحليل، فهو يستطيع أن يعرف «أي يتنبأ» بالأحداث أو نتائج تفاعلات بين أشياء أو بين بُنَيَات، حدثت في الماضي أو سوف تحدث في المستقبل، وكذلك يستطيع أن يتنبأ بحوادث أو تفاعلات لم يتأثر إلا بجزء قليل منها، فهو يكمل ما ينقصه ويضع تصور لتلك الحوادث.. فهو يقوم بوضع سيناريو لما يمكن أن يكون حدث في الماضي، أو ما سوف يحدث في المستقبل، وتزداد دقة السيناريو الذي يضعه للمستقبل أو للماضي باستمرار لتقترب من الواقع الفعلي لهذا

المستقبل أو ذلك الماضي.. والسيناريو شائع جداً، فهو ببساطة سلسلة من الأحداث التي نتصورها أنها تجرى في المستقبل.

ويمتلئ تفكيرنا اليومي باقتحامات بسيطة لغامض عالم الغد أو الأسبوع التالي أو السنة الآتية، وهي جميعها سيناريوهات وإن كانت سيناريوهات بسيطة مختزلة إلا أنها لا يخلو منها إنسان سوي.. ويبدأ السيناريو حين نسأل مثلاً: «ماذا يحدث إذا وقع هذا الحادث أو ذاك؟»، أو «ماذا سيحدث إذا ذهبنا في المساء إلى المسجد وحضرنا المولد الشريف؟»

ونحن ما أن نطرح السؤال نبدأ نتصور شتى صور الحدث التي يمكن أن تحدث.. وفي عقولنا ربما نظور عدداً كبيراً من السيناريوهات في كل مرة نفكر في مشروع أو قضية.. فالسيناريو أو التفكير المستقبلي يمكن أن يمنحنا فرصة النجاة من وضع سيء محتمل، أو تحقيق فرصة رائعة.. فالتفكير المركز يركز الأفكار وينوع الخيارات ويوضح المواقف.

فهذا التنبؤ أو السيناريو الذي تمّ تصوّره يمكن أن يكون له تأثير كبير على حياتنا، فكل تنبؤ مستقبلي يكون له تأثيرات على الحاضر، فهذا المستقبل المتصور أو المتخيل وإن كان أفكار يتفاعل مع الحاضر ويؤثر فيه، فالتفكير والتنبؤ المستقبلي له تأثيراته وهي أكبر بكثير مما نتصور فالعقائد والأديان والفلسفات كان تأثيرها الكبير جداً وذلك لسببين هما:

١- معالجة الموروث من العادات والتقاليد الباطلة.

٢- إعطاء رؤية مستقبلية جميلة لعالم الغد المشرق.

تلك الأفكار الحضارية التي رفضت العادات الباطلة وبشرت بمستقبل إنساني جميل يحلم به.. تلك هي نتيجة الرؤيا المستقبلية لأفكارها، وهى الأفكار والمبادئ والتوجهات التي قامت عليها الحضارات العقائدية.

فهذه الأفكار راحت تعمل إما على دفع الأحداث لتسير حسب السيناريو المتخيل وتساهم في تحقيقه، أو تعمل العكس إذا عكس اتجاهها رعاتها، حين يسيطر عليها أعداؤها كما هو الحال في الأديان السماوية الثلاثة اليوم، فالإسلام في حياة رسول الله ﷺ هو كان المحور، والقرآن ينزل عليه فيفسره لهم ويشرحه ويبين مراد الله تعالى من آياته، ولكن قبل أن ينتقل الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى عكست الرياح فصارت نظرية (إن نبيكم يهجر.. حسبنا كتاب الله) هي المتحكمة بزمام الأمور، ولذا جلس أولى الناس بالناس في بيته ربع قرن من الزمن، ولما أجبوا نار الفتن جاؤوا إليه مبايعين، ولكن عندما لم يسلمهم المناصب ويعطيهم بيوت الأموال جردوا عليه السيف وقتلوه

(١) - وهي المقولة التي جوبه بها الرسول الأعظم ﷺ يوم الخميس حين أراد أن يكتب وصيته فمنعه عمر بن الخطاب بهذه المقولة، كما في البخاري ح ٥٦٦٩ - حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ مَعْمَرٍ وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الرَّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ لَمَّا حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَفِي النَّبِيِّتِ رَجَالٌ فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - «هَلَمْ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ» . فَقَالَ عُمَرُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ فَاخْتَلَفَ أَهْلُ النَّبِيِّتِ فَاحْتَضَمُوا، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرَّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ النَّبِيُّ ﷺ - كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ قَالَ عُمَرُ فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالْإِخْتِلَافَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « قَوْمُوا » . قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ إِخْتِلَافِهِمْ وَلَقَطِهِمْ .

بحروب متواصلة ولم يدعوه حتى أردوه شهيداً في محراب عبادته، ففاز ورب الكعبة، وخسروا الحضارة النورانية، والمستقبل.

لأنه ذاك العملاق العظيم في هذه الدنيا الذي كان يقول لهم «سلوني قبل أن تفقدوني» مراراً وتكراراً، فعن الأصبع بن نباتة: لما جلس عليّ ﷺ في الخلافة وبايعه الناس خرج إلى المسجد متعمماً بعمامة رسول الله ﷺ لابساً بردة رسول الله ﷺ، منتعلاً نعل رسول الله ﷺ، متقلداً سيف رسول الله ﷺ فصعد المنبر فجلس ﷺ عليه متمكناً، ثم شبك بين أصابعه فوضعها أسفل بطنه، ثم قال: « يا معاشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفظ العلم، هذا لعاب رسول الله ﷺ، هذا ما زقني رسول الله ﷺ زقا زقا، سلوني فإن عندي علم الاولين والآخرين، أما والله لو نثيت لي وسادة فجلست عليها لافتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة، فتقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ. وأفتيت أهل الانجيل بإنجيلهم حتى ينطق الانجيل، فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ. وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن، فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ.. وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟ ولولا آية في كتاب الله ﷺ لاخبرتكم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِي وَيَعْنَدُهُ أُمَّ الْكِتَابِ﴾^(١)

ثم قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتهموني عن أية آية في ليل انزلت أو في نهار انزلت، مكيتها ومدنيها،

سفريها وحضريها، ناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لا خبرتكم».

فقام إليه رجل يقال له ذعلب، وكان ذرب اللسان، (فصيح فاحش) بليغاً في الخطب، شجاع القلب فقال: لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاة صعبة لاخجلنه اليوم لكم في مسألتني إياه، فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟

فقال: «ويلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد ربالم أراه».

قال: فكيف رأيته؟ صفه لنا.

قال عليه السلام: «ويلك لم تره العيون بمشاهدة الابصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الايما، ويلك يا ذغلب إن ربي لا يوصف بالبعد ولا بالحركة ولا بالسكون، ولا بقيام قيام انتصاب، ولا بجيئة ولا بذهاب، لطيف اللطافة لا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة، مؤمن لا بعبادة، مدرك لا بمجسة، قائل لا بلفظ، هو في الاشياء على غير ممازجة، خارج منها على غير مباينة، فوق كل شيء ولا يقال شيء فوقه، أمام كل شيء ولا يقال له أمام، داخل في الاشياء لا كشيء في شيء داخل، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج».

فخر ذعلب مغشياً عليه فقال: تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب، والله لاعدت إلى مثلها.

ثم قال عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني».

فقام إليه الأشعث بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين كيف تؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبي؟

فقال: بلى يا أشعث قد أنزل الله تعالى عليهم كتابا وبعث إليهم نبيا، وكان لهم ملك سكرذات ليلة فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبتها، فلما أصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابها فقالوا: أيها الملك دنست علينا ديننا فأهلكته، فاخرج نظهرك ونقم عليك الحد.

فقال لهم: اجتمعوا واسمعوا كلامي فإن يكن لي مخرج مما ارتكبت وإلا فشانكم، فاجتمعوا فقال لهم: هل علمتم أن الله ﷻ لم يخلق خلقا أكرم عليه من أبينا آدم وامننا حواء؟ قالوا: صدقت أيها الملك.

قال: أفليس قد زوج بنيه بناته وبناته ومن بنيه؟

قالوا: صدقت هذا هو الدين فتعاقدوا على ذلك، فمحا الله ما في صدورهم من العلم، ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب، والمنافقون أشد حالا منهم.

فقال الأشعث: والله ما سمعت بمثل هذا الجواب والله لا عدت إلى مثلها أبدا.

ثم قال: سلوني قبل أن تفقدوني.

فقام إليه رجل من أقصى المسجد متوكيا على عكازة فلم يزل يتخطي الناس حتى دنا منه.

فقال: يا أمير المؤمنين دلني على عمل إذا أنا عملته نجاني الله من النار.

فقال له: اسمع يا هذا ثم افهم ثم استيقن، قامت الدنيا بثلاثة: بعالم ناطق مستعمل لعلمه، وبغني لا يبخل بماله على أهل دين الله ﷻ، وبفقير صابر. فإذا كتم العالم علمه وبخل الغني ولم يصبر الفقير فعندها الويل

والثبور، وعندها يعرف العارفون الله، إن الدار قد رجعت إلى بدنها - أي إلى الكفر بعد الايمان - أيها السائل فلا تغترن بكثرة المساجد وجماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتى، أيها الناس إنما الناس ثلاثة: زاهد، وراغب، وصابر، فأما الزاهد فلا يفرح بشئ من الدنيا أتاه ولا يحزن على شئ منها فاته، وأما الصابر فيتمناها بقلبه فإن أدرك منها شيئا صرف عنها نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها، وأما الراغب فلا يبالي من حل أصابها أم من حرام.

قال: يا أمير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزمان؟

قال: ينظر إلى ما أوجب الله عليه من حق فيتولاه، وينظر إلى ما خالفه فيتبرء منه وإن كان حبيبا قريبا.

قال: صدقت والله يا أمير المؤمنين. ثم غاب الرجل فلم نره فطلبه الناس فلم يجده، فتبسم علي عليه السلام على المنبر، ثم قال: مالكم هذا أخي الخضر عليه السلام.

ثم قال عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني، فلم يقم إليه أحد..^(١)

وعن الاصبغ بن نباتة قال: خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين جوانحي علما جما.

فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروا؟

قال: «الرياح».

قال: فما الحاملات وقرأ؟

(١) - (بحار الأنوار للشيخ المجلسي: ج ١٠ ص ١٢٠)

قال: «السحاب».

قال: فما الجاريات يسرا؟

قال: «السنن».

قال: فما المقسمات أمرا؟

قال: «الملائكة».

قال: يا أمير المؤمنين وجدت كتاب الله ينقض بعضه بعضاً.

قال: «ثكلتك امك يا ابن الكواء كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً، فسل عما بدالك».

قال: يا أمير المؤمنين سمعته يقول: (رب المشارق والمغرب)، وقال في آية اخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ﴾، وقال في آية اخرى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾.

قال: «ثكلتك امك يا ابن الكواء هذا المشرق وهذا المغرب. وأما قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ﴾ فإن مشرق الشتاء على حدة، ومشرق الصيف على حدة، أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها؟ وأما قوله: (رب المشارق والمغرب) فإن لها ثلاث مائة وستين برجاً تطلع كل يوم من برج وتغيب في آخر ولا تعود إليه إلا من قابل في ذلك اليوم».

قال: يا أمير المؤمنين كم بين موضع قدمك إلى عرش ربك؟

قال: «ثكلتك امك يا ابن الكواء سل متعلماً ولا تسأل متعنتاً، من موضع قدمي إلى عرش ربي أن يقول قائل مخلصاً: لا إله إلا الله».

قال: يا أمير المؤمنين فما ثواب من قال: لا إله إلا الله؟

قال ﷺ: «من قال مخلصا: لا إله إلا الله طمست ذنوبه كما يطمس الحرف الاسود من الرق الابيض، فإذا قال ثانية: لا إله إلا الله مخلصا خرقت أبواب السماوات وصفوف الملائكة حتى يقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة الله، فإذا قال ثالثة: لا إله إلا الله مخلصا لم تنهه دون العرش، فيقول الجليل: اسكني فوعزتي وجلالي لا غفرن لقائلك بما كان فيه، ثم تلا هذه الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يعني إذا كان عمله خالصا ارتفع قوله وكلامه».

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قوس قزح؟

قال: «ثكلتك امك يا ابن الكواء لا ثقل: قوس قزح فإن قزح اسم شيطان، ولكن قل: قوس الله، إذا بدت يبدو الخصب والريف».

قال: أخبرني يا أمير المؤمنين عن المجرة التي تكون في السماء.

قال: «هي شرج السماء وأمان لاهل الارض من الغرق، ومنه أغرق الله قوم نوح بماء منهمر».

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن المحو الذي يكون في القمر.

قال ﷺ: «الله أكبر الله أكبر رجل أعمى يسأل عن مسألة عمياء، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا آلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتِينَ فَمَحُونًا آيَةَ آلِيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾؟»

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ.

قال: «عن أي أصحاب رسول الله تسألني؟»

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن أبي ذر الغفاري.

قال عليه السلام: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ذالجهة أصدق من أبي ذر».

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن سلمان الفارسي

قال: «بخ بخ، سلمان منا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم، علم علم الاول وعلم الآخر».

قال: يا أمير المؤمنين فأخبرني عن حذيفة بن اليمان.

قال: «ذاك امرؤ علم أسماء المنافقين، إن تسألوه عن حدود الله تجدوه بها عارفا عالما».

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن عمار بن ياسر.

قال: «ذاك امرؤ حرم الله لحمه ودمه على النار وأن تمس شيئا منهما».

قال: يا أمير المؤمنين فأخبرني عن نفسك

قال: «كنت إذا سألت اعطيت، وإذا سكت ابتديت».

قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

قال: «كفرة أهل الكتاب: اليهود والنصارى، وقد كانوا على الحق فابتدعوا في أديانهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.. ثم نزل عن المنبر وضرب بيده على منكب ابن الكواء ثم قال: يا ابن الكواء وما أهل النهروان منهم ببعيد.»^(١)

(١) - علماً بأن النهروان لم تكن قد وقعت، وابن الكواي ممن قتل بها كما في الرواية نفسها فتدبر وتفكر واعتبر واحذر من سوء العاقبة.

فقال: يا أمير المؤمنين ما أريد غيرك ولا أسأل سواك.

قال (الراوي): فرأينا ابن الكواء يوم النهروان، فقيل له: ثكلتك امك، بالامس كنت تسأل أمير المؤمنين عليه السلام عما سألته وأنت اليوم تقاتله!
فرأينا رجلاً حمل عليه فطعنه فقتله.^(١)

فالإمام علي عليه السلام هو الذي كان يقول: «أنا الذي علمت علم المنايا والبلايا والقضايا، وفصل الخطاب والأنساب».

وعنه عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، ألا تسألون من عنده علم المنايا والبلايا والأنساب؟»

وعنه عليه السلام: «عندي علم المنايا والبلايا، والوصايا والأسباب، وفصل الخطاب، ومولد الإسلام، وموارد الكفر، وأنا صاحب الميسم، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب الكرات ودولة الدول، فاسألوني عما يكون إلى يوم القيامة، وعما كان على عهد كل نبي بعثه الله».

وعنه عليه السلام: «اندمجت على مكنون علم لو بحث به لاضطربتم اضطراب الأرشية (الحبال) في الطوي (البئر) البعيدة (العميقة)».

وعنه عليه السلام: «وإن هاهنا لعلمنا جما - وأشار إلى صدره - ولكن طلابه يسير، وعن قليل يندمون لو فقدوني».

وعنه عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله علمني ألف باب من الحلال والحرام، ومما كان ومما يكون إلى يوم القيامة، كل باب منها يفتح ألف باب، فذلك ألف ألف باب، حتى علمت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب».

(١) - الاحتجاج: ١٣٨، بحار الأنوار للمجلسي جزء ١٠ ص ١٢٣

وعنه عليه السلام: «لقد فتحت لي السبل، وعلمت الأنساب، وأجرى لي السحاب، وعلمت المنايا والبلايا وفصل الخطاب»^(١).

ومن جملة خطبه صلوات الله عليه: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني أنا يعسوب المؤمنين وغاية السابقين ولسان المتقين وخاتم الوصيين وخليفة رب العالمين، أنا قسيم النار، أنا صاحب الجنان، أنا صاحب الاعراف أنا صاحب الحوض، إنه ليس منا إمام إلا وهو عارف بجميع ولايته، وأنا الهادي بالولاية».

ومن كتاب القائم للفضل بن شاذان عن صالح بن حمزة عن الحسن بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة: «والله إني لديان الناس يوم الدين: وقسيم الله بين الجنة والنار لا يدخلها داخل إلا على أحد قسيمي وأنا الفاروق الأكبر وقرن من حديد وباب الايمان وصاحب الميسم وصاحب السنين، وأنا صاحب النشر الاول والنشر الآخر وصاحب القضاء وصاحب الكرات ودولة الدول وأنا إمام لمن بعدي والمؤدي من كان قبلي، ما يتقدمني إلا أحمد عليه السلام، وإن جميع الملائكة والرسل والروح خلفنا، وإن رسول الله ليدعى فينطق، وادعى فأنطق على حد منطقه.. ولقد أعطيت السبع التي لم يسبق إليها أحد قبلي: بصرت سبل الكتاب وفتحت لي الاسباب وعلمت الانساب ومجرى الحساب وعلمت المنايا والبلايا والوصايا وفصل الخطاب ونظرت في الملكوت فلم يعزب عني شيء غاب عني ولم يفتني ما سبقني ولم يشركني أحد فيما أشهدني يوم شهادة الاشهاد، وأنا الشاهد عليهم وعلى يدي يتم موعد الله

وتكمل كلمته وبني يكمل الدين، وأنا النعمة التي أنعمها الله على خلقه، وأنا الاسلام الذي ارتضاه لنفسه، كل ذلك من من الله»^(١).

وعن زر بن حبيش قال: خطب علي عليه السلام بالنهروان فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس أما بعد أنا فقأت عين الفتنة لم يكن أحد ليجتزي عليها غيري - وفي حديث ابن أبي ليلى لم يكن ليفقأها أحد غيري - ولو لم أك فيكم ما قوتل أصحاب الجمل وأهل النهروان وأيم الله لولا أن تتكلوا وتدعوا العمل لحدثتكم بما قضى الله على لسان نبيكم صلى الله عليه وآله لمن قاتلهم مبصرا لضلالتهم عارفا للهدى الذي نحن عليه».

ثم قال: «سلوني قبل أن تفقدوني سلوني عما شئتم، سلوني قبل أن تفقدوني إني ميت أو مقتول بل قتلا ما ينتظر أشقاها أن يخضبها من فوقها بدم؟ وضرب بيده إلى لحيته. والذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تضل مائة أو تهدي مائة إلا نبأتكم بناعقها وسائقها».

فقام إليه رجل فقال: حدثنا يا أمير المؤمنين عن البلاء.

قال: «إنكم في زمان إذا سأل سائل فليعقل وإذا سئل مسؤول فليثبت. ألا وإن من ورائكم أمورا أتتكم جلا مزوجا وبلاء، مكلحا ملحا والذي فلق الحبة وبرئ النسمة أن لو قد فقدتموني ونزلت [بكم] كراهية الامور وحقايق البلاء، لقد أطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين وذلك إذا قلصت حربكم وشمرت عن ساق، وكانت الدنيا بلاء عليكم وعلى أهل بيتي حتى يفتح الله لبقية الابرار».

وروي أنه ﷺ كان ذات يوم على منبر البصرة إذ قال: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الارض».

فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له: أين جبرئيل في هذه الساعة؟

فرمى (رمقه: لحظه لحظاً خفيفاً. أطل النظر إليه.) بطرفه إلى السماء ثم رمق بطرفه إلى المشرق ثم رمق بطرفه إلى المغرب فلم يجد موطناً، فالتفت إليه، فقال: يا ذا الشيخ أنت جبرائيل.. قال: فصفق طائراً من بين الناس، فضج عند ذلك الحاضرون وقالوا: نشهد أنك خليفة رسول الله ﷺ حقاً. (١)

أو يقول ﷺ: «يا أيها الناس، إنّ العلم يقبض قبضاً سريعاً، وإنّي أوشك أن تفقدوني فسلوني، فلن تسألوني عن آية من كتاب الله إلاّ تنبأتكم بها، وفيما أنزلت، وإنكم لن تجدوا أحداً من بعدي يحدثكم».

ويقول ﷺ: «يا أيها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله ما بين لוחي المصحف آية تخفى عليّ فيما أنزلت، ولا أين نزلت، ولا ما عني بها».

وينصحهم بقوله ﷺ: «يا أيها الناس سلوني، فإنكم لا تجدون أحداً بعدي هو أعلم بما تسألونه منّي، ولا تجدون أحداً أعلم بما بين اللوحين منّي، فسلوني».

والإمام عليّ ﷺ، قال: «أنا الذي علمت علم المنايا والبلايا والقضايا، وفصل الخطاب والأنساب».

والإمام عليّ عليه السلام، قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، ألا تسألون من عنده علم المنايا والبلايا والأنساب».

وذلك لأن الرسول الأعظم كما في شواهد التنزيل عن أنس: قال النبي صلى الله عليه وآله: «عليّ يعلم الناس بعدي من تأويل القرآن ما لا يعلمون».

ورسول الله صلى الله عليه وآله قال: «معاشر الناس، هذا عليّ أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي في أمّتي على من آمن بي، ألا إنّ تنزيل القرآن عليّ، وتأويله وتفسيره بعدي عليه».

والإمام المعصوم يقول: «لم يجد جدّي أمير المؤمنين عليه السلام حملةً لعلمه حتى كان يتنفّس الصعداء، ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّ بين الجوانح منّي علماً جمّاً، ها هاه ألا لا أجد من يحمله».

وذلك لأنه جاء في الآثار أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يخطب فقال في خطبته: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها إلى يوم القيامة».

فقام إليه سعد بن ابى وقاص، فقال: أخبرني كم في رأسي ولحيتي من طاقة شعر؟

فقال: أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لقد حدثني خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله بما سألت عنه، وأن على كل طاقة شعر في رأسك ملكاً يلعنك، وعلى كل طاقة شعر في لحيتك شيطاناً يستفرك، (أو يغويك) وأن في بيتك سخلاً (عمر بن سعد) يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وآية ذلك مصداق ما خبرتك به ولولا أن الذي سألت يعسر برهانه لا خبرتك به، ولكن آية ذلك ما أنبأتك به من

لعتك وسخلك الملعون وَاكان ابنه (عمر بن سعد) في ذلك الوقت صبياً صغيراً يحبو»^(١).

نعم هذا كان حقاً وواقعاً وصدقاً عندنا عالم بعلم الله ورسوله، يقف بين ظهراني الأمة ويقول لهم «سلوني قبل أن تفقدوني»، فسألوه عن الذرة والمجرة فأجاب، وسألوه عن أعقد مسائل الحساب فأجاب بديهية، وسألوه عن العرش وما دونه فأجاب بما حير الألباب، وسأله العلماء تعلماً، والجهال تعنتاً فأجاب كل منهم بجواب العالم الخبير، حتى أن الله تعالى بعث إليهم أعظم ملائكته الكروبيين ليسأله بمجمعهم ويريهم بأم أعينهم، ويرسل إليهم سيدنا الخضر صاحب موسى الكليم ﷺ ليسأله عما يفيدهم في دنياهم وأخراهم، ويشجعهم ليسأله عن خير الدين والدنيا، إلا أنهم ويا للأسف كانوا جفاتها غلاظاً، قام إليه أحدهم وسأله عن شعر رأسه ولحيته، وثاني يسأله عن راحلته (بعيره أو حماره)، ولم يسألوه عن شيء ذا فائدة لهم وإن لم يفهموه، ولم يحفظوه أو يكتبوه لنا لندرسه ونستفيد منه منذ قرون.

واللطيف أن أحد علماء الغرب في العصور المتأخرة عندما قرأ بعض الشيء عن حكيم الشرق كما يسمونه، وهو أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ قال: «أنتم سبب تأخرنا أربعة عشر قرناً، فسألوه كيف ذلك؟ فقال: منذ ذلك الزمان كان لديكم رجل يقول لكم سلوني عن طرق السماوات فأنا أعلم بها من طرق الأرض، فيقوم جلفاً من أجلافكم فيسأله

كم شعرة في رأسه، وآخر عن راحلته، فلو سألتموه عن غزو الفضاء لأخبركم من يومها.. فأنتم سبب تأخرنا».

هكذا تُدفع الأحداث لتسير في اتجاه آخر غير الذي تريده العقيدة من معتنيها، نتيجة تأثيراتها على توجهات الذين يتبنونها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ونحن إذا نظرنا إلى غالبية هذه السيناريوهات التي وضعت للمستقبل المتخيل أو المتوقع نجد أن من قام ببنائها إنسان اعتمد على ما اكتسبه من معارف ومعلومات من مجتمعه وعلى دوافعه ورغباته وآماله، وهذه كانت تأثيراتها الأهم في تشكيل الأفكار والتخيلات المتوقعة للمستقبل.. فأفكار المستقبل الذي يُنظرون له هي بشرية محضة، وأما أفكارنا عن المستقبل فهي مستنيرة بهدى الرسالة الخاتمة وتوجيهات رسول الله ﷺ وأئمة الأمة وقادتها الربانيون.

إن غالبية المفكرين أو الكتاب «إن لم يكن كلهم» يميلون أو يسعون إلى فرض رؤياهم الخاصة عن المستقبل على غيرهم، إما أن يقولوا أن المستقبل سوف يكون جميلاً رائعاً، أو بشعاً مريعاً، أو غير ذلك مما يتوقعونه، ويقوموا بحشد البراهين التي تدعم وجهة النظر التي تبناها، ويضعوا السيناريو الذي يدعم رؤياهم، ويفرضونه على المتلقين.. فيقوم كل من هؤلاء بتبني ما يتفق مع ميوله ودوافعه وقيمه ويرفض ما لا يتفق معها، وغالباً يسعى لتحقيق السيناريو الذي اقتنع به وتبناه.. ويقسمون الناس إلى قسمين:

الأول: هم المحافظون؛ وهم الذين يحافظون على الموروث الفكري أي كأن ويعطونه الأولوية في قراءة الحاضر والمستقبل، ويكون مفهومهم للحاضر والمستقبل منحازاً للماضي، كماضي مقدس كالسلفية التي ابتليت بها الأمة والعالم مؤخراً.

والثاني: هم المجددون والمطورون؛ وهم يسعون دائماً للتغيير والتطور، ويكون مفهومهم للحاضر منحازاً للمستقبل الذي يتصورونه على هدى الآيات والروايات الواردة.. فالمستقبليون، من المؤمنين، هم مقتنعون تماماً أن الأفكار تستطيع إزاحة الجبال، ولذا فهم مهتمون جداً بالتنمية المنهجية للأفكار الحضارية.

أهمية الأفكار بصناعة المستقبل

لتكون حضارياً يجب أن يكون لك فكر حضاري، وتكون مستقبلياً يجب أن تتمتع بفكر مستقبلي، وتكون استراتيجياً عليك أن تفكر استراتيجياً وبعيد المدى - كما كان أمير المؤمنين علي عليه السلام - وتكون عملاقاً عليك أن تمارس رياضة الوقوف على أكتاف العمالقة من بني البشر كما قال نيوتن يوماً.

وبما أن المستقبل لم يصل إلينا - والصحيح أننا لم نصل إليه - بعد، فعلينا تصوّره، والمساعدة في صياغته ليكون لنا مكاناً تحت الشمس فيه، وعندما نصل إليه، أي لا بد من توليد أفكاراً وتصورات عمّا يمكن أن يحدث في المستقبل، ودراستها جيداً لأن تلك الأفكار المستقبلية أو الصالحة للمستقبل هي هامة جداً لتصور الغد الآتي، لأن التفكير أصلاً هو ما نضوغه من مفاهيم عن الماضي الذي حدث، والمستقبل الذي لم يأت بعد.. فالأفكار المخزنة هي أدوات العقل في التفكير، وبدونها يستحيل وجود أي فكر، ولكن لنا أن نقسمها إلى فئتين هما:

- المفاهيم العامة.

- النظريات العلمية.

والمفهوم هو نوع من الصور الذهنية ومخططات لشيء ما.. وأما النظرية فهي ترابط مفهومين أو أكثر لتبيان العلاقة المنطقية، وسبب الترابط بينها.

إن المفاهيم والنظريات هي نماذج ذهنية تساعدنا على استذكار ما حدث في الماضي وعلى تصور ما قد يحدث في المستقبل، ويتكون التفكير من مداورة مفاهيمنا، ونظرياتنا، وتقلبها بطرق شتى.. فحين نحلم أحلام اليقظة ندع مفاهيمنا تدخل وعينا بدون محاولة تركيزها على مشكلة محددة؛ ولكن حين نريد أن نحل مشكلة نسعى كي نعيد إلى وعينا تلك المفاهيم والنظريات المتعلقة بهذه المشكلة ونبدأ بالتفكير الجاد لحلها وذلك باستخدام ما لدينا من الخبرات المتراكمة سابقاً، إلى أن نكتشف حلاً فنطير فرحاً.

وهكذا تمضي بنا الحياة ونحن نعمل دائماً على تطوير أدوات أفكارنا، وكلما اكتسبنا أدوات جديدة أقوى وأفضل كلما ازدادنا حكمة في الحياة، وهذا ما يشعرنا بالثراء والغنى المعرفي فتسكن نفوسنا وتطمئن أرواحنا في أجسادنا لأننا نصبح أقوى من ذي قبل على مواجهة التحديات التي تعترضنا في الحاضر والمستقبل.

وقوة الأفكار وصوابها لا تعرف بوضوح دائماً، لأنها خفية ويصعب علينا تقييمها، ولكنها تمثل لنا مصدراً ثميناً جداً في ذاتنا، وللأسف فالعالم يهتم بالثروة المادية والغنى المالي وأقلاء هم الذين يبحثون عن الثراء المعرفي والعلمي وما نسميه بالحكمة، ولكن أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول لنا قبل قرون بحكمة ذهبية: «الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ الْعِلْمُ

يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزُكُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ
وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ»^(١)

فالعالم ذهب وراء الذهب وترك الحكم التي هي أغلى من الماس
والذهب فراحوا يتراكمون خلف الدنيا وما هي إلا سراب زائل، وفيء
مائل، والحرص عليها ليس من ورائه طائل، ولذا فالحكمة تسعدنا في
الحياة، ولو كنا في قعر السجون المظلمة، والجهل يشقيك ولو كنت
في البيت الأسود الأمريكي، وما أعظم الحكم التي نأخذها من عظماء
الإنسانية، كهذه الدررة التي نأخذها من الإمام الحسن السبط عليه السلام: «عجب
لمن يتفكر في مأكوله كيف لا يتفكر في معقوله؟! فيجنب بطنه ما يؤذيه
ويودع صدره ما يريد به؟»^(٢)

ولكن الغرب اليوم لا يهتم بما يضع في بطنه فأكثره من لحوم
الخنازير، وأبشع أنواع الحيوانات، ولا يهتم بما يضعه في صدره
لأنه لا يضع فيه إلا توافه الدنيا لأنه جحد بالله تعالى وأنكر تعاليم
الدين وأهمل تزكية الروح فصار خاوياً من كل فضيلة ومنطلقاً بلا
ضوابط قيمة كالبهائم في الغابات الاستوائية، فهل وجدت حكيماً من
الحيوانات في الغابات على مدى الأيام؟

وهكذا عقت أيامنا هذه عن استيعاب فكرة حكيمة هذا عدا عن
أن ينبج لنا حكيماً يخاطب عقل وفكر وقلب العالم الغربي كله
وينبهه لخطورة ما يقدم عليه حكامه من أعمال تدمر الكرة الترابية كلها

(١). نهج البلاغة: خ ١٤٧ وصيته لكميل بن زياد

(٢). كلمة الإمام الحسن عليه السلام السيد الشهيد حسن الشيرازي: ص بحار الأنوار / جزء ١ / صفحة

أكثر من مئات المرات، فلمن يفكرون، ولمن يصنعون المستقبل الذي يفكرون به إذا كانوا صادقين بأقوالهم، مسؤولين عن أعمالهم.

فرأس المال الثقافي أهم بكثير من رأس المال الاقتصادي كما يقرر علماءهم، لأن رأس المال المادي ينحصر ويحسب بالأرقام، وأما رأس المال الثقافي فهو أعظم أهمية وأكثر فائدة للعالم، ففكرة إيجابية تنهض بأمة بأكملها وأمامنا تجارب عظيمة بهذا الشأن فبعد الحرب العالمية الثانية التي حولت كل من ألمانيا واليابان إلى أشبه بالخراب والدمار.

ولكن لم تمض سنوات إلا والشعب الألماني، والشعب الياباني لم تتدمر ثقافته، ولم تتهدم أفكاره الحضارية، ولم يفقد توازنه وثقته بنفسه.. بل راح يفكر بإيجابية رائعة ويتجاهل السلبيات ولا يلتفت لكل مخلفات الحرب فقد تناساها تماماً، وتجاوزها بتفكيره بماضيه العريق، وتطلع لبناء مستقبله الذي يريده هو لا الذي يفرضه عليه الآخرون من الخارج، فرفض أمبراطور اليابان أن يلبس حذاءً إلا من صناعة بلده، وكذلك رفض المهاتما غاندي أن يلبس ثياباً إلا من صناعة يده وأهله فحرر الهند من الاستعمار البريطاني بنضاله، وهكذا نهضت ألمانيا، واليابان، والهند من تحت الركام فصارت قبلة الحضارة الإنسانية مادياً اليوم فغزوا أمريكا في قعر دارها وها هي البضائع اليابانية والهندية والصينية والألمانية تملئ الأسواق الأمريكية اليوم والأجمل من ذلك فإن معظم المرافق والشركات والتجارات والبنوك الأمريكية صارت لليابانيين الآن.

نعم؛ الأفكار الحضارية، تصنع ثقافة حضارية، والثقافة الحضارية تصنع أمة حضارية، والأمة الحضارية تبني حضارة تغزوا بها الإنسانية

كلها كما فعل أجدادنا في بداية انطلاقة الإسلام العظيم، الذين تلقوا القرآن الحكيم من أعظم الحكماء الرسول الأعظم ﷺ وراحوا يتسابقون للعمل به، وتطبيقه على واقعهم، فكانوا ينظرون للحياة بعينين منفتحتين الأولى إلى السماء، والثانية إلى الأرض.

عين ترقب نزول الآيات، وعين تصنع المعجزات.. بتلك المنهجية صنعنا الحضارة الإنسانية بالأفكار الإسلامية.

لأن الأفكار القوية تستطيع أن تغير العالم، وتخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، وبالتالي من الشقاء والتعاسة إلى السرور والسعادة ولكننا عندما ضعفت إرادتنا وضاعت أفكارنا، وحات عقولنا تهدمت حضارتنا وتبددت قوتنا وصرنا نخاف من خيالنا، فيا لبؤس أمة تعيش في زمن الهزيمة ولا ترى في أبنائها عزيمة للنهوض من جديد.

فعلى أجيالنا الشابة أن تفتنع بأن تبتدع أفكاراً قوية لإنقاذ حاضرنا من هذا الركود، وصنع مستقبلنا الذي نريد؛ (فقوة الأفكار هي نفسها فكرة قوية).. ولكن يبقى إبداعها أقوى منها والحقائق والخبرات في السنوات الأخيرة من عصر التطور، تقول: بأن العوائق الكبرى أمام الانجاز الإنساني ليست العوائق المادية وإنما هي المفهومية والفكرية.. أي أن التقصير في الأفكار لا في الموارد المادية الموضوعة تحت تصرفنا، وكم أتذكر ما كان يقوله لنا أحد الشيوخ: لا تقولوا ليس هناك عمل، بل قولوا ليس لدينا عقل، فهذا صحيح أما أنه ليس عندنا عمل فهذا ليس بصحيح.. فالعمل موجود ولكن ليس لدينا همّة للنهوض.

فكثيراً ما يعجز الناس عن فعل أشياء بسبب الافتقار إلى الأفكار لا إلى القوة العضلية، والأدوات، والأموال اللازمة فالناس حين يكونون

مسلحين بالأفكار الصحيحة القوية عما سيفعلونه فلربما يتحول المستحيل إلى ممكنا بأقصر مدة، ونراه أمامنا بأقل وقت فمن كان يتخيل الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية والكمبيوتر والانترنت والهواتف النقالة.. وكل ما نحن نستخدمه اليوم.؟

نعم؛ علينا أن نستثمر الوقت والجهد لإبداع الأفكار وتنميتها وتوجيهها لتحقيق أهدافنا الحضارية المستقبلية وأول الأفكار التي يجب أن نفتنح بها ونلقن بها أنفسنا في كل حين لا سيما قبل أن ننام وفي الصباح بعد أن نستيقظ من النوم، والتركيز عليها لنراها في الأحلام، وهي:

- أن لا مستحيل أمامنا.. إلا أن نبقي في هذه الحالة من التخلف فهذا هو المستحيل الوحيد الذي يعترضنا.

- ليس هناك أحد أذكى، وأفهم، وأعلم، منا فنحن أهل القرآن معجزة الأكوان، يتحدى الإنسان حتى آخر الأزمان.

- ليس لدى أحد من أهل الأرض قوانين، وأنظمة، وتشريعات؛ تضاهي قوانين وتشريعات الإسلام الحنيف.

- ليس لأحد علينا فضل من أمم الأرض، بل نحن أصحاب الفضل عليهم عند التحقيق.

- أن لا أحد أجدر منا بقيادة العالم كله.. لأننا عندما فتحنا العالم قال عالمهم عنا: (ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب).. وها هي أعمالهم تشهد عليهم أينما توجهت على الكرة الترابية.

هذه الأفكار الإيجابية تساعد على صياغة مستقبل وأفكار عن مستقبل إيجابي نعيشه اليوم بالأحلام ولكن أملنا أن نراه غداً بالعيان.. بإذن الله تعالى وما ذلك على الله بعزيز.

وعلينا أن نفتتح بأن الإسلام الذي جمع العرب الذين لم يجتمعوا قبلها، في مكان لا مكان للحضارة فيها، وزمان يوصف بالجاهلي، ونهض بهم لبنوا حضارة دوخت العالم وما زالت خلال عقد فقط من الزمن هو قادر على أن يعيدنا إلى قمة المجد، ونترجع على رأس الهرم الحضاري العالمي بأقل من عقد، ولكن بشرطها وشروطها، كما أخبرنا رسولنا الأكرم ﷺ بقوله: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

فالأفكار عن عالم المستقبل التي يشار إليها أحياناً بتصورات المستقبل أو مفهوماته، قد تكون مهمة جداً أيضاً، فالناس يرون أن أعمالهم مبنية على أحداث ماضية ووقائع حالية، ولكن تصوراتهم للمستقبل ربما تلعب دوراً أكثر دقة وحسماً، في حياتهم.. فتصورات المستقبل هي المخططات التي نستخدمها في بناء حياتنا، وقد تكون هي أهم من المواد التي نغذي بها (أجسامنا، وأسرنا، ومواردنا...) في تقرير نجاحنا وسعادتنا.. فكما يمكن إشادة بناء إذا اعتقد الناس أنه سيثاد، فانه يمكن أيضاً إقامة عالم مستحب مرغوب فيه إذا أمكن تصوره بشكل صحيح، وخطط له بشكل سليم.. أي إذا استطاع الناس خلق إجماع عما سيكونه العالم المرغوب به غداً.. ومن أجل تنمية إجماع كهذا وخلقه في الأمة يعتقد المستقبلليون أن الأفكار عن عالم المستقبل يجب أن تتولد وتدرس منهجياً، وهذا يعني ضمناً

تطوير دراسة المستقبل، بوصفها نشاطاً إنسانياً رئيسياً، وتنميتها..^(١) ويمكن للريادة المستقبلية أن تمنح الناس مجموعة مفيدة من المفاهيم يمكن أن تساعدهم في التعامل مع عالم سريع التغير، وتشمل هذه المفاهيم على:

أ -المستقبل ليس ثابتاً؛ فهو يشمل على مجموعة متنوعة من البدائل نستطيع منها اختيار ما نريد أن ندركه ونفهمه، وبالتالي نصبوا إليه في غد.

ب -التغيرات الصغيرة تصبح بمرور الوقت كبيرة، ومن يلاحظ المتغيرات من بدايتها يسهل التعامل معها حتى النهاية، ولا يقع بما وقعنا به اليوم من هذا البون الشاسع بيننا وبين من سبقنا من الدول المتقدمة تكنولوجياً.

ج -عالم المستقبل على الأرجح مختلف جذرياً من نواحي عديدة عن عالم الحاضر، فعلينا أن نساهم به قبل أن يفرض علينا بالحديد والنار أو أن نعيش على الهامش.

د -علينا الاستفادة من الماضي ولكن بعد التصحيح.. فأخطاء الماضي يجب ألا تتكرر، وعلى الأمة تصحيح الأخطاء التي أودت بها إلى هذه الظلمات وأن تتجرأ لقول الحق كما أمرنا رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين ع عليه السلام يقول: «لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حق من القوي غير متع»^(٢) والحق أحق أن يقال ويُتبع.

(١). المستقبلية لكورنيش: ص ٢٠٤ بتصرف

(٢) - بحار الأنوار للمجلسي: جزء ٧٤ / صفحة [٢٥٨]

فالآن يمر العنصر البشري بأسرع تغيير في تاريخه كله، إلا أن ثمة القليل من الاتفاق على السؤال «إلى أين يقود هذا التغيير» أو «ما هي صورته، أو ما يكون معناه ونتيجته النهائية»؟

والجواب: لا نعرف فالعلم عند الله تعالى، ولكن الأمور لا تبشر بالخير ما دامت حكومة متجبرة ومتغترسة مثل الولايات المتحدة وساستها الأغبياء يقودون العالم إلى حتفه.. ولكننا نعلم وندرك جيداً، أن إعصاراً من التغيير يجتاح المؤسسات الإنسانية كافة، وليس ثمة من قوة معروفة تستطيع إيقاف التحول الشامل.

إن التغيير الهائل في حياة الناس يبين سرعة هذا التحول.. والكثير من المفكرين يعون وعياً تاماً أن الحياة الإنسانية تتغير الآن تغييراً جذرياً.. فبعد نشر كتاب ألفين توفلر «صدمة المستقبل» عام ١٩٧٠ دخلت ظواهر التغيير الجذري وعي الكثير من الناس في جميع أنحاء العالم، ولكن الآن يظهر أن التغيير الحاصل أكبر وأسرع وأشمل مما تصوره توفلر، فالتغيير يتوالد ويتكاثر بنفسه، فيتسابق أسرع وأسرع في حياتنا.. واليوم يبدو التغيير أنه الشيء الثابت الوحيد في حياتنا.. وباختصار، فإن التغيير عملية تتغذى على نفسها، فكل تغيير يقود إلى المزيد من التغييرات.

واليوم يعاني أناس كثيرون من صدمة المستقبل بسبب وتيرة التغيير السريع، فهم انسحبوا من عالم بات غريباً عليهم ويستحيل فهمه وباتوا، إلى حد كبير، غير أكفاء للتعامل مع عالم اليوم، فإذا تسارعت وتيرة التغيير «كما يبدو محتملاً جداً» فإن المزيد من الناس قد يصبح إلى حد ما غير قادر للتعامل مع الحياة المعاصرة بشكل جيد.

لذلك على الناس كي يعيشوا حياة ناجحة أن يتعلموا تقبل حقيقة (أن المجتمع يتغير)، وعلى القيادات المستقبلية خلق وسائل لجعل الناس يألفون الأشياء التي قد يواجهونها مستقبلاً فيساعدوهم بتوفير التهيئة النفسية للتغيرات المحتملة.

دور التكنولوجيا مستقبلاً

ويعزى التغيير الشامل والسريع الذي نتعرض له الآن إلى تقدم التكنولوجيا.. وكثيراً ما يظن أن التكنولوجيا تتألف من أشياء مثل الآلات والكيماويات، ولكنها، وبالمعنى الأوسع، تشمل كل المعرفة العلمية ومنها معلومات عن أي النباتات هي الأصلح للأكل، وأي الحشرات تحمل أمراضاً، وكذلك الكلمات والبني الأساسية التي نتواصل بها، ونماذج الواقع التي نفكر بها، والترتيبات الاجتماعية التي وجدناها فعالة.. وبالمعنى الأوسع يمكن تعريف التكنولوجيا: بأنها القدرة على فعل الأشياء، ولا يستثنى إلا المعرفة غير العلمية كديننا، وقيمنا، وتقاليدينا، وأخلاقنا، وإنسانيتنا.

لقد كانت المهن التي يزاولها الإنسان بضع مهن، وكان يرثها من آباءه وأجداده، وصارت تتزايد خلال الزمن، وكان نشوء مهن جديدة قليل الحدوث، ويتم كل بضع عشرات من السنين أو حتى كل مئة سنة، فصار زمن نشوء المهن الجديد يتناقص وتزايد هذا التناقص، ونشأت وظائف متعددة والاختصاصات في كافة المجالات، والآن أصبحت سرعة نشوء المهن الحديثة يستلزم أن يقوم العامل أو المهني بتطوير نفسه بواسطة التعلم والدورات كل بضع سنين ليواكب التغييرات

السريعة الجارية إن تأثيرات التقنية أدت لتغيير الكثير من المهن وخلقت مهن جديدة لا حصر لها، فالنمو السريع في التغييرات التقنية يجعل المهن القديمة شيئاً من الماضي (وجعل مكانها المتاحف، ومهمتها الزينة في المنازل لا أكثر) لأن هناك مهناً جديدة ستحل محلها، وفي المتوسط سيغير الناس مهنتهم أو يطوروها كل عشرة أعوام، وهذا لم يستوعبه الكثيرون منا، فما زالوا يعتمدون المفاهيم القديمة عن المهن التي يعرفونها.

ويبدو أن العالم الآن مندفع إلى حالة يمكن أن يوصف فيها بأنه محفوف بالمخاطر.. وكثيراً ما يوصف العالم الحالي بأنه خرج على السيطرة، أو بأنه حالة فوضى عالمية، وهذه الرؤى المفزعة تبدو منحازة، لأننا نشهد أيضاً زيادة مستمرة في التقدم التكنولوجي وفي مستوى التعليم على نطاق العالم، وكذلك نشهد تقدم بمستوى دخل الفرد بشكل عام، وثقة محدودة بالهيكل الاجتماعية المحددة، وصعود العقلانية في تنظيم العمل، والتمويل، والسياسة، والأخلاق، والدين.

وكان استخدام المنتجات التكنولوجية المختلفة على مستوى العالم هو اتجاه لتشكيل ظاهرة العولمة التي باتت تحيط بكل شيء.. إن الاتجاهات التي تعمل على تغيير العالم الآن هي:

١- المعارف والعلوم الجديدة.

٢- والتقنية الجديدة ونتائجهم.

وإذا أردنا أن نستشف المستقبل البشري يجب النظر إلى الدوافع، والقوى، والغرائز، أو الخصائص الأساسية للبشر، فهي التي تقرر كيف سيكون المستقبل.

وأهم هذه القوى والدوافع هي المحافظة على استمرار النوع وحمايته، وتحقيق أكبر كمية من الأحاسيس والمشاعر المرغوبة.. فيشير كورزويل في كتابه «حين يتسامى البشر» إلى اقتراب حدوث انكسار تاريخي جذري بالغ العمق من شأنه تغيير كل ما يؤلف طبيعة الكائن البشري.. فهو يتوقع نتيجة التطور السريع لقدرات الكمبيوتر والذكاء الصناعي المترافق مع التقدم هائل في مجال التحكم في المورثات، أن يؤثر ذلك على عملية التطور البيولوجية، وأن يصبح التحكم في التطور البيولوجي للإنسان بيد المعارف العلمية.

وكذلك كان فون نويمان قد تنبأ بأن الجنس البشرى سوف يتطور بشكل سريع وغير متوقع نتيجة نمو التكنولوجيا وتطور الكمبيوتر.. وقال ستيفن هوكنج ما معناه: أدى نقل المعلومات عن طريق غير بيولوجي (الطبيعي) إلى أن يسيطر الجنس البشرى على العالم، فقد حدث منذ حوالي سبعة آلاف سنة أن أنشأ الإنسان اللغة المكتوبة وهذا يعنى انتقال المعلومات دون الاتصال المباشر أو الشفاهية، فقد توضع المعلومات خارج عقل الإنسان وصارت هذه المعلومات تسير عبر الزمن وتنتقل إلى الآخرين بدقة وبعد موت منتجها بزمن طويل.

لذلك نحن الآن على مشارف عصر جديد سوف نتمكن فيه من زيادة تعقيد سجلنا الداخلي من دون أن نحتاج إلى انتظار عمليات التطور البيولوجي البطيئة والتي تحتاج إلى عشرات الآلاف من السنين.. ومن المرجح أننا سنتمكن من إعادة تصميم الإنسان بالكامل في الألف عام القادمة.. فالسوبرمان قادم ونحن أجداده إن لم نكن آباؤه، وهو

على الأغلب لن يكون سوبرماناً بيولوجياً فهو سوف يكون إلكتروني -بيولوجي.. أي إنسان مصنع (إنسان الروبوت).

وما سهّل هذه المهمة التي كانت توصف بالمستحيلة للأمس القريب صارت بمتناول الأيدي وبكل بساطة وسهولة بعد أن رُسمت الخريطة الوراثية وما يسمى ب (الجينوم) البشري، وعمليات الاستنساخ التي صارت كالتلقيح الاصطناعي، وأطفال الأنابيب تماماً إلا أنها مازالت مكلفة مادياً قليلاً، والمستقبل ودعاة المستقبلية الأمريكية سوف يطرحونها بأبخس الأثمان غداً لا شك في ذلك من أجل الفساد وليس من أجل الصلاح أو الإصلاح الإنساني، وما علينا إلا الصبر سنوات قليلة فقط.

هكذا يتصورون مستقبل البشرية لعبة بأيديهم ولا غرابة فهم زملاء وأصدقاء وتلاميذ دارون الذي أقنعهم بأن أصلهم من القردة (الشمبانزي) يا ويلهم ما أتفه عقولهم، وما أخبث اليهود الذين يتحكمون بهم؟

والحقيقة هي غير ما ذهبوا إليه؛ لأن الإنسان مخلوق مكرم من الخالق، هو على هذه الصورة الجميلة منذ البداية الذي يصفها ربنا تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤) ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿١﴾

فالله تعالى عندما خلق الإنسان خلقه بهذا القوام الجميل، وعلى هذه الصورة الرائعة، ولكن أحفاد من مُسخوا قردة وخنازير أرادوا تشكيك الناس بالله تعالى، وبأديانهم، وعقائدهم، ليسهل عليهم نشر أفكارهم الضالة، وأخلاقهم الفاسدة، فيعثون في البلاد والعباد فساداً كما

نراهم يفعلون ذلك الآن على مستوى العالم كله ولا من رادع ديني، ولا وازع أخلاقي.

جاء في مقال جميل لأخ عزيز، بعنوان (المعلوماتية؛ استباحة الفكر، وتدمير الذات)، أفكار أصيلة تستحق الانتباه، قال فيه: التغيير سنة الكون والكون قائم على التغيير والحركة، وإذا كان الإنسان جزءاً من هذا الكون فإن التغيير يشكل جوهر حركته ومسيرته في الحياة، إذ أن فعل الإنسان بحد ذاته منبثق من الدواعي الذاتية لوجوده، فهو يُفكر ويُبدع ويبتكر ليُغير واقعه ويضيف الأحسن لحياته المعنوية والمادية بالاتجاه التصاعدي نحو التكامل.

فالإنسان ينتج التغيير وينفعل مع التغيير القادم إليه من الخارج، لأنه بطبيعته التكوينية كائن متحرك يسعى للكمال عبر حياة تصاعدية وتعددية مبنية على التنافس الفعال من أجل سبق الآخرين والتفوق عليهم، فروح التغيير موجودة في أعماق التشكل البشري وانه سنة اجتماعية لا يمكن إلغاؤها.^(١)

إن حقيقة قيام الأمم وقدرتها على النهوض يعتمد أساساً على مدى قدرتها على إيجاد التغييرات اللازمة لتطوير حركتها التصاعدية، وعلى نوعية استجابتها للتغييرات الخارجية التي تهب عليها من جهات أخرى، لذلك فإن الأمم التي لا تستجيب للتغيير تحكم على نفسها بالموت، فانحطاط أغلب الحضارات وانقراضها يبدأ عندما تعجز عن

فهم بأنه يجب أن تغير من واقعها استجابة للمستجدات التي واكبت الحركة البشرية المتصاعدة.^(١)

وفي هذا الصدد يرى الإمام الشيرازي بان المجتمع الراكد هو الذي يقف في مكانه بدون تجديد حيث يركد كل شيء ويسير الزمان ببطء وتخلو الحياة من التجدد، أما المجتمع المتصاعد فلا بد أن يكون التصاعد من ذاته..^(٢)

وهذا هو اخطر التحديات التي تواجه الأمم الساكنة التي لا تستجيب لأعاصير التغيير الواردة عليها لتصبح مفتوحة يهب عليها الدمار فيجثتها من أسسها فتفقد هويتها وروحها ويشكل منها مزيج من لوحة سوريقالية غامضة لا يفهمها حتى مَنْ رسمها، وهذا ما هو حاصل اليوم، حيث أصبحت أبوابنا مشرعة للأعاصير العاصفة علينا فاخرقت ثقافتنا، وأجياننا، وأصالتنا لنصبح مُجرّد هامش ضحل نقتات فيه من أفكار الآخرين، ونعيش على أمجاد انتصاراتهم ونصفق لابتكاراتهم.

وإذا كانت بداية القرن العشرين (هي بداية للحضارة الإلكترونية، ولما نسميه بعصر العولمة)، هي كذلك نقطة انهيار الأمم الساكنة، والراكدة، والعاجزة عن التغيير عندما بدأت تتشبه بأذيال الغرب وتتشبه بأبطالهم ومفكريهم فان هذا التغيير لم يحدث إلا على مستوى محدود شمل بعض النخب والمجاميع حيث أوجد بعض التيارات الفكرية المقلدة في جوهرها والمتقدمة في ظاهرها.

(١) - المصدر السابق.

(٢) - الفقه الاجتماع، ص ٤٠٩.

وبالطبع فإن مقدار التشكل المعوج الذي أصاب أبنيتنا الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية اعتمد على مستوى قوة أعاصير التغيير الخارجية العاصفة بنا ومدى شموليتها التي كانت محدودة في بدايتها، ولكن مع مرور الزمن أخذت التحديات تزداد خطورة مع حصول التغييرات الكبيرة التي هزت العالم وأحدثت تغييرات هائلة مادية، وفكرية، واقتصادية، وبالخصوص الثورة التكنولوجية، والمعلوماتية التي فتحت أبواب العالم وأوصلت آثارها حتى أقصى نقطة في الأرض، فلم يعد هناك عاصفة محدودة بل هو إعصار هائل أذاق كل العالم من وباله.

فلم يحدث تغيير كبير في البنية الحركية والتطورية للعالم مثلما يحدث اليوم، فالآلاف الستة من السنوات التي تشكل التاريخ المدوّن للبشرية لا تمثل سوى العُشر الأخير من الثانية، وقد احتاج الإنسان إلى ١٧٥٠ عاماً لمضاعفة معارفه التكنولوجية وهي مرحلة تمثل الثلث الأخير في هذا العُشر من الثانية، بعدها أخذت القفزات تتسارع ففي /١٥٠/ عاماً تضاعفت مرة أخرى علوم البشر، ثم مرة أخرى خلال خمسين عاماً، هذه الخبرة البشرية تضاعفت مرة خامسة بين عامي /١٩٦٠-١٩٨٠/ (وتضاعفت مرات في السنوات العشر الأخيرة ما بعد عام الألفين) مما يعني أن ما كان يقتضي آلاف السنين من التطور يتم خلال عقد واحد وربما أقل.. ونحن في المستقبل كأننا أشبه بركاب قطار زمني يخترق التطور اختراقاً وكلما ازداد توغلاً في المستقبل ازدادت سرعة اختراقه.^(١)

(١) - المعلوماتية على مشارف القرن الحادي والعشرين، انطوان بطرس، ص ٢٢.

هذا الطوفان الهائل الذي اقبل بفوضى من المعلومات احدث تغييرات كبيرة في الثقافة والنفسية البشرية وخلف تراكمات ثقيلة يمكن أن تؤدي إلى مزيد من الانحطاط الأخلاقي، والتفكك المعنوي، ذلك أن ابسط المعلومات تشير إلى أن مورد المعلومات سوف يتزايد ما بعد عام/ ٢٠٠٠ م/ أربعة أضعاف سرعة تزايد السكان وها هو جيلنا يبدو وكأنه حُشر بكامله بين عصرين وأسلوبين للحياة واحد قديم وآخر جديد، انه تغيير سريع مذهل وكلي.^(١)

كل هذا يحدث في المجال المادي فقط حيث تطورت الحياة المادية للبشرية وازدادت رفاهيتها؛ وأما الحياة المعنوية فعلى العكس من ذلك تماماً؛ حيث ازدادت الروح بؤساً بازدياد الانحطاط الروحي، والتفسخ الأخلاقي، وهذا هو أسوأ ما رافق الحضارة المادية، لان أي تطور لا يمكن أن يكون مثمراً ما لم يصاحبه تغيير ثقافي، وفكري، ونفسي مدروس، وعقلاني ضمن حركة اختيارية واعية.. أما التغيير الذي يفرضه التطور المادي دون وجود اختيار واعى فهو التغيير الذي سوف يبني تشكيلة فوضوية للفرد، والمجتمع؛ كالتغيير الذي يحدث في أبناء الريف عندما يسكنون المدن.. ويرى علماء الاجتماع: أن التقدم المادي يجب أن يساوقه تغيير معنوي لان عناصر الثقافة تتغير بنسب متفاوتة؛ فالعناصر المادية في التراث الثقافي تتغير بسرعة أكبر من العناصر المعنوية لذلك كان على المتغير المتابع - وهو الجوانب المعنوية - أن تتغير بنفس السرعة حتى لا يحدث تخلف ثقافي ويطلق على فترة

(١) - المصدر السابق، ص ١١.

التخلف هذه اسم التكيف المتأخر، أو سوء التكيف، ويترتب عليها في الغالب حدوث اضطراب في العلاقات الاجتماعية أو انحلال اجتماعي.^(١)

إن أخطر التحديات التي تواجهنا: هي أن الثورة المعلوماتية التي تخترق أساسياتنا وتحدث تغييرات هائلة في حياتنا يمكن أن تخلف فينا آثاراً سلبية كبيرة تعصف بحياتنا الاجتماعية، والفكرية، والثقافية، لأنها تُحدث تحولات مادية هائلة في كل نواحي الحياة اليومية مع عجز واضح عن الاستيعاب الواعي لحركتها الاندفاعية (من قبل الشعوب).

وإذا كان الغرب هو الذي أبدع هذه الثورة الحديثة فإنه يلهث وراءها حتى لا تستبقيه كالمراد الذي أطلق من سجنه ولا يمكن التحكم به، هذا الغرب المتطور في بعض جوانبه قد ساقط التطور المادي خطوة بخطوة منذ بواكير النهضة الصناعية الأولى عبر تطوير كيانه في بعض الجوانب الفكرية، والإدارية، والثقافية، وإن كان أخطر ما فيه الجشع الاقتصادي الذي ينتزع منه كل نوازع الخير، والأخلاق، والقيمة، والفضيلة.. أما نحن فمجرد أدوات مستهلكة نعيش على هامش التحولات الحقيقية نستقبل سلبياتها، ونستدبر إيجابيتها.. لذلك لا بد من معرفة سلبيات المعلوماتية وآثارها الضارة حتى نستطيع التحكم بمسارها في حياتنا بوعي ودراسة.

الآثار السلبية للمعلوماتية

تتنوع الآثار السلبية للشورة المعلوماتية بتنوع أدواتها واختلاف أهدافها ولكنها تسير كلها في إطار واحد وهو تأسيس بناء حضاري زائف يعتمد على وجود المظاهر والقشور مع إفراغ الجوهر الحقيقي للإنسان روحاً، وعقلاً، وأخلاقاً.. فمن هذه السلبيات:

١- الواقع المزيف

من المفترض أن يكون دور المعلومات هو إيصالها للفرد لتنمية معارفه وتطوير حياته تطوراً متناسقاً ومتكاملاً.. ولكن ما يحدث في ضمن هذه الظاهرة أن المعلوماتية تحولت إلى سوق تجاري يهدف إلى بيع اللهو، والمتعة، والرفاهية، والفساد للناس؛ وان كان ذلك يؤدي إلى تزيف الواقع وجعل الوهم واقعاً، ورسم عالم خيالي يخوض فيه الناس أحلامهم ومُتعتهم وهم ينتشون بمتعة التخدير والهروب من الواقع.. ومع انتشار ما يسمى (بالواقع الافتراضي) أي الواقع الذي هو من صنع الخيال

ولا أساس لوجوده في الواقع الحقيقي فبوسع المنتفعين بهذه الثورة أن يتلاعبوا مع الصور وبالتالي مع الحقائق وان يصطنعوا صوراً للواقع لا وجود لها مما يمكنهم التلاعب بمقدرات عالم المهمشين الأميين الملفوظين من عالم ثورة المعلومات.^(١)

وعندما يتحول العلم إلى مجرد سوق يهدف إلى الربح فقط فانه يصبح خطراً على البشر لأنه يستخدم العلم لتضليل العلم بأي صورة كانت، إذ تهدف طبقة الواحد بالمائة من سكان العالم التي تمسك بمقاليد الأموال والإعلام (وغالبيهم من اليهود أو المتهودين)، إلى تسويق وبيع كل شيء بدءاً من السلع ومروراً بالأشخاص وانتهاءً بالأفكار، إنها تخلق المفاهيم، وترسم الصور، وتسمى صناعة التماثيل والصور، ويجري بيع أشباه المنتجات وليس المنتجات الحقيقية للناس وصوراً للأفكار والتشريعات وليس التشريعات الحقيقية منها وكذلك أشباه السياسيين وليس الأشخاص الحقيقيين لهؤلاء السياسيين.^(٢)

وهم لم يتوقفوا عند تسويق المتعة، واللذة بل دخلوا إلى أفكار ونفوس البشر لخلق أوهام وقيم تتناسب ومنافعهم، فالخطر الكامن في العولمة: هو في قوة وسائلها وتأثيرها في الأجيال الناشئة منذ نعومة أظفارهم واعتمادهم على أقوى طرق التأثير الفنية في الحركة والصوت والصورة لدرجة حولت أبطال الأفلام الأمريكية ولاعبى الكرة والتنس وعارضات الأزياء إلى رموز وأبطال الجيل الناشئ الذين اعتبروا هذه المظاهر هي الحضارة والتطور وطريق النجاح.^(٣)

(١) - حضارة الحاسوب، كتاب العربي، ص ٨٤.

(٢) - نذر العولمة، عبد الحي زلوم، صحيفة الخليج، ٧٢٢٦.

(٣) - مجلة الشاهد، العدد ١٧٩، ص ٨٦.

وبهذا يرسم لنا تجار المعلوماتية الواقع الوهمي الذي يسير عليه أبناءنا وينهلون من نبعه الفاسد أفكارهم وقيمهم الأخلاقية والسلوكية فهل تستطيع الأمة يوماً ما في القريب أن تمتلك أصالتها وتؤسس نهضتها أم أنها ستصبح مجرد جزء من ذلك القطيع الإلكتروني الذي يدجّنه ملوك الغرب..؟! لا شك أن هذا يعتمد على مدى وعينا وفهمنا للمتغيرات القادمة علينا.

٢- استبداد معلوماتي ودكتاتورية جديدة

مع تزايد وتيرة نمو المعلوماتية وتقدم أدواتها التكنولوجية يعتقد البعض أن العالم سيصبح أكثر ديمقراطية وإن الاستبداد في طريقه للانحسار، وهذا ما يبشرون به من أحلام العولمة، والاندماج العالمي.. ولكن ما تفرزه العولمة من سلبيات وما تشكله من مظاهر يتجه الاعتقاد الأساسي إلى إن المعلوماتية ما هي إلا وسيلة لترسيخ الاستبداد والدكتاتورية ولكن على نحو عالمي وشمولي يقضي على أشكال التنوع والتعدد واستحالة المنافسة مع بقاء التنافس منحصراً في يد قلة قليلة من ملوك المال وأباطرة الإعلام وشركات المعلومات.

وتشير الأرقام إلى أن اندماج الشركات الكبرى وتكتلها يزداد يوماً بعد يوم إلى الاحتكار المطلق للإعلام والمعلومات حيث بدأ عدد الشركات المسيطرة على الإعلام في الولايات المتحدة بالانكماش (من ٥٠ شركة عام ١٩٨٤ إلى ٢٦ شركة ١٩٨٧ ثم إلى ٢٣ شركة ١٩٩٠،

وواصل تراجعه إلى حوالي ٢٠ شركة عام ١٩٩٣ وما إن حلت سنة ١٩٩٦ حتى استقر العدد على عشر شركات منها: تايم وارنر، ديزني، جنرال الكتريك..^(١)

وهذا يقودنا إلى الاستنتاج إلى أن العالم يتجه إلى مزيد من السيطرة المطلقة للأقلية المستبدة التي تتحكم بقرارات العالم الإعلامية، والسياسية، والاقتصادية حيث تتحكم بمصادر المعلومات من إنتاجها وصناعتها وتسويقها، فسواء رجع حرمان الجماهير من حقها المشروع في التعامل مع صناعات القرار إلى الاستبداد بالحكم أو الأساليب الملتوية للبيروقراطية أو نتيجة للتعقيد التكنولوجي فإن الانحسار الناتج في العملية الديمقراطية واحد وهو حرمان الناس من اخذ القرار وتزايد القيود بشكل متزايد.^(٢)

لقد وصل تحكم ملوك المعلومات في سياسات العالم إلى حدّ صناعة الحروب ونشرها في معظم دول العالم، وإسقاط الحكومات الغير مرغوب بها من قبلهم، ونشر الفوضى في العالم حيث بلغت سطوتهم إلى حدّ (يصعب تصوره، ونظرة متفحصة للخريطة السياسية العالمية، تخبرك عن مدى الفوضى التي نشرها لا سيما بعد أحداث أيلول وما رافقه من حرب على العالم الغير موافق لهم باسم (الحرب على الإرهاب) وهم أصل الإرهاب الكوني وفرعه..)

إن المعلوماتية هي وسيلة بيد استعمار السوق للهيمنة على الثقافة وتصنيع الإيديولوجيا التي باتت تحملها نخبة كونية متجانسة تسعى

(١) - نذر العولمة، الخليج: ٧٢٨٨.

(٢) - المتلاعبون بالعقول، هيربرت شيلر، ص ٢٥٢.

إلى تنميط العادات والثقافات وطرائق العيش على نمط واحد تختزل الحريات إلى حرية التعبير التجاري وحقوق المواطن إلى حق التمتع بسيادة المستهلك وتعميم التوهم بان الوضع القائم هو سقف التطلع الإنساني ولم يعد هناك سوى خيار الرأسمالية القائمة.^(١)

قد لا تكون هناك دكتاتورية واضحة في البين - بل باتت واضحة وجلية فأي دولة تخالف السياسة الأمريكية - ولكن يوماً بعد يوم تتضاءل خيارات الفرد في الاختيار ويصبح عليه السير في اتجاه واحد فرضته عليه القوانين التي وضعها ملوك المعلومات، في إطار لعبتهم الالكترونية باعتبارهم يحتكرون كل وسائل إنتاجها ومواردها، وتحكمهم في بناء نظام القيم والتفكير التي ترسم سلوك الفرد وشخصيته، فما يحتكرونه ليس البيانات نفسها بل أسلوب التفكير المعتمد والمقرر والمُكرس رسمياً أي تعريف أي شيء يكون معقولاً أو مقبولاً.^(٢)

وإذا كان الهدف من كل ذلك هو اقتصادي فان تبريراتهم تتجه لتكثير الزبائن المستهلكين لمنتجاتهم وتحقق ذلك لهم عبر امتلاك واحتكار أدوات الثقافة والإعلام فحكموا سيطرتهم على كل نواحي الحياة ومسحوا العقول وغسلوها بقيمهم المادية التافهة التي تعتمد على السلوك الإباحي المطلق واللذة المنفتحة دون وضع أي اعتبار للقيم الإنسانية والأخلاقية، والدينية، وهذه الأحادية التي يفرضونها بوسائلهم القمعية غير المباشرة تسحق الثقافات الأخرى وترفض التعددية فهي تعاقب كل مَنْ لا يخضع لقوانين السوق حتى لو أنتجت فقراً وبطالة

(١) - النهج، العدد ٥٠، ص ٤٢.

(٢) - المتلاعبون بالعقول، ص ٢٥٣.

وهوّة ساحقة بين الطبقات، وما كان يسمى بالأنظمة التوتاليتارية ذات الحزب الواحد حلّ محلها اقتصاد توتاليتاري في عصر العولمة المرتكز على فكر أحادي.^(١)

ويرى (تشومسكي)؛ إن عولمة الإعلام هي التركيز في ملكية وسائل الإعلام الدولية وانخفاض التنوع والمعلومات مقابل الزيادة في التوجه للمعلن، فالعولمة هي التوسع في التعدي على القوميات من خلال شركات عملاقة شاملة ومستبدة يحركها أولاً الاهتمام بالربح وتشكيل الجمهور وفق نمط خاص حيث يدمن الجمهور أسلوب حياة قائماً على حاجات مصنعة مع تجزئة الجمهور وفصل كل فرد عن الآخرين حيث لا يدخل الجمهور الساحة السياسية ويزعج أو يهدد نظام القوى أو السيطرة في المجتمع..^(٢)

من المفترض أن تساهم الثورة المعلوماتية في بناء الفكر الإنساني، وتطوره الحضاري العام، ولكن اتخاذها اتجاهاً سلبياً في تحقيق مآربها وَوَضَعَ هذه الثورة في طريق تهديد الوجود الإنساني الحقيقي وتحوله إلى مجرد وجود هامشي يعيش فارغاً لا يفكر، ولا يقرر، ولا يشارك، ولا يتعاون، انه مجرد حيوان يأكل ويشرب ويلبس ما توجهه نحوه وسائل المعلوماتية.. كل هذا لاشك انه سيقود إلى ترسيخ حالات ضحالة الفكر، وتسفيه العقل، وسلوك التفاهات في عالم سوف تزداد فيه الفوضى، والعنف، والفساد بعد زمن قد لا يرى فيه العالم القيم الأخلاقية لمدة طويلة.. ويقول ريتشارد نيكسون في التعبير عن ذلك بشكل آخر: من السمات الأساسية لأسلوبنا في الحياة إيماننا بأنه عندما

(١) - مجلة الشاهد، مصدر سابق.

(٢) - عالم الفكر، أكتوبر ١٩٩٩، ص ١٦٠.

يَعتمد الحكام إلى الاستئثار المنظم بالمعلومات التي هي حق خالص لجمهور الشعب، فان أفراد الشعب سرعان ما يصبحون في وضع يجهلون معه كل ما يتعلق بشؤونهم الخاصة كما سيفقدون الثقة في هؤلاء الذين يسيرون أمورهم وسيفتقرون في نهاية الأمر إلى القدرة على تحديد مصائرهم الخاصة.^(١)

وكلما زادت ثورة المعلوماتية ازداد العالم قربا إلى بعضه ولكنه يزداد الإنسان عزلة، وغربة فيه، وكلما يتصور انه عندما ينال المعلومات الوفيرة يزداد حرية يحس بالاختناق وان القوانين والقيود والعيون الإلكترونية تلاحقه عبر الأقمار الصناعية والهاتف والكومبيوتر حتى أصبح لا يملك أي إحساس بتفردِه واستقلاليتِه الشخصية.. وفي الوقت الذي أزالته فيه الثورة التكنولوجية الجديدة العقبات أمام حرية انتقال المعلومات زادت القيود والعقبات أمام انتقال الأفراد في ظل القوانين المتشددة في مسائل الجنسية وإقامة الأجانب وهكذا فإننا نعيش في عالم أكثر تقاربا وتداخلا في تعامله مع البضائع والأموال والمعلومات لكنه أكثر تباعدا عندما يتعلق الأمر بانتقال البشر.^(٢)

٣- المعلوماتية الرأسمالية

من المظاهر السلبية التي أفرزتها هذه الثورة الجديدة أنها تحولت من أهدافها الحضارية التي تتوجه لتوسيع المعرفة البشرية ورفع الجهل وإيصال المعلومات إلى أقصى نقطة في الأرض، إذ تحولت المعرفة

(١) - المتلاعبون بالعقول، ص ٢٠٧.

(٢) - النهج، العدد ٥٠، ص ٥٨.

إلى مجرد استثمار تجاري ينتفع منه الرأسماليون لتضخيم أرباحهم مهما كانت الوسائل والنتائج، وحينئذ يمكن أن تتصور كيف يمكن أن تتحول المعلوماتية إلى أدوات استغلال تجاري محض.

يقول (رالف سميث) مؤلف كتاب (الأمة السلوكية): إن مؤسساتنا تبدو عاجزة - وقد وجهت بتكنولوجيا جديدة - عن تحقيق أي مفهوم للمصلحة العامة باستثناء إرضاء المصالح الاقتصادية، ويُضحى بالمصلحة العامة لكي لا تتعرض المصالح الاقتصادية للفئات المحدودة قوية النفوذ لأي ضرر.^(١)

ولا تعبر كثرة مصادر الاتصال عن حقيقة تنوع الأفكار والثقافات وبالتالي نشاط العقل الإنساني في إثراء المعرفة البشرية، ذلك أن كل المواد والمنتجات الإعلامية والمعلوماتية مثل المواد الترفيهية والأخبار والتوجهات والأفكار يجري انتقاؤها جميعاً من الإطار المرجعي الإعلامي نفسه من جانب حراس اللبوة الإعلامية الذين تحركهم دواع تجارية لا يمكن التخلي عنها وقد يختلف الأسلوب والتعبير المجازي لكن الجوهر واحد.^(٢)

وهذا يعني أن جوهر السوق الرأسمالي يتعارض مع استخدام المعرفة أخلاقياً، لأنه اقتصاد فوري يعمل ضمن إطار حسابات الربح والخسارة فيُخرج كل الاعتبارات الأخرى من دائرته ويحصر المعرفة بشكل مطلق في حصار منفعتة الشخصية.. والمعرفة يمكن أن تصبح وسيلة تدميرية هائلة إذا أصبحت تحت السيطرة المطلقة للرأسماليين

(١) - المتلاعبون بالعقول، ص ٢٤٦.

(٢) - المصدر السابق، ص ٣٤. س.

لأنه توجه حينئذ لتحطيم اقتصاديات الآخرين والحصول على الربح بأي شكل كان، فقد تحولت الرأسمالية (المعلوماتية) إلى اقتصاد عالمي قائم على الاستلاب حيث يستولي على ثروات الآخرين من خلال المضاربات والتحريف وهو يدوس ويسحق الاقتصاد الإنتاجي الذي يقوم بتوفير السلع والخدمات وعلى هذا الأساس يمكن وصفه بأنه قائم على السلب والتطفل على الآخرين.^(١)

ومن هنا فقد تم دمج نفوذ المال والتمويل إلى قوة الوسائل التي أتاحتها التكنولوجيا ووسائل الإعلام لإفراز نظام جديد للرأسمالية (المعلوماتية) يكون مسرحه اقتصاداً عالمياً جديداً يتم تسويق مبادئه غير المقدسة من خلال شعارات تحمل طابع القداسة.. ولكن تظهر التناقضات من خلال ممارساتها فحضارة العولمة هي نفسها الرأسمالية (المعلوماتية) قائمة على المطامع والجشع وكلاهما غريزتان جاءت كل الأديان والمبادئ الأخلاقية لتحذ من الإفراط في ممارستهما ولكن عندما تم الفصل بين الاقتصاد والأخلاق والقيم الإنسانية أصبح العالم الذي يمتلك المعلوماتية التكنولوجية القابلة للتفجر، على درجة من الخطورة تزيد عما يمكن للجشعين المضاربين أن يفهموها أو يعترفوا بها.^(٢)

وفي ظل هذه الرأسمالية النهمه يزداد الوضع خطورة إذ تتحول المعرفة إلى أداة تدميرية مهلكة كالتي اخترعت القنابل النووية، والنيوترونية، والهيدروجينية، وليست القنابل المعلوماتية اقل دماراً منها حيث يمكن الآن توجيه القنابل المالية المعلوماتية نحو أي بلد لتتركه خراباً ودماراً؛ كما فعلت بدول الخليج العربي؛ دون إطلاق رصاصة

(١) - نذر العولمة، صحيفة الخليج ٧٢٢٦.

(٢) - المصدر السابق، ٧٢٢٤.

واحدة فأجهزة الكمبيوتر التي تعمل بشكل ذاتي تستطيع في غضون ثوان أن تسحب المليارات من أموال المضاربين العالميين لتترك البلد محطماً مدمراً بعد أن تستنزف احتياطاتهم وتطيح بعملته الوطنية وتسبب إخفاقاً في تسديد ديونه ليتم إخضاع هذا البلد في النهاية إلى حقبة إنقاذ صندوق النقد الدولي.^(١)

ويمكن حينئذ أن تكتشف: إن هذه الرأسمالية المسيطرة على تكنولوجيا المعلومات تسيطر على نواحي حياتك من جميع الجهات أليست هي التي تتحكم بأسعار النفط صعوداً وهبوطاً وهي التي أنتجت أزمات بورصات الذهب، والأسهم، والعملات، حيث تقوم بتحطيم أي مؤسسة اقتصادية تحاول أن تكون مستقلة عن تبعيتها كما حصل ذلك مع بعض البنوك المالية.

فالمعلوماتية تحمل أخطارها ضدنا عندما تسيطر على كل مفردات حركات اقتصادياتنا فنصبح رهائن في قفص ملوك المعرفة والمال ليفرضوا علينا أفكارهم وقيمهم وسياساتهم.

الآثار الفكرية والنفسية والأخلاقية

يمكن القول بان هجوم أسراب المعلوماتية فوق سماء عقولنا وثقافتنا وإلقاءها علينا بكم هائل من المعلومات الغثة، والسمينة سوف يخلف آثاراً سلبية كبيرة في تشكيل الأفكار والأخلاقيات والقيم وتؤسس بناء معرفياً هشاً قائماً على السطحية والتغرب والتفاهة، ويمكن أن نعدد مظاهر هذه السلبيات هكذا بان المعلوماتية:

١ - تُخمة معرفية:

تحتوي على الصالح، والطالح، وحينها يكون الصالح لا قيمة له حيث يسيطر المضر من هذه التخمة على مقدار المعلومات المنشورة، وتشير الإحصاءات إلى أن المعلومات العامة تتضاعف كل سنتين ونصف السنة مما يعني وجود تراكم معرفي ضاغط يفرز ضغوطاً نفسية وعصبية مما يقلل في المقابل من الإنتاجية ومن التركيز، كما يلاحظ أن هذه التخمة أقرب للترفيه والاستغلال التجاري منها إلى المعلومات المفيدة.^(١)

(١) - حضارة الحاسوب، ص ٨٧.

٢- فقدان النقد والتحليل:

إذ كيف يمكن أن يمتلك الفرد الوقت اللازم مع هذه التخمة لنقد المعلومات وتحليلها ووضعها في ميزان التقييم أو معارضتها وقد اجتاحتها كطوفان لم يبقِ فرصة للتشبت أو البقاء، لذلك نرى إن قبول الأفكار الغربية والتسليم بها يزداد يوماً بعد يوم حتى أصبح التشبه التغريبي من أهم مظاهر التقدم.

ومع اضمحلال الحاسة النقدية يصبح الفرد آلة مسيرة تقوده أدوات المعلوماتية وتوجهه نحو سياساتها واقتصادها ليصبح مجرد زبون مستهلك لما ينتجه ملوك الفساد العالمي.. ويمكن أن نرى كيف سيطرت ثقافة التلفزيون في حياة الناس فتحكمت بحياتهم بشكل مطلق وفرضت عليه شكل التفكير، والأكل، والشرب، والملابس، وأسلوب التربية، فأصبح التلفزيون منبعاً أساسياً للمعرفة وهي معرفة مبسطة يمتلكها المشاهد دون أن يبذل أي جهد نقدي ودون أن يعبأ بخلفيات ولا أبعاد الأحداث التي يشاهدها فهو مجرد شاهد على الحدث ليس إلا.^(١)

ويرى البعض أن المعلوماتية اليوم بأدواتها الأخطبوطية تساهم في نشر الكثير من السلبيات حيث تقتل الإبداع والابتكار وتشجع على الكسل والخمول بعد أن ينال الفرد كل المتعة واللذة التي يرغب بها دون أي جهد وتفكير فيستهلك وقته في التفاهات وينشأ على حب وتبعية التافهين المتشبهين بأبطال من الورق والصور الإلكترونية التي يصنعها ملوك المال ليسوّقوا بضائعهم وأفكارهم وقيمهم الفاسدة.. وقد

أصبح الإعلام المقروء والمبثوث فضائياً في بلادنا هو نسخة أخرى للإعلام الغربي حيث لا تجد في المعلومات المنشورة غير المتابعات السطحية وبرامج اللهو الخليع التي تزيد في سطحية التفكير وضآلة العقل وتحرفه عن التفكير في أساسيات الحياة وبالتالي تقتل فيه روح المعرفة، والعلم، والإبداع، والمسؤولية، وتحوله إلى فرد غير مسؤول عن أفعاله وغير مبال بالقيم، والأخلاق، والدين، والقانون.

وتصبح علينا الأخطار اشد إذ تعصف هذه الثورة وتكتسح أجيالنا وتستبيح عقولنا فلا وقت للتفكير والتمحيص والتردد النقدي وسائر ما يمكن أن يحمي الوعي من السقوط في إغراء الخداع وتنهار ملكة التفكير ويتحول الوعي إلى مجال مستباح لكل أنواع الاختراق، وما سيصيب نظام القيم الذي يؤدي إلى تكريس منظومة جديدة من المعايير ترفع من قيمة النفعية، والفردية الأنانية، والاتجاه الغرائزي المجرّد من أي محتوى إنساني، نعم ستغدق ثقافة العولمة على الجسد ما سيفيض عن حاجته من الإشباع تماماً مثل جدتها العولمة الاقتصادية غير أنها ستقتل الروح وتذهب بالمحتوى الأخلاقي والإنساني لسلوك الناس، أليس مرعباً أن يصبح التلفزيون المؤسسة التربوية والتعليمية الجديدة التي تقوم مقام الأسرة والمدرسة.^(١)

٣- الاغتراب والعزلة:

فعندما يشعر الفرد بأنه يحصل على كل شيء يريده دون أن يكون في إطار الاجتماع والتكافل مع الآخرين فإنه يبدأ بالانعزال تدريجياً

(١) - العرب والعولمة، ص ٣١٦.

عن المجتمع خصوصاً أن أدوات المعلوماتية تقدم له واقعاً اجتماعياً افتراضياً يجتمع فيه الكترونياً مع الآخرين دون أن يكون هناك أي تواصل إنساني حقيقي.. هذه العزلة الفردية تولد عند الفرد اغتراب عن الواقع والمجتمع خصوصاً عندما يبدأ بالتهرب من مسؤولياته الحقيقية في المجتمع.

فالمعلوماتية خلقت واقعاً جديداً أدى إلى إضعاف غريزة الميل للتواصل الحي مع الآخرين لأن الشاشة تخلق لدينا وهم الاقتراب الزماني والمكاني من العالم الخارجي وهذا ما يترجم لدى المشاهد بالعجز عن نقل الموقف الفردي إلى موقف جماعي فيصبح الترفيه ملاذاً يحرره من ثقل المشاكل والأحداث وهروباً من الشعور بالعجز التام عن الفعل وشعوراً بالفرح لعدم وقوع ما يراه من كوارث وأحداث عليه إنما على الآخرين.^(١)

فالشعور بالفردية والأنانية الجشعة يقود الفرد للعيش في عالم وحيد بلا عاطفة وإحساس، عالم تتغلب فيه الآلة على الإنسان فتمسّخه إلى مخلوق لا إنسانية فيه، فمع تطور الآلة ونمو المعلوماتية يزداد الإنسان بعداً عن إنسانيته.. وقد غدا من تحصيل الحاصل اليوم القول: بان التكنولوجيات الجديدة للاتصال التي تلعب دوراً أيديولوجياً مركزياً تعتبر الرافعة الأساسية لعصر الثقافة المعولمة الذي يتزامن مع ميلاد شكل جديد من أشكال الاغتراب.^(٢)

(١) - باحثات، الكتاب السادس، ص ١٦٨.

(٢) - صحيفة الشرق الأوسط، العدد ٧٦٦٠، ص ١٠.

فالعولمة التي تبشر العالم بوعودها بالسعادة والعدالة وإيجاد عالم أكثر انسجاماً وتوحداً بدت أنها تقود البشر إلى مزيد من محرقة العزلة، والغربة، والتفكك، لأنها تحرر الفرد من الحواجز المادية ولكنها تغرقه في مزيد من الحواجز النفسية والأخلاقية.

٤- إنتاج وتوليد العنف:

إذ عندما يصبح هدف تجار المعلوماتية هو الربح والمنفعة الشخصية يصبح التنافس على إنتاج العنف والفساد والإباحية في أشده.. حيث تلاعب هذه القنوات الجشعة الدوافع الغريزية في الإنسان فتثيرها وتحركها لتزيد من أرباحها.. ويوماً بعد يوم تقدم هذه الأدوات أطباقاً جديدة من حركات العنف والعدوان لتزيد من شهية البشر في الاعتداء على الآخرين وصناعة الحروب وتوليد الإجرام.. وتتعرف تقارير عالمية عديدة ومنها تقرير نشرته اليونسكو سابقاً: بان التلفزيون ينمي ثقافة العدائية خصوصاً بين الأطفال ويشجع تحول العنف إلى ظاهرة عالمية.^(١)

ذلك أن التعرض المتكرر للعنف يقلل من حساسية الفرد ويجعله لا مبالياً إزاء العنف المنزلي فتغيب لديه مشاعر الرحمة والشفقة تجاه الضحية فيقف متفرجاً متبلداً لأن المثابرة على مشاهدة العنف تفرض عليه التعامل مع الناس الحقيقيين كما لو كانوا على الشاشة.. علماً أن العنف المُتلفز هو نتاج نظام ترويجي عالمي رأى فيه بعض الباحثين

انه يمارس أثراً تخميرياً ثقافياً مساهماً على المدى الطويل في تسفيه العالم والحط من قيمته.^(١)

والمفارقة في الأمر أن المخزون الأكبر لإنتاج المعلوماتية يعتمد على نشر اللذة، والمتعة، والإباحية، والعنف، والجنس، وهي بذلك تقود العالم باستمرار نحو الانحطاط، والانحلال عن الأخلاق والقيم والإنسانية، فإنجيل الإعلام والقائمين عليه هو المادية والمال، والأعمدة التي يقوم عليها هي الجريمة والجنس والاستهلاكية.. هذا التلوث الحضاري والثقافي هو ما تقوم به الجهود الرامية لعولمة الإعلام وتصديره إلى دول العالم المختلفة والعالم تجعله يصاب بنوبة جنون مفاجئة تجعله يقبل على هذا الذي يباع له ويولع به.^(٢)

لقد امتزج العنف بحياتنا وهو يطل علينا يومياً من نافذة التلفزيون وقصص الصحف والمجلات والعباب التخيل الإلكتروني، وانه لأمر مؤسف أن يمطرنا التلفزيون بوابل من العنف ولكن مالا يقل سوءاً أن نشارك نحن في هذا العنف حتى ولو بصيغة تخيلية فما يمكن أن نطلق عليه عنف المشاركة يثير الرعب حقاً فالعاب وبرامج الجنس والعنف قد تصل في تأثيرها على الناس إلى أبعاد لا نستوعبها الآن.^(٣)

(١) - باحثات، ص ١٥٩.

(٢) - نذر العولمة، صحيفة الخليج ٧٢٨٨.

(٣) - ثورة الانفوميديا، فرانك كيلش، ص ٥٠٣.

إلى أين تقودنا المعلوماتية؟

لا نقصد من طرح المعلوماتية بهذه السلبية إلا أن نوضح خطورة هذا المد الجديد على العالم وعلينا بالخصوص لو لم نتعامل معه بوعي وتعقل وتخطيط واستيعاب لأدواتها بشكل إيجابي ومفيد يخدم البشرية في إطارها الديني والأخلاقي والإنساني.. ولكننا نعيش أزمة تخلف حقيقية تضرب في أعماق البنية الفكرية والاجتماعية لتضع الأمة مفتوحة دون تحصن وحماية ذاتية أمام هبوب إعصار المعلوماتية، لان هذه الظاهرة تتجه إلى:

(١) استعباد أبناءنا وأجيالنا عبر تصدير الأفكار والقيم والعادات المعلبة لصنع طابور هائل من الشباب يتغنى بأبطال الغرب الفاسدين ولتصبح أفكار وقيم الشباب متشكلة بالصناعة الغربية، لقد وردوا إلينا حتى فرق عبادة الشيطان والشذوذ بمختلف أنواعه حتى المُقرف للنفس الأدمية منها.

(٢) ضياع هوية الأمة في ظل الدعاية القوية التي تروج لها أدوات المعلوماتية من ضياع القيم الدينية واللغة والمفاهيم الأخلاقية، حتى أصبحت الهوية الأمريكية هي الهوية الأكثر انتشاراً ووجوداً.. والأخطر

من ذلك أن تضيّع الأمة وجودها وتغترب عن نفسها فتصبح مهمشة تسيطر عليها الازدواجية والضبابية وتسحقها الانهزامية، كما هو حال المتغربين الذين أصبحوا بلا هوية.

(٣) أن يؤدي الاندماج العالمي الذي تطرحه أدوات المعلوماتية لعولمة العالم إلى الاندماج التام وضياع أصالتنا وقيمنا وأخلاقياتنا لأنهم يريدون أن يصنعوا عالما تسيطر فيه قيمهم الاستهلاكية المُنحطة بشكل مطلق.

(٤) أن تؤدي الثورة المعلوماتية إلى سحق اقتصاديات دولنا باعتبارهم يسيطرون على كل المعلومات الاقتصادية لذلك فقد يستخدمون هذا الأمر لضرب البُنى الاقتصادية لدولنا وجعلها فقيرة لمزيد من التبعية السياسية والثقافية كما حصل ذلك في دول جنوب آسيا.

(٥) أن يؤدي الانفتاح الثقافي والإعلامي المطلق دون وجود تحصين ذاتي وعمل مضاد إلى نشر الإباحية والفساد الجنسي والشذوذ والمخدرات وهي أمور تروج لها أدوات المعلوماتية بقوة في بلادنا لتميع أجيالنا وتفكيك الأواصر الأخلاقية والأسرية والاجتماعية.

ويبقى السؤال الرئيسي وهو كيف يمكن أن نواجه هذه التحديات الخطيرة هل بخلق أبوابنا وبناء أسوار حديدية شاهقة لصدّ الأثير وهو أمر مستحيل.. أم نقوم بإيجاد عوامل وعناصر التحصن الذاتي والمناعة الداخلية عبر رفع مستوى الوعي والفكر أولا والقيام بعمل مضاد

يستوعب هذه الأدوات في إطارها الإيجابي في نشر قيم الخير والسلام والدين ثانياً...؟^(١)

المعلوماتية مواجعة تاريخية جديدة

فالتفكير المنطقي بمسألة المعلوماتية يراها حرباً حقيقية من طغاة المعلوماتية على الفقراء بها، وبالتالي من الدول الصناعية الغنية على الدول الاستهلاكية الفقيرة، التي منعوها من التفكير وحجروها في مقام الدولة القطرية وراحوا يمتطرونها بوابل من القذائف الموجهة إلى جميع الطبقات كبيراً وصغيراً رجالاً ونساءً وغزوهم في مخادعهم وتجسسوا عليهم وهم في غرف نومهم بهذه التطورات الإلكترونية التي تتجسس على الجميع لصالح الدول المصنعة للأجهزة الدقيقة، والطامة أنها صارت لا بد منها فهي كالبلاء الذي لا مفر منه (كالموت).

و(لكي نحدث تغييراً جذرياً في مسارنا التاريخي لا بد من أن نستوعب عناصر التغيير الفعال وخصوصاً التي تؤسس طريق المستقبل وبشكل أخص العناصر المستحدثة، وإلا فان العنصر قد ينقلب إلى أزمة حقيقية إن لم يُفهم ويُعامل معه بشكل جيد، ومن هذه التحديات التاريخية الجديدة ظاهرة المعلوماتية التي فرضت نفسها كعنصر حاسم في صراع الأمم، وصياغة المستقبل، وامتلاك الغد، وهذه الظاهرة سوف تستأصلنا إن لم نستوعبها وننتزع أنيابها، كما أنها يمكن أن تكون عنصر تغيير بَنَاءً للمستقبل المُشرق إن استفدنا من جوانبها الإيجابية.

ويمكن القول: إن المعرفة الإنسانية تُشكل العنصر الأساسي في صنع الحركة التقدمية للأمم وبناء المستقبل الإيجابي، لان الإنسان بتميزه التكويني يعتمد أساساً على التشكل المعرفي لبناء شخصيته واكتساب ثقافته ونموه العلمي لإشباع حاجاته المادية والمعنوية، حيث يمثل إنتاجه الفكري واستنتاجاته العقلية وسيلة سلوكية للتعامل مع الواقع الخارجي وفهم المحيط الذي يعيشه لاكتساب المزيد من الخبرات والتجارب وإيجاد حالة التأقلم مع الظروف الخارجية لصنع حياة أفضل بالنسبة له، ويقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «لقاح المعرفة دراسة العلم، ولقاح العلم التصور والفهم».

وسياًتيك التفصيل في الفصل الثاني - بإذن الله - ولكن بهذا السياق نقول: بأنه (تطورت حياة البشرية بقدر تطور المعرفة وتقدم العلوم، وكان تطور التاريخ التصاعدي والنهضوي يعتمد على هذا المقياس المعرفي، ونشوء الحضارات الإنسانية الكبيرة ابتداءً أساساً من تعاملها المعرفي ونموها العلمي مع واقع الحياة.. ولذا فإن الله رب العالمين أول خطاب وجهه للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وللعالم أجمع، هو: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾^(١)

ومن هنا من العلم وقوة الأفكار، تنبعث القوة التي اتسمت بها بعض المجتمعات وتفوقها على الآخرين واضمحلال مجتمعات بإدخالها في أغوار الجهل وعدم العلم والمعرفة، والقرآن الكريم في

إشارة لهذه الحقيقة، يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١)

وعن رسول الله ﷺ: «أفضلكم إيماناً أفضلكم معرفة».

والإمام المعصوم عليه السلام يقول: «وأفضلكم أفضلكم معرفة» (٢).

وكان الهدف الأول لبعثة الأنبياء والرسول هو نشر المعرفة بين البشر لإيصالهم إلى طريق البناء والسعادة والخير ومعرفة أنفسهم وبالتالي الوصول إلى المعرفة الحقيقية وهي معرفة الله تعالى، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (وَأَصْطَفَى سُبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ (آدم) أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ وَعَلَى تَبْلِيغِ الرَّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَجَهَلُوا حَقَّهُ وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْذِنُوا مِنْهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ وَيَذَكِّرُوهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ مِنْ سَقْفِ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ وَمَعَايِشٍ تُحْيِيهِمْ وَأَجَالَ تُفْنِيهِمْ وَأَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ وَأَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُخَلِّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسِلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ) (٣).

فعبث إثارة كوامن العقل البشري واستخراج دفائنه تتحرك تفاعلات المعرفة والاستدلال والعلم وتتطور مع تطور الحياة وتغير الشروط، فلا يمكن للإنسان ان ينمو في ظل سكون المعرفة وجمود العقل عن

(١) - (الزمر: ٩)

(٢) - بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣ ص ١٤

(٣) - (نهج البلاغة: ١٤)

إنتاجها لأن المعرفة متغيرة حقاً ولكن تغييرها يتخذ شكل التراكم أي إضافة الجديد إلى القديم ومن ثم فإن نطاق المعرفة التي تنبعث من العلم يتسع باستمرار.^(١)

وعندما يتوقف الإنسان عن اكتساب العلوم وتراكم معلوماته يتوقف العقل عن التفاعل المعرفي مع تطور العالم الخارجي ويصبح حينئذ عاجزاً عن اكتساب الخبرات المفيدة، ويفقد القدرة على إدراك الحياة إدراكاً واعياً وسليماً، إذ أن: المعرفة حصيلة امتزاج خفي بين المعلومات والخبرة والمدرجات الحسية والقدرة على الحكم فنحن نتلقى المعلومات فنمزجها بما تدركه حواسنا ونقارنها بما تختزنه عقولنا من واقع خبراتنا ثم نطبق على هذا المزيج ما بحوزتنا من أساليب الحكم على الأشياء وصولاً إلى النتائج والقرارات أو استخلاصاً لمفاهيم جديدة.^(٢)

ولكي يحافظ الإنسان على نفسه ووجوده عليه ان ينتج، ولكي ينتج عليه ان يكتسب المعرفة لكي يستطيع ان يتواصل مع الآخرين ويعرف محيطه وخصائص مجتمعه والصعوبات التي تقف أمام تحقيق حاجاته الأخرى.. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لا يقبل الله عملاً إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل فمن عرف دلته المعرفة على العمل ومن لم يعمل فلا معرفة له».^(٣)

لذلك فإن المعلومات تصبح العصب الحيوي في حركة الأمم وتطورها باعتبارها منطلق الحاجة المعرفية.. لان الحاجة للمعرفة

(١) - (التفكير العلمي، فؤاد زكريا: ص ٦)

(٢) - (العرب والعولمة: ص ١٠٧)

(٣) - الكافي الشريف للكليني: ج ١ ص ٤٤ ح ٢.

تبقى المحور الرئيسي في مصير الأمم، لأنها تشكل الرافد الذي يغذي الحاجات الأخرى فمع جمود المعرفة وتوقف نموها في الأمم تواجه هذه الأمم نقصان في حاجاتها الأساسية الأخرى فتتخلف عن مسيرة الحياة وتقع أسيرة الأمم القوية التي تمتلك سلاح المعرفة والعلم.

لان الصراع التاريخي بين الأمم كان صراعا تميزت فيه المعرفة كسلاح حاسم ينتصر فيه من يمتلكه مهما كانت القوى المادية والعسكرية التي يمتلكها الطرف الآخر، لان المجهود الحقيقي هو المجهود الذي ينبعث من عقل الإنسان وليس جسده والقوة الواقعية في ذلك قوة المعرفة والعلم. لذلك كانت قوة انتشار الإسلام وانبعائه في العالم هو في تلك المعلومات التي فتحت للبشرية آفاقاً معرفية جديدة قطعت خيوط ظلام الجاهلية، ومن هنا بدأ العالم يأخذ منحاً تطورياً جديداً أساسه العلم والمعرفة حتى القرن الواحد والعشرين الذي يشهد ثورة معرفية كبيرة أساسها وعمادها ووقودها هي المعلومات لا غير حيث أصبحت السلاح الذي من امتلكه امتلك قوام القدرة وسيطر علي العالم، باعتبار أن هذا القرن الجديد هو خلاصة مُرْكزة للتطور والتراكم العلمي والمعلوماتي للتاريخ البشري.

ويرى (الفين توفلر): ان القوة في القرن الواحد والعشرين لن تكون في المعايير الاقتصادية أو العسكرية ولكنها تكمن في عنصر (المعرفة) بعدما كانت المعرفة مجرد إضافة إلى سلطة المال والعضلات باتت اليوم هي جوهرها الحقيقي فالقوة العسكرية ترتبط مباشرة بالقدرة

التكنولوجية أي المعرفة التي تكتنزها وعلى عكس العناصر الاقتصادية والعسكرية فإن المعرفة لا حدود لها ولا تنضب.^(١)

إن التحوُّل العالمي المثير نحو السيطرة المطلقة لسلطة المعلومات وتحولها لأهم الأسلحة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وثقافياً يدعونا لدراسة هذا المنحى الكبير في التاريخ البشري وتأثيره على المجتمع البشري قاطبة وتحوله لصياغة جديدة قد تحمل تموجات خطيرة خصوصاً مع فوضوية هذه الثورة والنيات التي يبطنها من يمتلك أسلحتها.

لقد تحولت المعلومات إلى إنتاج واقعي وجهد حقيقي فرض نفسه على كافة الفعاليات البشرية الأخرى مع مجرد كونها واقع افتراضي يسكن في خيال الذهن الواسع، ولكن قوة وجبروت هذه الثورة وتأثيراتها حولتها إلى قوة حقيقة مستأثرة وطاغية، لذلك: تصبح المعرفة البديل الأخير من كل عوامل الإنتاج الأخرى وما زال الاقتصاديون التقليديون يجدون صعوبة في التعود على هذه الفكرة لأنه يصعب تحديدها كمياً وسواء كان قياس المعرفة ممكناً أم غير ممكن فأنها أصبحت العامل الأكثر كفاءة والأكثر أهمية بين عوامل الإنتاج.^(٢)

مكمن الخطر في المعلوماتية

ولا تكمن خطورة هذه الثورة الجديدة في كونها مجرد حالة معرفية بل على العكس من ذلك فإن هذا التطور المعلوماتي يحمل بذوراً

(١) - (مجلة الشاهد : عدد ١٧٩ ص ٧٣)

(٢) - (حضارة المعلوماتية وما قبلها : توفلر : ص ٧٠)

معرفية إيجابية يمكن ان تساهم في حلّ الكثير من المشاكل الإنسانية المعقدة وتسهم في تطور الحالة الإنسانية والتعاونية عند البشر، ولكن خطورة الأمر يكمن في مَنْ يمتلك أدوات هذه القوة لتحقيق مآرب واهداف خاصة لنشر معلبات معرفية جاهزة، وغسل عقول البشر للتحكم بهم، واستغلالهم لأهداف اقتصادية أو سياسية او أيديولوجية مبيتة من قبله ويريد أن يدجنهم لخدمة مصالحه فقط.

إذ أن قوة الأدوات المعلوماتية تتحقق في قدرتها على التحكم الثقافي بالآخرين باعتبارها المصدر المعلوماتي لتشكلها المعرفي، فعن (طريق التثقيف كوظيفة أساسية لوسائل الإعلام يكتسب الأفراد ويطورون داخلياً كل نواحي ثقافتهم ولا يتضمن هذا العادات والتقاليد داخل محيط عائلاتهم فقط بل اللغة أيضاً واستخدام الأدوات المادية والمعتقدات الدينية)..^(١)

فبمقدار ما تستطيع ان تحققه هذه الأدوات من تغيير في عقل الفرد وثقافته تزداد قوة وأهمية وتصبح سلطة حقيقة في المجتمع.

ويرى ليوتار في كتابه (شرط ما بعد الحداثة) وينذر بان (المعرفة بصفتها سلعة معلوماتية لا غنى عنها للقوة الإنتاجية أصبحت وستظل من أهم مجالات التنافس العالمي من اجل إحراز القوة ويبدو من غير المستبعد ان تدخل دول العالم في حرب من اجل السيطرة على المعلومات كما حاربت في الماضي من اجل السيطرة على المستعمرات).

فإذا أصبحت المجتمعات تستقي موارد معلوماتها من جهات أخرى لإشباع نهمها المعرفي وحاجاتها الثقافية فان هذا يعني ان

(١) - (الإعلام العربي وتحديات العولمة :ص٣٩)

تتقوّلب ضمن أسس ثقافية وفكرية تتناسب مع مصالح مورّد المعلومات ومصدّرها فتقع في حبال شبكاته العنكبوتية باعتباره منتجاً ومحتكراً لأدوات المعرفة المتمثلة بالتكنولوجية الحديثة المدهشة، لان (تقانة المعلومات هي التي جعلت من الثقافة صناعة قائمة بحدّ ذاتها لها مرافقها وسلعها وخدماتها بل إننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: بان أثر الثقافة في التقانة يكاد يشكل جميع عناصر منظومتها والعلاقات البينية التي تربط هذه العناصر ولا تشمل هذه العناصر الإدارة الثقافية ومواردها فقط بل أيضاً - وهذا هو الأهم - بُنية المعرفة داخل المجتمع والأسس والمبادئ التي قامت عليها وقاعدة القيم التي انطلقت منها، فالدور الحيوي الذي يلعبه ذلك الكم الهائل من المعلومات جعل من التقانة مصدراً أساسياً للقوة السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية، اذ باتت تقانة المعلومات أداة رئيسة للفعل السياسي الموجّه نحو السيطرة، والتوجيه الإعلامي، والتربوي ولا نعتقد ان أحداً يستطيع إنكار تأثيرها الواضح في نظام القيم، وتشكيل رؤية الفرد نظراً لما أحدثته، وسوف تحدثه، من تغييرات حادّة في أنماط السلوك والمعايير).^(١)

ويرى (الفين توفلر) في كتابه (أشكال الصراعات المقبلة): ان المعرفة كوسيلة تختلف عن كل الوسائل الأخرى لأنها لا تنضب ويمكن استخدامها من قبل الطرفين، وجزء محدود من المعلومات يمكن ان يعطي أفضلية استراتيجية وتكتيكية هائلة ويمكن ان يؤدي حجه إلى نتائج كارثية.

فخطورة المد المعلوماتي الجديد تنبع من قدرته على استحواذه على القنوات والأدوات التي تصنع ثقافة الفرد وبالتالي تستحوذ على بنيته المعرفية وتتحكم في سلوكه، وتوجهاته، وأهدافه، وبعبارة موجزة فأنها تسترقُّه في القطيع الإلكتروني التي يقوده قِلَّةٌ ونخبة تستحوذ على معظم موارد العالم.

فكل ما قلناه هو ينصب في دراستنا لتحديات التاريخ الجديد، ومعطياته المستقبلية، وكيف نستطيع ان نصنع مستقبلاً آمناً وتاريخاً مشرفاً، يرتكز على الاستقلالية الحضارية بعيداً عن التسلط الحضاري، والاستعمار السياسي لامتنا العربية والإسلامية.. والثورة المعلوماتية هي من اخطر التحديات والأعاصير التي تهبُّ علينا وتحاول اجتياحنا من جذورنا لتقيدنا في زناناتها الإعلامية، والتقنية، وتغسل عقولنا بإعلاناتها، وتأثيراتها الضوئية المبهرة، حتى تمحي صورنا المعرفية الأصيلة، وتؤسس في أعماق نفوسنا وحضارتنا معرفيتها الهزيلة القائمة على المادة واللهو والأنانية واستغلال الآخرين لا أخلاقياً ومبدؤها الذي وضعه فيلسوفها ميكافلي (الغاية تبرر الوسيلة).

فإننا نحاول أن ندرس الظاهرة المسماة ب (المعلوماتية) لكي نتعرف على حقيقتها وأهداف الذين يحتكرون أدواتها ويوجهونها ونحاول أن نستثمر هذه الأدوات إيجابياً لصالحنا في تقوية معرفتنا ونشر المعلومات الإنسانية النبيلة من قيم الإسلام الأصيلة، والسلام العالمي، والحرية المسؤولة، والاخوة الإيمانية، والتعاون على البرِّ والتقوى، والعدالة بكل معانيها سيما الاجتماعية منها.. إذ أن تقنية

المعلومات لا تحمل بذاتها في باطنها شروراً بل يمكن أن يُستفاد منها للخير أكثر مما يستفاد منها للشر، ولكن مَنْ يَحْتَكِرُهَا هو الذي يقود العالم يوماً بعد يوم نحو الفوضى، والفساد، والحرب، والدمار، والفقر، وكل الشرور.

لأن (التكنولوجيا بطبيعتها العلمية متعادلة القيمة فهي كالسيف انه خامة تكنولوجية، والأشياء بذاتها لا تحمل قدراً من الخير والشر، وإنما البشر هم الذين ينفثون فيها الحياة باستخدامهم إياها ويضفون عليها خصائص معنوية وأخلاقية حسب استخدامهم لها).^(١)

المعلوماتية انتقال لتاريخ جديد

لا ينكر أن التحولات التاريخية الكبيرة كان لها دوراً إنعطافياً في التطور البشري والتقدم الحضاري، ولكن تحولات القرن العشرين هي شئ آخر في منعطفاته إذ استخلص هذا القرن كل تجارب التاريخ واستجمع خبراته وبدأ حركة تصاعدية بلغت ذروتها في نهاياته وبدء إطلالته على القرن الواحد والعشرين في عقده الأول الذي نعيشه جميعاً.. والتقدم التقني والمعلوماتي في الاتصال والارتباط كانت معجزة هذا العصر الذي طرحها مبتكروها كمرحلة انتقال حاسمة في حياة البشرية.. حيث استطاعت هذه التقنية ان ترفع الحواجز وتقرب المسافات إلى حد جعل العالم قرية صغيرة تمتد بشبكة معقدة من الاتصالات وهو ما نسميه بالانترنت.

(١) - (ثورة الانفوميديا؛ كيلش؛ ص ٢٥٣)

وهذه التقنية قد ولدت وتولَّد منها مفاهيم جديدة باعتبار انها قد قاربت بين البشر والأمم إلى حدِّ التفاعل الشديد والسريع بحيث خلقت حالة تداخل شديدة بين الأفكار والثقافات ينتج عنها أما الصراع والاصطدام أو الذوبان والانصهار، ففي هذا التاريخ الجديد ليس هناك مجال لنصب أسوار العزلة الحديدية لحماية مجتمعاتنا بل اصبح الاندماج الحضاري والتداخل الإنساني إلى حدِّ لا يُتصوَّر، لذلك؛ فإن أهم عمليات العولمة وسمتها المميزة هي المعلوماتية أو التقانة العليا بجوانبها العسكرية والمدنية، والمقصود بالمعلوماتية ليس فقط نقل المعلومات وتيسرها لأوسع عدد من الأفراد والمؤسسات وانما الفرز المتواصل بين مَنْ يُولِّد المعلومات (الإبداع والابتكار) ويملك القدرة على استغلالها (المهارات الصناعية) وبين مَنْ هو مُجرد مُستهلك بسيط لها بمهارات محدودة تبقى أسيرة المُبدعين والمُصنِّعين لها.^(١)

إن البحث عن هذه التحولات التقنية المثيرة ليس لكونها أشكالاً حديثة يستلذ بها البشر، وتزداد رفاهيتهم من خلالها، وانما لما ستفرزه من تحولات نفسية وثقافية واجتماعية وسلوكية على البشر بحيث تنطلق من الأشكال التقنية الجديدة أنماطاً بشريةً في السلوك، والفكر، والمجتمع، لذلك فان هذه الإفرازات لا بُد من أن تلقي بظلالها على مجتمعاتنا الإسلامية لتفرض ثقافتها، وقيمها، وأخلاقياتها الجديدة، علينا وهذا سيشكل لنا تحدياً كما هو الآن.. ومن هنا لا بُد من دراسة ظاهرة المعلوماتية ومعرفة ملامحها وأشكالها وتموجاتها لكي نصل إلى تحليل أبعادها وآثارها على المستقبل.

(١) - (العولمة والوشائج الجديدة لحسن النقيب، جريدة الخليج)

تقنية الاتصال السريع وصناعة المعلوماتية

المتتبع لتاريخ هذه الثورة القصير جداً يجد (أن أساس ظهور المعلوماتية وتحولها إلى قوة العصر يرتكز أساساً على تطور تقنيات الاتصال وسرعتها بحيث أصبحت لها السلطة في صناعة الأحداث وبناء السياسات وإسقاط الأنظمة وتوتير الاقتصاد وانهياره والتهام الثقافات، وتعليب العقول، فللمعلوماتية عبر أدواتها الاتصالية وخطبوطها الإعلامي القدرة على صناعة الواقع الوهمي حسب توجهات النخبة المسيطرة الاقتصادية والفكرية للاستثمار والتحكم والسلطة، ذلك ان؛ القدرة على رسم حدود الواقع هي القدرة على السيطرة، وان عملية نقل المعلومات هي السلطة واستثمار فئات معينة بحق الوصول أو التعامل معها واليها يُمثل نوعاً من السلطة خطراً وعنيداً)..^(١)

فالسلطة المعلوماتية هي القدرة على استثمار سرعة الاتصالات لإيصال معلومات مجهزة مسبقاً لأهداف معينة وهنا تكمن جوهر ظاهرة المعلوماتية باستغلال الفراغ الذي يخلفه متلقي الرسائل بالاتصال السريع عندما يفقد الوقت اللازم لاستيعاب الرسالة وهضمها، فهي لا تسمح له بالتفكير بها أصلاً.

أي أن (الاتصالات التي هي عصب عصر المعلومات وعملية الاتصال تتطلب في الأساس مُرسلاً ومُرْسَلاً إليه وقناة اتصال ومن شأن اعتماد وسائل الاتصال البالغة السرعة ان تجعل المعلومات تنتقل عبر قناة الاتصال في فترة وجيزة جداً تؤدي إلى وضع المرسل والمرسل إليه وجهاً لوجه،

(١) - (المتلاعبون بالعقول بشيلر : ص ٢١٢)

وبالتالي انهيار عوامة المعلومات - التي عرفها المختصون بانها؛ الوقت الذي تستغرقه المعلومات في قناة الاتصال)..^(١)

فتقنية الاتصالات وسرعتها وقدرتها على إيجاد التواصل المادي بين البشر وضعتها في مقدم الأولويات الثقافية والاقتصادية بحيث أصبحت المنبر الثقافي والتعليمي الذي يكتسب منه الناس حتى أصبح يمتلكوا هذه الوسائل المعلوماتية هم الذي يصنعون المعلومة ويرسمون واقعاً خيالياً يتحكمون بتأثيراته على المتلقي المسكين، ففي ثقافة التلفزيون مثلاً: كثيراً ما يعتقد المرء ان ما يراه هو حق وهو في الغالب اكثر أهمية من الحقيقة الفعلية فحين يمس الأمر فهم وتصورات النشاطات الإنسانية، ففي الأفلام صار الناس لا يميزون بين ما هو تاريخي حقاً وما هو روائي، فقد غدا الإعلام ديناً مديناً حالاً محل التاريخ والثقافات القومية والعائلة والأصدقاء وبات القوة السائدة التي تخلق تصوراتنا العقلية عن الواقع، والإعلام ببساطة يصنع ويجهز ما يباع أي كل ما يزيد الأرباح وما يباع هو الإثارة والجذب السريع والفوري.^(٢)

فوسائل الاتصال السريع هذه لا تؤدي فقط إلى عملية تسهيل أعمال المستخدم ورفاهيته بل أنها تصنع له ثقافته الخاصة وسلوكه بجميع نواحيه وبرنامجه اليومي الخاص حتى ذوقه في الشرب والأكل، وبل وتسيطر عليه كاملاً عندما تحدد له ما هو الصحيح، أو الخطأ والحق أو الباطل، فهوليوود مثلاً: لا تنتج أفلاماً فحسب بل تولد قوة ونفوذاً، إنها تساهم تحديداً في تظهير صورة الخير والشر في العديد من الأوضاع الاستراتيجية.

(١) - (المعلوماتية على مشارف القرن الواحد العشرين؛ انطوان بطرس: ١٢٤)

(٢) - (مستقبل الرأسمالية؛ ستر ثورو؛ ص ١٠١)

وباتت شبكة ال CNN - التي قالت عنها مادلين اولبرايت ذات يوم في حكومتها؛ بأنها العضو السادس في مجلس الأمن الدولي - رمزاً للإعلام الذي لم يعد مجرد وسيلة نقل ولكن أصبحت مصدراً للمعلومة وباتت قادرة على صياغة رؤية خاصة للعالم تُدخل إلى لاوعي المشاهدين: (الثقافة والرؤية الأمريكية للأحداث)..^(١)

وإذا كانت الماكسة المعلوماتية قادرة على تحويل الواقع إلى خيال وتغيير الخيال إلى واقع أو الشر إلى خير فان الأمر سيصبح خطيراً حينئذ باعتبار أن أدوات المعلوماتية أصبحت العصب الحيوي الذي يتنفس منه العالم كافة أفكاره وتحركاته وفعالياته، فلقد أصبحت؛ ألعاب الواقع الافتراضي في طريقها لأن تصبح أكثر من مجرد وسيلة للترفيه إنها تتحول إلى جزء حيوي من الثقافة الجديدة لدى الشباب، ما الذي سيفعله مدمنوا الألعاب إذا ما اشتد عودهم وكبروا وصاروا رجال المجتمع؟^(٢)

إن مبعث الخطورة ينبع من كون أدوات المعلوماتية هي في يد قلة من الأباطرة الذين أحكموا سياساتهم ونفوذهم ويفرضون ما يريدون على العالم، فشركة مثل شركة (AT & T) التي تعتبر إحدى أكبر شركات الاتصالات البعيدة المدى في العالم تقدر أن ثمة الفين أو ثلاثة آلاف شركة عملاقة تحتاج إلى خدماتها العالمية.. ويوجد حسب إحصاءات منظمة الأمم المتحدة ٣٥ ألف شركة كبيرة عابرة للأوطان ترتبط بها ١٥٠ ألف شركة تابعة، وقد اتسعت تلك الشبكة بحيث يُقدَّر بأن المبيعات ما بين الشركات التابعة التي تنتمي للمجموعة نفسها

(١) - (محركات العولمة بمجلة الشاهد ١٧٩٤)

(٢) - (ثورة الانفوميديا، كيلش: ص ٤٨٤)

صارت تمثل ربع التجارة العالمية وهذه البنية الجماعية التي تشهد عز نموها لم تعد مرتبطة بأحكام الدولة والأمة وهي تمثل عنصراً أساسياً من نظام الغد العالمي.^(١)

ان ثورة المعلومات فتحت آفاقاً واسعة للبشر للعشور على رؤى جديدة عجز عنها السابقون لافتقادهم لتلك التقنيات ولكن السؤال يبقى محيراً كيف يستطيع الإنسان ان يتعامل مع هذا الاجتياح المعلوماتي بشكل موضوعي وعقلاني ونقدي، فيا ترى: ما الذي سيفعله الشخص العادي وهو يجد نفسه ليس في مواجهة ١٥٠٠ قناة فقط، بل آلاف من أفلام السينما والعروض المختلفة؟ وكيف سيواكبون مئات القنوات من التلفزيون التفاعلي وخدمات التسوق وكلها تتزاحم لجذب انتباهه والضحك على ذقنه؟ وكيف سيختارون المنتج الصحيح من احسن بائع وبأرخص الأسعار؟^(٢)

أباطرة المعلومات وطفاتها

ومن ملامح هذه الظاهرة أباطرة المعلومات فقد ظهر في خضم هذه الأعاصير المعلوماتية رجال من نتاجات الرأسمالية النفعية أصبحوا يسيرون العالم بصناعتهم للأحداث وتسويقهم التجاري للمعلومات عبر احتكارهم لأساطيل كبيرة من أدوات الأعلام والمعلومات، مثل (بيل غيتس) الذي يعد أغنى رجل في العالم وصاحب أكبر شركة (المايكروسفت) للكمبيوتر التي أنتجت نظام تشغيل (وندوز) الذي

(١) - (أشكال الصراعات المقبلة بتوفلر: ص ٣٥٩)

(٢) - (ثورة الانفوميديا؛ كيلش: ص ١٩٤)

تعتمد عليه معظم الأجهزة الكومبيوترية في العالم، ومثل (روبرت مردوخ) ذلك اليهودي الأسترالي المتجنس بمجموعة جنسيات عالمية الذي بدأ حياته العملية عام/ ١٩٥٢ م/ وكان عمره وقتها/ ٢١/ عاما حين ورث عن أبيه جريدتين محليتين في استراليا، لكنه انطلق مثل الصاروخ ليصبح إمبراطور الإعلام العالمي حين سيطر على/ ٧٠٪/ من الصحف الأسترالية، وبدأ منذ عام/ ١٩٦٩/ بالتوجه إلى بريطانيا حيث اشترى صحف (التايمز والصن) ثم اصدر (صنداي تايمز ونيوز أوف ورلد) ثم سيطر على محطة (بي سكاي) التي تضم/ ٤٠/ قناة، ثم محطة (جراندا سكاي) التي تضم/ ٧/ قنوات ثم (بريميوم شانلز) واتجه بعد ذلك إلى كل العالم، ففي اليابان يمتلك محطة (جي سكاي بي)، وفي الصين قناة (فونيلس)، وفي الهند قناة (إل سكاي بي)، وفي إندونيسيا (تلفزيون إندونيسيا)، وقناة في جنوب أفريقيا وقناتان في البرزيل والمكسيك، وفي امريكا يمتلك مجموعة قنوات فوكس القرن العشرين وفوكس/ ٢٠٠٠/، حيث يسيطر على/ ٢٢/ قناة تغطي/ ٤٠٪/ من مشاهدي التلفزيون في الولايات المتحدة الأمريكية، إضافة إلى امتلاكه لجريدة (الواشنطن بوست) ودار نشر (هابرر كولينز).

وفي استراليا فان إمبراطورية مردوخ قد توقفت إلى/ ٢٦٩/ جريدة يومية ومحطة تلفزيونية بها/ ٣٤/ قناة.. وقد قال عنه تيد ترنر- أحد أباطرة المعلومات أيضا وصاحب الـ CNN - : لا تسمحوا بدخول هذا الرجل إلى بلدكم فهو يريد السيطرة على جميع محطات التلفزيون في العالم ويريد التأثير على كل الحكومات.

ويذكر صاحب كتب احتكار الإعلام ان طبقة تمثل/ ١٪/ من الناس تمتلك السيطرة على الإعلام ففي عام/ ١٩٨٣/ كانت أغلبية ملكية

الشركات محصورة في خمسين شركة، وفي عام /١٩٩٧/ تقلصت الشركات المسيطرة على الإعلام إلى عشر شركات، والآن تقلصت إلى خمس إمبراطوريات إعلامية عالمية، وعندها يسيطر مجموعة قليلة من الأشخاص هم رؤساء شركاتهم على أكثر من نصف المعلومات والأفكار التي تصل إلى /٢٢٠/ مليون أمريكي، ومن خلال امتلاك الإعلام والسيطرة عليه فإن ما يتراوح بين /٣٠/ إلى /٥٠/ مصرفاً وما يتراوح بين /١٠/ إلى /٥٠/ شركة إعلامية يسيطرون على العالم ويصنعون أو يحطمون السياسيين والحكومات كلما أرادوا.

الغزو الثقافي واندثار اللغات

المتبع للحركة الثقافية العالمية يجد أن أحد أهم ملامح ظاهرة المعلوماتية؛ هو ذلك الغزو والتداخل الثقافي الذي أفرزته وفرة وسائل الاتصال وسرعتها حيث استطاعت الدول القوية بأدواتها وخبرتها ومنسوجها الثقافي ان تغزو الشعوب الضعيفة التي تفتقر لقوة الثقافة واصالة التفكير وروح الثقة بعناصر حضارتها لتذوب في عناصر الثقافات القوية وتعيش مفتخرة على هوامش المجتمعات المعولمة.

واللغة هي من المميزات الأولى بين الشعوب، والغزات أرادوا طمس اللغات للأمم ونشر لغتهم فقط، فأحد أهم المفردات التي تفرضها الثقافة الغازية على المجتمعات المستأصلة لتصبح مفرداتها عنواناً رئيسياً في كثير من العناوين الرئيسية وتفقد اللغات الضعيفة التي لا تستند إلى ثقافة أصيلة ونسيج ثقافي متماسك وجودها وتصبح من

اللغات الميتة.. والخطير في الأمر ان اللغة تصبح مفتاحا لدخول العالم الجديد ومظهرا للتقدمية الشكلية خصوصا عندما تفقد المجتمعات إيمانها بثقافتها وتنصل من أصلاتها هزوبا من واقعها المتخلف فاللغة ليست مجرد آلة ووسيلة للتخاطب وانما هي بالدرجة الأولى آلة للتفكير والنقد والتعلم.

ان اللغات الأخرى لا تمثل خطراً بحد ذاتها بل تعلمها والاستفادة منها يشكل منطلقا مهما لزيادة الخبرة واستثمار العبر من تجارب الآخرين ولكن الخطورة في الأمر ان تتحول اللغة إلى ثقافة بديلة تحل نفسها في الشخصيات المهزوزة التي فقدت قابليتها الذاتية وأصلاتها الحضارية، ففقدت شخصيتها الثقافية التي تربطها بحضارتها الأم.

ويعتقد (ادوارد هوف) الخبير باللسانيات بجامعة (ساوثرن) في كاليفورنيا: ان الكومبيوتر سيقود العالم إلى تهديم برج بابل اللغوي الذي لا يزال عائقا أمام البشرية حيث سيتمكن من خلق أجواء التفاهم بين الإنسان والآلة وتوليد الآلة لمعارف ينهل منها الإنسان.. ويضيف قائلا: ان تاريخ العالم يشير إلى ان الناس يضطرون إلى تجزئة لغتهم وخلق اللهجات لان اللغات لدى نضوجها أو شيخوختها تزداد تعقيدا وتنوعا، ومع حصول التمازج الحالي في اللغات على المستوى العالمي خصوصا مع توسع الشبكة الإلكترونية والبريد الإلكتروني فان اللغات ستزداد امتزاجا ويؤدي تطوير برامج كومبيوترية للترجمة الآلية الدقيقة إلى بروز حرية الاختيار كأحد أهم ملامح النشاط اللغوي للإنسان

لتسجيل أفكاره وتحويلها إلى / ٧ / آلاف لغة وسيهدد ذلك اللغة الإنجليزية التي لا تزال اللغة الطاغية في الإنترنت.^(١)

ومن التوقعات المثيرة احتمال اندثار ما يربو على نصف اللغات في العالم والتي يُعتقد ان عددها يصل إلى ٦٠٠٠ آلاف لغة في العالم أجمع، وتوقع روزماري اوستلر الباحثة الأمريكية في اللغات ان منتصف القرن الحالي سيشهد حلول هذه الظاهرة بسبب هيمنة عشر من اللغات أو أكثر على النشاطات البشرية، وقد تقود هذه الظاهرة إلى تدمير بعض الجوانب المهمة في ثقافات العالم العظيمة كما ان اللغات الأصيلة تمثل جزءاً مهماً من تراث الشعوب.^(٢)

اقتصاد قائم على المعلوماتية

والاقتصاد عصب الحياة ومحركها ومن ملامح ظاهرة المعلوماتية اليوم هو قيام نظام اقتصادي جديد اذ يمكن القول ان الاقتصاد العالمي قد تحول بشكل كبير إلى نظام جديد يعتمد أساساً على المعرفة البشرية، فبعد ان كان الاقتصاد السابق يركز على القوة البدنية والآلات الصناعية والمواد الخام اصبح اليوم مسيراً بواسطة الماكنة المعلوماتية، ففي المجتمع المعلوماتي تزداد قيمة الشيء بالمعرفة لا بالجهد. واذا كانت النظرية في السابق ان العمل كأساس للقيمة. فاننا نواجه الان ضرورة صياغة نظرية في المعرفة كأساس للقيمة لأنه صار الفكر والمعرفة هي أساس القيمة.. وقد استخلص اقتصادي امريكي يدعى

(١) - (جريدة الشرق الأوسط، عدد ٧٧٣٥)

(٢) - (جريدة الشرق الأوسط، عدد ٠٦٧٧)

(ادوارد دينيسون)؛ ان ثلثي النمو الاقتصادي الأمريكي نتج من تقدم معارف القوة العاملة ورفع مستوى قدراتها من التصنيع إلى صناعة التفكير، فالمجتمع المعلوماتي هو حقيقة اقتصادية وليس تجريدا فكريا، فمع تقدم المجتمع المعلوماتي اصبح لدينا اقتصاد يعتمد على مورد أساسي ليس متجددا فحسب بل قابلا للتجدد الذاتي.^(١)

لقد أصبحت المعرفة هي السلاح الاقتصادي في معارك الربح والإنتاج فاختلفت العناصر القديمة لتحل عناصر جديدة تعتمد على الذكاء ومقدار إنتاجها وربحها يعتمد على المستوى النوعي والكمي لمعلوماتها، لذلك فان (الاقتصاد الذكي الجديد يتطلب عمالا هم اذكيا أيضا فان وحدات من العمال الاقوياء تُخلى المكان تدريجيا لاعداد قليلة من العمال العاليي الاختصاص وللآلات الذكية).^(٢)

ويرى البعض: ان المحرك الاقتصادي للاقتصاد العالمي الجديد سيكون مكونا من صناعات الانفوميديا - الوسائط المعلوماتية - وهي الحوسبة والاتصالات والإلكترونيات الاستهلاكية وهذه الصناعات هي اكبر الصناعات العالمية الآن واكثرها ديناميكية ونموا حيث يبلغ رأس مالها اكثر من / ٣ / تريليون دولار..^(٣)

بالإضافة إلى ما تحققة صناعة المعلوماتية من أرباح اقتصادية في مجالات أخرى غير صناعية.

(١) - (المعلوماتية على مشارف القرن الواحد العشرين؛ أنطوان بطرس : ١١٩)

(٢) - (أشكال الصراعات المقبلة، توفلر : ص ٩٥)

(٣) - (ثورة الانفوميديا؛ كيلش : ص ١٢)

ويمكن القول ان تطور ظاهرة المعلوماتية واحتكار أدواتها بيد نخبة صغيرة لتحقيق أرباح خيالية مطلقة سيؤدي بالنتيجة إلى تفاقم التفاوت الطبقي وزيادة الفقراء خاصة انهم اصبحوا غير قادرين على الإنتاج الاقتصادي لافتقادهم لمواردها الاستراتيجية الجديدة ان لم يتحولوا إلى مجرد مستهلكين للنفايات الإلكترونية، لذلك يعتقد البعض؛ ان سهولة الوصول للمعلومات والى وسائل الاتصالات هو شرط مسبق للتطور الاقتصادي فالبؤس لا يعيش في وفاق مع السلام لقد اقترحت توفلر استخدام جيشنا وقوة الثورة الرقمية لنقل ما أمكن من المعلومات والمعلوماتية إلى باقي دول العالم حتى تستطيع شعوب الدول النامية ان تصبح جزءاً من المجتمع العالمي، ويجب علينا استخدام هذه المعرفة لنقل الرفاهية إلى باقي العالم قبل ان يتحول كل سكانه إلى مهاجرين ولاجئين أو معالين بواسطة الغرب.^(١)

المعلوماتية سلطة جديدة

أصبحت المعلوماتية في بداية هذا القرن القوة القصوى والأولى التي تحدد الاستراتيجيات وتفرض التوازنات السياسية والعسكرية، فلم تعد القوة السياسية أو العسكرية في تحالفات وتكتلات سياسية وحشود عسكرية بل أصبحت القوة في منطلق العالم الجديد هي المعرفة التي بتزايدها ترفع مستوى القوة والتفوق على الآخرين، فلم يعد الغرب بحاجة اليوم لاستعمال الحشود العسكرية لاختراق المجتمعات المحصنة اذ استطاع بتكنولوجيته المتفوقة ان يفرض نفسه على الكثير

(١) - (أشكال الصراعات المقبلة: توفلر؛ ص ٣٥٢)

من مناطق العالم وان يحطم منظوماتها السياسية والثقافية عبر نشر أفكاره وقيمه ومشاريعه في حرب رقمية مسالمة لا دماء فيها ولا خسائر بشرية، فاليوم تمثل أسلحة مثل القنوات الفضائية ووكالات الأنباء والصحف والمجلات وتقنيات الكمبيوتر الحديثة مثل الإنترنت سلاحا خارقا يستطيع ان يحقق مالا تحققه القنابل النووية.. فالحرب الحقيقية هي الحرب التقنية والمعرفة والسيطرة على مصادر المعلومات.

وهذا ينعكس بشكل واضح على التفوق العسكري إذ أن (تفوق الغرب لا يرتبط إلى هذا الحد بعتاده العسكري إلا لان قواعده العسكرية ومختبراته وجنوده هي أدمغة وجيش من الباحثين والمهندسين وربما سيأتي يوم يكون فيه عدد الجنود الذين يحملون حواسيب اكثر من أولئك الذين يحملون بنادق، ووزارة الدفاع الأمريكية قامت بالخطوة الأولى في هذا الاتجاه في العام ١٩٩٣ حين وقع سلاح الطيران عقدا لشراء /٣٠٠/ ألف حاسوب شخصي، والخطوة التالية ستكون الجيش الروبوت، هو الذي سيقاقل في جبهات القتال، وباختصار أصبحت المعرفة الوسيلة المركزية للتدمير كما أنها الوسيلة الأساسية للإنتاجية.. والجيش الجديد الآن يحتاج إلى جنود يستخدمون عقولهم ويستطيعون التكيف مع مختلف الشعوب والثقافات ويتقبلون الازدواجية ويأخذون المبادرة ويطرحون أسئلة، ويستمعون للجواب ممن يريدون عبر الحاسوب).^(١)

(١) - (أشكال الصراعات المقبلة؛ توفلر؛ ص٩٠)

الإنترنت بوابة القرن الواحد والعشرين

إذا أردنا منذ عقدين أو أكثر من الزمن ان نتصور شبكة الإنترنت ونتخيلها فأنها قد يتصور ضرب من الخيال ولكنها اليوم تمثل عماد المجتمع المعلوماتي الجديد ومعجزته التي يُبشر بها حيث فتحت هذه الأداة الجديدة العالم على أبوابه ودكت كل التحصينات والأسوار فخيمنت بانتشارها السريع على العالم الأثيري لينصاع العالم لها ويستسلم لجموحها.

ولأنها سهلة الاستخدام فأنها أصبحت في متناول كل يد لا تستطيع ان تتحمل تكاليف استخدام الأدوات الإعلامية الأخرى كالراديو والتلفزيون والصحافة لذلك أصبحت منبرا مفتوحا للكثير من الجماعات والاتجاهات، كما انها أصبحت نهبا للجماعات الفاسدة والمنحرفة التي أخذت تنشر الجريمة والإباحية والشذوذ والأفكار المنحرفة بشكل عجيب وغريب.

ان شبكة الإنترنت تنمو بشكل هائل ومن المتوقع ان يصل حجم عشيرة الإنترنت إلى مليارات من المشتركين في العالم لتكون هذه الشبكة بمثابة تحقيق فعلي لاستعارة القرية الإلكترونية واثبات مجتمع المعلوماتية وسرعة تحقق الاتجاهات نحو تطبيق مفهوم العولمة الحقيقية مبنى ومعنى الذي أرادوه منها إذا لم تفعل الشعوب ما يحصنها من أخطارها المحدقة بالجميع، وتنتفع من ايجابياتها الكثيرة والغزيرة كتلاقح الأفكار وتراكم المعلومات الكونية.

لقد أصبح: امتلاك المعلومات قوة والإنترنت توفر مجالا كبيرا لامتلاك المعلومات فهي تطلع مستخدميها على المعلومات أولا بأول بل قد تسبق أحيانا الوسائل الأخرى في نشر المعلومات، ويُتيح الإنترنت أيضا المعلومات من مصادر متعددة ومتنوعة ومن جهات ذات توجهات مختلفة مما يساعد على مضاهاة ومقارنة المعلومات وتقييمها وهي لا تجعل المعلومة حكرا على أحد فالكل يعرفها والكل قادر على الوصول إليها وهي تتجاوز مستوى التغطية السطحية للأحداث السياسية.^(١)

ويرى البعض ان الإنترنت تمثل وجه العالم الجديد وهو المجتمع المعلوماتي حيث تتحقق الديمقراطية العالمية عبر بوابة الإنترنت ليصبح برلمانا مفتوحا يُعبّر فيه كل مَنْ يشاء عن رأيه ويشارك في اتخاذ القرارات وصنعها، إذ يرى المتحمسون لشبكة الإنترنت فيها الديمقراطية القصوى لديمقراطية المعلومات تحت شعار المعلومات في كل مكان وكل وقت ولكل الناس، أي الإنترنت، وعن طريق البريد الإلكتروني تعطي لكل فرد مقعدا مجانيا في البرلمان الجماهيري يناقش ويعترض ويتساءل ويستجوب وهو بالتكامل مع المجموعات الإخبارية، يُجسد المفاهيم الديمقراطية التي دعا إليها فلاسفة كذبة الديمقراطية في عصور النهضة، ويضيف مناصرو الإنترنت انه عن طريقها يمكن ان يعبر المرء بحرية عن رأيه وان يمتلك منبره الخاص وان يتبادل الآراء وان يشكل مع أصدقائه جماعة ضغط إلكتروني تؤثر على القرارات السياسية للحكومات وتوجهها كما ان بمقدور مستخدم الإنترنت أن

يشارك في صناعة القرار وان يلتقي بالزعماء والرؤساء وان يلقي بأرائه على مسامعهم^(١).

ان وجود هذا الحلم بنشر العدالة لا يعني انه يتحقق في امتلاك هذه الأدوات المعلوماتية لان الفرق يبقى كبيرا بين منتجي المعلوماتية ومستهلكيها، وهو يستحيل تحقيقه طالما ظلت الإنترنت شبكة خاضعة لسيطرة أباطرة المعلومات الذي يمتلكون كل أسرارها وقوتها وجوهرها ويرمون بالقشور إلى الباقين وذلك أيضا للاستهلاك التجاري، لذلك يرى معارضو الإنترنت ان (مجتمع الإنترنت إنما يمثل ثقافة المجتمعات الرأسمالية ومنتدى أصحاب البشرة البيضاء والذين يتكلمون بالإنجليزية ومعظمهم من الأمريكيين وان فكرة الديمقراطية الإلكترونية ما هي إلا كذبة أخرى تُعبر عن مفهوم الهيمنة الغربية الذي يرى نفسه فوق الجميع ويستغل الإنترنت للترويج لثقافة المنافسة الحرة والمشروعات الفردية، ويقول أنصار هذه الرؤية: أن الحديث عن الديمقراطية اون لاين online يجب ان يسبقه الحديث عن حقوق الأفراد الذين هم في مواقع ال off_line فلم تتوفر لعدد كبير من الجمهور فرص تعليمية كافية ولا إمكانيات إتصالية للدخول إلى هذا العالم الافتراضي أو يصبحوا ضمن مواطني مجتمع الويب، فعدد مستخدمي الإنترنت وفقا للتقديرات لا يتجاوز ٥٠٠ مليون مستخدم ممن يجيدون اللغة الانكليزية فقط فأين هذا من المليارات البشرية؟

ومع القوة التي تتمتع بها الرأسمالية فان فسحة المعلوماتية تضيق في وجه الأكثرية وتحجب عنها شمس الحرية التي تحلم بها، لان:

دخول الشركات الكبرى إلى عالم الإنترنت يمنع ويحد من دور الأفراد والجماعات الصغيرة في المنافسة مع ارتفاع التكاليف وقلة زوار المواقع الفردية التي لا تتمتع بمواقع مغرية مثل مواقع الشركات الكبيرة، فالإنترنت قاصرة على نخبة مميزة وعلى شركات أعمال ضخمة تستغل المشتركين وتذبح المفهوم الجماهيري للديمقراطية، ومع غلبة الفعل المادي قد يخرج عدد كبير من المنافسين من ساحة الحوار الإلكتروني.

ان الحكومات والشركات الكبرى بدأت بلعب دور حارس البوابة التقليدي مع تزايد مساحة التواجد التجاري الذي قفز في سنوات قليلة من ٢٪ إلى ٨٠٪ / مدعوما بثقافة الترفيه وهو أمر ضد مفهوم الديمقراطية التي هي ليست سلعة تباع وتشتري وانما هي فلسفة وطريقة حياة كما يشيرون ويدعون، لذلك فان جُل اهتمامهم الآن هو تحويل مستخدمي الإنترنت إلى مستهلكين وهو أمر يحوّلها إلى متجر إلكتروني بيد التجار العالميين، وليس إلى منتدى سياسي يُستمع فيه الرأي المخالف.

ان الإنترنت تمثل ذلك المجتمع المعلوماتي الجديد ولكنه مجتمع مُنغلق على نفسه لا يلبي إلا رغبات ومصالح النخبة التي تديره وتستخدمه، وهو بالتالي لا ينشر إلا الثقافة والمعلومة التي تسير في إطار ثقافته الساقطة، وبعبارة أخرى فان مجتمع الإنترنت يسير في اتجاه التعليب الإعلامي المسيّر في العام الأغلب إلا في بعض الموارد القليلة التي ينفرد فيها أفراد أو جماعات للتعبير عن آرائهم ولكنها تبقى صيحة خافتة في وسط صحراء شاسعة قد لا يطلع عليها إلا أصحابها.

هذا الأمر ينعكس علينا عندما نشعر بمدى ضياعنا في ذلك المجتمع المعلوماتي المعقد فالإحصاءات تشير إلى ان المواقع التي

تنتشر على صفحات شبكة الإنترنت يمثل منها / ٨٢٪ / من المواد باللغة الإنجليزية، و/ ٤٪ / باللغة الألمانية، و/ ١، ٦٪ / باللغة اليابانية، و/ ٣، ١٪ / باللغة الفرنسية، و/ ١٪ / باللغة الأسبانية، والباقي موزع بين باقي لغات العالم واغلبها لغات أوروبية.

ان ملامح وواجه المجتمع المعلوماتي يؤكد ان الإعصار الكبير سوف يجتاح الأمم وسوف يستأصل كل أسسه الفكرية والعقائدية والثقافية ويحولها إلى قطع إلكتروني يستهلك ما تنتجه تلك الدول المستعمرة إلكترونياً.. وهذا التحدي يستدعينا لمواجهة هذا الإعصار والوقوف بصمود أمامه لا بقطيعته وسد ابوابه بشكل مطلق اذ ان الانغلاق مستحيل في عالم مفتوح جداً، وانما بامتلاك أسلحة المعرفة امتلاكاً حقيقياً قائماً على الوعي السليم والاستفادة الناضجة من ادواتها لتحقيق النشر المعلوماتي الهادف في خير البشرية وسعادتها.^(١)

المعلوماتية وآليات الاستيعاب

كيف يمكن تلافي أخطار المعلوماتية التي تهدد الأمم والمجتمعات؟ إذ أنه لا يُمكن للانفتاح السلبي إلا ان يؤدي إلى ذوبان وانصهار مطلق في آلة المعلومات الغربية، كما ان القطيعة الكاملة لا تعني إلا تجاوزاً لكثير من المقترضات والدواعي التعليمية والنفسية والاجتماعية، وقد يكون افضل الحلول هو المواجهة الإيجابية التي تركز على الانفتاح المبني على التحصين الذاتي والاستعداد الذاتي

(١) - (راجع مجلة النبأ : ع ٥٠ ص ١٩ بتصرف)

والمناعة الداخلية وهي عملية صعبة تحتاج إلى كثير من الوعي والتنظيم والعمل الجاد.

لم يكن مقصودنا من العرض السابق لبحث المعلوماتية هو التركيز على طرح الجانب السلبي لهذه الظاهرة بصورة متشائمة تدعو للقطيعة التامة، بل كان المقصود هو التنبيه المؤكد لخطورة التحديات التي تواجهنا، حيث لا يمكن لنا ان نتحرك إيجابيا ما لم تستنهضنا الأخطار التي تهبُّ علينا من مختلف الجهات.

وليس الخطر فقط في وجود هذه الأعاصير التي تعصف بقوة في أساسياتنا الثقافية من عادات وتقاليد وعقائد وأفكار وأخلاقيات.. محاولة قلعنا من جذورنا، بل الخطر الأكبر هو في كيفية استجابتنا لهذه التحديات ووعينا لحقيقة ما يمر علينا، اذ ان التاريخ هو مجموعة من التحديات والصراعات والتطورات تنتهي ببقاء الاصلح والأقدر على التغلب على المصاعب الطبيعية والتاريخية.. لذلك فان الأمم مثل الرجال تنبعث من أعماقها فتعثر على قوامها لتواجه مصيرها وتختار طريقها وتحقق إرادتها.

ولكي لا نبقي من الأمم التي تُذبح يومياً - على الطريقة الشرعية أو بالقوة الكهربائية أو المقصلة العالمية - في مسالخ الوهن والاستغلال بعد ان تصبح راكنة راكدة كالحمل الوديع الذي استسلم لقدره، لا بُد من ان نعرف ان الأعاصير سوف لا ترحم والجزار لن يحن على الضحية يوماً، وحركة الحياة لن تتوقف، بل ان الحقيقة الحاكمة هي صراع الارادات وحرب العقول ومعركة الافكار والمنتصر هو الذي استطاع بوعيه وقراءته الصحيحة لقوانين الحرب والصراع ان يستثمر الوقائع لصالحه.

وحتى الآن فنحن لازلنا الطرف الاضعف في هذه المعركة مع وجود كافة القابليات الذاتية التي يمكن ان تقودنا لنكون الافضل، ولكن عندما يُفقد الوعي، وتتخدر العقول، وتتهشم الافكار النيرة، وتخور العزائم في أبناء الأمة، وتفقد ثقفتها بنفسها وبتاريخها وقادتها وعظماؤها الذين غيَّروا وجه الحضارة الإنسانية، وطبعوها بطابعهم قرون متطاولة، وتصبح قابلياتنا دفينه في اعماقنا، وأفكارنا حبيسة في صدورنا، وعلومنا مخبوءة ما بين الصدور والسطور، ولا ترى النور إلا بعمليات قيصرية، فمازال علماؤنا كإمامهم أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يقول لمن حوله: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات فإني أعلم بها من طرق الأرض...» فيقوم جلف يسأله عن راحلته، وغلظ آخر يسأله عن عدد شعر رأسه؛ فيتركهم ويذهب إلى الصحراء ويدلي برأسه في بئر هناك ويتكلم مع عوالم أخرى أجدر من الأمة في ذلك العصر الذي ظلم العالم كله بإهماله لذاك الإمام العظيم، وعلومه التي كانت من علوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والتي هي من علم الله تعالى، فكم تحتاج هذه الأمة لتجد مثل ذاك العظيم فتسأله ويجيبها عن طرق السماوات والأرض، تلك هي المسألة، بل المعضلة حقاً؟

نعم؛ مازالت عقولنا وطاقاتها، وأفكارنا وذخائرها تنتظر فيه اليوم الذي تتحقق فيه الشروط والاستعدادات.. وكل ذلك يقودنا إلى ان مشكلتنا هي في نوعية استجابتنا لتحدي المعلوماتية وقدرتنا على قراءة هذا الأمر والوصول إلى فهم متبصر لادارته واستيعابه، اذ ان الحقيقة الاساسية التي نكتشفها اليوم ان السلبيات التي تكتنه هذه الظاهرة هي في الواقع من نتاج الرأسمالية وولادتها ولكن بشكل اكثر تركيزا وضررا، فاذن ليست هي بالأمر الغريب ولكن الغريب هو كيفية تعاملنا مع هذه

الظاهرة، إذ أننا مبهورين إنبهار الأطفال ومشدوهين كالبه والحمقى تجاه ثورة المعلوماتية.

فمثلاً عندما نرى الوضع الذي يحدث في الأراضي المحتلة في فلسطين عندما يتحول الجزار الاسرائيلي إلى ضحية والضحية إلى جلاذ عبر الأدوات المعلوماتية وأمبراطوريات اعلامية يهودية، تلك التي يمتلكها العدو فيعكس للعالم الحقائق بصورة مغايرة ومقلوبة رأساً على عقب، (هذا عدا عن سفراء ما يسمونه باسرائيل في البلاد العربية ومقالاتهم التي تعبر عن عدا، سافر للأمم وليس مجرد ضبايية في الفهم، فأني عاقل يقول: يا ليتني كنت جندياً إسرائيلياً لأقاتل حماس وأبيدها، أو لأقاتل حزب الله الذي رفع كرامة الأمة اليوم؟)، هذا يعني أننا بعيدون كل البعد عن فهم التحديات التي تواجهنا وكأننا نعيش في قرون مضت، أو هوامش نُسييت من الحياة المعاصرة.

فعندما نتصور ان العالم سوف يقف معنا في صراعنا الوجودي مع الصهاينة، أو يتعاطف مع قضايانا العادلة، وهو جاهل بها وكل ما يعرفه أننا وحوش ومجرمين نعتدي على الحمل الوديع (إسرائيل) والنساء الطاهرات، والشيوخ العباد الركع، والأطفال الرضع، والأبرياء من اليهود الفقراء البسطاء الذين جاؤوا ليحضرونا من وراء البحار ونحن نعاملهم بهذه المعاملة السيئة..) فإن كانت هذه هي الصورة التي يصورها الإعلام الصهيوني للعالم عنا وعن عدونا.. فكيف يتعاطف العالم معنا وهو يتلقى يوميا أفكاراً وإيحاءات وتصورات يعكسها من يمتلك القوة الصانعة للمعرفة والمغذية لها.. وهذه مشكلة لازالت عالقة في خطابنا

الحماسي وتفكيرنا العاطفي لتكون استجاباتنا الانفعالية هي الحاكمة في معظم قراراتنا وتحليلاتنا على كل المستويات سيما أصحاب القرار والمثقفين الكبار.

ان ما ذكرناه سابقا في سلبيات المعلوماتية هو ليس دعوة للقطيعة والانعزال في عوالمنا الخاصة بل هي محاولة لتسليط الاضواء على حقيقة الوضع من اجل استنهاض الهمم وتجديد الوعي لتحقيق استجابة إيجابية تتواصل مع هذه الظاهرة بشكل متفهم وقاريء مدرك لعناصر حركتها وصبها في الاتجاه الصحيح للمحافظة على اصالتنا وتجديد حياتنا دون الرضوخ لضغوطات التغريب والتهميش.

اذ ان كل ما رأيناه في واقعنا المعاصر هو اتجاهان مختلفان في استجابته لتحديات المعلوماتية، هما:

١- إتجاه سلبي: تعامل بسلبية كاملة مع المشكلة ونظر إليها على أنها قدر لا يمكن النجاة منه، وبرز منه موقفان خاطئان:

موقف انفعالي: وهم مَنْ يتعامل بانفعالية مع كل ظواهر التقدم ويدعو للقطيعة الكاملة والحرب الشاملة ويستخدم العنف والتهيج الجماهيري في صراعه مع الغرب ولكنه في نفس الوقت يستخدم أدواته التكنولوجية.

موقف مستسلم: وهم مَنْ استسلم بشكل مطلق للتنويم المغناطيسي الذي يستخدمه الغرب للسيطرة على الشعوب فراح يقلد الغرب في كل شيء واصبحت منابره الإعلامية مجرد آلة من آلات الدعاية الرأسمالية.. هذه الاستجابات الانفعالية المتناقضة تؤكد حقيقة وضعنا المتأزم بازدياد

لأنها استجابات لا تقود إلا لمزيد من الأخطاء والمشاكل، ولا تصب إلا في مصلحة العدو وبابتعاد الناس عن الاشتراك في عملية النهوض.

٢- إتجاه إيجابي: وهم أصحاب الاستجابة الحقيقية العاقلة الواعية، فهي الاستجابة المنطلقة من روح الاعتدال والتعقل والبصيرة حيث يمكن تحقيق النهوض التدريجي والوعي المتصاعد والفهم الأساسي لحركة الحياة وقوانين التاريخ، فلم ينبهروا بالمظاهر الخلابة لبهارج الحضارة الفاسدة، ولم ييأسوا من رُوح الله بحركتهم بين الألغام والمتاهات المعاصرة، فلم يفقدوا توازنهم أمام الآخرين، والأهم من ذلك أنهم لم يفقدوا إيمانهم بربهم، ودينهم، وقيمهم، وأخلاقهم الحضارية.. فالاعتدال والوسطية يوجدان تأملاً مركزاً في العقل وإيحاءاً هادئاً في الفكر وتأنياً مدروساً في السلوك يقود بالنتيجة إلى تحقيق النتائج الأفضل والأسلم، لذلك يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(١).

إذن؛ يمكن ان يُطرح هنا السؤال المهم، وهو: كيف يمكن ان نواجه هذه التحديات وكيف يجب أن تكون استجابتنا لها؟

وقبل الإجابة على هذا الإشكال، لا بد من أن نعرف أولاً أين موقعنا في الطريق السريع للمعلوماتية وموقع الاقوياء فيه حتى نستطيع من خلال المقارنة ان نستوحي بعض الافكار في هذا البين الذي يصعب المقارنة فيه فأين هم، وأين نحن في ذلك؟

موقعنا وموقعهم

تشكل وسائل المعلوماتية وتطورها نقطة انطلاق مهمة في نمو الثقافات وتموجها الواسع حتى اصبح التداخل الثقافي والحضاري سمة مهمة في العصر الحالي، هذا التداخل يمكن ان يؤدي بالنتيجة إلى عملية ذوبان بالنسبة للطرف الأضعف أو تسلط واستغلال بالنسبة إلى الطرف الأقوى أو صراع عندما تحدث مواجهة وتصادم في بعض المواقع عندما يشعر الطرف الأضعف بفقدانه لخصائص ثقافته أو قوميته أو دينه.. ذلك أن التثاقف يجري بين الثقافات على قاعدة الندية وهو ما يمتنع دون اعتبار أي ثقافة لشخصيتها وحرمتها الرمزية فيما لا يعبر فعل الاختراق والتجاوب معه سوى عن دونية يأبأها أي انفتاح أو حوار؛ هذا درس بدائي من دروس الانثربولوجيا الثقافية المعاصرة.^(١)

وقد اصبح من يمتلك هذه الوسائل له القدرة على تسويق ثقافته وقيمه وفرضها على الآخرين عبر غسل الأدمغة الأثيري وبالتالي إمرار أهدافه وبيع بضائعه، وكلما قويت مواقع الحرب المعلوماتية قويت سلطات السيطرة من خلال حرب لا يستخدم فيها السلاح ولا يجري فيها الدم ولا يمكن رؤيتها لأنها تحدث في عالم الأثير الفضائي وهي بحد ذاتها يعتبرها البعض من أسوأ الحروب باعتبارها تمس عقول البشر وتنتهك افكارهم وخصوصياتهم.

ومن هنا يرى ان العولمة في مفهومها ليست سوى السيطرة الثقافية الغربية على سائر الثقافات بواسطة استثمار مكتسبات العلوم والتقانة في ميدان الاتصال، وهي التتويج التاريخي لتجربة مديدة من السيطرة بدأت

من انطلاق عمليات الغزو الاستعماري منذ قرون وحققت نجاحات كبيرة في إلحاق التصفية والمسح بثقافات جنوبية عديدة وبخاصة في أفريقيا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية.^(١)

ولا يمكن الاكتفاء بإلقاء اللوم على الآخرين ورفع مسؤولياتنا في هذا الصراع إذ إن التاريخ البشري كان منذ بدئه صراعاً حاداً يسيطر فيه من يمتلك القوة والإمكانات لانتصاره على الآخرين، فالشعوب الضعيفة مهما كانت مبادئها سامية لا تكون قادرة على الدفاع عن نفسها وتحصين ذاتها ما لم تملك الامكانيات الذاتية لقيومتها وقوتها وهذه هي سنة التاريخ وقانون البقاء، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٢)

ويمكن ان تكون قوة الحضارات وانتصارها نابعة بالدرجة الأولى من قدرتها الشمولية على تحقيق عناصر القوة والتفوق، واليوم فإن من يحتل برج المعلوماتية هو من يسيطر على وسائلها ويصنع من خلالها الافكار ويبرمج البشر في ضوء اهدافه ومخططاته. فقد انتهت وسائل العصور الغابرة وحلت التكنولوجيا الخارقة التي ابهرت البشر بتقنياتها وخدعها البصرية الخلافة، فمهما تتعاضم القيم وتسمو المبادئ فانها تبقى غير فعالة ما لم يمتلك اصحابها وسائل بثها ونشرها، ففي عصر الرقمية ال (Digital) وبينما نتقل بسرعة كبيرة نحو الوسائط المتعددة العالمية والمتفاعلة والشركات المدمجة العملاقة تتنافس

(١) - المصدر السابق.

(٢) - الأنفال، ٦٠.

بشراسة من سيستغل بأسرع ما يمكن تقنيات الاتصالات المستقبلية والحال ان دعاة السلام مازالوا في عصر الموجات الصغيرة.^(١)

ومن خلال حساب الارقام والإحداثيات يمكن ان نكتشف موقعنا الاضعف في هذه الحرب العالمية للمعلوماتية وعدم وجود استعداد كاف لمواجهة هذه التحولات الجديدة نتيجة لعدم وجود الروح الواعية والبصيرة بهذه الحقائق والمدركة لخطورتها.. فاليوم تسيطر وسائل المعلوماتية الغربية واليابان على مجمل النشاط المعرفي والاقتصادي في بلداننا حيث نستورد منهم كافة الأدوات التكنولوجية ونستقي من خلال اقنيتهم معظم مواردنا الفكرية والثقافية والخبرية، فعلى سبيل المثال فان الشركات المتعددة الجنسيات يبرز دورها الخطير من خلال الإعلانات التي تتضمن محتوياتها قيما وأنماطا للسلوك الاستهلاكي تهدف في الأساس إلى إلحاق الضرر بالاقتصاديات الوطنية فمن المعروف ان هناك/ ٥٢ /وكالة اعلان دولية منها/ ٢٢ /وكالة أمريكية لها مايزيد عن/ ٨٠٠ /توكيل في العالم العربي وتحقق عدة اهداف في وقت واحد تتمثل في ترويج بضاعتها ونقل القيم والثقافة الأجنبية والتأثير على حرية الرأي في وسائل الإعلام العربية.^(٢)

فنحن لا نمثل في البين تحدياً واقعياً للصراع الثقافي العالمي ان لم نكن جسراً لعبور أفكار الاستهلاك والأباحية والانحلال لاننا بالضبط نستهلك أدواتهم ونسوق لثقافتهم ونجتزأ أفكارهم ونقدم لأطفالنا وشبابنا إنتاجياتهم الثقافية لينموا وهم نسخ ممسوخة ومقلدة من الصناعة الغربية، وفي ذلك تؤكد أرقام اليونسكو ان المحطات

(١) - اشكال الصراعات المقبلة، الفين توفلر، ص ٣٥١.

(٢) - النهج، العدد ٥٠، ص ٨٤.

التلفزيونية في البلدان النامية تستورد أكثر من ٥٠٪ مما تقدمه وان أكثر من ٧٥٪ من هذه المادة المستوردة من منشأ أمريكي وهذه المواد اما ان تكون هابطة او منتجة خصيصا للبلدان النامية.^(١)

وكذلك يمكن ان نرى مقياس الثقافة من خلال ما نمتلكه من صحف ومجلات، فحصة العرب من الصحف على سبيل المثال لا تتجاوز نسبة ٤، ١٪ من صحف العالم مع ان عدد السكان العرب يشكلون ١٧٪ من عدد سكان الكرة الأرضية حيث يحصل كل ١٠٠٠ عربي على اقل من ٣٩ صحيفة بينما يحصل كل ١٠٠٠ شخص في الدول المتقدمة على ٣٣٠ صحيفة، أما حصة العرب من مواد الطباعة فتشكل ٦، ٠٪ ومن الأفلام ٨، ١٪ ومن مقاعد السينما ٤ مقاعد فقط لكل ألف، والمذياع ٨، ٢٪، والتلفزة ٧، ٢٪، بينما يبلغ مجموع الصحف العربية الصادرة ١٣٠ صحيفة من اصل ٩٢٢٠ في العالم.^(٢)

وبالنظر إلى هذه الإحصائيات القديمة نسبياً لأننا في عصر السرعة إلا أننا سقناها لتتعرف على مواقعهم وموقعنا فنكتشف حقيقة ضعفنا ومسئوليتنا عن تلك الترديات والانسلاخات التي تحدث يوماً بعد يوم في أسسنا الثقافية اذ يزداد التآكل في عقول الشباب لتمتلئ بالتفاهات التي تقودهم نحو الميوعة واللامبالاة في زمن اختفى فيه معنى المسؤولية.

ذلك لأن الغرب بقوة وقدرة وسائله الالكترونية استطاع ان يغزو العقول ويسحق القيم ويؤسس في أعماق مناطقنا ثغرات يبني فيها

(١) - الاعلام العربي وتحديات العولمة، تركي صقر، ص ٣٥.

(٢) - المصدر السابق، ص ١٣٤.

اوكاره الفاسدة متحدياً كل الحواجز النفسية والمعنوية لدينا.. والارقام تؤكد يوماً بعد يوم تطورهم في استخدام وسائل المعلوماتية التي أصبحت مصدراً استراتيجياً في تحقيق القوة وبناء موازين القوى، فالصادرات من المواد التي يسمونها بالثقافية (كتب، ومجلات خليعة، وافلام فاسدة، وبرامج تلفزيون داعرة) مليارات الدولار، الأمر الذي جعل تصدير الثقافة يحتل المصدر الثاني في الدخل القومي لديهم بعد تجارة السلاح، وفسق السياحة لديهم، وكل ذلك من جيوبنا وثرواتنا وطعام أطفالنا.

وكذلك تحكم الدول الغربية بمصادر بث الأخبار يعطيها القدرة على صناعة الأحداث وتضخيم او تصغير الحدث حسب مصالحهم وبالتالي سيطرتهم على مواقع الأحداث وهذا لاشك يعطيهم ميزة التفوق باستمرار وبالتالي السيطرة على موازين القوى، ويمكن ان نلاحظ ان وكالات الأنباء الأربع الكبرى - رويتر، والفرنسية، والاسوشيتدبرس، واليونائيتدبرس - في العالم تحتكر ٩٠٪ من الأخبار العالمية وهذه الوكالات لها مصادر وشبكات هائلة من بنوك المعلومات والتمويل المادي الهائل في عصر التقدم التقني.^(١)

ولاشك فان الولايات المتحدة تشكل القوة الأولى في تصدير الثقافة والمعرفة وبالتالي فهي تحتل موقع القمة في الهرم العالمي المقلوب من حيث موارد المعرفة استراتيجياً، وبهذا فهي قادرة على توجيه الرأي العام العالمي نحو قيمها والتأثير على توجهاتها لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية والثقافية، اذ وجدت الولايات المتحدة نفسها بانها

(١) - المصدر السابق، ص ١٣٤.

القوة الاقتصادية الوحيدة التي تتوافر لديها صناعة ثقافية للشبان قادرة على التصدير الفوري فصارت تسيطر دون منازع على أسواق الاستهلاك الثقافي للشباب في العالم، وتأثيرها في ثقافة الشباب سيكون له اثر مستقبلي قوي اذ ان شبان اليوم هم نخبة المستقبل ووصول أمريكا إليهم في عمر الشباب يعطيهم أفضلية في التأثير فيهم عندما يصبحون راشدين ويافعين في مجتمعاتهم واقتصادياتهم.. وكذلك فإننا نجد ان في الولايات المتحدة اكثر من ٢٠ ألف جامعة ومعهد أصبحت في وضع قيادي دون منازع، فهيمنة الجامعات الأمريكية وانفتاحها أمام الطلاب الأجانب يعني اعدادا متزايدة من النخب في العالم تتخرج في الجامعات الأمريكية حاملة معها اساليب ثقافة وطرائق تفكير وسلوكيات اقتبستها خلال سنوات الدراسة الجامعية وبما ان هؤلاء القادة يعودون الى بلدانهم واكثرهم يصبحون قادة فان قدرتهم واسعة في التأثير على مجتمعاتهم.^(١)

لقد اصبحوا يحتلون مواقعنا بعد ان أصبحت خاوية على عروشها، وبئر وعطلة وقصر مشيد، ولم نتحمل مسؤولياتنا في الاستجابة للتحديات والتغيرات التي تحصل في العالم يوما بعد يوم ولاشك فان الموقع الذي يصبح راكدا لا يتطور مع تغير الظروف والزمان يصبح آسنا كالمستنقعات تملؤه الأوبئة وتحتله القوارض والطفيليات.. وهذا هو أساس مشكلتنا إننا لا نعطي آذاننا صاغية للواقع الخارجي ونغلق على أنفسنا الأبواب وكأن النار سوف لا تمسنا من بعيد او قريب.. والحال ان تغير الظروف وتطور الحياة يفرضان علينا دراسة الأمور بعمق وواقعية لضمان الحفاظ على مواقعنا الداخلية والخارجية كما فعلت

اليابان وتفعل اليوم اذ تحاول ان تطور نفسها وتحافظ على كيانها في الوجود العالمي مستقلة قوية تملك الامكانيات الذاتية لمواجهة اعاصير المعلوماتية عبر مجازاة التطور العالمي في ثورة المعلوماتية وهاهي اليابان وحدها ترصد المليارات من الدولارات لإنشاء طرق معلومات فائقة السرعة من الألياف على مستوى الدولة.^(١)

انهم يطورون مواقعهم ويتقدمون ونحن لانفكر في ذلك ابدا فكيف يمكن ان نواجه هذه الثورة الجديدة ونحن نخسر تحدياتنا الداخلية ونتقهقر إلى الماضي راسمين لاجيالنا صورة قاتمة من التبعية والهامشية؟ فالدول النامية ستهبط إلى مجال التهميش والعزلة مما يعرضها لمخاطر الاستبعاد لأنها غالبا تفتقر إلى الامكانيات الاقتصادية والاجتماعية التي تجعلها قادرة على الاستفادة من التكنولوجيات الجديدة، ولو حاولت الدول النامية اللحاق بالدول المتقدمة في هذا المجال فإنها ستلحق في الواقع بالماضي لان الدول المتقدمة ستكون قد غادرت مواقعها لآفاق تقدم جديدة.^(٢)

ذلك انهم يواكبون التغيرات الكبيرة التي يشهدها العالم ويحاولون ان يسبقوا الاخرين ويتجاوزوا الحاضر ليغادروا الى المستقبل، ومواقعنا تنبئنا باننا نعيش على ما يخلفه الاخرون من منتوجات مستهلكة وقديمة لنبقى نعيش في الماضي معتمدين على وسائلهم القديمة والمتخلفة.. ان الفرق بيننا وبينهم يمكن ان يحدد في ان مصادر التكنولوجيا التي هي من نتاجهم هي في الواقع مصادر موجهة نحو إنتاج وسائل التغيير المستمر، في حين انها في مجتمعاتنا مصادر لضمان استقرارها

(١) - ثورة الانفوميديا،فرانك كيلش، ص٤٩٢.

(٢) - صحيفة القبس، العدد ٩٤٩٠.

واوضاعها القائمة، فالتغيير بالنسبة لهم يعني المستقبل المصحوب بمزيد من التمكين والقوة في حين ان المستقبل يحمل لنا الكثير من المخاوف لاننا ببساطة غير فاعلين في صنعه أو انه قد صنع لمصلحة الآخر.

نعم اذا لم نستجب لتحدياتنا ونُغيّر واقعنا ونبقى على واقعنا المتخلف يمكن ان تنعم الدول المتقدمة علينا ببعض تكنولوجيتها من اجل تحقيق بعض مصالحها الاقتصادية والسياسية او للحفاظ على التوازن العالمي.. وعندما نصبح لاجئين متكئين على تكنولوجيا الغرب وما يقدمونه لنا من صدقات وهبات تصبح التبعية التامة في اكثر مصاديقها تحققا وهو يعني ان نصبح إحدى ولايات الولايات المتحدة فهل هذا هو التغيير الذي نصلو إليه؟

بين المقاطعة والعزلة والذوبان

لا ليس الحل في مقاطعة هذه الظاهرة الجديدة.. أو الانعزال عن العالم لضمان المحافظة على الذات..! وليس الحل كذلك بالمسايرة المطلقة لما يجري من تغييرات والذوبان في مظاهرها وسلوكياتها.

فالحل الأول وهو المقاطعة يعني المواجهة السلبية ومحاربة كل وسائلها وادواتها واعلان الحرب على وجودها والى عزلة تامة عن الآخرين، وهذا لاشك يعني الرجوع إلى العصر الحجري أو نتحول إلى مقاتل مثل (دون كيشوت) وهو يقاتل بسيفه الطواحين الهوائية.. فالقطيعة يعني ان نخرج من هذا الكوكب ونعلن الحرب على جميع

البشر، بالإضافة إلى ان قانون الحياة والاجتماع يعتمد على وجود التكافل البشري والتعاون وتبادل الحاجات خصوصا في هذا العصر الذي تداخلت فيه مصالح الأمم بشكل كبير إلى حد ان القطيعة والعزلة تعني الإضرار بالمصالح القومية.

وقد اثبت الواقع ان القطيعة تؤدي إلى تخلف شديد يقود المجتمع إلى الوراء سنوات طويلة ويؤدي إلى رد فعل عكسي بتحول الأمر إلى ذوبان مطلق وانهيار المنظومات الفكرية والأخلاقية والثقافية لدينا.. إضافة إلى ان الانعزال سيقود الناس والشباب بالخصوص إلى إقبال سلبي وحرص زائد على الدخول في عالم الممنوع ومحاكاته مما يولد ظواهر سلبية بالأخص إذا اختفى المنطق والاقناع وكانت القناعات مجرد تشدد متحفظ.. وقد فشلت معظم الجهات الحكومية في منع أدوات المعلوماتية ومنع اختراق اجواءها فالتقدم العلمي مكن الغرب من توظيف التكنولوجيا لاختراق المجتمعات المحصنة وان يفرض عليها نظمه وثقافته وقيمه.. ويؤكد (إيف وود) بان اكبر قدر من الاستهلاك للثقافة الامريكية يحدث في المناطق التي تشكو من مجاعة في المعلومات الحديثة والثقافة المعاصرة.^(١)

إشكاليات في مواجهة التحدي

هناك الكثير من الاشكالات التي تقف في طريق بناء الاستجابات الإيجابية لهذا التحدي ولا بد من قراءتها والسعي لرفعها وإيجاد البدائل

(١) - النهج، العدد ٥٠، ص ٧٩.

اللازمة لتحقيق التقدم الحضاري واستثمار المعلوماتية كوسيلة أساسية في تحقيق هذا التقدم. فمن ضمن هذه الأشكال:

١. سيطرة حالة الاستبداد والدكتاتورية:

على مجمل النشاط وخصوصاً النشاط المعرفي والإعلامي في بلادنا حتى أصبح من سمات الأنظمة سياسياً واقتصادياً وثقافياً.. ومن طبيعة النظام الاستبدادي هو فرض حالة الأحادية وإلغاء الآخر وفقدان التنوع واستئصال الإبداع والابتكار، إذ انه يستخدم آله القمعية لفرض أدواته الفكرية والسياسية والحفاظ على سلطته دون أي خدش أو نقد.

وهذا الإشكال يعني ان المجتمع سوف يكون فاقدا لروح الإبداع بالمبادرة والعمل الإيجابي ويكون موقفه من ثورة المعلوماتية مجرد متلقي لما تبثه وسائل المعلوماتية الغربية.. وقد يكون هذا الإشكال من العقبات التي نواجهها في الحرب المعلوماتية، إذ نرى ان الإعلام الرسمي للأنظمة الاستبدادية لا يسير في إطار التغيير البناء والحركة الإبداعية بل يقتصر دوره على تمجيد السلطات وتمثيل رأيها، وحينئذ فان معظم المؤسسات الاجتماعية المستقلة التي تحتوي على معظم الناس يصيبها الشلل ويكون دورها سلبياً يحاكي الدور السلبي للأكثرية الصامتة.. وهو يعني أيضاً عدم وجود المؤسسات التي تبث الوعي بين الناس لمعرفة الوقائع واختيار البدائل.

٢. عدم وجود المؤسسات البنيوية:

والتي تمثل القاعدة الأساسية التي تحتوي أفراد المجتمع في إطار فكري وثقافي منسجم وواع ومدرك للأحداث.. ذلك ان وجود الأنظمة الدكتاتورية قد قاد إلى القضاء على هذه المؤسسات فانفصمت عرى

المجتمع وعاش الناس بعيدا عن التوجيه والتوعية منفردين ومنعزلين.. ومع عدم وجود المؤسسات الفاعلة فان اجيال الأمة تبقى تتغذى - من البث المعلوماتي المفتوح جبرا - ثقافتها وقيمها ونشأتها، لانه لا توجد مؤسسات بناءة تستوعب هذه الأجيال ثقافيا وتربويا.. وغياب هذه المؤسسات يبدو واضحا في غياب الإعلام الفضائي والأرضي المستقل وفي غياب الأحزاب المتعددة وفي غياب الجمعيات الثقافية والتربوية وهو فراغ لازال يفرز آثاره السلبية بشكل كبير.

٣. تغييب الآخر:

هو أحد الاشكالات التي برزت كواقع أخلاقي وسلوكي وفكري أدى إلى تضييع روح المنافسة والتطور وبالتالي إلى القضاء على الآخر بشتى الوسائل الارهابية.. فكيف يمكن لنا ان نحوي الثورة المعلوماتية وتموجاتها والحال أننا لا نستطيع ان نتعامل مع الشريك الآخر ونصغي لأفكاره ونستمع لهمساته ومع تغييب الآخر ارتد الناس إلى الأثير الذي يبثه الغرب لعله يجد ضالته ويشبع حاجته ويحلم بحريته.. لقد تحولت عملية استبعاد الآخر إلى إرهاب أيديولوجي وطائفي وتحزبي أدى إلى تغييب الأولويات والانشغال بالهامشيات.

٤. ضعف الخطاب الثقافي والإعلامي:

وعدم مجاراته للخطاب المبعوث في العالم، فعندما تسيطر حالة السطحية في التفكير ويترسخ السلوك الاستبدادي ويختفي التسامح والمرونة اتجاه الآخر ويسيطر التشدد على مفاهيم التفكير ومعايير السلوك يصبح الخطاب مجرد كلمات جوفاء يصعب على العقل تقبلها واستيعابها، وفي المقابل فان الناس يرون الخطاب الغربي وقد تنوعت

أساليبه وتوسعت افاقه وازدادت أساليبه الابهارية إبهارا فانه لاشك سوف يقبل على الخطاب الغربي ويزدوب فيه.. وهذا يعني ان نوعية خطابنا هو سبب رئيسي في عدم قدرتنا على مواجهة إعصار المعلوماتية خصوصا عندما تكون من مميزات هذا الخطاب هو استبعاد الآخر وإلغاء أفكار الآخرين ووجودهم.. وقد تسبب العنف الخطابي في تنفير الكثير من الناس وابتعادهم وبالتالي اقبالهم على الخطاب الغربي.

٥. التشتت والتفكك:

له دور كبير في تمزيق النسيج الثقافي الإسلامي المشترك، اذ ان الصراعات الداخلية حولت معظم الجهود لحرب داخلية صرفت الأنظار عن الاخطار الحقيقية لهذه الحرب المدمرة في كياننا تقودها مجموعة يحكمها منطق الجهل والتعصب الاعمى ويساعدها على ذلك فقدان وعي الوحدة واخلاقية احترام حقوق الآخرين وعدم فهمها لروح الدين الإسلامي الاصيل.. ومع عدم وجود النسيج الثقافي المشترك يصبح من السهل اختراق ثقافتنا والسيطرة على عقول شبابنا وسلوكهم.

٦. سيطرة ثقافة اللهو:

وهو من موارد الضعف التي حولت مجتمعاتنا إلى الاهتمام بالثقافة الهامشية والتفاهات التي يطرحها الاعلام الداخلي المقلد للتفاهات التي يصدرها الغرب لنا لابعاد مجتمعاتنا عن مسؤولياتها الحقيقية.. وقد يكون من أسباب الاهتمام بالتوافه هو عدم وجود الحريات وخوف الناس من الدخول في موضوعات قد تهدد امنهم وسلامتهم.

٧. الذوبان في روح الثقافات الغازية:

وهو أحد الإشكالات المثيرة في موضوعنا، فالحقيقة هي ان الكثير من الأفراد قد بهرتهم الحضارة الغربية فأمنوا بها وتدينوا بقيمها وخضعوا لها وهو أمر قد بدأ منذ مدة قرن من الزمان واخذ يشتد بشكل سريع مع تطور أدوات المعرفة المعلوماتية، وهذا الأمر يعبر عن تلك الروح الانهزامية التي تعيش في أعماق وذاكرة الحضارات المغلوبة على امرها التي تحس بعجزها أمام الحضارات القوية.. حيث نجد ان تكنولوجيا الصورة الحديثة تخلق حالة من الاستلاب لدى المشاهد وهي دون شك تحمل الكثير من المضامين الاجتماعية والثقافية والأيدولوجية تعمل عملها في سلوك الأفراد والجماعات وخصوصا في المجتمعات التي تعيش فراغات ثقافية أو شعورا بالنقص أمام ثقافة الآخر.. وهو أمر خطير يفرز آثاراً سلبية على المدى البعيد.

٨. انصراف النخب عن الاهتمام المركز بالتحديات الحقيقية:

وانشغالها بالجدل اللفظي والحوار العقيم وبالتالي عدم أداء دورها في توعية الناس بالأخطار الحقيقية، ولاشك فان المثقفين اليوم يتحملون قسطا كبيرا من المسؤولية في عزوفهم عن طرح المشكلات الحقيقية ومعالجة القضايا الأساسية ويمكن لك بنظرة بسيطة ان تقرأ ما تعالجه النخب في ادبياتها حتى تعرف حجم المشكلة التي نعيشها.

٩. فقدان خصوصية الانتاج:

والنزوع نحو الاستهلاك، فمع تلبد روح المجتمع، وموت الفكر الابداعي وتوقف العقل عن التفكير يصبح الفرد مجرد مستهلك يأكل

ويشرب ويتلذذ مع عدم وجود أي قدرة على الانتاج، بوجود قيم الاستهلاك هذه وسيطرتها على سلوك الناس يصبح الناس عبيداً لما تطرحه وسائل المعلوماتية ومطبعة لها طاعة مطلقة.

١٠. ضعف الاقتصاد وتبعيته:

حيث يحتاج استثمار المعلوماتية إلى وجود قدرة اقتصادية كبيرة قادرة على تحمل نفقاتها، ومع ان بلادنا تملك ثروات هائلة فإنها عاجزة عن تحمل هذا الدور وذلك لان الاقتصاد تابع بشكل أساسي للدولة ولا يوجد هناك اقتصاد حر يقف في إطار المؤسسات الاقتصادية المستقلة، وتبعية معظم النظام الاقتصادي إلى آلية الاقتصاد الغربي مما يجعله تابعا ورهنا لتحكمه وسيطرته وبالتالي فقدانه للقدرة على الاستثمار السليم.. ومع فقدان البنى الاقتصادية الأساسية وخصوصا المستقلة يصبح من الصعب جدا مجاراة الحرب المعلوماتية.

١١. ضعف بنية المؤسسات الإعلامية:

وعدم كفاءتها بحيث أصبحت غير قادرة على مواجهة اخطار المعلوماتية فهذه المؤسسات تمثل الوجود الرسمي الذي يتقيد بالبيروقراطية إلى ابعد حد مع استبعاد مطلق للإعلام المستقل والشعبي، والحال ان معظم وسائل الإعلام والمعلومات الغربية هي بيد مؤسسات مستقلة لا ترتبط بالدولة وهذا سر قوتها وتحررها.

١٢. الانفتاح السلبي:

هو أحد مظاهر وإشكاليات واقعنا المعاصر حيث فتحت الحكومات ابوابها أمام موجات الأثير المبتوث دون وجود بث متوازي يصد تلك

الهجمات ويحقق التوازن في عملية إدراك وتلقي المعلومات، والذي حدث، انفتاح سلبي على الخارج دون وجود أي عملية تحصين حقيقية، وانغلاق على الداخل منع وجود أي تحرك شعبي يقود إلى بناء وجود معلوماتي متمكن يستطيع ان يتدارك الاعلام المبتوث والمعلوماتية المتصاعدة.

خطوات وآليات لاستيعاب المعلوماتية

لا يمكن للانفتاح السلبي إلا ان يؤدي إلى ذوبان وانصهار مطلق في آلة المعلومات الغربية كما ان القطيعة الكاملة لا تعني إلا تجاوز لكثير من المقتضيات والدواعي التعليمية والنفسية والاجتماعية، وقد يكون افضل الحلول هي المواجهة الإيجابية التي تركز على الانفتاح المبني على التحصين الذاتي والاستعداد الذاتي والمناعة الداخلية وهي عملية صعبة تحتاج إلى كثير من الوعي والتنظيم والعمل الجاد.. فالمطلوب ليس المنع في اطلاقته لاننا نتعرض لتأثير ذلك سواء أكان ذلك في الداخل ام الخارج وانما هو عملية تحصين اجتماعي- ثقافي قائمة على الوعي والسلوك الواعي دون تفريط في نبذ هذه القنوات أو تحبيذ غيرها، فالإنسان الواعي هو ذلك الإنسان الذي يتسق سلوكه في الهمس مع ذلك الذي في العلن.

لذا كانت عمليات المنع ووضع الحواجز هي اكثر سلبية عندما أفرزت نتائج سيئة رفعت نسبة حرص الممنوعين للاقبال النهم على ظاهرة المعلوماتية.. فلا بد من خطوات وآليات تقوي حالة التحصين الذاتي وتعززنا في مواجهة قوى المعلوماتية الجديدة فمن هذه الآليات:

١. الحرية:

بقدرتها على خلق واقع متماسك واسباس متين حيث تنمو الطاقات وتتحرك الاستعدادات الذاتية وترفع حجب العقل وتنطلق الدوافع الإنسانية في تحقيق أفكارها، فمع الحرية يمكن بناء قاعدة فكرية قوية وتجديد روح الأمة واثارة خصائص الإبداع والابتكار لدى الناس. وكل هذا يعني ان المجتمع يزداد قوة ومناعة واستعدادا كلما قويت فيه روح الحرية وتمتع بحقوقه وإنسانيته وأخلاقياته، خصوصا عندما يتفاعل مع هذه الحرية بوعي ومسؤولية. فمع حرية الناس لا يمكن لباطرة المعلوماتية ان يخلقوا لانفسهم قطعاناً من العبيد تستهلك انتاجياتهم او تخضع لاثيرهم.

٢. بناء المؤسسات:

المستقلة والمتعددة لاستيعاب طاقات الشباب وتوجيههم في إطار الوعي والمسؤولية حيث تتولد عندهم المناعة الذاتية المتمكنة منذ نعومة أظفارهم.. اذ مع وجود هذه المؤسسات البناءة لا يمكن ان يوجد فراغ لدى الشباب يحرص فيه على المعلوماتية الغربية، لانه بحصوله على الأجواء الطبيعية للنمو والفكر والحركة لا يجد هناك مجالا للحرص على الأخذ من الغير. هذه يمكن ان تؤدي دورا كبير في هذه المواجهة خصوصا إذا ابتنت قواعدها على الاعتدال والتعقل والحرية والتعامل الإيجابي والمتعاون مع الآخرين.

٣. عقلنة الخطاب الثقافي والديني:

وجعله في مستوى استيعاب الناس عبر استخدام قواعد الاقناع الفكري والاستدلال العقلي والحوار المنطقي الهادئ، وهنا يمكن ايجاد الحصانة الذاتية عبر التعرف الشخصي والمناقشة المفتوحة لتقوية أسس الاستدلال والمعرفة، ذلك ان الأمم القوية والمتقدمة هي الأمم التي اختارت طريق العقل وحرية التفكير وابتعدت عن التهميش والسطحية والإرهاب الفكري.

٤. عقد المؤتمرات:

التي تجمع النخب المختلفة من اجل تقريب الأفكار والوصول إلى اتفاق مشترك وبناء استراتيجية موحدة تعتمد على فهم مقتضيات التعاون المشترك عندما تواجه الأمة خطرا مصيريا كبيرا. فالمؤتمرات من الآليات الأساسية التي تقود الأمة نحو حركة التقدم والبناء.

٥. الاعتراف بالآخر:

كاستراتيجية وهدف ووسيلة لتحقيق التجانس والتنوع والإبداع والإنتاج وإيجاد التماسك الفكري والوحدة النوعية في مجتمعاتنا الإسلامية، والتأكيد على العيش المشترك، وتجاوز حالات الإختلاف الفقهية، والإلتقاء على القواسم المشتركة الكثيرة جداً للأمة.

٦. توجيه الناس:

إلى الاهتمام الواعي بالثقافة الهادفة توجيهها مركزا اذ ان هذا التوجيه سوف يعرف الناس بخطورة هذه التحديات ويعرفهم بالبدائل، ولاشك ان طباعة الكتب والمنشورات في هذا المجال يمكن ان يحقق دوراً جيداً في هذا المجال، ولكن المساجد برسالتها والحسينيات بمجالسها يمكن لها أن تسدّ الكثير من الثغرات الحاصلة لدينا.

٧. التحول لبناء مؤسسات اقتصادية قوية:

قادرة على إيجاد بدائل تشبع الحاجات المعرفية لمجتمعنا وتعطي تموجا معاكسا لحركة المعلوماتية الغازية. ولاشك ان نوعية المؤسسات الاقتصادية لابد ان يركز على بنية حقيقية واقتصاد حر يعتمد على الاكتفاء الذاتي والاقتصاد الواقعي والانتاج الفعال على أساس التشريع الاقتصادي للدين الإسلامي الحنيف، وذلك لأن الأزمة العالمية التي تقضّ مضاجع كل الساسة والمجتمعات البشرية اليوم، بحيث أربكت الدول والمجتمعات والمؤسسات العالمية فهي بأحوج ما تحتاج إليه التشريعات والقوانين الإسلامية في الاقتصاد، فآن الأوان لعرض أفكارنا وقواعدنا الحضارية للعالم المتحضّر، ليتجه إلى الإسلام بقلوب منفتحة وعقول جبارة.

٨. تعميق روح التأصل:

الواعي وتجديد الثقة بالذات وبحضارتنا عبر استئصال روح الانهزام المتشربة في أوصالنا، ولاشك فإن طرح تراثنا بأسلوب متعقل ومتجدد يمكن ان يعيد الكثير من الثقة لأبنائنا ويعرفهم بحقيقة حضارتهم وكنوزهم المخفية، مع ضرورة التوفيق بين التراث والحداثة لإيجاد قوة في أفكارنا قادرة على التوافق مع التقدم الزمني والعلمي، وذلك من صلب رسالتنا العالمية وأفكارها النورانية، فغاص الناس في الظلام حتى ألفوه، ونحن أبناء الحضارة الحقيقية، وأصحاب رسالة كونية وأول ما تدعو إليه (إثارة العقول) وتحدي الكونيات.

٩. إلغاء الرقابة المتعسفة:

التي تساهم بشكل سيئ للغاية بتحجيم الأفكار وتعطيل العقول وهجرة الكثير من الكفاءات إلى الغرب بحثا عن الأمن والاستقرار، وتؤدي الرقابة القمعية إلى مساعدة ظاهرة المعلوماتية في فرض إفرازاتها السلبية علينا عبر قمع ومنع وتدمير قوى امتنا الذاتية وشلّ حركتها، فالدين الحنيف يدعو الناس والأمة العالمية لفك القيود وتحرير الناس من الأغلال التي تكبلهم وتقيد حركتهم، وتعيق تقدمهم، وربنا ﷺ يقول في محكم التنزيل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (١)

فالفلاح كله باعتناق الرسالة، والتقدم بها وليس عليها، لأنها تقدم وتطور مَنْ يأخذون بها، والذين يتخلفون عنها تجعلهم يتقهقرون إلى الوراء، والحياة لا تقف ومَنْ يقف تتجاوزته الأيام وتتركه في مكانه وتمضي قُدماً باطراد دائم، إلى حيث شاء وأراد لها خالقها ﷻ.

١٠. تقوية البنية المعلوماتية:

عبر توجيه الكثير من امكانياتنا لمساعدة أبنائنا في التعلم الإيجابي من هذه الظاهرة وبالتالي الاستغناء عن الاحتياج إلى الغرب وتحقيق الاكتفاء الذاتي.

ان الكثير من التحديات التي تواجهنا هي تحديات داخلية وذاتية أما التحديات الخارجية فهي تكون عندما يشوبنا الضعف ويمزقنا الوهن الداخلي، ولاشك فان محور التحديات الداخلية هو تحقيق الحريات ورفع اغلال الاستبداد وتعميق المشاركة العامة عبر الشورى والتعددية وحينئذ فإننا نستطيع ان نغادر الماضي إلى المستقبل بثقة وقوة.^(١)

مهارة استقراء الآتي

فالمستقبل صناعة ربانية ولكن بأيدي بشرية، ولذا قلنا بأن لإرادتنا مدخلية إيجاباً، أو سلباً على مجريات الأحداث في المستقبل، فربنا سبحانه يقول لنا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنْتَ اللَّهُ لَعَنِي حَيْدًا ﴿٢﴾﴾

(١) - (راجع مجلة النبأ عدد : ٥٢ ص ٢٧ بتصرف)

(٢) - (إبراهيم : ٨)

فالله هو المنعم، وعلى العبد الشكر (وبالشكر تدوم النعم)، ولكن بالكفر تتحول إلى نقم، وبلايا، وعذاب ورزايا، ومن أصلح نفسه يصلح ربنا له شأنه كله، ويضرب لنا مثلاً عظيماً في القرآن الكريم عن قوم سيدنا يونس (ع) الذين تابوا وأنابوا لما رأوا العذاب فرفع الله عنهم العذاب وخاطب نبيهم بالعتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِعَمَاءٍ ءَمْتُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾^(١)

فعلينا بالإصلاح ليصلح الله لنا شأننا، وإلا فعلينا أن نستعد لألوان العذاب، وأوله تسلط الأعداء علينا، وحكم شرارنا، وعدم الاستجابة لدعائنا، وما ينتظرنا في الآخرة أشد وأخزى.

فعلى رجالات الأمة ومثقفوها وأصحاب الفكر المستقبلي فيها أن ينتبهوا للمطبات التي تحفرها قوى الظلم والظلام الأخرى لها في مسيرة حياتها، وعليهم أن يكونوا حكماء بالتصرف، ومهرة بصناعة المستقبل الذي يرغبون به، ويرى كورنيش نفسه أن الاستشراف «مهارة يمكننا أن نتعلمها.. وتساعدنا في بلورة أهداف بعيدة المدى.. وفي صوغ استراتيجيات معقولة للوصول إلى تلك الأهداف». وبرأيه، فإن الاستشراف «ليس تكهناتاً بأحداث المستقبل، ولكن العمل لجعل هذا المستقبل أفضل، باعتبار أنه يتطور انطلاقاً من الحاضر».. وتوحي هذه الكلمات للقارئ العربي بأن مستقبل أوطانه يندرز باستمرار المراوحة، إن لم يسر

نحو الأسوأ مستقبلاً.. لا سمح الله، وكل أملنا بالله تعالى أن يقيض لهذه الأمة رجالاً ينهضوا بها إلى العلياء من جديد.

ويعطي كورنيش بعض النصائح لا تخلو من فائدة إلى مستكشفي المستقبل، من قبيل:

«أعدوا بشكل جيد لما يمكن أن تواجهوه (لأن) غياب الإعداد المناسب يستجلب الكوارث»

وعدم «الاستهانة بأية معلومات عند اتخاذ القرار».

و«توقع غير المتوقع فلا نعتبره حدثاً سيئاً بل فرصة عظيمة» يجب استثمارها إيجابياً.

و«فكر على المدى البعيد» استراتيجياً.

و«تخيل بشكل مثمر» ولتثق بقوة الخيال عندك.

و«تعلم ممن سبقوك»، وهي رياضة الوقوف على أكتاف العمالقة، كما نبهنا سابقاً.

ويتوقع كورنيش أن في الحياة اليوم «ستة توجهات كبرى تصوغ شكل المستقبل» غداً، لا دخل لله فيها، وهي:

-التقدم التكنولوجي.. وهذا واقع نعيشه.

-النمو الاقتصادي.. واقتصاد العالم ينهار اليوم، ابتداء من الاقتصاد الأمريكي، ولا أحد فوقه خيمة.

-تحسن الصحة.. بل أنفلونزا الخنازير تهدد نصف سكان العالم الآن إذا لم يتم احتواءها والسيطرة عليها، والسرطان يتفشى ويزداد، والسيدا

(أو الأيدز) والكثير من أمراض الحضارة لا سيما الأمراض النفسية والعُصبية، والأوبئة الفتاكة ما زالت تقض المضاجع.

-زيادة الحركة.. والنشاط لصعوبة تأمين لقمة العيش، وكثرة المتطلبات، وثقل المصاريف الباهظة.

-التدهور البيئي.. فكل شيء فسد المحيطات والبحار والأنهار والأجواء والسماء، والنبات وحتى الحجر فقد تلوث إما بالفيروسات أو الإشعاعات.

-وضياع الثقافات التقليدية.. وهذه نبوءة خبيثة من كورنيس يبشر بها بضياع ثقافات الشعوب التقليدية لأنها ستتثقف بثقافته الغير تقليدية، ولكن هيهات لهم ذلك فيأبى الله والعقلاء أن تنتشر تلك الثقافة الخليعة.

ويلاحظ أنه يُغفل الإشارة إلى مئات الملايين الرازحة تحت خط الجوع والفقر وسوء التغذية، ومحاولات فرض السلوك الأميركي كمنط عالمي، وعدم توقيع الولايات المتحدة على اتفاقية «كيوتو» للحد من انبعاث الغازات المُضِرَّة بالبيئة.. كما أنهم - الأمريكان - أشعلوا الحروب في كل مكان على سطح المسكونة اليوم بحجة (الحرب على الإرهاب) وهم أصل الإرهاب وفصله وبابه ومحرابه فهل هناك إرهاب في العالم كالإرهاب الصهيوني اليهودي وداعمه الأمريكي المتهوِّد اليوم؟! ولذا فهو يعتبر « أن البشر عام ٢٠٤٠ سيكونون أغنى منهم اليوم، لكنهم لن يكونوا أسعد».

ولعله محق في هذا طالما أن حكام الولايات المتحدة وحلفاءها لم يتعقلوا ولم يلتفتوا إلى الخطر الصهيوني والوباء اليهودي على العالم،

وسيطرته على الشعوب ومحاولة فرض ثقافتهم اليهودية الفاسدة على العالم فإننا نسير جميعاً في طريق الهاوية بلا شك.. لأن أسباب الكوارث قائمة، مع غياب معالجتها بروح إنسانية وأخلاقية تماماً، كل ذلك بعيداً من سياسة الأفكار المحمولة على ظهر الدبابة (الديمقراطية الأمريكية).. ومن المستطاع السؤال أيضاً عن التوجّه لرسم المستقبل وفقاً لأدوات التكنولوجيا، فهل أن الإنسان بات مجرد رقم؟ وهل في العام ٢٠٤٠ يكون رقماً مفيداً وإنساناً أخلاقياً، أم أنه سيعود إلى أصله الذي بشرهم به (دارون)؟.

إبرة تفاعل أميركية

ولا ينسى كورنيس بإعطاء بصيص أمل لمن يقرأ كتابه، وبما أن الكاتب يتوجّه أساساً إلى المجتمع الأميركي، ويستنبط الأدلة من واقع هذا المجتمع وتجربته، فإن مناهج الاستشراف لديه تستقى من ذلك السياق الاجتماعي، فتضم الاستفتاء، الألعاب، صياغة النماذج والمحاكاة، وصياغة الرؤى المستقبلية «لمنع الكوارث المستقبلية وذلك من خلال تغيير أفكار البشر».

ويلاحظ أنه يورد استخدام القادة العسكريين ألعاب الحرب كتجربة، لكنه لا يشير إلى أن قادة بلاده يستخدمون فعلياً حياة البشر كميدان للتجارب، البيولوجية والحروب القذرة، فما ينتهي العالم من (فايروس) صنعوه وعدلوه وراثياً ولم يسيطروا عليه فيخرج إلى العالم ليفتك بهم، وها نحن اليوم نشهد بداية وباء أنفلونزاهم (الخنزير) الذي يهدد نصف البشرية اليوم - كما يدعون - وما الحال في العراق وأفغانستان والسودان والصومال.. بحاجة لطويل شرح وتوضيح.. وكان

أجدر به أن يطرح على نفسه إشكالية من نوع تقويم وإعادة صياغة أفكار ورؤى «المحافظين الجدد» في السياسة الخارجية الأميركية بما يتلاءم مع القيم الإنسانية.

وهنا، يُبشّر كورنيس ببعض الأحداث الخيرة مثل اختفاء الحروب، والطاقة المجانية، وابتكار حبوب للسعادة، وبناء مستوطنات للبشر في الفضاء، وتعاضم عقاير الذكاء الإنساني، واكتشاف أدوية تُجدّد الشباب، وصُنِع «دماغ للعالم» وهو حاسوب يُبنى بصورة مشتركة بين عملاقي المعلوماتية الولايات المتحدة واليابان.. والمثير أنه لا يشير إلى الصين وصعودها الذي يثير الرعب في بلاده وفقاً لما يكتب هو بالذات!

أوضاعنا في شرقنا

قسموا الشرق إلى شروق؛ فمنها الشرق الأقصى، والشرق الأدنى، والشرق الأوسط.. وما شاكل هذه الأسماء التي اخترعوها لما صنعوه من دول وقسموا القارة إلى كيانات ووضعوا بينها الحدود والقيود وخالفوها بالأنظمة السياسية فمنها الجمهوري، والآخر الملكي، وثالث الأميري، ورابع السلطني.. وهكذا لكي يقولوا للشعوب أن الفروقات جوهرية والاختلافات أصلية نابعة من المبدأ فلا يمكن التوحد أو الإتحاد فيما بينهم لهذا السبب.

فكيف يتحد الملكي والجمهوري.. والديمقراطي والمستبد.. والرأسمالي والشيوعي.. والعلماني والديني.. والمتحرر والمقيّد.. والمتخلف والمتقدم.. والمتطور والمتحجر.. والحضاري والسلفي.. فهذه - كما أوهمونا - لا نقاط التقاء بينها ولا أي نقاط مشتركة فكيف لها

أن تتحد بنظام عام يجمعها في دولة ذات سيادة، وقوة، وبناء حضاري وشخصية أومية.

وجاءت الأبواق المستأجرة لتنفخ بهذه الفروقات، وتؤكد هذه الترهات، وتعمق تلك الحدود المصطنعة بين الشعوب الشرقية لا سيما الإسلامية منها، وتناست الأمة أصلها الأصيل، وتاريخها المجيد، وحضارتها التي غزت بها العالم لقرون من عمر الزمن.. وكأننا أمة همجية مؤلفة من رعاة البقر، وقتلة الشعوب الآمنة، وصيادي الهنود الحمر في أرضهم، تنبهوا يا أمة الخير هؤلاء هم الأمريكان ولسنا نحن، فهم شُذاذ الآفاق ومُبيدوا البشر ولسنا نحن، فنحن أمة حضارية وذات دين سماوي يقدّس الحياة، ويحترم الإنسان، ويحضُّ على العلم، والعمل، والأخلاق الفاضلة في المعاملات كلها.. وأما الآخرون فدينهم مصلحتهم، والغاية تبرر الوسيلة عندهم.

وواقعنا ووضعنا الراهن لا يبشر بكثير من الخير سيما وأننا وبما فينا أصحاب القرارات التغييرية لم يدركوا سعة الفجوة التي نحن فيها الآن، والفراغ الكبير وربما يصل إلى الهائل ما بيننا وبين الدول المتقدمة علمياً كاليابان مثلاً وإذا لم ينتبهوا لهذه المشكلة سنصل إلى حد الكارثة فعلاً، لأنه وفي المدى المنظور - جيل أو أكثر- لن تحدث تغيرات تلبي ما نحن بحاجة إليه من نهضة علمية حقيقية لا وهمية كما يحدث في بعض البلدان اليوم، وتطور لازم لكي نحقق التقدم الذي نأمل به، وتحلم به الأجيال في المستقبل.. وإذا حدث وظهرت تطورات الكترونية والكترونية - بيولوجية متسارعة إضافية، وإذا حدث وفشلنا في مواكبتها والانخراط فيها، فإننا سرعان ما سوف نبدو وكأننا كائنات بيولوجية من عصور غابرة؛ كائنات ربما يكون جديراً بها أن توضع في

المتاحف ليتفرج عليها الناس؛ كائنات قد تحظى - بعد تعرضها للإبادة على نطاق واسع - بحماية مؤسسات خيرية مماثلة للمؤسسات التي تتخصص في حماية الكائنات المعرضة للانقراض، في العالم اليوم، ولكن المفارقة أن أولئك يبيدون جنس الإنسان ولا يهتمهم انقراض أي قومية أو شعب فقد أبادوا الهنود الحمر دون رحمة ولكن يهتمون لأشياء أخرى غير الإنسان.

وإذا كان المستقبل يُصنع، فإن السؤال الذي يواجه الجميع هو: أهذا هو المستقبل الذي نسعى إلى الوصول إليه؟

ولكن أترانا نصنع مستقبلا آخر؟

وهل لدينا أية خطط؟

وهل يمكن لقوة الفكر أن تسعفنا قبل فوات الأوان؟

الحقيقة والواقع، يقول: بأن العالم اليوم يعيش في مخاض تجربة كبيرة رغم انه يرى في الوقت الراهن وكأنه يمارس جاهلية على نحو ما، فجميع القوى المؤثرة على اختلاف أجناسها السياسية منها والاقتصادية والأنساق الروحية سواء كانت مسيحية أو إسلامية فإنها تتشابه بدرجات مختلفة وكل هذه الدرجات إنما تصب نفس النتائج وهي نتائج سلبية في معظمها ولا تنتمي إلى خطاب أو رؤية عقلانية وذلك لأن القائد الأساس هو السياسي بالدرجة الكبيرة ويأتي بعده دور الكراهية المتبادلة يقودها التخلف وعدم الفهم الواقعي للتفاهم بين بني

البشر؛ كذلك عدم الفهم الواقعي للأصالة الدينية المتطورة في ذاتها عن الجمود والانغلاق.

والعالم عموماً يفور بدرجة تقارب الغليان فروسيا تعود إلى الهوى المدمّر وتحاول مغازلة عشاقها الذين كانوا بالأمس في بيت الزوجية لكي تحتفظ بهم كأصدقاء متعاونون في خيمة المفاعلات الذرية تحت مسوغ الحماية من الدرع الصاروخي الأمريكي، والاتحاد الأوربي يشيد اقتصاد مناظر من حيث القوة للاقتصاد الأمريكي، وعمل من هذا القبيل من شأنه أن يؤلف قوة مناظرة على طريق التكافؤ.. وأما الشرق الأوسط فهو باحتدام مستمر فقضية فلسطين التي تحول فيها الصراع الفاعل صراعاً فلسطينياً داخلياً أكثر منه صراعاً مع الدولة اليهودية المصطنعة والتي يسمونها (إسرائيل) أودى بالأمر إلى منحى غير منتج بالنسبة للقضية الفلسطينية الأساس، سيما بعد الحرب الأخيرة على غزة والنصر الكبير الذي حققه أبطال المقاومة الفلسطينية من حماس البطلة.

وأما القضية السورية واللبنانية مع مجاهدي حزب الله والمقاومة الإسلامية في لبنان ودحرهم دويلة (إسرائيل) المصطنعة وتمريغ أنفها بالوحد، وطردها كالجرذان من أرض لبنان بقوة الصاروخ والنيرون، وصمود الحق والإيمان، فلكل ذلك قصة أخرى من قصص البطولة لدينا.

والعراق يكتوي بنار الأمريكي الصليبي، ويلتوي تحت سياط الإرهاب التكفيرى، يجعل منه بؤرة من الفساد، الذي دمر العراق وأهلك الأخوة العراقيين فتركهم بحيرة من أمرهم، والحليم الفهيم فيهم تراه حيراناً في أمره لا يهتدي إلى سبيل وهذا حال الفتنة في كل عصر

ومصر، والمولى المعصوم قال لنا من قبل: «كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب»^(١).

وذلك لأن «الفتن إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت نهبت»^(٢) فتحير العقول، وتربك الألباب، فنسال الله العافية والأمان لهذا البلد الحبيب، ولكل بلاد المسلمين، وأن يرمي الظالمين بالظالمين ويجعلنا بينهم سالمين، وأن يجيرهم الله من الصليبيين والتكفيريين ويساعد المجاهدين المخلصين في ذلك.

وكذلك تجد أن كل التهم الأمريكية للثورة الإسلامية الإيرانية بحجة المفاعل النووي الإيراني وتداعياته المتشابكة مع كل الأحداث في الشرق الأوسط، ومحاولة جر إيران لحرب عسكرية، أو محاولات الانفراد بسورية للمسير بها بنفس السيناريو الهوليوذي الذي نفذوه في العراق الجريح، إلا أن الوعي والحكمة والصبر والصمود الشجاع من أصحاب القرار فوّت على الأعداء الفرص الذهبية التي كانوا يعدونها كخطط مستقبلية لمنطقتنا وشعوبنا الفقيرة.

وتبقى الوهابية وتنظيم القاعدة، والتنظيمات المشابهة لها، وتجميد الخطاب الإسلامي وتأخير وإلقاء في حفرة عميقة لا ينجي منها إلا الله تعالى، وذلك بما أحدثته من تشويه لصورة الإسلام الحنيف، وما أشاعته من كراهية بين شعوب العالم ضد الإسلام والمسلمين، والشعوب الإسلامية فيما بينهم بسبب موجة التكفير وأفكارهم التكفيرية الضالة.. والله حسيبهم على أفعالهم.

(١) - بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦٦، ص ٤٠٨، عن نهج البلاغة

(٢) - بحار الأنوار: جزء ٤١، ص [٣٤٩]

ولكن بدت تركيا اليوم بحالة حضارية جميلة بمواقف ساستها الواعية تجاه العالم الإسلامي الذي يضمهم، ورغم علاقتها المرتبكة مع العراق وعامل الأكراد العراقيين ونفط كركوك وحزب العمال الذي يسخن الحدود المشتركة كلما رأى أسياده مصلحة لهم بذلك، فإن مواقفهم كانت تعبر عن وعي حقيقي بالمخاطر المحدقة بالمنطقة.

وأما الأزمة الاقتصادية اليوم فهي على أشدها، وما الصراع الاقتصادي الخفي بين الصين والجانب الأمريكي وبين الصين والسوق الأوروبية، وتأثيرها على الاقتصاديات العالمية كلها، لاسيما حركة التجارة وتنقل رؤوس الأموال، والتصنيع الدولي الثقيل والخفيف على السواء، فقد كان للإنتاج السلعي من تأثير في تلك الأسواق الإستراتيجية عالمياً.

وهذا ما دعونه (جاهلية الحضارة الصفرية) لمشابهتها لحياة جاهلية العربية بحيث صهرت الشعوب في بوتقة العوز المادي والروحي والصحي والثقافي والتعليم والضمان والأمن والإسكان رغم أن الحياة لم تبخل بالعطاء، فالرب كريم والأرض طيبة، والإنسان نشيط فان وتيرة الإنتاج في تصاعد مستمر وبخطوات كبيرة في كل الميادين.

ولكن كل هذا لا يعني أبداً أن هناك نقطة سوداء يقع العالم في ظلامها إلى الأبد، وإنما هناك طفرة، ومن بعدها تأتي الرحمة - بإذن الله - وأن ما نراه الآن من جاهلية معاصرة إنما هو المخاض الذي يسبق ولادة جديدة للمعاني الإنسانية الحقيقية كتلك التي رافقت ولادة الإسلام الأولى، ومع هذا الاحتدام والاضطراب الذي نراه، فإنه يستمر الارتقاء الإنساني إلى أن تنجلي مفاهيم ورؤى أكثر حضارية وأشد واقعية تتصدى للمشاكل وتبتعد رويداً، رويداً عن العناد والكراهية ما بين البشر.

حتى إن الأيديولوجيات التي تعيثُ فساداً الآن ستضمحل تحت عباءة الدين الحقيقي الذي سيلغي التطرف ويحكم الناس بالعدل، ويسلطهم على أنفسهم من خلال ابتعاده عن النمطية السائدة التي تطبخ بها الرؤى والسبل على نيران قوية على نسق الأكلات السريعة لاستنادها على مفهوم القوة سواء بالأسلحة، أو من خلال التطرف الأعمى، وهو الأمر الذي لا يؤدي إلى نتائج ايجابية على كافة المستويات.

ولكن كيف نصنع المستقبل الذي يأخذنا بتياره المَوَّار هل نواجه الأمر بصورة سلبية أم نشكل عامل ايجابي فيه؟.

يقول الأستاذ (سليم فرحان) في إحدى مقالاته: (كلمة المستقبل تشير إلى الخوف والتساؤل وذلك لان الإنسان لا يعرف الغيب فالمستقبل يثير التساؤل عن شيء غير معروف أي العمل من أجل الزمن القادم، لذلك تتداخل في دراسته حركة التاريخ والمجتمع وتشابك في إطارها معادلات الماضي والحاضر والمستقبل على أساس أن البدايات تلد النهايات والنهايات تؤشر البدايات وما بين البدايات والنهايات وجود متحرك قيمته بتكويناته وإبداعاته وبذلك فان الماضي يشير إلى الزمن الذي انقضى فلم يعد له وجود أما الحاضر زمن يتحقق وهو في طريقه إلى الانتهاء والانقضاء بينما المستقبل زمن لم يتحقق بعد وما زال يفتقر إلى الوجود.

ويقترح الأستاذ سليم فرحان جملة من النقاط لضمان سلامة المستقبل أهمها:

١. إيجاد مؤسسات مستقرة تؤمن قيادة حازمة والقبول الديمقراطي للرأي الآخر.

٢. التشجيع على البحوث وفتح مراكز متخصصة بالدراسات المستقبلية؛ وفي مقاربة أولية لهذا المعنى في أننا كعالم عربي وكمسلمين وتحت ثقل السؤال: لماذا تأخرنا وتقدم الآخرون؟. وهو سؤال عصر النهضة الكبير، نعم؛ لماذا تأخرنا وتقدم الآخرون؟. وهذا السؤال يضم في طياته نقداً ذاتياً ومحاولة للمعرفة ويعني أيضاً محاولة للتجاوز عن طريق مسائلة الوقائع والأحداث لردم هذه الهوة المعرفية الكبيرة بيننا وبين الآخر.

ويرى الكاتب (أحمد حسن) في السياق: علينا (النزوع إلى فض وتنقيب وإعمال للعقل في مجمل العوامل والبنى الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تملكنا وتسيطر علينا، فتاريخ الشعوب لا يفسر بعامل واحد مهما كان شأن هذا العامل ويتطلب الأمر الغور بعيداً في تاريخنا وتراثنا لتحديد نقطة البداية في هذا التأخر وقراءة أسبابه بعقل علمي منفتح لا بسبب انتصار فكرة على أخرى بقدر تحري وتحديد أسباب المرض لتحديد أسلوب وطريقة العلاج الناجع.

فإذا كان شيء ما هاماً لدينا فهو المستقبل.. لأن الماضي قد مضى والحاضر هو فقط لحظة عابرة وكل ما نفكر فيه أو نفعله منذ الآن يمكن أن يؤثر على المستقبل وفي هذا المستقبل سوف نمضي ما تبقى من أعمارنا، وأعمار أجيالنا.

على أن العلماء والدارسين أعاروا المستقبل - على الرغم من أهميته - قليل من الاهتمام فقد امضوا أعمارهم يحاولون حل رموز الحروف الهيروغليفية القديمة المبهمة أو يقررون وثيقة مسرحية من عصر النهضة أو ما يقابل ذلك بالنسبة للمسلمين في العالم العربي في جدالاتهم في بعض التفاسير - كأزمة خلق القرآن - تحت الأغطية

السياسية والطائفية، بعد أن تركوا الشخص المؤهل لقيادة الأمة وتوجيه الخطاب الديني لها، ولذا فهم قلما فكروا بما يحدث لبني الإنسان تفكيراً جاداً عندهم، فالناس عبيد لهم وأي اهتمام للسيد بالعبد عنده؟

إن الأناس الذين باتوا يهتمون بجد ويصنفون الآن عموماً بالمستقبليين يؤكدون على أننا نستطيع القيام بشيء قليل نسبياً لتحسين العالم الحاضر لأن التغيرات الأساسية تتطلب وقتاً ولكننا نملك سلطة وقوة كبرى على المستقبل الأبعد للأجيال القادمة.

فبذرة تغيير تزرع اليوم تصبح قوة هائلة في السنوات القادمة فإذا اعترفنا بان الأزمت والإخفاقات الماضية في معالجة ما نشأ من صعوبات ومشكلات فإننا قلما نخفق في رؤية أن ما نفعله اليوم سوف يقرر نوع العالم وشكله الذي سيكون عليه بعد عشر أو عشرين أو ثلاثين سنة المقبلة، فالقضاء على الفقر وإشاعة السلام العالمي وتمتع الناس جميعهم وفي كل مكان بالصحة الجيدة لا يعود ينظر إلى هذه الخطوات بأنها أحلام عديمة الجدوى، ويعتمد ذلك على قدرات الجهد الإنساني المبدع وقدرتنا على تفهم إمكانات المستقبل قبل أن تقع في شرك الكوارث التي يمكن تجنبها.

إن دراسة المستقبل ستكون مشروع اليوم الثقافي الأكثر إثارة إلا أنها أكثر من مغامرة مثيرة فهي مسؤلية رهيبية ومع أن احتمال الحرب النووية والحرارية والتدمير البيئي والانهايار الممكن للنظم الاجتماعية والاقتصادية التي تحفظ بقائنا يجعل مستقبلنا قائماً إلا أن معرفة أن في مقدورنا إقامة حضارة أرقى من أية حضارة سابقة في التاريخ يجعل هذا المستقبل زاهياً، وفكرة حضارية تستحق بذل الجهد لتحقيقها.

هل المستقبل طلسم وفرضيات حائرة؟

يقول الأستاذ (نبيل حاجي): إننا نتاج الأحداث الماضية واستمرار لها، إن كانت مادية أو فكرية.. فنحن نرث خصائصنا وصفاتنا البيولوجية ممن سبقونا، ونرث غالبية عاداتنا وقيمنا وأفكارنا من مجتمعنا والماضي الفكري أو التاريخ هو المؤثر والموجه الأول لكافة أهدافنا ورغباتنا ومشاريعنا.. يا ترى، هل يمكن أن يؤثر فينا المستقبل الذي لم يوجد بعد..؟

في الواقع يستحيل أن يؤثر المستقبل ذاته فينا إلا إذا فكرنا به ملياً وعشناه كهاجس يؤرق حياتنا، كما أن فكرتنا وتصورنا عن الماضي هي التي تؤثر فينا ولها تأثير كبير وحاسم على حاضرنا الذي نحياه.. لأن تأثير الأفكار علينا أكبر مما نتصور.. وبالحقيقة إن قوة الأفكار لا تُعرف بوضوح دائماً لأنها خفية ويصعب تقييمها، فقوة الأفكار تستطيع تغيير العالم، والاعتقاد أن قوة الأفكار هي نفسها فكرة قوية.. كما قلنا سابقاً.

فما يفكر به الناس ويعتقدون أنه سيحدث له تأثير حاسم على ما سوف يحدث فعلاً، وقد أوضح أحد البنائين ذات يوم كيف أنه من المهم جداً أن يجعل الناس يعتقدون أنه سيبني فعلاً بناية، وأنداك سوف يحصل على الأموال من البنك وعلى رصيد من الممولين، وستشيد البناية فعلاً.. وهكذا بنا بنيته بالواقع وهي مجرد بناية بالفكر فقط.

وهكذا، فصورة المستقبل التي يحملها الناس في عقولهم تلعب دوراً حاسماً في تقرير المستقبل فعلاً، وهناك الكثير من الأمثلة التي

تؤيد ذلك، وقراءة الطالع، والكف، والنجوم، والأبراج.. وغيرها يمكن أن تكون مثلاً جلياً.

إن الأفكار عن عالم المستقبل، التي يشار إليها أحياناً بتصورات المستقبل، قد تكون مهمة جداً، فالناس يرون أن أعمالهم مبنية على أحداث ماضية ووقائع حالية، ولكن تصوراتهم للمستقبل ربما تلعب دوراً أكثر دقة وحسماً.. إن المؤرخين مولعون بالقول إن دراسة الماضي يمكن أن تساعدنا في التنبؤ للمستقبل، ويوافق المستقبليون على ذلك، ويبينون أن أفكارنا وتصوراتنا جميعها عن المستقبل قد جاءت بالضرورة من معرفة ودراسة الماضي، فما حدث في الماضي ويحدث الآن هو مصدر إرشادنا إلى ما قد يحدث في المستقبل.

ولذا يمكن تعريف المستقبليات: بأنها «التاريخ التطبيقي» فهي تنشط وتتقوى حيث يتوقف التاريخ، والمستقبليون لا يقنعون بمجرد فهم ما حدث في الماضي، فهم يريدون أن يستخدموا معرفتهم لتنمية فهم المستقبل، ويؤكدون أن المستقبل، لا الماضي، هو بؤرة الفعل الإنساني، وأن قيمة الماضي هي إمكان استخدامه لإثارة الفكر من أجل بناء - أو لا أقل من المشاركة - ببناء عالم المستقبل.

إن معرفة الماضي لا تصبح آلياً معرفة للمستقبل، فهذه الثانية يجب أن ينشئها استخدام المعطيات المتوفرة عن الماضي كمادة خام لصياغة أفكار وتنبؤات عن المستقبل، ونحن نستخدم من أجل هذه الصياغة عدداً من الأدوات العقلية وخبرتنا في استخدام تلك الأدوات وهي المفاهيم والنظريات.

وتلعب رغباتنا دوراً رئيسياً في تشكيل أفكارنا عن المستقبل، فنحن نشعر بالعطش ونطور الفكرة للحصول على الماء، ونُحسُّ بالملل ونطور الفكرة للقيام بنزهة، وكثيراً ما تخفض مرتبة التفكير بما يسرنا إلى مرتبة أحلام اليقظة، ولكن أحلام اليقظة يمكن أن تساعدنا على كشف ما نريد، فهي بذلك قد تلعب دوراً رئيسياً في مساعدتنا على اتخاذ القرارات الصائبة، إذ باستكشاف الأفكار المرضية السارة وغير السارة قد ننمي مفهوماً عن الأهداف التي نريد تحقيقها في المستقبل القريب أو البعيد.

التخطيط للمستقبل

كثيراً ما نتكلم عن الماضي، وهذا حسن، ونتكلم عن أسلافنا وحضارتهم الإسلامية الراشدة، في العقيدة، والسلوك، والعلم، والعمل، نجتمع ملاحظتهم، وطرائف أخبارهم، ونحشدنا في عقولنا ونغذي بها مسامعنا بعد أن توقر في قلوبنا وأفئدتنا وهذا كله جميل؛ إذ لا بد لنا من ماضي تراث حضاري نرجع إليه ونتغنى ونزهو به، فالتراث يمثل لنا عمود الخيمة، أو مربوط الفرس (الوئد الذي يُربط إليه الفرس) الذي يحصننا من الذوبان في بحر العولمة المعاصرة، أو الذوبان في موج العالمية العفن، أو التلاشي والاضمحلال في دنيا الدعاوى والأكاذيب ما بين اشتراكية فظة، وديمقراطية فجّة، ما بين أصحاب الدولة المدنية، والدولة العلمانية، والدولة الدستورية.. ثم هذا الحشد الهائل من الأمة التي لا تدرى شيئاً إلا ما يعينها في أمر المأكل، والمشرب، والملبس، والمنكح، وتأمين العيش المحترم أو غير المحترم للأولاد فصار أكثرنا كحمار الطاحونة.

هذا هو حالنا عند تذكّر الماضي، وحالنا ونحن نعيش الواقع، انقلبت الأمة في صفوتها - كما زعموا - وعامتها إلى متفنين في رسم أشكال صورة الواقع وربطه بالمستقبل بما يخدم أناتهم وذواتهم ومصالحهم الفانية، أما التفكير في المستقبل للإسلام، فإما ألا تجد من يذكره أصلاً، أو يذكر أن المستقبل لهذا الدين متأبطاً - ولا أقول حاملاً في قلبه ووجدانه - مثل قول رسول الله ﷺ: «إن الله زوى (أي جمَعَ وضَمَّ) لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منه»^(١)

أو حديث عبد الله بن عمرو، قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: «أي المدينة تفتح أولاً؟ قسطنطينية؟ أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً؛ يعنى القسطنطينية»^(٢).

نجد من يحمل هذه الأحاديث والعشرات من أمثالها في كتب المسلمين بكل طوائفهم، وبعضها قد تحقق فعلاً والآخر ما زال في رحم الأيام القادمة يتوالد تباعاً - بإذن الله - ويعيش مطمئن البال، منجعيّاً على مخدته قائلاً: المستقبل للإسلام، والعز للمسلمين في آخر الأمر ونهاية الزمن.. وهذا من الحق الذي لا يُنكره أحدا ممن يؤمن بهذا الدين العظيم، ولكن هل يقع هذا الخير من غير بذل الجهد والتوسل بالأسباب؟

(١) - أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد من حديث ثوبان، كما رواه أحمد من حديث شداد بن أوس.

(٢) - رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة والحاكم.

إن من حكمة الله وسننه في كونه، ألا تقع الأمور إلا بالأسباب، والمعلولات بالعلة؛ ولذا قال أهل العلم (بأن مُعطل السبب معطل للشرع)، فوجب عند تذكر ما تضمنته هذه الأحاديث وغيرها من نصوص القرآن والسنة من أن المستقبل للإسلام وأهله، وجب أن نعدّ العدة لنسود العالم ولنكون قاداته، وهذا لا يتأتى بعد عون الله إلا بالتخطيط السليم للمستقبل والعمل الجاد الشاق الذي لا يعرف الملل أو الوهن.

إن التفكير في مستقبل الأمة وفق الواقع المرير الذي نعيشه سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وعسكرياً، وتربوياً، وإعلامياً.. يجعلنا نستشعر ضرورة القيام بالأعمال التي تعود بخيرها على أجيال المستقبل، هذه الأعمال التي تمثل منظومة كاملة متكاملة متآزرّة بين أوصالها وسداها ولحمتها (علمياً وعملياً ودعويّاً، ثقافةً وحضارةً، نظراً وتطبيقاً، معرفةً وممارسةً) ينبغي أن يَهْدِي إليها المخلصون لتستظل الأمة بوارف ظلها مَنْ لفحة الهجير في صحراء التيه، والغفلة، وفيافي الجهل والظلام الدامس.

الباب الثاني

التشيع ثقافة المستقبل

التشيع دين الله في الأرض وليس مذهباً كبقية

المذاهب الأخرى.

♦ المؤلف

تمهيد حضاري

ما هي الثقافة؟

وما هو التشيع؟

وأى خصوصية في الثقافة الشيعية، أو ثقافة التشيع الحضارية اليوم؟

وبالتالي لماذا هي بالذات ستكون ثقافة المستقبل، وليس غيرها من الثقافات العالمية، التي تضح وتعج بها الساحة العالمية المفتوحة على كل شيء في هذا العصر، وما يأتي أعظم؟

والتاريخ الإنساني المكتوب وغير المكتوب ربما يقرر بأن البقاء للأقوى من الثقافات العالمية، وثقافة التشيع اليوم هي من الثقافات المحاربة والمظلومة والمضطهدة منذ أن كان أمير هذه الطائفة المحقة وإلى اليوم فكيف ستنتصر والقريب والبعيد والصديق قبل العدو يحاربها اليوم فهذا بعكس منطق التاريخ؟

ومن هنا كانت الإنطلاقة، ومن هنا كان منبع النور الذي نعتمد عليه ببحثنا هذا، فالمسألة فيها خطأ منهجي، وقراءتها مغلوطة من البداية،

فالواقع والحقيقة تقول: بأن البقاء ليس للأقوى بل للأصلح، وأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام يقول: (لا يصح إلا الصحيح).

فمهما تطاول الباطل، لا يمكن أن يصير حقاً، ومهما اضطهد الحق فلا يمكن أن يصير باطلاً في يوم من الأيام، فالحق يبقى حقاً وإن دمر، والباطل يبقى باطلاً وإن تفرعن، فالحق لا يبطله شيء ولكن الباطل في نهاية المطاف زاهق لا شك، وببدا الحق مضروب وبأقدامه مداس، وذلك من سنن الله تعالى في هذا الكون، ألم يقل ربنا ﷺ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾^(١)

ما هي الثقافة؟

إذا أردت أن تتعرف على شعب من الشعوب، أو حضارة من الحضارات ما عليك إلا أن تبحث عن ثقافة ذلك الشعب، أو تلك الحضارة.. فالثقافة العامة لكل شعب، وحضارة هي التي تعطيك الملامح العامة لهوية، وشخصية، وأساليب حياة ذلك الشعب، وتلك الحضارة.. وإلا فمعرفتنا بذلك الشعب ستكون سطحية، وأحكامنا عليه ستكون غير صائبة إذا لم تكن ظالمة.

ولكن ماذا تعني الثقافة في لغتنا العربية..؟

ثقف، تثقيفاً: صار حاذقاً، وفطناً.. وتثقف فلان؛ صار حاذقاً، وفطناً..

(فهو مثقف).

وَتَقَفَ الشَّيْءَ: أقام المعوجَّ منه، وسوَّاهُ.. وَتَقَّفَ الإنسانُ: أدَّبَهُ، وَهَدَّبَهُ، وَعَلَّمَهُ.

والثقافة: هي العلوم، والمعارف، والفنون التي يطلب الحذق فيها..^(١)

وجاء في معجم المصطلحات العربية، أربع معاني للثقافة، هي:

١. رياضة الملكات البشرية، بحيث تصبح أتمَّ نشاطاً واستعداداً للإنجاز.

٢. ترقية العقل، والأخلاق، وتنمية الذوق السليم في الأدب والفنون الجميلة.

٣. إحدى مراحل التقدم في حضارة ما.

٤. السِّمات المميِّزة لإحدى مراحل التقدم في حضارة من الحضارات.

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن ثقافات، ويُعرِّف الثقافة المضادة، بقوله: هو مُصطلح جديد أطلق على أي تعبير ثقافي يحاول أن يحلَّ محلَّ الثقافة التقليدية بمعناها المألوف.

ومن هذه المعاني اللغوية نخلص إلى أن الثقافة في اللغة العربية تعني الحذق، والإحاطة، وسرعة التعلم.. وربما نستفيد من معنى الثقافة كمصطلح متداول الآن دالتين:

أ- معنى (حسي) حقيقي مثل: كإدراك الشيء والحصول عليه.. وتقويم المعوجَّ وتسويته.

(١) - المعجم الوسيط: مادة (تقف).

ب - معنى (معنوي) مجازي مثل: الحذق والفتنة والذكاء..
والتأديب والتهذيب.. وسرعة التعلم والفهم.. وتنمية الفكر والمواهب..
وإدراك العلوم وضبط المعرفة المكتسبة.

جاء في «كتاب المدخل للثقافة الإسلامية»: استعمل العرب مادة (ثَقَفَ) بمعان متعددة يرجع بعضها إلى أمور معنوية، كما يرجع بعضها إلى أمور حسية، وإن كانت دلالتها على الأمور المعنوية أكثر من دلالتها على الحسيات^(١).. فمن الأمور المعنوية (الحذق، الفتنة، التهذيب، الذكاء...) (٢) ومن المعاني الحسية (تقويم المعوج، الأخذ في قوة، الإصلاح...).

كما قد عَرَفَ الغرب الثقافة لغة بقولهم: أن معنى الثقافة (CULTURE) في أصلها اللاتيني يدور حول معنى (فلاحة الأرض وتنمية محصولاتها) ثم توسعت لتشمل المعنى المادي الحسي، وتنمية العقل والذوق والأدب بالمعنى المعنوي^(٣).

ثم قال: أنها لم يُعَرَّفَ تعريفاً واضحاً قاطعاً للجدل فكان معناها الاصطلاحي أوسع من معناها اللغوي الذي سبق بيانه فتعددت الآراء حول مفهومها الاصطلاحي، ونكتفي بتعريف المجمع اللغوي الذي عرفها بقوله): جُملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطَلَّبُ الحِذْقُ فيها^(٤)

(١) - نظرات في الثقافة (ص ١١) .

(٢) - معجم مقاييس اللغة، مادة: ثقف (٣٨٢/١)، ولسان العرب مادة ثقف، والمعجم الوسيط، مادة: ثقف .

(٣) - المورد (ص ٢٣٨) .

(٤) - المعجم الوسيط مادة ثقف (٩٨/١) .

وقد عرفها مالك بن نبي، بقوله: بمجموعة من الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه^(١).

وكما عَرَفَ الغرب الثقافة اصطلاحاً: بالدراسات الاجتماعية، وعلم السُّلالات البشرية، ولقد عَرَفَه العالم البريطاني (أدوار بيرنت تايلور) (١٨٧١م): أنها ذلك الكل المُعقد الذي يتضمن المعرفة، والعقيدة، والفن، والأخلاق، والقانون، والعادات، وكل المقومات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع^(٢).

وقد عُرِفَت الثقافة الغربية: بأنها نظام المعنى ومصنع القوة، أي كل ما يتعلق بإنتاج المعرفة، والقيمة، أو الثروة والسلطة، وذلك في مختلف قطاعات الإنتاج؛ الأدوات والسلع، القواعد والمؤسسات، العقائد والمعارف والعلوم^(٣).

تعريف الثقافة عند اليونسكو (المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة التابعة لهيئة الأمم المتحدة) هي: جميع السمات الروحية، والمادية، والفكرية، والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات.

والألسكو (المنظمة العربية للعلوم والثقافة)، والاييسكو (المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة)

(١) - كتاب مشكلة الثقافة - مالك بن نبي (ص ٧٤).

(٢) - قاموس علم الاجتماع - د. عاطف غيث (ص ١١٠ - ١١١).

(٣) - كتاب الأختام الأصولية والشعائر التقدمية - مصائر المشروع الثقافي العربي - د. علي حرب (ص ١٠٨).

عرّفوا الثقافة لكن هذه التعريفات تشابه التعريف السابق لليونسكو^(١).

تعريف الثقافة عند الألسكو هي: تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعناها الواسع، وما يتصل بهما من المهارات أو يُعين عليهما من الوسائل، فهي موصولة الروابط بجميع أوجه النشاط الاجتماعي الأخرى، متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها^(٢).

الثقافة الإسلامية: لقد اختلفت تصورات العلماء المعاصرين حول هذا المصطلح ولعل أفضلها هو: (معرفة مقومات الأمة الإسلامية العامة بتفاعلاتها في الماضي والحاضر من دين ولغة وتاريخ وحضارة وقيم وأهداف مشتركة بصورة واعية هادفة، بما ينسجم ويتطابق مع الدين والشريعة الإسلامية).

المُثَقَّفُ مَنْ هُوَ

عُرف لغة بالفعل الثلاثي ثَقَّفَ، وَثَقِّيفَ، وَثِقَافٌ سواء للرجل أو المرأة؛ وهو أيضاً الذي يمارس عملية التقويم والتعديل.

وقد عرف اصطلاحاً بالذي يمارس عملية تقويم وتعديل وقد اتصف بالتميز الفكري وأثره على المجتمع وعلى نفسه^(٣).

(١) - مذكرة المثقف والمجتمع - إشراف د. أحمد بن عبد الله الحسيني.

(٢) - كتاب الوجيز في الثقافة الإسلامية - د. همام سعيد، د. صلاح الخالدي، أ. محمود حموده.

(٣) - مذكرة المثقف والمجتمع - إشراف د. أحمد بن عبد الله الحسيني (ص ١٠).

كما عرّفه (دياللو): بأنه الرجل الذي من مميزاتة الأساسية استعداداه لسماع الرأي الآخر واحترامه ورغبته في التوصل لتفاهم متبادل عن طريق الحوار وكراهيته للتعصب، وانفتاحه على الفهم العالمي^(١).

والمثقف عند (أدوار): هو شخص يتمتع بموهبة من حمل الرسالة، أو تمثل وجهة نظر، أو فلسفة ويتجسد ذلك بالإفصاح عنه إلى المجتمع، وتنفيذ ذلك باسم المجتمع.

وعند الغرب المثقفون هم قطاع بين المتعلمين يسعون إلى صياغة ضمير مجتمعهم ليتجه اتجاهاً راشداً - كما يظنون ويدعون - ويؤثرون على القرارات الكبرى على هذا المجتمع^(٢).

وبالتأمل بهذه الكلمات يتبين لك أن كلمة (ثقافة) مطاطة، ومفهومها مُشكك يختلف بحسب الثقافة، ومنظار الناظر إليها.

ولذ فإنك تقرأ لكل طيف ثقافي تعريفه للثقافة.. وأجمل الكلام فيها الدكتور حسين مؤنس حين، قال: بأنها ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع من البيئة، ومعبر عنها وموصل لتقاليدها في هذا الميدان أو ذاك.

ولا يخفى عليك أنه عندما نطلق عن الثقافة (بأنها نشاط إنساني) فإننا نعني أن للبيئة، الاجتماعية والظروف الطبيعية الأخرى التي يعيش الإنسان تحت ظروفها لشعب من الشعوب، له دور أساسي بتوليد ثقافة مختلفة عن غيرها من ثقافات الشعوب الأخرى.. والتي تخضع بدورها لظروف ومناخات مختلفة وهذا يدفع باتجاه الأخذ بالخصوصيات

(١) - كتاب المثقف العربي - همومه وعطاؤه - مجموعة من المؤلفين (ص ٢٠).

(٢) - مذكرة المثقف والمجتمع - إشراف د. أحمد بن عبد الله الحسيني (ص ١١).

الثقافية للشعوب تبعاً لظروف معيشتها وأسلوب تفكيرها وموقفها من الحياة.

ذلك لأن الثقافة في وجه من وجوها تمثل المحيط الفكري الذي يعيش فيه الناس وفقاً لأنماط نابعة من ظروفها الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والبيئة الجغرافية التي تتيح انتقالاً نوعياً بالفكر والسلوك وتقود للتطورات التاريخية التي تشهدها المجتمعات البشرية.

فالمنجز الثقافي: هو محصلة التفاعل بين الإنسان وبيئته.. وثقافة شعب ما، هي جماع المعارف الإنسانية لذلك الشعب في محاولته للوصول إلى حالة من التوازن مع الظروف الحياتية التي يحياها، وهي إبداع حالة تكيف تُثلى مع الشروط التي تفرضها البيئة المحلية والعلاقات المتشكلة مع الشعوب ذات الثقافات الأخرى.

إنها جدل حيوي يدور بين الشعوب وبيئتهم مرة، وبين فئات الشعوب نفسها مرة أخرى، مما يدفع هذه الفئات إلى العمل لابتكار ما يتصل بحياة شعوبها ويجعلها أكثر قدرة على تأكيد كيانها بامتلاك خصائص مستقلة تميزها عن سواها من الكيانات القريبة أو البعيدة بعلم أو بغير علم.

ذلك لأن ثقافة الأمة؛ هي علمها غير الواعي، وعملها الكلي الذي تتوارثه الأجيال وتُسير به شؤون حياتها أي هي طريقتها في الحياة.

والثقافة الإنسانية تتمثل في كل الخصائص التي تميز الكائن البشري عن سواه وتجعل منه فرداً ينتمي إلى العائلة الإنسانية ويقدم إسهاماً جوهرياً في دعم مسيرتها على هذه الأرض وهي تعبير عن أصالة الشعوب التي لا بد لها من تحصين ثقافتها بتفعيلها ومواصلة

الصعود بها بفعل القوى المرئية وغير المرئية التي نمتلكها ذلك لأن الإنسان لا يقدم على استهلاك منجزه الثقافي بل يواصل جهده في تطويره والإضافة إليه لأن عناصر الثقافة لدى الشعوب الحية تظل في حالة نمو متصل وتطور دائم لمسيرة الظروف الحياتية المستجدة.^(١)

فبإمكاننا أن نُعرِّف الثقافة، بأن نقول: هي منظومة من الرؤى، والأفكار، والعادات، والتقاليد، المؤثرة في حياة الإنسان وهي التي تُحدد مسار سلوكه وطبيعة موقفه ونظراته للحياة والأحياء الآخرين ممن يؤثر أو يتأثر بهم من حوله.

وعليه فإن العلوم المختلفة والنظريات العلمية التي غيرت نظرة العالم للكون هي ليست من الثقافة، ولا حتى المنجزات العلمية وتطوراتها المختلفة من الثقافة، رغم ما أحدثته في منظومات القيم والثقافات المختلفة في شعوب الأرض كلها فالتطورات التقنية، والتقدم العلمي يؤثر على الثقافات ويطورها ويضيف عليها أشياء لم تكن فيها من قبل ولكن هي بحد ذاتها ليست من الثقافة بل هي من النتائج العلمية.

وأما الثقافة فهي من مفاهيم العقل العملي للإنسان في هذه الحياة لأنها تضع الإستراتيجيات العلمية التي يجب أن يسير عليها السلوك الإنساني في حضارة من الحضارات التي تتصف بالإنسانية.

فالثقافة مرتبطة بالسلوك أكثر من ارتباطها بغيره وهذا ما نستنفذه من ظلال الكلمة (ثقافة) ومعناها في اللغة العربية إذ أنها تعني: تقويم سلوك الإنسان وتسويته كما يُقوَّمُ الرمح ويُسوَّى عند صانع الرماح

وثاقفها، أو مثقفها؛ لأنه يُقومها ويُسويها ويبريها لتكون نافذة.. ولكل إنسان بالحقيقة والواقع ثقافتان وليست ثقافة واحدة هما:

ثقافة عامة: وهي الثقافة المشتركة بين بني البشر قاطبة فأصالة الإنسانية، ومبدأ الحرية، ومنظومات القيم الأخلاقية العامة، وكل ما يفرزه أو يفرضه الوجدان من الإنسان تجاه أخيه الإنسان في هذه الحياة.

ثقافة خاصة: هي الثقافة المطبوعة في الإنسان من بيئته، ومجتمعه، ودينه وهي مجموعة العادات، والتقاليد، ومنظومة المجتمع الذي يعيش فيه وبمعنى آخر، أو بتقسيم آخر يمكن لنا القول:

١. الثقافة الكونية: وهي التي تنظر إلى الإنسان كإنسان دون النظر إلى الظروف الأخرى.

٢. الثقافة الأممية: وهي التي تنظر إلى الإنسان ككائن حي يعيش ضمن ظروف معينه وهو ما تتميز به الأمم والشعوب بعضها عن بعض، وحتى ضمن الشعب الواحد، ووالأمة الواحدة، والبلد الواحد تختلف الثقافات من منطقة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر وذلك بما يتميز به المناطق والمجتمعات من عادات وتقاليد خاصة، بالطعام واللباس، والشراب، والأعراس، وغيرها من الاجتماعيات الثقافية.

هذا كله إذا أردنا أن نقسّم الثقافة بالنظر إلى الإنسان وتأثره بالثقافة ولكن إذا أردنا أن نقسّم الثقافة بالنسبة للثقافة نفسها بما هي ثقافة فإننا يمكن أن نقسمها كذلك إلى:

١. ثقافة رائدة تولّد حضارة.

٢. ثقافة متولّدة، تُولد من حضارة ذات ثقافة رائدة.

فالأولى أصلية ومتبوعة، والثانية فرعية وتابعة وتقاس أصلتها بشدة ارتباطها بالأولى.. فالثقافة الرائدة تفجر طاقات الإنسان وتبعثه ليصنع مجتمعاً حياً نشيطاً فهي كالشمس بالنسبة للحياة في هذه الأرض تبدأ بأطياف النور عند الفجر، ثم تشرق ناشرة قواها على البقعة التي تقابلها، وهكذا يزداد تألقها كلما ارتفعت، ويزداد شعاعها قوة، وشدة، وفائدة، إلى أن تتربع في كبد السماء، وعلى قمة المجد العليا، ثم تبدأ رحلة الانحدار وطريق العودة إلى المغيب والتلاشي خلف غياهب الظلام بالنسبة لمن غابت عنهم، وطاردة جنود الظلام لمن تشرق عليهم. وهكذا هي الحضارة.. حيث تشرق شمس الحضارة، فتبعث أشعة ثقافتها على من يعيشون تحت عيونها الذهبية، فتشرق عليهم، وتمدهم بالطاقة والنور.. وكلُّ يأخذ منها حاجته، ولذا فإن بعض العلماء قسّم حياة الحضارات إلى مراحل كحياة الإنسان تماماً، أو كإشراق الشمس التي قدمنا، وقالوا أن هذه المراحل هي أربعة:

١. مرحلة الانطلاق.. وتسمى الربيع الحضاري، حيث تتفجر الطاقات، وتزدهر الحياة، وتُبنى الحضارة.
٢. مرحلة القوة والنضوج: وتسمى الصيف الميعطاء، حيث تنضج الثمار، وتؤتي الحضارة أكلها.
٣. الضعف والكهولة: وتسمى خريف العمر حيث تبدأ الحضارة تترنح، وتتأرجح، وتلعب بها الأهواء، وتميل شمسها للمغيب.
٤. مرحلة الموت: وتسمى الشتاء الحضاري، حيث تسقط حضارة فتُدفن، وتُمطر الحياة على الأحياء مؤذنة بولادة حضارة جديدة.. وهكذا

هي الأيام دُول، وتلك الأمثال مُضروبة بين الناس، ولكن أين العقلاء من بني البشر؟

ثقافة العولمة

نحن في عصر العولمة، ومن أبناء الحضارة الرقمية، كما يدّعي بعض المثقفون الجدد، ولكن نسألهم عن معنى الثقافة التي يدّعون، وعن مقوماتها، وأهدافها أو ما تصبو إليه في الحاضر وما ترمي له في باطن الزمن المقبل، أو رحم الأيام القادمة، وما نسميه بالمستقبل؟.

كثيرة هي تعاريف العولمة وثقافتها، أو سخافتها لقشريتها وماديتها، فيعرف الدكتور (محمد عابد الجابري)، في بحث بعنوان: (العولمة والهوية الثقافية) الثقافة بقوله: إننا نقصد بـ «الثقافة» هنا؛ ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تُحتفظ لجماعة بشرية، تشكل أمة، أو ما في معناها، بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية، وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء.. وبعبارة أخرى إن الثقافة هي «المُعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يأمل».

وتلزم عن هذا التعريف، لزوماً ضرورياً، النتيجة التالية، هي أنه: ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام، وإنما وجدت، وتوجد وستوجد، ثقافات متعددة متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية، أو بتدخل إرادي من أهلها، على الحفاظ على

كيانها ومقوماتها الخاصة.. ومن هذه الثقافات ما يميل إلى الانغلاق والانكماش، ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع، ومنها ما ينعزل حيناً وينتشر حيناً آخر.

إن الهوية الثقافية كيان يصير، ويتطور، وليست معطى جاهزاً ونهائياً.. هي تصير وتتطور، إما في اتجاه الانكماش وإما في اتجاه الانتشار، وهي تغني بتجارب أهلها ومعاناتهم، انتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضاً باحتكاكها سلباً أو إيجاباً مع الهويات الثقافية الأخرى التي تدخل معها في تباين من نوع ما.

وأما العولمة التي يجري الحديث عنها الآن: هي نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد.. فالعولمة الآن نظام عالمي - أو يراد لها أن تكون كذلك - يشمل مجال المال والتسويق والمبادلات والاتصال الخ... كما يشمل أيضاً مجال السياسة والفكر والإيديولوجيا.

والعولمة تعني في معناها اللغوي: تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله.. وهي تعني الآن، في المجال السياسي منظوراً إليه من زاوية الجغرافيا (الجيوبولتيك)، العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلداً بعينه، هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، على بلدان العالم أجمع.. فليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور «التلقائي» للنظام الرأسمالي، بل إنها، أيضاً، وبالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين (أمريكي بالذات).. وبعبارة أخرى، فالعولمة، إلى جانب أنها تعكس مظهراً أساسياً من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا، هي أيضاً إيديولوجيا تُعبّر بصورة مباشرة، عن إرادة الهيمنة على العالم وأمره.

وقد حددت وسائلها لتحقيق ذلك في الأمور التالية:

١- استعمال السوق العالمية أداة للإخلال بالتوازن في الدول القومية، في نظمها وبرامجها الخاصة بالحماية الاجتماعية.

٢- اتخاذ السوق والمنافسة التي تجري فيها مجالاً لـ«الاصطفاء»، بالمعنى الدارويني للكلمة، أي وفقاً لنظرية (داروين) في «اصطفاء الأنواع والبقاء للأصلح».. وهذا يعني أن الدول والأمم والشعوب التي لا تقدر على «المنافسة» سيكون مصيرها - بل يجب أن يكون - الانقراض.

٣- إعطاء كل الأهمية والأولوية للإعلام لإحداث التغييرات المطلوبة على الصعيد المحلي والعالمي، باعتبار أن «الجيوبوليتيك»، أو السياسة منظوراً إليها من زاوية الجغرافيا، وبالتالي الهيمنة العالمية، أصبحت تعني اليوم مراقبة «السلطة اللامادية»، سلطة تكنولوجية الإعلام التي ترسم اليوم الحدود في «الفضاء السيبرنيتي»: حدود المجال الاقتصادي السياسي التي ترسمها وسائل الاتصال الإلكترونية المتطورة.

وهكذا فبدلاً من الحدود الثقافية، الوطنية والقومية، تطرح إيديولوجيا العولمة «حدوداً» أخرى، غير مرئية، ترسمها الشبكات العالمية بقصد الهيمنة على الاقتصاد والأذواق والفكر والسلوك.

فالعولمة شيء و«العالمية» التي ينادي بها الإسلام شيء آخر.. فالعالمية تفتُح على العالم، على الثقافات الأخرى، واحتفاظ بالاختلاف الثقافي، وبالاختلاف الإيديولوجي، وبالتنوع الحضاري، بين الشعوب والأمم.. أما العولمة فهي نفي للآخر وإحلال الاختراق الثقافي بكل أطرافه، وعلى أوسع مجالاته، محل الصراع الإيديولوجي.

والعولمة إرادة للهيمنة الأمريكية على أمم الأرض، وبالتالي قمع وإقصاء ونفي للخصوصي في كل أمة وفي كل شعب.. أما العالمية فهي طموح إلى الإرتقاء والارتفاع بالخصوصية إلى مستوى عالمي.. فالعولمة احتواء للعالم بالغضب والإكراه، والعالمية تفتح على ما هو عالمي وكوني.

فنشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار الحضاري، والتلاقح الفكري.. إنها طريق الأنا للتعامل مع «الآخر» بوصفه «أنا ثانية»، طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة.. أما العولمة فهي طموح بل إرادة لاختراق «الآخر» وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من «العالم».. العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق وتمييع لها.

والاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة يريد إلغاء الصراع الإيديولوجي والحلول محله.. الصراع الإيديولوجي صراع حول تأويل الحاضر وتفسير الماضي والتشريع للمستقبل، أما الاختراق الثقافي فيستهدف الأداة التي يتم بها ذلك التأويل والتفسير والتشريع يستهدف العقل والنفس ووسيلتهما في التعامل مع العالم: «الإدراك».

لقد حل هذا اللفظ اليوم - الإدراك - محل لفظ آخر كان كثير الاستعمال بالأمس، في عصر الصراع الإيديولوجي، لفظ «الوعي» (الوعي الطبقي، الوعي القومي، الوعي الديني...). كان الصراع الإيديولوجي وما يزال يستهدف تشكيل الوعي، تزيفه أو تصحيحه، أما «الاختراق الثقافي» فهو يستهدف أول ما يستهدف السيطرة على الإدراك،

اختطافه وتوجيهه، وبالتالي سلب الوعي، والهيمنة على الهوية الثقافية الفردية والجماعية.

في زمن الصراع الإيديولوجي كانت وسيلة تشكيل الوعي هي الإيديولوجيا، أما في زمن الاختراق الثقافي فوسيلة السيطرة على الإدراك هي الصورة السمعية البصرية التي تسعى إلى «تسطيح الوعي»، إلى جعله يرتبط بما يجري على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي إشهاري، مثير للإدراك، مستفز للانفعال، حاجب للعقل...

وبالسيطرة على الإدراك، وانطلاقاً منها، يتم «إخضاع النفوس»، أعني تعطيل فاعلية العقل، وتكييف المنطق، والتشويش على نظام القيم، وتوجيه الخيال، وتنميط الذوق، وقولبة السلوك.. والهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والقيم لتصبح كالسلع والبضائع؛ معارف إشهارية تشكل في مجموعها ما يمكن أن نطلق عليه «ثقافة الاختراق».

ثقافة الاختراق تقوم على جملة أو هام هدفها: «التطبيع» مع الهيمنة وتكريس الاستتباع الحضاري.

تتولى القيام بعملية تسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والأقوام والأمم، ثقافةٌ جديدة تماماً لم يشهد التاريخ من قبل لها مثيلاً؛ ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي (الاشهار التجاري) والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية) وتشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ، إنها «ثقافة الاختراق» التي تقدمها العولمة بديلاً للصراع الإيديولوجي.

ولا يعني حلول الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي موت الإيديولوجيا، كما يريد المبشرون بالعولمة أن يوهموا الناس.. كلا إن الاختراق الثقافي، بالعكس من ذلك، مُحمَّلٌ بإيديولوجيا معينة، هي إيديولوجيا الاختراق، وهي تختلف عن الإيديولوجيات المتصارعة، كالرأسمالية والاشتراكية، في كونها لا تقدم مشروعاً للمستقبل، لا تقدم نفسها كخصم لبديل آخر تسميه وتقاومه، وإنما تعمل على اختراق الرغبة في البديل، وشل نشدان التغيير لدى الأفراد والجماعات، فهي بالحقيقة أشبه بما نسميه نحن ب (الجاهلية الجاهلاء)، فهي دعوة للعودة إلى قيم الجاهلية الخالية من القيم إلا القيم الشخصية، والمصلحة الآنية التي تحددها الظروف.

فإيديولوجيا الاختراق تقوم على نشر وتكريس جملة أوهام، هي نفسها «مكونات الثقافة الإعلامية الجماهيرية في الولايات المتحدة الأمريكية»، وقد حصرها باحث أمريكي في الأوهام الخمسة التالية:

- ١- وهم الفردية.
- ٢- وهم الخيار الشخصي.
- ٣- وهم الحياد.
- ٤- وهم الطبيعة البشرية التي لا تتغير.
- ٥- وهم غياب الصراع الاجتماعي.

وإذا نحن أردنا أن نوجز في عبارة واحدة مضمون هذه المسلمات الخمس لديهم، أمكن القول إن «الثقافة الإعلامية الجماهيرية» الأمريكية، هذه، تركز إيديولوجيا «الفردية المستسلمة»، وهي

إيديولوجيا تضرب في الصميم الهوية الثقافية بمستوياتها الثلاثة، الفردية، والمجتمعية، والدولية.

إن «وهم الفردية يلغي إنتماءه للمجتمع»، أي اعتقاد المرء في أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته وأن كل ما عداه أجنبي عنه لا يعنيه، إنما يعمل - هذا الوهم - على تخريب وتمزيق الرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضواً في جماعة وفي طبقة وأمة، وبالتالي فوهم الفردية هذا إنما يهدف إلى إلغاء الهوية الجماعية والطبقية والوطنية القومية، وكل إطار جماعي آخر، ليبقى الإطار «العالمي» - بل العولمي - هو وحده الموجود..

أما «وهم الخيار الشخصي يلغي الروح الجماعية» فواضح أنه يرتبط بالأول ويكمله.. إنه، باسم الحرية، يكرس النزعة الأنانية ويعمل على طمس الروح الجماعية سواء كانت على صورة الوعي الطبقي أو الوعي القومي أو الشعور الإنساني.

ويأتي «وهم الحياد يلغي روح المسؤولية» ليدفع بالأمر خطوة أخرى في الاتجاه نفسه: فمادام الفرد وحده الموجود، ومادام حراً مختاراً فهو «محايد»، وكل الناس والأشياء إزاءه «محايدون» أو يجب أن يكونوا كذلك.. وهكذا تعمل هذه الإيديولوجيا من خلال «وهم الحياد» على تكريس التحلل من كل التزام أو ارتباط بأية قضية.. ومن هنا ذلك الشعار الذي انتشر في السنين الأخيرة: شعار: «وأنا مالي».

وأما الوهم الرابع وهو «الاعتقاد في الطبيعة البشرية التي لا تتغير يلغي روح المقاومة»، فواضح أنه يرمي إلى صرف النظر عن رؤية الفوارق بين الأغنياء والفقراء، بين البيض والسود، بين المستغلين وبين

من هم ضحايا الاستغلال، وقبولها - أعني تلك الفوارق - بوصفها أموراً طبيعية كالفوارق بين الليل والنهار والصيف والشتاء، وبالتالي شل روح المقاومة في الفرد والجماعة.

ويأتي الوهم الخامس صريحاً في منطوقه ومفهومه؛ إن «الاعتقاد في غياب الصراع الاجتماعي يعني التطويع والتطبيع مع المهيمن الأمريكي» هو التطويع الصريح للأوهام السابقة، غياب الصراع الاجتماعي معناه - إذا قبلناه وسلمنا به - الاستسلام للجهات المستغلة، من شركات ووكالات وغيرها من أدوات العولمة.. وبعبارة أخرى التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري الذي يشكل الهدف الأول والأخير للعولمة.

والعولمة نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع للتفتيت والتشتيت، ليربط الناس بعالم اللا وطن، واللا أمة، واللا دولة، أو يغرقهم في أتون الحرب الأهلية.

ومع التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري يأتي فقدان الشعور بالانتماء لوطن أو أمة أو دولة، وبالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى.. إن العولمة عالم بدون دولة، بدون أمة، بدون وطن.. إنه عالم المؤسسات والشبكات العالمية، عالم «الفاعلين»، وهم المسيرون، و«المفعول فيهم» وهم المستهلكون للسلع والصور و«المعلومات» والحركات والسكنات التي تفرض عليهم.. أما «وطنهم» فهو الفضاء الافتراضي «المعلوماتي» الذي تصنعه شبكات الاتصال، الفضاء الذي يحتوي - بل يسيطر ويوجه - الاقتصاد، والسياسة، والثقافة.

والعولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن.. نظام يريد رفع الحواجز والحدود أمام الشبكات والمؤسسات والشركات المتعددة الجنسية، وبالتالي إذابة الدولة الوطنية وجعل دورها يقتصر على القيام بدور (الدركي أو الشرطي) لشبكات الهيمنة العالمية.

والعولمة تقوم على الخصوصية، أي على نزع ملكية الوطن والأمة والدولة ونقلها إلى الخواص في الداخل والخارج.. وهكذا تتحول الدولة إلى جهاز لا يملك ولا يراقب ولا يوجه.. وإضعاف سلطة الدولة والتخفيف من حضورها لفائدة العولمة يؤديان حتماً إلى استيقاظ وإيقاظ أطر للانتماء سابقة على الأمة والدولة، أعني القبيلة والطائفة والجهة والتعصب المذهبي الخ... والدفع بها جميعاً إلى التقاتل والتناحر والإفناء المتبادل؛ إلى تمزيق الهوية الثقافية الوطنية القومية إلى الحرب الأهلية، وهذا ما نشهده على الخارطة السياسية اليوم.

الثقافة المقاومة (ثقافة المقاومة)

الحقيقة والواقع يقول: إن تجديد الثقافة، أية ثقافة، لا يمكن أن يتم إلا من داخلها وذلك بإعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل، وقد أثبتت التجربة التي نعيشها في الواقع أن ثقافة المقاومة هي أفضل سلاح لمقاومة العولمة والتصدي للإختراق الثقافي والحضاري للأمة العربية والإسلامية، وثقافة المقاومة هي ثقافة الجهاد بالحقيقة، فهل نعيد الجهاد إلى واجهتنا الثقافية.

وقد تسأل: ما العمل إزاء هذه السلبيات والأخطار التي تطبع علاقة العولمة بالعرب والمسلمين على صعيد الهوية الثقافية؟ فهناك موقفان سهلان، وهما السائدان:

١. موقف الرفض المطلق وسلاحه الانغلاق الكلي وما يتبع ذلك من ردود فعل سلبية محاربة.

٢. وموقف القبول التام للعولمة وما تمارسه من اختراق ثقافي واستتباع حضاري، شعاره «الانفتاح على العصر» و«المراهنة على الحداثة».

إن الانغلاق موقف سلبي، غير فاعل، ذلك لأن فعله «الموجه» ضد الاختراق الثقافي - أي محاربه له - لا ينال الاختراق، ولا يمسّه، ولا يفعل فيه أي فعل، بل فعله موجه كله إلى الذات بقصد «تحصينها».. والتحصين إنما يكون مفيداً عندما يكون المتحاربون على نسبة معقولة من تكافؤ القوى والقدرات.. أما عندما يتعلق الأمر بظاهرة عالمية تدخل جميع البيوت وتفعل فعلها بالإغراء والعدوى والحاجة، ويفرضها أصحابها فرضاً بتخطيط واستراتيجية، فإن الانغلاق في هذه الحالة ينقلب إلى موت بطيء، قد تتخلله بطولات مدهشة ولكن صاحبه محكوم عليه بالإخفاق.

ومثل (الانغلاق)، مثل مقابله (الاغتراب)، إن ثقافة الاغتراب، أعني إيديولوجيا الارتقاء في أحضان العولمة والاندماج والذوبان فيها، ثقافة تنطلق من الفراغ، أي من اللاهوية، وبالتالي فهي لا تستطيع أن تبني هوية ولا كياناً.. وقد يقول أصحاب هذا الموقف: إنه لا فائدة في المقاومة ولا في الالتجاء إلى التراث، بل يجب الانخراط في العولمة من دون تردد ومن دون حدود، لأنها ظاهرة حضارية عالمية لا يمكن

الوقوف ضدها ولا تحقيق التقدم خارجها.. إن الأمر يتعلق بـ «قطار يجب أن نركبه» وهو ماضٍ في طريقه بنا أو بدوننا.. ولا يوضح أصحاب هذه الدعوى هل سنبرز هوياتنا عند ركوب القطار، أم أننا سنركبه بدون هوية، بدون ورقة تعريف.؟

وبعيداً عن مناقشة جدالية لهذه الدعوى، يكفي التنبيه إلى أنها نفس الدعوى التي سبق أن ادعاها ونادى بها مفكرون عرب رواد منذ أزيد من قرن، ومنذ ذلك الوقت وهي تتردد وتكرر هنا وهناك في الوطن العربي، تبنتها حكومات وأحزاب فضلاً عن الأفراد.. ومع ذلك فحصوله قرن كامل من التبشير بهذه الدعوى - دعوى «الاغتراب» - لم تنتج سوى فئة من «العصرانيين» قليلة العدد، نشاهد اليوم تناقصاً نسبياً واضحاً في حجمها، بينما ازداد ويزداد الطرف المقابل لها عدداً وعدة، كما وكيفاً، في جميع الأقطار العربية والإسلامية وداخل جميع الشرائح الاجتماعية، وهكذا فبدلاً من تيارات «حداثية» تمارس الهيمنة والقيادة تستقطب الأجيال الصاعدة، بدلاً من ذلك يسود الحديث عن «الأصولية الدينية» بوصفها الظاهرة المهيمنة.

أما نحن - والكلام للدكتور الجابري - فنرى أن الجواب الصحيح عن سؤال «ما العمل»؟ - سواء إزاء الثنائية والانشطار الذين تعاني منهما الثقافة العربية، أو إزاء الاختراق الثقافي وإيديولوجيا العولمة - يجب أن ينطلق أولاً وقبل كل شيء من العمل داخل الثقافة العربية نفسها ذلك لأنه سواء تعلق الأمر بالمجال الثقافي أو بغيره، فمن المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطراً على الكيان والهوية.

إن الشائبة والانشطار - اللذين تحدثنا عنهما واللذين يشكلان نقطة الضعف الخطيرة في واقعنا الثقافي الراهن التي منها يمارس الاختراق تأثيره التخريبي - إنما يعكسان وضعية ثقافة لم تتم بعد إعادة بنائها، ثقافة يتزامن فيها القديم والجديد، والأصيل والوافد، في غير ما تفاعل ولا اندماج.

وهذا راجع إلى أن التجديد في ثقافتنا كان يُراد له، منذ أزيد من قرن، أن يتم من «الخارج» بنشر الفكر الحديث على سطحها، لقد سبق لنا أن أكدنا مراراً على أن تجديد الثقافة، أية ثقافة، لا يمكن أن يتم إلا من داخلها، بإعادة بنائها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، والتماس وجوه من الفهم والتأويل لمسارها تسمح بربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل.

ويخلص الدكتور جابري بنصيحة جميلة نسبياً للأمة العربية، يقول فيها: الإن حاجتنا إلى الدفاع عن هويتنا الثقافية بمستوياتها الثلاثة (الفردية، والمجتمعية، والوطنية)، لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لدخول عصر العلم والتقانة، وفي مقدمتها العقلانية والديموقراطية (مع تحفظنا الشديد على هذا المصطلح النابع من صميم العولمة الأمريكية).

إن حاجتنا إلى تجديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الكاسح الذي يمارسه، على مستوى عالمي، إعلامياً وبالتالي إيديولوجياً وثقافياً، المالكون للعلم والتقانة المسخرون لهما لهذا الغرض، لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتقانة، دخول الذات الفاعلة المستقلة وليس دخول «الموضوعات» المنفعلة المسيرة.

نحن في حاجة إلى التحديث، أي إلى الانخراط في عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين.. ولكننا في حاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والتقانة.. وليست هاتان الحاجتان الضروريتان متعارضتين كما قد يبدو لأول وهلة، بل بالعكس هما متكاملتان، أو على الأصح متلازمتان تلازم الشرط مع المشروط.

ذلك لأنه من الحقائق البديهية في عالم اليوم أن نجاح أي بلد من البلدان، النامية منها أو التي هي في «طريق» النمو، نجاحها في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، مشروط أكثر من أي وقت مضى بمدى عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد، عملية الانخراط الواعي، النامي والمتجذر، في عصر العلم والتقانة.

والوسيلة في كل ذلك واحدة: هي اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها وفي مقدمتها العلم والتقانة.. وهذا ما نلمسه بوضوح في تخطيطات الدول الأوروبية التي يُدق في كثير منها ناقوس خطر «الغزو الأمريكي» الإعلامي الثقافي الذي يتهددها، في لغتها وسلوك أبنائها وتصوراتهم الجمعية، والذي يوظف أرقى وسائل العلم والتقانة - ومنها الأقمار الصناعية - في اكتساح مختلف الحقول المعرفية والخصوصيات الثقافية.

إن أوروبا اليوم تتحدث حديث الخصوصية والأصالة، وتتحدث عن «الهوية الأوروبية» تعزيزاً لسيرها الجدي على طريق تشييد الوحدة بين شعوبها وأقطارها، بخطوات عقلانية محسوبة في إطار من الممارسة الديمقراطية الحق.. وهي بذلك تقدم لمستعمراتها القديمة،

لأقطار العالم الثالث كله، نموذجاً صالحاً للإقتداء به بعد ملاءمته مع الخصوصيات المحلية.

إن جل الحكومات العربية، إن لم يكن جميعها، تسعى اليوم لتحقيق «الشراكة» مع أوروبا، الشراكة في مجال الاقتصاد، وأيضاً في مجال الثقافة.. ومع أن هذه الشراكة المطلوبة تملئها على الجانبين ظرفية تحكمها المصالح القومية فإنه لاشيء يضمن تحولها إلى عولمة أخرى داخل العولمة الكبرى، غير شيء واحد، هو بناء الشراكة في الداخل كما في الخارج على الديمقراطية والعقلانية.

فهل للشعوب العربية أن تطالب بالشراكة مع أوروبا في مجال اعتماد العقلانية والديمقراطية، في الفكر والسلوك، في التخطيط والإنجاز، في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة؟

فالعولمة نظام، والنظام لا يقاوم من خارجه إلا بنظام مكافئ له أو متفوق عليه.. ونحن في العالم العربي نعيش حالة اللانظام.. ليس لدينا نظام عربي يكافئ النظام العالمي للعولمة.. فلا سبيل إذن إلى مقاومة سلبيات العولمة إلا من داخل العولمة نفسها، بأدواتها وبإحراجها في قيمها وتجاوزاتها.. وأيضاً بفرض نوع من النظام على الفوضى العربية القائمة، فوضى اللانظام.

التقسيم الديني للثقافة

كان كل ما تقدم هو الكلام عن التقسيم البشري للثقافة، ولكن ليس للدين تقسيم آخر، ونظرة أخرى للثقافة بشكل عام؟ وهل له مقياس يقيس به الثقافة الحضارية وغيرها؟!!

نعم لدينا هنا عدد من التقسيمات لاحظتها كتب الأديان، وتوضّحت وتبلورت، في آخر الأديان وأكملها وهو الدين الإسلامي الحنيف؛ هو الذي يُهمنا أولاً وأخيراً.. فما هو التقسيم الإسلامي للثقافة..؟!!

إن وأول تقسيم للثقافة من هذا الاتجاه، هو:

١. الثقافة الجاهلية: وهي ما قبل الإسلام، أو ما يخالفه من بعده).

٢. الثقافة الإسلامية: التي جاء بها الدين الحنيف، وصنع بها حضارة العرب العملاقة التليدة.

والثقافة الجاهلية كانت ثقافة جهل وتجهيل غارقة في ظلمات الحياة وظلمات النفوس المريضة لبعض الأشخاص المتنفيين في المجتمع العربي في ذلك العصر.. ومن أهم صفات تلك الثقافة:

١. ثقافة صنمية متحجرة: فهل هناك ما هو أتفه من ثقافة تعبد الأصنام، وأبسط من أولئك الذين يصنعون صنماً من تمر فإذا جاع وضعه أمامه وصلى له ثم أكله؟ أو هل هناك من ثقافة جاهلية أكثر ممّن يدفن ابنته وهي حيّة، وتنفض الغبار عن لحيته وهو يحفر لها قبرها، وهذا ما يُحدث به الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي يصف حاله وثقافته الجاهلية، وما هو إلا مصداق، فيقول:؟!!

٢. ثقافة طاغوتية: ففي عبادتها تعبد غير الله، وفي تقديسها تُقدس المُدنّس، وتُدنّس المُقدس؛ لأنها تقلب القيم وتعبد الصنم.. سواء كان أشياء، أو أفراد؛ ويتحكم بها مجموعة أشخاص حشوا رؤوسهم بالتفاهات، وقنعوا بأنهم أنصاف آلهة، وما أن تزداد قوته ونفوذه قليلاً حتى يدّعي ويقول ما قاله فرعون: (أنا ربكم الأعلى).. فيطغى الأغنياء الأغنياء، على البُسطاء والفقراء.

٣. ثقافة متخلفة: في جميع نواحي الحياة العامة والخاصة، وهذا طبعاً لا يتنافى مع بعض العادات الطيبة، والقيم الأخلاقية الراقية في ذلك المجتمع، ولكن الصفة الغالبة كانت التخلف.. ولذا فإن وصفها (بالجاهلية) كان حقيقة لا مراء فيها ولا جدال على صدقها.

أما الثقافة الإسلامية فإنها بدأت مع نزول القرآن الحكيم على الرسول الكريم ﷺ في غار الثور، وهي راحت تعمل على مستويي الهدم والبناء، هدم الموروث الثقافي الجاهلي، وبناء الثقافة الإسلامية المباركة، فكانت حرباً شعواء، وورشة بناء كبرى تهدف إلى تقويض أركان الجاهلية، وبناء قواعد دينية للحضارة الإنسانية، وتمثل ذلك بما يلي كما ينقل مؤلف (المختار من طرائف الأمثال والأخبار): (سئل عمر بن الخطاب عن أعجب ما مرَّ به في حياته.

فقال: هما حادثتان، كلما تذكرت الأولى ضحكْتُ، وكلما تذكرت الأخرى بكيتُ.

قيل له: فما الأولى التي تُضحكك؟

قال: كنتُ في الجاهلية أعبُدُ صنماً من العجوة، فإذا دار العام أكلتُ هذا الصنم، وصنعتُ من البلح الجديد صنماً غيره.

قيل له: وما الأخرى التي تبكيك؟

قال: بينما كنتُ أحفر حفرة لوأد ابنتي، كان الغبار يتناثر على لحيتي، فكانت ابنتي هذه تنفض عن لحيتي هذا الغبار، ومع ذلك فقد وأدتها..^(١)

(١) - المختار من طرائف الأمثال والأخبار، نبيه الداموري: ص ٢٩

١. ضرب أساس الجهل والتخلف؛ بالأمر بالعلم فكانت أول آية نزلت على الحبيب المصطفى ﷺ كما يذهب العلماء، هي: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١)

٢. هدم الثقافة الصنمية؛ بالدعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى بالقول والعمل، فأول نداء وأعظم نداء كان يناديه رسول الله ﷺ: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.. وقولوا لا إله إلا الله تحكموا الدنيا وتفتحوا البلدان في مشارق الأرض ومغاربها.

٣. تقويض ثقافة الطاغوت: فلا عبادة إلا لله الواحد الأحد الفرد الصمد، ولا طاعة مطلقة إلا لله تعالى، ولا أحد يملك حق التشريع إلا الله؛ وكل مَنْ يدَّعي حق التشريع أو الحكم بالدماء والفروج والأموال بغير الإذن الإلهي هو مُحارِب من قبل هذا الدين الحنيف فليس لله وكلاء إلا رسول الله ﷺ وَمَنْ أمر بطاعتهم بعد أن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، أي عصمهم من كل أنواع الذلل والخطل حتى السهو والنسيان.

وأما من ناحية البناء الحضاري فإن له جنبتان ثقافتان ولكل واحدة عدد من القواعد الأصلية التي بنا عليها الإسلام قواعده الثقافية، وهي:

أولاً: ثقافة عالمية كونية..

وتبنى على القواعد التالية:

١. ثقافة إنسانية فطرية؛ لأنها تُحاكي فطرة وإنسانية الإنسان في كل زمان ومكان، فهي غير ناكرة للبيدهيات الإنسانية، بل متلائمة معها تماماً.

٢. ثقافة شمولية عامة: فهي تخاطب كل الناس على حد سواء ودون تمييز، بين البشر.. فالرسول ﷺ رحمه للعالمين، وللناس كافة بشيراً ونذيراً والرسالة تنادي: (يا أيها الناس) بخطاباتها الكونية العامة، و(يا أيها المؤمنون أو الذين آمنوا) بخطاباتها الخاصة بهم.

٣. ثقافة أخلاقية قيمة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣١﴾﴾^(١)، نعم؛ إنه ﴿دِينًا قِيمًا﴾ وهذه تشكل قواعد كلية لبني البشر.

٤. ثقافة السلام والأمن؛ سليمة وسلمية؛ فلا عنف فيها ولا إرهاب بل هي تطالب بالسلم، والسلام الكوني من النفس وحتى الأمة ثم العالم والكون بما فيه من حيوان، وجماد، وبيئة، وماء، وهواء، فهي ثقافة نظيفة، وحضارة عفيفة.

ثانياً: ثقافة الأمة الإسلامية:

وهي الثقافة المتولدة كما سمينها، التي تولدت من ثقافة القرآن الحكيم الرائدة تلك الشمس الكونية التي شَعَّت على الدنيا من غار الثور في جبل النور في مكة النور القديم فأضاءت الكون بأنوارها فتلك الثقافة الرائدة كان لها عدد من القواعد التأسيسية أهمها:

١. الإله الواحد والشريعة الواحدة:

فلا معبود إلا الله ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق تعالى هذا أصل الأصول في البناء العقائدي والحضاري للأمة الإسلامية.

٢. القيادة الواحدة:

تتمثل بقيادة معينة من الله لها مواصفات وخصائص تتمثل بالرسول الأعظم ﷺ وامتداده القيادي المتمثل بالإمامة لأهل البيت الأطهار ﷺ وَمَنْ يَنْوِبُ عَنْهُمْ فِي زَمَنِ الْغَيْبَةِ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْعَدُولِ.

٣. الأمة الواحدة:

فالأمة الإسلامية أمة واحدة موحدّة، فربنا سبحانه يقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١)

وهذا الأصل الأصيل في بناء أمة الإسلام هو المقصود والمعني وليس ما نراه اليوم من هذا الاختلاف العجيب، وكل هذا الكم الهائل من الفرق المختلفة، فهي ناتجة من الابتعاد عن منهج القيادة الواحدة والتي حددته الرسالة نفسها.. وهي نتيجة طبيعية على نظرية (حسبنا كتاب الله) أولاً، ومن ثم نتائج (السقيفة)، ومؤتمرها الذي احتجوا بالشجرة ولكن أضاعوا الثمرة، كما قال أمير المؤمنين ومولى الموحدين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ يوم السقيفة (فلما انتهت إلى أمير المؤمنين ﷺ أبناء السقيفة بعد وفاة رسول الله ﷺ).

قال ﷺ: «ما قالت الأنصار؟»

قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير.

قال ﷺ: «فهلأ احتجتم عليهم بأن رسول الله ﷺ وصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مستيهم».

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم.

فقال ﷺ: «لو كانت الأمانة فيهم لم تكن الوصية بهم».

ثم قال ﷺ: «فما ذا قالت قريش؟»

قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ.

فقال ﷺ: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة..»^(١)

فكانوا كمن يحتج بالنخلة وعجوتها، ويذهب ليجمع الخرنوب وثمرتها، فهل حصل أولئك على العجوة الطيبة، أم أنهم أضاعوا الأمة بقطعهم النخلة المعطاءة والشجرة المباركة؟ تلك هي المسألة الشائكة، والمعضلة التي ننتظر حلها على جمر الغضا.

٤. الثقافة الإسلامية ثقافة القيم الأخلاقية والوجدان الحي:

وهذا ما يعطي ثقافة الأمة الإسلامية نبض الحياة، ويمدها بروح المقاومة مهما تعاضمت الخطوب، وتكالبت عليها الأمم وحاربتها الشعوب.. وهو الذي نعانيه في هذا العصر العجيب من عداء غريب.

لأن القيمة والأخلاق مجبولة في فطرة الإنسان والوجدان لا يخلو منه إنسان حتى عند أولئك الهمج المتوغلين في الجاهلية الحديثة من رعاة البقر في صحراء تكساس وأمثاله من الشعوب البدائية في مجاهيل أفريقية والغابات الإستوائية.. ولذا فإن ذاك الطيار الذي ألقى القنبلتين

النوويتين على ناغازاكي وهيروشيما، في اليابان فحوّلها إلى جحيم لا يُطاق، يقولون: بأنه جُنٌّ، وأُصيب من جَرَاءِ فِعْلَتِهِ، بمرض نفسي أودى به إلى الجنون.

فحصارة الإسلام الحنيف وثقافته مبنية على الأخلاق الفاضلة، والفضائل في القول والعمل فخطابه، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٢٥) (١)

فخطابه ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، ودعوته ﴿ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾، ورسالته إلى أمم الأرض «أسلم تسلم ويؤتيك الله أجرك مرتين»، وتعامل مع الآخرين بقاعدة (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به)، وعلى أساس قاعدتي الإلزام والإمضاء «ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، وبقية القواعد التي لو دُرست بشكل جيد، وورُعت على أمم الأرض اليوم، لرضخ الجميع لهذا الدين العظيم، ونظروا إليه بالاكبار والتعظيم لا العداء، والهجاء، والحرب، والإرهاب.

٥. الثقافة الإسلامية، هي ثقافة الحرية المسؤولة.

إذا؛ أنتَ عبدٌ أمامَ الله ربك ولكنك حرٌّ أمامَ قوى الكون كله.. وأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، قال: «لا تكن عبد غيرك وقد خلق الله حرّاً».

والحرية: هي جوهرة الكون الخفية، وهي سر الحضارة الممكنون وروح الكون المستور، فالحرية هي صانعة الحضارة الحقيقية، ولا حضارة إلا بالحرية المضمونة المضمونة لكل أطراف الشعب وطبقات الأمة لا سيما أهل الفكر والثقافة والأدب.. فهؤلاء إن كانوا أحراراً

أشاروا إلى موطن العطب وبينوا نقاط الضعف والخطأ في مسيرة الحياة العامة والخاصة لاسيما في الطبقات العليا من الأمة من الولاة والتجار والصناعيين وأصحاب رؤوس الأموال في الأمة فمن يشعر بالمراقبة ويخاف المحاسبة لا يتجرأ على المخالفة أو التصرف غير الصحيح.

٦. الثقافة الإسلامية هي ثقافة العدالة الإجتماعية.

والقسط بالتعامل فلا ظلم من أحد لأحد.. فأمير المؤمنين علي عليه السلام قال لنا: «لن تقدس أمة ما لم يؤخذ الحق من قوبها لضعيفها غير متعنع».

والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قال قبل ذلك: «إياكم والظلم فإنه ظلمات في الدنيا والآخرة». فلا طبقات ولا أحزاب ولا أي قيمة ذاتية لكل ذلك.. بل القيمة الحقيقية للإنسان المؤمن الذي يتميز عن غيره بالعمل الصالح والتقوى فربنا صلى الله عليه وسلم، يقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾^(١)

فبالتقوى يكون التفاضل، وبالععمل الصالح يكون التفاوت، وبالطاعات يكون التنافس، ورضا الله، وجنان الخلد هي الهدية المطلوبة ونيران الجحيم هي المرهوبة.. وغير ذلك فالسلطان إنسان وأنت إنسان والتفاوت بالمسؤولية والإحسان.

فالسُّلطة، والملك في الثقافة الإسلامية هي تكليف لا تشریف، ومسؤولية قبل أن تكون مرتبة إجتماعية، لأن السلطان مسؤول عن البلاد والعباد، والحجر والمدر، والنبات والحيوان والبشر، ألم يقل أمير المؤمنين وسيد الأتقياء الموحدين الإمام علي عليه السلام: «لعل في الحجاز أو اليمامة من لا أمل له بالقرص، أو أبيت مبطاناً وحولي أكباد حرى تحن

إلى القد، أو أرضى من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشار لهم في مكاره الدهر».

فالسلطان في ثقافة الإسلام ليس منحصر بالشخص ولكن مُعَيَّنًا من الله تعالى ولكن إذا لم يوجد ذاك المنصوب فلا بأس بالتعيين ولكن بشرطها وشروطها.. كما نصت كتب الفقه الإسلامي.

ويبقى السلطان للحق، والحق فقط وليس للإرث العشائري، أو القبلي تأثير في ذلك والسلطان عبد من عباد الله المكلفين بحماية الإسلام والمسلمين وتدبير شؤونهم وحمايتهم حتى من أنفسهم وليس هو سبع ضاري مسلط عليهم ليأكل خضراءهم، ويستحوز على أموالهم ويفعل بهم ما يشاء دون منازع أو رادع - وللأسف الشديد - لم يُطبق هذه القواعد الإسلامية على أرض الواقع بعد إنتقال الحبيب المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا تلميذه النجيب ووصية الحبيب أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام الذي كانت بحق رؤيته إسلامية خالصة، وحكمه بصدق حكم الله الواقعي، وسياسته القاسطة العادلة هي تمثل ثقافة الإسلام في أعلى طبقات المجتمع، بالدولة الإسلامية حيث رأس الهرم السياسي الرئيس والقائد والسلطان، وهو الذي خاطب جماعة المسلمين موجهاً ومعلماً بقوله: «إن الله جعلكم في الحق جميعاً سواء أسودكم وأحمركم، وجعلكم من الوالي وجعل الوالي منكم بمنزله الوالد من الولد وبمنزله الولد من الوالد... ونصرته على سيرته أو الدفع عن سلطان الله، فإنكم وزعه الله في الأرض»^(١).

وربما تقول: أن الاختلاف علامة الصحة والعافية وهي سُنَّة كونية..؟
أقول: نعم كلامك صحيح؛ هذا إذا كنا متفقين على الأصول، ولا يؤدي الاختلاف إلى الخلاف، والنزاع، وربما نصل إلى القتال والمحاربة أو ربما نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم من (ثقافة التكفير) التي غزت الأمة كلها وكفرتها عن بكرة أبيها.

فثقافة التكفير التي تكوننا نارها وتجلدنا بسياطها في كل يوم وفي كل صباح ومساء ما هي إلا نتيجة طبيعية للثقافة الجاهلية التي كان يعمل على إحيائها أبناء رؤوس الجاهلية التي حطمها الدين الحنيف بسيف الحق بيد أمير المؤمنين عليه السلام وقائد الأمة المُحق بتنصيب الرسول الأمين عليه السلام وأمر من رب العالمين أسد الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

فثقافة الإسلام تقول: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».^(١)

والثقافة الجاهلية تقول: نُسبُ الإمام علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام أربعين سنة ونلاحقهم تحت كل حجر ومدبر ونقتلهم حتى نبيدهم فنظفئ شُعله الإسلام ونعيد الجاهلية، وندفن الإسلام دفناً كما قال معاوية يوماً للمغيرة بن شعبة في لحظة صفاء بينهما.

وثقافة الإسلام تنادي: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي».^(٢)

(١) - هذا حديث متواتر أو قيباً منه لشهرته فقد روته جميع الطوائف الإسلامية، راجع صحيح البخاري؛ ج ١ ص ٩٤، وفي صحيح مسلم باب بهذا العنوان.

(٢) - وهذا الحديث من المتواترات كذلك وإن تمسك بعضهم اليوم بمرسلة الموطأ لمالك (كتاب الله وسنتي)، إلا أن ذلك أوهن من بيت العنكبوت للمتأمل، فما قيمة رواية مرسلة مقابل رواية يرويها العشرات، ثم العشرات من الرواة.

والثقافة الجاهلية ما زالت تنادي مع ذلك الذي كان كل الناس أفقّه منه حتى المخدرات وربات الحجال، كما اعترف بأمر لسانه: إن النبي يهجر حسبنا كتاب الله.

فأخذوا بالحروف وأضاعوا المعاني وأقصوا العترة لظنهم بأنهم لا حاجة لهم بها.. وسيد العرب، والعترة وإمام المسلمين الأول، يقول: «سلوني عن طرق السماوات، فإني أعلم بها من طرق الأرض، إن ها هنا لعلماً جماً- ويشير إلى صدره الشريف- لو أصبت له حملة؟» ولكن هيئات فلا يعلم تفسير القرآن إلا أهله، وَمَنْ نَزَلَ فِي أَيْبَاتِهِمْ، وَمَنَّا لِهِمْ التّي أمرنا الله تعالى بتعظيمها، وتقديرها، واحترامها، وإعلاء شأنها، قال ربنا سبحانه فيها: ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ رِجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ تَحِيْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۗ ﴾ (١)

وثقافة الإسلام تصرخ: «أنا مدينة العلم، والحكمة وعليّ بابها».

والثقافة الجاهلية تصرخ: أن عصاي خيرٌ منك ومن مدينتك وبابها يا محمد - نعوذ بالله من هذا القول ونبرأ إلى الله من القائل - لأنه لا ينفع بقتل الحيّة، ولا دخل له بشأن الأمة فهو طارش جاء بالرسالة ومضى إلى سبيله، وكل الخير والفوائد عند شيخهم ابن تيمية الذي اتخذوه صنماً، ورباً يُعبد من دون الله، ومحمد عبد الوهاب نبياً من قبله، جاء بشرية نسخت الشرائع، ومسخت المخلوقات.. فالمتنبئ هذا وذاك الصنم ونحن نبرؤ إلى الله من هذا الدين المصطلم.

فالقرآن مهجوراً، ومدينة الرسالة العلمية مهجورة، وبابها أقصوه، ونبذوه ربع قرن من الزمن، ولما أعيتهم الوسيلة بايعوه، ثم خرجوا عليه فحاربوه حتى قتلوه شهيداً في محرابه، فقاتلوه شهيداً لأن اسمه كان ومازال يؤرقهم ويقض عليهم مضاجعهم العفنة، فمنعوا ذكره، ثم سبوه سبعين عاماً ليطفئوا نوره الأنور، ويمحوا ذكره الأطيب الأطهر، وإلى اليوم مازلنا محاربين لا لشيء، ولا لجرم اقترفناه بل، أو ذنب ارتكبناه إلا محبتنا له، وتمسكنا بولايته، حتى ولو بالاسم فقط كشأن السواد الأعظم من شيعته الآن فإنهم يرون العداوة ولا يعرفون أسبابها.

لأن التشيع أكبر جريمة يمكن أن ترتكب حسب ظن أولئك العابدون للأصنام البشرية، فأنت شيعي بالولادة فأنت مجرم بالقوة وإن لم يخرج منك ذلك إلى الفعل، فالواجب قتلك، ومصادرة أموالك، وسبي نساءك، وقتل أهلك وأطفالك.. كل ذلك بفتاوى جهال بأبسط معاني الإنسانية، والأخلاق البشرية، ويدعون العلم، ويتسمنون مناصب الإفتاء الأعلى في أظھر بقاع الأرض.. فوا أسفاه عليك يا رسول الله ﷺ، وعليك يا ولي الله، وعليك يا حجة الله.. من هذا الزمن العنود، وهذا الشعب الجحود.

وثقافة الإسلام تصرّح: «بأن مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك أو غرق وهوى».

والثقافة الجاهلية تصرخ: بأن لا حاجة لنا بسفينة نوح وسفينتنا في الصحراء الجمّل، وفي البحر (التايتانك)، فغرقت بأعجوبة، ونجت منها امرأة بمعجزة، لتقصّ للأجيال قصتها لعلهم يعتبرون، وما من معتبر فهؤلاء تمسكوا بالجمّل وصاحبتة ليحفظوا أنفسهم من الغرق والهلاك فيا لبؤس ذاك التفكير السقيم.

وثقافة الإسلام تقول: «أن الولاية أصلٌ من أصول الدين العامة».

والثقافة الجاهلية تقول: لا شأن لكم بالسياسة والولاية، فالسلطان ظل الله على الأرض ونحن خلفاؤه، والرَّادُّ عينا يرُدُّ على الله.. فصار بعد سنوات قليلة رؤوس بني أمية - أعداء الله وأعداء الإسلام - زعماء وقادة الأمة، وصاروا خلفاء الله، وطالب واليهم الحجاج بن يوسف الثقفي؛ بأن تحجَّ الأمة إلى الشام، وتطوف بقصر عبد الملك بن مروان بدلاً من الحجِّ إلى البيت العتيق والطواف حول الكعبة، وكان يقول مأثوماً: أن عبد الملك خليفة الله، ومحمد ﷺ رسوله، والخليفة أفضل من الرسول، كما كان يشيع ويعتقد ذاك المأفون، وعلى منواله نسج وعلى منهاجه سار خوارج العصور المتأخرة من الوهابيين وأمثالهم من السفهاء.

فأعظم مُصيبة حلَّت بالثقافة الإسلامية هو وصول صبيان بني أمية، والأوزاغ من بني العاص إلى رأس السلطة والحكم فأعادوا ثقافة الجاهلية كاملة بعد أن ألبسوها أثواباً إسلامية فضفاضة، لتسع كروشهم التي ملئت حراماً، من الأسماء والمظاهر، وأخلوها من الحقائق والجواهر.

والثقافة الإسلامية تقول: بأن الأرض لله ولمن يعمل بها.

والثقافة الجاهلية تقول: الأرض للحاكم، والسلطان، والملك، والأمير، والأمة خول وعبيد عنده.. فالسواد بستان قريش وأهلها عبيد عندنا، كما كان يدَّعي يزيد السوء حيث أخذ البيعة من أهل المدينة بعد واقعة الحرة المؤلمة على أنهم عبيد رقيق له خاصة.

والثقافة الإسلامية، تقول: «بأن نقسّم الأموال بالعدل والسوية على الفقراء والمساكين، والمستحقين في آية الزكاة، والخمس، والصدقات».

والثقافة الجاهلية، تقول: ليس للأمة حق إلا الفُتات، وما يُلقيه الولاة.. فالأموال تُجمع باسم السلطان فهي ملك له؛ نأخذ منها حاجاتنا وإن أرغمت أنوف الأمة كما صرّح بذلك أول خلفاء بني أمية ولما اعترضه الصحابي الجليل البطل أبو ذر الغفاري نفوه إلى الشام، ومن الشام إلى لبنان، ومن لبنان إلى المدينة، ومن المدينة إلى الرُبذة، بغير أنيس ولا جليس حتى توفي فريداً وحيداً كما أخبره الرسول القائد ﷺ من قبل.

الثقافة الإسلامية، تقول: «بأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يشتمه، ولا يُسلمه، وينصره ظالماً ومظلوماً».

والثقافة الجاهلية، تقول: كل من ليس منا هو كافر ومشرك أو كل من ليس دُشداشته قصيرة، وذقنه طويلة، ومسواكه في فمه.. هو كافر أو مشرك، أو رافضي يحل لهم دمه، وماله، وعرضه فيكفرون الأمة كلها ويشتمونها ويسبون علماءها ويسلمونها لأسيادهم من اليهود الذين دنسوا القدس الشريف، فقال المفتي الأكبر لهم (الحاخام): لا يجوز الدعاء لنصر حزب الله الذي كان يُقاتل إسرائيل، فالدعاء لا يجوز لهم - حزب الله، وحركة حماس - بالنصر، لماذا يا أئمة الضلال..؟

وقال مثقفاً آخر بالثقافة الجاهلية: يا ليتني كنتُ جندياً إسرائيلياً لأقاتل حماس وأبيدهم.. ولذا تشرف هؤلاء الأندال باعتراف كبير حاخامات إسرائيل ورئيس حكومتهم بأن وقف من وراء مكتبة ورفع يديه وصاح: نعم هؤلاء سفراء إسرائيل في البلاد العربية.

الثقافة الإسلامية، تقول: «أن الجزيرة العربية إسلامية، ولا سيما مكة المكرمة، والمدينة المنورة؛ مُحَرَّمَةٌ على المسلمين إلا بشرطها وشروطها، وهي حرام على المشركين قاطبةً إلا أن يُسلموا».

والثقافة الجاهلية، تقول: بل هي مُحَرَّمَةٌ على المسلمين مُحَلَّلَةٌ على غيرهم ولذا تراهم في يوم وفاة الرسول الأعظم ﷺ يقتلون المسلمين عند حرمة الشريف بالطعن بالظهور بالسكاكين والساطور ويقف كبير (حاحاماتهم) على منبر إعلامي كبير لهم، ليقول: بأن علماء الشيعة كفار وعوائهم مغرر بهم، ويجب منعهم من دخول الحرم المكي إذا لم يتركوا دين الإسلام ويدخلوا في دين ابن عبد الوهاب.

الثقافة الإسلامية، تقول: «بأن الجامع هو جامع الأمة وموجهها إلى الله والحق، وهو شعارها ومركز قرارها، ومنطلق حضارتها، وأساس نهضتها، ومن تحت قبته تصدر شرائعها، وتطبَّق أحكامها».

والثقافة الجاهلية، تقول: بأن الجامع منبر للتكفير، وهو مقر البدعة، والضلال، والدعوة إلى أهوائهم وما يبتدعون من ضلالات ابن تيمية، والألباني، وابن الجبرين، وأعمى القلب والعينين ابن باز، وأخيراً الكلباني والغريفي، وأمثالهم ممن إذا نظرت إليهم تذكرت صاحبهم (داروين) سيئ الصيت.

والثقافة الإسلامية، تقول: «بأن القرآن الحكيم هو دستور الحياة الخالد».

والثقافة الجاهلية، تقول: بأن فرنسا، والسويد، ومصالح الحكام، هي منبع دساتيرهم ومُلهم أفكارهم، والقرآن لا يُتلى إلا على الأموات، وتتغنى به الأصوات، ولا نقبل منه إلا أحكام الدماء الثلاثة، وأسماء

العبادات فقط، وترك علل الشرائع، وحكم الأحكام لأنها كانت لعصر الصحابة فقط، وأما هم فيعيشون في العصر الرقمي، والإنترنت، وفيضان البترول، وقيود الأنتربول، وألف مصيبة ومصيبة تأتي منهم.

والثقافة الإسلامية، تقول: «بأن القيادة العامة للرسول، والإمام المعصوم».

والثقافة الجاهلية، تقول: بأن القيادة للقرشي المهضوم الذي يقسم الناس ويعطيهم حسب طبقاتهم وقربهم وبعدهم من مركز القيادة، فلا حاجة لهم للمعصوم وربما يمثل الخطر الداهم على السياسة القرشية التي كانت تحنُّ إلى أيام الجاهلية الأولى فأقصوا الأمير عليه السلام ربع قرن، وحاربوه خمس سنوات، ولما قتله الخوارج سعى صبيان أمية بخطى وثيدة، وبطشة شديدة، فاستولوا على الحكم جهاراً نهاراً وفعلوا أفعالاً مشينة، منها:

١. قتلوا الإمام المعصوم الحسين بن علي عليه السلام في كربلاء وأبادوا عائلته وأهل بيته وأصحابه.
٢. دمروا (الكعبة) وقصفوها بالمنجنيق ودكوها حتى أساسها وأحرقوها.
٣. استباحوا (المدينة المنورة) وقتلوا الصحابة وأبناءهم واعتدوا على شرفهم واستعبدوهم.

تلك هي الخطوات العريضة للثقافة الجاهلية فكان من الطبيعي أن تصل في هذه الأيام العصبية لسياسة (التكفير) التي تنطلق من رؤوس حشوها التبن المعفن، وليتها تكون كصناديق تلميع الأحذية لاستفدنا منها ولمعنا أحذية المجاهدين من حزب الله الأبطال، وأمثالهم في

فلسطين من تلك الرؤوس المحشوة بالفكر الآسن، ويخرج إلينا منها الكفر الأجبن.

من أمثال العادل عن الحق الكلباني (والأفضل أن يُجرَّ، والقول):
الكليين والذي (له معنى أنت تعرفه جيداً) ليفتي بفتوى لا تخطر على
بال سيده الشيطان الرجيم ولا أسياده المحتلين لفلسطين من الحاخامات
اليهودية فيُكفِّر علماء أجلاء التقوى والقداسة تقطر من أردانهم،
والحكمة تنطق على أفواههم الشريفة، كما يقطر وجهه الأسود بالحق
ويفيض شكله القميء بالديانة والخساسة ويقذف فاه السمَّ الزعاف
كالأفاعي السامة (الكوبرا).

نعم ثقافة الإسلام هي ثقافة ثنائية وبالقرآن (النجدين) فهي:

١. إسلامية ربانية صالحة.

٢. جاهلية صنمية فاسدة.

٣. ثقافية دينية إلهية.

٤. ثقافية بشرية مادية.

٥. ثقافة الحق.

٦. ثقافة الباطل.

٧. ثقافة الخير.

٨. ثقافة الشر.

٩. ثقافة النور.

١٠. ثقافة الظلمات.

١١. ثقافة العدالة والقسط.

١٢. ثقافة الظلم والجور.

هذه هي مفردات الثقافة الإسلامية (إلهيه، ربانيه، دينيه، الحق، الخير، النور، والعدالة..)

وتلك هي مفردات الثقافة الجاهلية (الصنمية، الطاغوتية، المادية، الباطل، الشر، الظلمات، والظلم، والجور...) فأى ثقافة ننتظر وإلى أي ثقافة ننتمي تلك هي المسألة التي يجب أن يلتفت إليها الأعلام والفقهاء الكرام وعامة أفراد الأمة من العامل والفلاح وحتى السلطان فالجميع (إلا بعض الشواذ والشذاذ من أتباع اليهود والمتصهينين) يريد الإسلام وثقافته لتعود للأمة حضارتها، وتتألق في سماء المجد وتساهم من جديد بصنع المستقبل المشرق الذي نرنوا إليه، ونتطلع إلى صنعه بأيدي نظيفة، وقيم وآيات ربانية، وقيادة رسالية مُحقة، لأنه صحَّ عندنا قول الرسول الكريم ﷺ: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

تلك هي بعض الملامح العامة للثقافة الإسلامية الأصيلة، والتي تعتمد على روح التشريع وتشيد على نصوص القرآن الحكيم، وسنة الرسول الكريم ﷺ وتطبيق أمة المسلمين فتراها ثقافة طاهرة ونظيفة ونابعة من قيم حقيقية تتمثل بالتوحيد لله تعالى الخالق الرازق والمبدع لهذا الكون والذي خلق الإنسان وكرمه على غيره من المخلوقات وفوض إليه أمر نفسه ولكن كلفه بالسير إلى ربه بتزكية النفس ومحاربة الهوى والشيطان وثقافات الحيرة، والجهل، والخذلان، الشيطانية.

الثقافة الشيعية أو (ثقافة التشيع)

إذا تأملنا بكل ما تقدم من حديث في الفصل الأول، والمستقبلية التي نتحدث عنها ونبحث عن أفكار لصناعتها وإنقاذ الأجيال القادمة من تفاهات الغرب الحقيقير، وسياط جماعة التكفير، وما تضمنته الأحاديث السابقة عن الثقافة الإسلامية الأصيلة وقواعدها المباركة والثقافة الجاهلية الصنمية المتخلفة والطاغوتية المتغطسة.. نبحث الآن عن ثقافة هذه الطائفة المحقة (شيعة أهل البيت الأطهار عليهم السلام).

وحيث قلنا سابقاً: بأن الثقافة هي الطبائع، والعادات المميزة لأمة من الأمم، فثقافة الشيعة هو ما يميزهم عن غيرهم من الطوائف الإسلامية في الأمة وما يعطيهم شخصيتهم بين أمم الأرض وشعوبها قاطبة، وثقافة الشيعة مرتبطة إرتباطاً كلياً بأئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام، ولذا فربما نعطي الطابع الثقافي لشيعة أهل البيت عليهم السلام ملخصاً في أمرين اثنين هما المميز للشيعة في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، وهاتين العلامتين هما (الإمامة بالعقائد، والإمام الحسين عليه السلام بالشعائر).

وعليه فإننا نريد أن نعطي رؤية حقيقية، وواقعية عن هاتين الميزتين لشيعة أهل البيت الأطهار عليهم السلام، ومدى تطبع الشيعة بهما، ومدى تأثيرهما على الثقافة الشيعية على مدى الأيام.

١- الإمامة والولاية

إن أول وأعظم ما يميز الثقافة الشيعية هو مسألة المسائل وأم القضايا وهي الولاية والإمامة لأنه؛ (ما سُلَّ سيف في الإسلام قط كما سُلَّ على الإمامة) كما يقول بن قتيبة.

والولاية: هي السلطة، ولكن السلطة المعصومة، والمنصوصة والمخصوصة، من الله ورسوله بنصوص واضحة من الآيات والروايات التي بلغت حدَّ التواتر بين طوائف المسلمين جميعاً.

والولاية - في عقيدتنا نحن الشيعة - ليست محصورة بالسلطة السياسية طبعاً كما يفهمها العام الأغلب من الشيعة والسنة على السواء، وهو الفهم البسيط والمتبادر من اللفظ.. وبالحقيقة فإن، الولاية: هي نوع من السُلطة الكونية والتسلط على الحياة برمتها، وما السلطة السياسية إلا الجانب الإداري منها، ولكن باعتبار أن الهَمَّ السياسي هو الهَمُّ الأول في حياة الأمم، والناس على دين ملوكهم - كما قال الأقدمون - استأثر الجانب السياسي لمعنى الولاية بالسياسة فقط.

والولاية في عقيدتنا هي أصل من أصول الدين التي لا تتزعزع، ومن قال هي من أصل المذهب فقط، هو واهم إن اعتقدها حقيقة، ولكن إن أراد بها الممارسة، والمداراة للآخرين تأليفاً لهم، فهو كذلك على شفا جرف بعيد المُنزلق.. لأننا في عصر كشف الحقائق كبيرها وصغيرها، ولا داعي لمثل ذلك حتى لا يُتَّهَمُ الإنسان بالكذب، أو النفاق، فهي من العقائد التي تنعقد في القلوب ولا يجب أن تغادرها ما اتصف صاحب القلب بالإيمان، الذي هو فوق الإسلام درجة كما لا يخفى عليك.

وهذا ما قاله علماء الإمامة منذ العصر الأول وحتى أيامنا هذه، والشيخ المظفر، يقول فيها: (نعتقد أن الإمامة أصول من أصول الدين، ولا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء، والأهل، والمرتبين، مهما عظموا، وكبروا؛ بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد، والنبوة).^(١)

والكلام هنا عن الإيمان الكامل، وليس عن الإسلام الذي يكفي فقط بالتلفظ في الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) حتى نجري على قائلها جميع أحكام الإسلام لأن رسول الله ﷺ، قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله». ^(٢)

فالإسلام يبدأ من التسليم لله ﷻ والإقرار بتوحيده وإرساله للأنبياء والرسول، وإنزال عليهم الكتب، وتأيدهم بالوحي والمعجزات، وكان سيدهم وخاتمهم الحبيب المصطفى ﷺ دليلاً وهدياً إلى طريقه، ولكن الإيمان هو درجة أعلى من الإسلام، كما الإحسان درجة أعلى من الإيمان.

فالمسألة تتدرج من الإسلام، إلى الإيمان، ثم الإحسان؛ الذي يعني: «أن تعبد الله كأنك تراه وإن لم تراه فإنه يراك». ^(٣) (كما في الرواية الشريفة).

(١) - عقائد الإمامة للشيخ محمد رضا المظفر ص ١٠٢.

(٢) - صحيح البخاري: ج ٥١، صحيح مسلم: ج ٥٢، ومعظم كتب الحديث الشريف تروي هذا الحديث وبمناسبات عدة.

(٣) - راجع البحار للشيخ المجلسي: ج ٦٢ ص ١١٦، والبخاري: ج ٩٧، ومسلم: ج ٣٦.

فإذا قلنا إن الولاية: هي أصل من أصول الدين، وتمام الإيمان، فهذا لا يعني أن الأخوة في الفرق الإسلامية كفاراً - لا سمح الله - كما يذهب مَنْ لا إيمان، ولا إسلام لهم، من التكفيريين الذين يُكفِّرون الأمة قاطبة ويرمونها بالكفر تارة، وبالشرك أخرى، ويستبيحون دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم، جُراًة منهم على الله ورسوله.

وهنا يخطر بالبال خاطر عن جذور الفكرة التي نحن في رحابها - والتي طالما تراشقنا بالسهام والكلام حولها - وأصل افتراق الأمة منها (الولاية) التي قلنا: بأنها أصل من أصول الدين؛ وقال الآخرون بأنها فرع من فروعها، ولكنهم تنالوها بالحديث عنها، والنقاش فيها في علم الكلام كالعقائد الحقّة تماماً، وكأن الجميع يعترف بأنها أصل، وركن من أركان الدين، ولكن الأخوة الكرام لم يلتفتوا إلى نقطة جوهرية في المسألة، وهي: أن الولاية أصل عقائدي في الدين الإسلامي، فيجب التعامل معه كأصل مثل التوحيد، وتُقاس الأمور الفرعية عليه، لا أن نؤسس الفكرة برؤيتها على أساس التجربة الأولى بعد انتقال الرسول الأعظم ﷺ فهم يناقشون المسألة مستشهدين بفعل الصحابة، وكأن عملهم تشريع ثابت، ويقيسون الآخرين على أفعالهم، وكأن الدولة الأولى، والثانية جاءت بأمر إلهي خاص، ونصّ قرآني مُحكم، لا يقبل التفسير أو التأويل، وكل حكومة جاءت بعد الحكومة الأولى يجب أن تكون على سنتها ونسقتها في الحكم.

فصارت هي الأصل في المسألة، والحق أنها اجتهاد شخصي مُتسرّع جداً ولا قيمة له كما يقرر صاحب الفكرة، ومُؤسس الحكومة الأولى

الخليفة الثاني عمر بن الخطاب شخصياً الذي، قال: (إن بيعة أبا بكر فلتة وقي الله المسلمين شرها ومن عاد لمثلها فاقتلوه)..^(١)

فاجتهاد شخصي جاء بفلته، ويُفتي عمر بقتل العائد لمثلها، تصبح تشريعاً وأصلاً للولاية السياسية التي بيدها مقاليد ومعاش البلاد والعباد، وتحت حمايتها ورعايتها دماء وأموال وأعراض الأمة الإسلامية كلها؟

حقاً إنها العجب العُجاب، والسذاجة التي ما بعدها سذاجة.. فأين أنتم ذاهبون، وربما تائهون وراء هذا السراب الخادع، الذي صنعه حكام بني أمية، وأوهموا الأمة وعلماءها به، فظنوه ماء وما هو بماء؟

فأصل التشريع هو الولاية، وفرع منها الجانب السياسي وأما بقية الجوانب الاقتصادية، والثقافية، والتجارية، والقضائية، والتشريعية فلا أحد ينتبه إلى ذلك، ويتناولونها في فروع الفقه المختلفة على أنها أبواب خاصة وبعيدة عن الولاية العامة للمسلمين.

ولللأسف الشديد كذلك فإن علمائنا من شيعة أهل البيت الأطهار عليهم السلام راحوا بنفس الاتجاه، وأخذتهم ذات الفكرة، فراحوا ينظرون إلى الولاية السياسية فقط، ويدافعون عن أحقية الإمام علي عليه السلام وأبناءه الأطهار عليهم السلام بالقيادة السياسية، ويتناسون أو يتغاضون عن الإمامة العامة للمسلمين.

فالواقع والحقيقة، تقول: بأن الإمامة العامة، والولاية العظمى هي أصل غيبي، وله تعلق وارتباط كوني، وهذا ما نعتقده (بالولاية

(١) - تاريخ اليعقوبي: ١٥٨/٢، المسترشد: ٢١٣ وفيه «ثم أمر بقتل من عاد لمثل فعله» بدل «فمن عاد لمثلها فاقتلوه»؛ الملل والنحل: ٣٢/١ وراجع شرح نهج البلاغة: ٣٠/٢.

التكوينية) للإمام، وهي ولاية مشهودة، ونوع من التسلط الواعي، والعاقل على أشياء هذا الكون، ومخلوقاته، أعطاهما الخالق تعالى لخيرة مُختارة، وصفوة مُطهَّرة من عبادة المُكْرَمين لديه، نطلق عليهم، ونسميهم بالأئمة عليهم السلام.

وأعتقد أن الإمامة هي منصب مُستقلٌّ عن الرسالة والنبوة، فالرسول يمكن أن يكون إمام كأبينا إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي تَشَرَّفَ بالإمامة بعد النبوة، فالرسالة، فالخلة، قال له الباري تعالى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَ إِلَيْكَ رَبُّكَ بِكِتَابٍ فَاتَّمَنَّهُ قَالِ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالِ لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾^(١)

ومن عظمتها وغبطته بها طلبها لأبنائه، وذريته فقال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.. فاقتر له الله سبحانه ذلك في الصَّفوة المُختارة، من المعصومين منهم فقط لأنه ﴿لَا يَتَّأَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.. فالظالم ليس له بالإمامة والولاية كما هو ثابت بنص القرآن الحكيم.. وكل إنسان ظالم لنفسه، أو لغيره قطعاً إلا من عصمهم الله تعالى لأن المعصوم ممنوع من الظلم كله، وله الإمامة الإلهية والولاية التكوينية، في هذه الدنيا.

وهذا بحث طويل عريض يحتاج إلى مزيد من التأمل والتفكير الحر والوعي الجيد بالآيات، والروايات الواردة عن أئمة الهدى، وأعلام التقى في الباب، وعليه فليس كل الأنبياء عليهم السلام والرسول الكرام عليهم السلام أئمة.. فأصحاب الرسائل التأسيسية، صاحبة الشرائع تتحدث الروايات بأنهم أئمة، أو أن معهم أئمة يساعدهم على تحمل أعباء الرسالة، وليس بالضرورة أن يبقى الإمام بعد الرسول فسيدينا هارون عليه السلام كان إمام

ووصياً لأخيه الأصغر سنناً منه موسى الكليم ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى قبله بسنوات.. والسيد المسيح ﷺ لم يتحدث هو، ولا رسالته، ولا أوصيائه، عن شيء من ذلك، أو مما يتعلق بالإمامة، والولاية، وخاصة السياسية.. بل وأتباعه اخترعوا قولاً باطلاً، يقول: (دع ما لله لله وما للقيصر لقيصر).

وبهذه الكلمة ميّزوا الدّين عن السياسة، والنبي عن الدولة، وهذا خطأ فظيع برسالات السماء التي نزلت أصلاً لسياسة الدنيا، وتدبير البشر لإعادتهم إلى الله تعالى.

وأما مسألة الولاية التكوينية، والسياسية فكانت واضحة جلية في سيرة نبيين من أنبياء بني إسرائيل ﷺ هما داود، وولده سليمان ﷺ فكانا ملكين من ملوك الدنيا، ونبين من أنبياء الله تعالى، وولايتهما على الكون إنسه وجنه، مائه، وهوائه، ودوابه، وحيوانه، واضحة بنصوص آيات الذكر الحكيم.

وأما الرسالة الخاتمة التي نَشَرَفُ بها وخدمتها فكان الحبيب المصطفى ﷺ رسول الله المطلق، ووصيه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ولي الله الأعظم وهذا ثابت بآيات الذكر الحكيم، وروايات الرسول العظيم ﷺ فالإمام علي ﷺ هو الإمام الحق للأمة الإسلامية، وله السلطة على الكون كله والمخلوقات برمتها تحت سلطانه، وإلا فما تفسيرك لسلام الشمس عليه، وتكليمه، ورجوعها لكي يصلح حاضراً، وشق القمر، وقتاله للجن، والملائكة الأعلى، ونزول ملائكة الله للسلام عليه، وتكلمه مع الثعبان، والسبع، والذئب، والغزال، وأنواع الحيوانات، والجبال، والنبات، وصعوده إلى السماوات العليا، وهبوطه

إلى الأراضين السفلى، إذا لم يكن له ولاية، وسلطان على تلك العوالم، والكونيات العظمى.

فالإمامة والولاية أمر رباني بحث كالتبوة والرسالة، فلو اجتمع جميع خلق الله على أن يصنعوا، أو ينتخبوا نبياً أو رسولاً ما أفلحوا، وكذلك هو الإمام الحق فلو أن الإنس والجن كانوا لبعضهم ظهيراً، وأرادوا أن ينتخبوا إماماً حقاً لما استطاعوا لذلك سبيلاً، لأنهم أضعف وأصغر من ذلك كما قال الإمام الثامن من أئمة المسلمين الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بحديث يقول فيه موجهاً ومبيناً لمعنى الإمامة وفحوى المنصب الإلهي.. وتأمل بهذا الكلام النوراني، وهذه الحقائق التي لا تدحض ببرهان، ولا يقاس بها سلطان (حجة) على مدى الأيام.

روى عبد العزيز بن مسلم، قال: كُنَّا مَعَ الرِّضَاءِ عليه السلام بِمَرُورِهِ فَاجْتَمَعْنَا فِي الْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي بَدْءِ مَقْدَمِنَا فَأَدَارُوا أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَذَكَرُوا كَثْرَةَ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِيهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي عليه السلام فَأَعْلَمْتَهُ خَوْضَ النَّاسِ فِيهِ، فَتَبَسَّمَ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ جَهْلَ الْقَوْمِ وَخُدَعُوا عَنْ آرَائِهِمْ، إِنَّ اللَّهَ عليه السلام لَمْ يَقْبُضْ نَبِيَّهُ عليه السلام حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ فِيهِ تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، بَيَّنَّ فِيهِ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَالْحُدُودَ وَالْأَحْكَامَ، وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ كَمَلًا، فَقَالَ عليه السلام: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُؤْتَمَّرُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١) وَأَنْزَلَ فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ آخِرُ عَمْرِهِ عليه السلام: ﴿يَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢)

(١) - (الأنعام: ٣٨)

(٢) - (المائدة: ٣)

وأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمضِ ﷺ حتى بيّن لأمته معالم دينهم، وأوضح لهم سبيلهم، وتركهم على قصد سبيل الحق، وأقام لهم علياً ﷺ علماً وإماماً، وما ترك لهم شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا بيّنه، فمن زعم أن الله ﷻ لم يكمل دينه فقد ردّ كتاب الله، ومن ردّ كتاب الله فهو كافر به.

هل يعرفون قدر الإمامة، ومحلها من الأمة، فيجوز فيها اختيارهم؟

إن الإمامة أجلُّ قدرًا، وأعظمُ شأنًا، وأعلى مكانًا، وأمنع جانبًا، وأبعد غورًا، من أن يبلغها الناس بعقولهم، أو ينالوها بأرائهم، أو يقيموا إماما باختيارهم، إن الإمامة حصّ الله ﷻ بها إبراهيم الخليل ﷺ بعد النبوة، والخلة، مرتبة ثالثة، وفضيلة شرفه بها، وأشاد بها ذكره^(١)، فقال: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ «فقال الخليل ﷺ سرورا بها: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة وصارت في الصّفة، ثم أكرمه الله تعالى بأن جعلها في ذريته، أهل الصّفة والطهارة فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾^(٣) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلوة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عبيدين^(٤).

فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتى ورثها الله تعالى النبي ﷺ، فقال ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، فكانت له خاصة فقلدها ﷺ

(١) - (الإشادة رفع الصوت بالشيء)

(٢) - (البقرة: ١٢٤)

(٣) - (الأنبياء: ٧٣)

(٤) - (آل عمران: ٦٨)

علياً عليه السلام بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان، بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٦) ^(١)، فهي في ولد علي عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة، إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم فمن أين يختار هؤلاء الجهال؟

إن الإمامة هي منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء..

إن الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام، وميراث الحسن والحسين عليهما السلام.

إن الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا وعز المؤمنين..
إن الإمامة أسس الإسلام النامي، وفرعه السامي.

مَنْ هُوَ الْإِمَامُ عليه السلام؟

هل الإمام شخص نختاره عن طريق أهل الحل والعقد كما يقول البعض؟ أو أننا ننتخبه ديمقراطياً كما يطالب كل الفقراء والمضطهدين في العالم اليوم؟ وهل للناقص أن يعرف الكامل، وهل للمحدود أن يُقيّم اللامحدود، والجاهل أن يقيّم العالم، وللمُدنس أن يتقدم على المقدس، والغائص في بحور الآثام والخطايا أن يقاس بالطاهر المطهر من كل رجس ولا يقربه الدنس..!!؟

الإمام ليس بالشخص العادي، ولا يعرفه حقاً إلا الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وذوي العلم من عباد الله الصالحين كالأنبياء والمرسلين، فهو خلاصة الخلاصة من بني البشر، وهو الواسطة بين السماء والأرض،

وهو الوسيلة لأهل الناسوت للارتقاء في عوالم الملكوت، وهذا لا يُنتخب، ولا يُنصَّب من البشر بل يُعيَّن ويُحدد من الله تعالى، لأن البشر أقصر باعاً، وأقل من أن يخطر بباله مثل هذا الوهم.

وأكبر دليل على فشل كل النظريات الأرضية هذه الأزمات التي نعيشها وتقضُّ علينا مضجعنا في كل ميادين الحياة وعلى رأسها القيادة السياسية فلم تمرُّ على الكرة الأرضية قيادات بهذه الهزلة، رغم كل الإمكانيات الهائلة لديهم لتطوير وتحسين الأداء القيادي، فقد أدخلوا الجنس البشري بمآزق خطيرة، هي أشبه بمتاهات مظلمة - رغم أنهم في عصر النور كما يدعون - بممارسات عدائية غرسوها بين الشعوب التي كان يجب أن تتقارب وتتعايش مع بعضها أكثر من أي وقت مضى.

وأما المشاكل الاقتصادية التي عقدت العالم الآن ولا حلَّ لها بالمستوى المنظور، لأن العالم أصبح قرية صغيرة، ولكن كل يفكر بنفسه ومصالحه فقط مع إهمال متعمد للآخرين، لا سيما الدول الفقيرة، أو الجنوب البائس، فإذا لم يكن التفكير عالمياً والحل عادلاً ومصالح كل الشعوب تؤخذ بعين الاعتبار فإن العالم أزماته ستتفاقم، وتتعاظم، وتزداد ولن تنقص أو تُحلَّ.

وبالحقيقة فإن أم الأزمات العالمية، وأصل الأزمات الإنسانية اليوم تتلخص ببعض الجوانب الرئيسية، وهي مما لا يفكر بها أحد من أولئك الذين يعيشون في البلاد الغنية مادياً، فهم أصل المشكلة، وأكبر من المشكلة ذاتها أنهم لا يشعرون بها، ولا يحسون بخطورها، ولا يفكرون بها أصلاً، فهم كمن هو مُصاب بالسرطان، أو الايدز (السيدا)، أو أنفلونزا الخنازير وهو لا يدري بذلك، فكيف تعالجه وهو

لا يعترف أصلاً بالمرض، ولا يعلم بأنه مُصاب بمرض جداً خطير يهدد كيانه حقيقة.

فالأزمات العالمية نشأت من هناك، من تلك الأرض الشاسعة التي لم تطأها أقدام الأنبياء، ولم تنعم ببركتهم، بل داسها الإنسان المذنب، الفار من وجه العدالة في بلاده، فهم شذاذ الآفاق، وقطاع الطرق، هربوا من بلاد بعيدة عن السماء أصلاً (أوروبا)، مُحاطة بالماء وتنعم بكل أنواع الخيرات، إلا الإيمان بالله العلي القدير.

فإذا كان الأصل هكذا فما رأيك بأبنائهم، وأذئابهم، وشذاذهم، الذين دخلوا إلى أرض بكر فأقاموا فيها حضارة الموت والدمار، فأول ما فعلوه أبادوا الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصليين، ونقلوا كل ما هو سيء، ولا أخلاقي، ولا قيمي، ولا إنساني إلى هناك وأقاموا حضارة على الأشلاء، وبدماء الأبرياء، ولذا فأمراض الحضارة (أزماتها) اليوم هي:

١. أزمة أخلاقية بالدرجة الأولى.. فقد ديست الأخرق بأقدام المارينز.

٢. أزمة حقوقية بالدرجة الثانية.. ضاعت حقوق البشر اليوم.

٣. أزمة ثقافية بالدرجة الثالثة.. دمرُوا ثقافة الإنسان، ونشروا ثقافة الجريمة، والانحلال، والمياعة، والخساسة، والدياسة.

٤. أزمة قيمية بالدرجة الرابعة.. فقدت القيمة من الحياة، فصار الخواء، والعزلة والأمراض النفسية، فصار الإنسان شيء تافه.

هذه الأزمات العالمية، ينتج عنها كل الأزمات الأخرى، المنظور والمطمور، ولسنا هنا في سبيل التنظير لحل هذه الأزمات العالقة ولكن نجمل الحل بكلمة واحدة فقط نهديها للعالم أجمع: ارجعوا إلى الله تعالى في كل أموركم، عودوا لرسالات ربكم وأديانكم، فالحل بالإسلام

وتشريعاته فقط.. فلا حلَّ لأي أزمة من هذه الأزمات إلا بشريعة الله تعالى، التي أنزلها على رسوله الخاتم الحبيب المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ.

فالإمام صاحب رسالة عالمية، وله سلطة كونية، وله علم لدني، وحل إلهي لكل مشاكل الحياة - حتى بالمعجزة - فأين للعالم أن يجدوا مثل هذا الشخص المنقذ، والمخلص؟

فها هي الدنيا تضجُّ، وتعجُّ وما من مخرج، فأهل الكفر والجحود يلودون بالشياطين، وأبناء من مسخوا قرده وخنازير من اليهود اللعناء، فأنتجوا نظريات الإبادة للجنس البشري، والتدمير الكامل للحضارة الإنسانية، ككارل ماركس، ولينين، واستالين، وفرويد، وراسل، وغيرهم من زبالة القرن الماضي، وكفوكوياما، وهنتنجتون، وبوش وحثالته من اليهود والمتصهينين الجدد، وأمثالهم وأذئابهم من بقايا هوليدو سيئة الصيت.

الإنسان يضجُّ من ظلم الإنسان في الحضارة الرقمية.

الحيوان يعجُّ من ظلم الإنسان، في الحضارة النووية.

النبات يستجير من ظلم الإنسان في الحضارة الجينومية.

فالأرض تستغيث إلى الله من ظلم الإنسان الحضاري.

والسماوات تستجير بالله من فساد الحضارة الإلكترونية.

والبحار السبعة بحياتها.. والأراضي السبعة بهوامها.. والسماوات السبعة بسكانها يضجون إلى الله تعالى ينادون المخلص، ويستنجدون المنقذ العظيم، والرب الكريم، لينقذهم من هذا الفساد الذي عمَّ البلاد

والعباد، وصدق ربنا سبحانه حيث يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١)

فالإمام لا يعرفه إلا الإمام، ولا يصفه إلا نفسه المقدسة أو نظيره في القداسة، ولذا نقرأ من الإمام الثامن من أئمة المسلمين، هذا الوصف الرائع للإمام، مبيناً صفات ومهام الإمام في الأنام.

يقول الإمام الثامن من آل محمد (صلوات ربي عليهم جميعاً) في بيانه الرائع لعبد العزيز المتقدم مُبَيَّنًا ومَوْضُحًا مقام ومهام الإمام في هذه الأمة التي تشرّفت بهم، ولكنها أضاعت حظها بتضييع حقهم الثابت في الرقاب إلى يوم المآب والحساب، فتأمل أرجوك بهذه الكلمات التي من حقها أن تكتب بالذهب على جبين الأيام والليالي لتضيء الدروب وتهدى بني الإنسان في متاهات الحياة.. قال ﷺ:

(بالإمام تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف.

الإمام يُحِلُّ حلال الله، وَيُحَرِّمُ حرام الله، وَيُقِيمُ حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة، والموعظة الحسنة، والحجة البالغة.

الإمام كالشمس الطالعة المُجَلِّلة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار.

الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادي في غياهب الدجي^(٢) وأجواز البلدان^(٣) والقفار، ولجج البحار.

(١) - (الروم: ٤١)

(٢) - (الغيب: الظلمة وشدة السواد)

(٣) - (أجواز: جمع الجوز وهو من كل شيء وسطه)

الإمام الماء العذب على الظماء والدال على الهدى، والمنجي من الردى.
الإمام النار على اليفاع^(١)، الحار لمن اصطلى به والدليل في المهالك، من
فارقه فهالك.

الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل^(٢)، والشمس المضيئة، والسماء
الظليلة، والأرض البسيطة، والعين الغزيرة، والغدير والروضة.

الإمام الأنيس الرفيق، والوالد الشفيق، والأخ الشقيق، والأم البرة بالولد
الصغير، ومفزع العباد في الداهية النآد^(٣).

الإمام أمين الله في خلقه، وحجته على عباده وخليفته في بلاده،
والداعي إلى الله، والذاب عن حرم الله.

الإمام المطهر من الذنوب والمبرراً عن العيوب، المخصوص
بالعلم، المرسوم بالحلم، نظام الدين، وعز المسلمين وغيظ المنافقين،
وبوار الكافرين.

الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه
بدل ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا
اكتساب، بل اختصاص من المفضل الوهاب.

فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام، أو يمكنه اختياره، هيهات، هيهات،
ضَلَّتْ العقول، وتاهت الحلوم، وحارت الأبواب، وخسئت العيون^(٤)
وتصاغرت العظماء، وتحيرت الحكماء، وتقاصرت الحلماء، وحصرت

(١) - (اليفاع ما ارتفع من الأرض)

(٢) - (الهاطل: المطر المتتابع المتفرق العظيم القطر)

(٣) - (الداهية الامر العظيم والنآد كسحاب بمعناها)

(٤) - (الحلوم كالأبواب: العقول، وضلت وتاهت وحارت متقاربة المعاني وخسئت أي كلت)

الخطباء، وجهلت الألباء، وكلت الشعراء، وعجزت الأدباء، وعييت البلغاء، عن وصف شأن من شأنه، أو فضيلة من فضائله، وأقرت بالعجز والتقصير، وكيف يوصف بكله، أو ينعت بكنهه، أو يفهم شيء من أمره، أو يوجد من يقوم مقامه ويغني غناه، لا كيف وأنى؟

وهو بحيث النجم من يد المتناولين، ووصف الواصفين، فأين الاختيار

من هذا؟

وأين العقول عن هذا؟ وأين يوجد مثل هذا؟!؟

أتظنون أن ذلك يوجد في غير آل الرسول محمد ﷺ كذبتهم والله أنفسهم، ومنتهم الأباطيل^(١) فارتقوا مُرتقاً صعباً دحِضاً، تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم، راموا إقامة الإمام بعقول حائرة، باثرة، ناقصة، وآراء مضلة، فلم يزدادوا منه إلا بعداً، ﴿قَالَهُمُ اللَّهُ أَفَ يُؤَفَكُونَ﴾^(٢) ولقد راموا صعباً، وقالوا إفكاً، وضلوا ضلالاً بعيداً، ووقعوا في الحيرة، إذ تركوا الإمام عن بصيرة، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين.

رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول الله ﷺ وأهل بيته إلى اختيارهم والقرآن يناديهم: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣)

(١) - (أوقعت في أنفسهم الأمانى الباطلة أو أضعفهم)

(٢) - (التوبة: ٣٠)

(٣) - (القصص: ٦٨)

وقال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦) (١)

وقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) أم لَكُمْ كَيْتَبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أم لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلَّمْتُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أم لَمْ تُشْرِكُوا بَشْرًا فِيهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١)

وقال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٣٤) (٣) أم: ﴿وُطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٤)، أم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٣١) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٥)، أم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ (٦)».

بل هو فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، فكيف لهم باختيار الإمام!؟

والإمام عالمٌ لا يجهل، وراع لا ينكل (٧)، معدن القدس والطهارة، والنسك والزهادة، والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسول ﷺ ونسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في نسب، ولا يدانيه ذو حسب، في البيت من قريش والذروة من هاشم، والعترة من الرسول ﷺ، والرضا من الله ﷻ.

(١) - (الأحزاب: ٣٦)

(٢) - (القلم: ٣٦ إلى ٤١)

(٣) - (محمد: ٢٤)

(٤) - (التوبة: ٨٧)

(٥) - (الأنفال: ٢١ إلى ٢٣)

(٦) - (البقرة: ٩٣)

(٧) - (لا ينكل من باب ضرب ونصر وعلم أي لا يضعف ولا يجبن)

شرف الأشراف، والفرع من عبد مناف، نامي العلم، كامل الحلم، مضطلع بالإمامة، عالم بالسياسة، مفروض الطاعة، قائم بأمر الله ﷻ، ناصح لعباد الله، حافظ لدين الله.

إن الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم) يوقفهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه، وحكمه ما لا يؤتية غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢٥)

وقوله ﷺ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣١)

وقوله في طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣)

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ، لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٤)

(١) - (يونس: ٣٥)

(٢) - (البقرة: ٢٦٩)

(٣) - (البقرة: ٢٤٧)

(٤) - (النساء: ١١٣)

وقال في الأئمة من أهل بيت نبيه وعترته وذريته (صلوات الله عليهم):
 ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
 صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾^(١)

وإن العبد إذا اختاره الله ﷺ لأمر عباده، شرح صدره لذلك، وأودع
 قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاما، فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير
 فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيد، موفق مسدد، قد أمن من الخطايا والزلل
 والعتار، يخضه الله بذلك ليكون حُجته على عباده، وشاهده على خلقه،
 وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؟

فهل يقدر على مثل هذا فيختارونه أو يكون مُختارهم بهذه الصفة
 فيقدمونه، تعدوا - وبيت الله - الحق ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم
 لا يعلمون، وفي كتاب الله الهدى والشفاء، فنبدوه واتبعوا أهواءهم، فذمهم
 الله ومقتهم وأتعسهم، فقال ﷺ: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ
 أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾^(٢)

وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾﴾^(٣)

وقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرَ مَقْتًا
 عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ
 ﴿٣٥﴾﴾^(٤)

(١) - (النساء: ٥٤ - ٥٥)

(٢) - (القصص: ٥٠)

(٣) - (محمد: ٨) (والتعس بالفتح الهلاك)

(٤) - (الغافر: ٣٥)

وصلى الله على النبي محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً^(١).

هذا الحديث الشريف، وبهذا البيان القاطع للشك والارتياب، يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ولكن لتعزيز الفكرة، ولا يظن أحدٌ بنا ظنَّ السوء بأن هذه رواية وحيدة وفريدة في الباب، بل بعضها كمّ هائل من الروايات الثابتة والصحيحة والمتواترة لدى هذه الطائفة المحقة عن رسول الله ﷺ وجميع أئمة المسلمين، وهذا بعض تلك الروايات نسردها تبركاً واستنارة وهداية وهي على سبيل المثال لا الحصر لأن الاستطراد يُخرجنا عن الموضوع.

عن إسحاق بن غالب، عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام في خطبة له يذكر فيها حال الأئمة عليهم السلام، وصفاتهم، يقول فيها:

أن الله ﷻ أوضح بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا عن دينه، وأبلغ بهم عن سبيل مناجاه، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه، فمن عرف من أمة محمد ﷺ واجب حق إمامه، وجد طعم حلاوة إيمانه، وعلم فضل طلاوة^(٢) إسلامه، لأن الله ﷻ نصب الإمام علماً لخلقه، وجعله حُجَّةً على أهل موادّه وعالمه^(٣)، وألبسه الله تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار، يمدُّ بسبب إلى السماء، ولا ينقطع عنه مواده، ولا ينال ما عند الله إلا بجهة أسبابه، ولا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته.

فهو عالم بما يردُّ عليه من ملتبسات الدُّجى، ومعميات السُّنن، ومشبهات الفتن، فلم يزل الله ﷻ يختارهم لخلقه من ولد الحسين عليه السلام من عقب كل

(١) - (الكافي للشيخ الكليني؛ ج ١ / ص ١٩٨ - ٢٠٣)

(٢) - (الطلاوة الحسن والبهجة والقبول)

(٣) - (أهل مواده أي أهل زياداته المتصلة وتكميلاته المتواترة الغير المنقطعة مطيعا كان أو عاصيا وعالمه بفتح اللام)

إمام، يصطفيهـم لذلك ويجتبيهم، ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم، كل ما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً، علماً بيناً، وهادياً نيراً، وإماماً قيماً، وحُجَّةَ عالماً، أئمة من الله، يهدون بالحق وبه يعدلون، حجج الله ودعواته ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد^(١) وتستهل بنورهم البلاد، وينمو ببركتهم التلاد، جعلهم الله حياة للأنام، ومصايح للظلام، ومفاتيح للكلام، ودعائم للإسلام، جرت بذلك فيهم مقادير الله على محتومها.

فالإمام هو المنتجب المرتضى، والهادي المنتجى^(٢)، والقائم المترجى، اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه^(٣) في الذر حين ذراه، وفي البرية حين برأه، ظللاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه، محبوا بالحكمة^(٤) في علم الغيب عنده، اختاره بعلمه، وانتجبه لظهره، بقية من آدم ﷺ، وخيرة من ذرية نوح، ومصطفى من آل إبراهيم، وسلالة من إسماعيل، وصفوة من عترة محمد ﷺ، لم يزل مرعياً بعين الله، يحفظه ويكلؤه بستره، مطروداً عنه حبائل إبليس وجنوده، مدفوعاً عنه وقوب الغواسق^(٥) ونفوث كل فاسق، مصروفاً عنه قوارف السوء، مبرأً من العاهات، محجوباً عن الآفات، معصوماً من الزلات، مصوناً عن الفواحش كلها، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه^(٦)، منسوباً إلى العفاف، والعلم، والفضل عند انتهائه، مُسنداً إليه أمر والده، صامتاً عن المنطق في حياته.

(١) - (في بعض النسخ [يدين بهم العباد] وتستهل أي يتنور، والتلاد : المال القديم)

(٢) - (المنتجى : صاحب السر)

(٣) - (واصطنعه على عينه اختاره على شهود منه بحاله)

(٤) - (أي منعماً عليه وهو حال مقدرة لظلا بقرينة قوله : في علم الغيب)

(٥) - (الوقوب : دخول الظلام، والغاسق الليل المظلم، والنفوث كالنفخ والقرقة التهمة)

(٦) - (في يفاعه : أوائل سنه يقال أيفع الغلام إذا شارف الاحتلام ولم يحتلم)

فإذا انقضت مدة والده، إلى أن انتهت به مقادير الله إلى مشيئته، وجاءت الإرادة من الله فيه إلى محبته، وبلغ منتهى مدة والده ﷺ فمضى وصار أمر الله إليه من بعده، وقلده دينه، وجعله الحجة على عباده، وقيمه في بلاده، وأيده بروحه، وآتاه علمه، وأنبأه فصل بيانه، واستودعه سره، وانتدبه لعظيم أمره، وأنبأه فضل بيان علمه، ونصبه علماً لخلقه، وجعله حجة على أهل عالمه، وضياء لأهل دينه، والقيم على عباده، رضي الله به إماماً لهم، استودعه سره، واستحفظه علمه، واستخبأه حكمته^(١) واسترعاه لدينه^(٢) وانتدبه لعظيم أمره، وأحیی به مناهج سبيله وفرائضه وحدوده، فقام بالعدل عند تحير أهل الجهل، وتحجير أهل الجدل، بالنور الساطع، والشفاء النافع، بالحق الأبلج، والبيان اللائح من كل مخرج، على طريق المنهج، الذي مضى عليه الصادقون من آبائه ﷺ، فليس يجهل حق هذا العالم إلا شقي، ولا يجحده إلا غوي، ولا يصد عنه إلا جري على الله ﷻ..^(٣)

وبرواية أخرى عن محمد بن الفضيل عن الإمام الرضا ﷺ، عن آبائه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي أنت والأئمة من ولدك بعدي حجج الله على خلقه، وأعلامه في بريته، فمن أنكر واحداً منهم (منكم) فقد أنكرني، ومن عصا واحداً منهم (منكم) فقد عصاني، ومن جفا واحداً منهم (منكم) فقد جفاني، ومن وصلكم فقد وصلني ومن أطاعكم فقد أطاعني، ومن والاكم فقد والاني، ومن عاداكم فقد عاداني لأنكم مني، خلقتكم من طينتي، وأنا منكم».^(٤)

(١) - (واستخبأه بالخاء المعجمة . أودع عنده وأمره بالكتمان)

(٢) - (واسترعاه أي اعتنى بشأنه وفي بعض النسخ [واستدعاه])

(٣) - (الكافي للشيخ الكليني : ج ١ / ٢٥٥)

(٤) - (بحار الأنوار للعلامة المجلسي : ج ٢٣ / ص ٩٧ عن إكمال الدين : ٢٣٠)

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر باقر العلم الكوني عليه السلام، قال: «لما أنزلت ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ﴾^(١) قال المسلمون: يا رسول الله أأنت إمام الناس كلهم أجمعين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون بعدي أئمة على الناس من أهل بيتي من الله يقومون في الناس فيكذبونهم، ويظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم، ألا فمن والاهم واتبعهم وصدقهم فهو مني ومعني وسيلقاني، ألا ومن ظلمهم وأعان على ظلمهم وكذبهم فليس مني ولا معني وأنا منه برئ»^(٢)

فمعرفة الإمام واجبة عيناً على كل إنسان مكلف من هذه الأمة المباركة، ومن أنكر ذلك إنما ينكر حظه من الإيمان، لأن كتب المسلمين جميعاً تضج بالروايات التي تأمر بذلك وتحض على معرفة كل الناس لإمامهم ومن مات على غير المعرفة بإمامه كان كمن عاش ومات في الجاهلية، وإليك باقة عطرة من الأحاديث الشريفة التي تدل على وجوب معرفة الإمام، وانه لا يُعذر الناس بترك المعرفة والولاية، وأن مَنْ مات ولا يعرف إمامه أو شك فيه مات ميتة جاهلية، وهي مأخوذة من كتب المسلمين جميعاً ويرووها الثقات في كل الطبقات الروائية.

وعن بشير الدهان، قال: قال أبو عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات وهو لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية فعليكم بالطاعة، قد رأيتم أصحاب علي، وأنتم تأتمون بمن لا يُعذر الناس

(١) - (الإسراء: ٧)

(٢) - (بحار الأنوار؛ للعلامة المجلسي؛ ج ٢٤ / ص ٢٦٦)

بجهالته، لنا كرائم القرآن، ونحن أقوام افترض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صَفْوَ المال»^(١).

فقوله ﷺ: (قد رأيتهم أصحاب علي)، هو مثال واقعي لطاعتهم لله، ولإمامهم وقائدهم، فكانوا فريقين، وكل منهما بلغ الأقصى بجهته.

القسم الأول: كانوا بُصراء في دينهم، أشداء على عدوهم، مستميتون بقائدهم، فهم يدرون بمن يأتَمُوا، كمالك الأشتر النخعي، وقيس بن سعد، وعدي بن حاتم، وحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي.. وغيرهم من هؤلاء الذين قُطِّعُوا وأبرد برؤوسهم لطغاة بني أمية، ولم يحدوا عن ولايتهم لأمرهم، وإمامهم، فهم الخواصُّ من أصحابه روعي له الفداء.

القسم الثاني: وأما الجهة الأخرى المتطرفة باتجاه النار وغضب الجبار فهم الخوارج الذين عصوا الله، وعصوا أميرهم، ولم يكتفوا بذلك بل شطت بهم أنفسهم وشياطينهم الجنية والإنسية فكفروا بالإمام - والعياذ بالله - والأمة - كخوارج هذه الأيام تماماً، فمن لا يقول بقول نبيهم محمد بن عبد الوهاب فهو كافر يُقتل - فعلى أي شيء استندوا قاتلهم الله؟

يحتجون بالقرآن الصامت ومعهم القرآن الناطق يقودهم ويوجههم، وهذا قوله ﷺ: «لنا كرائم القرآن» أي نزلت فينا أهل البيت الآيات الكريمة، ونفائس، وعظائم الآيات المباركة نزلت بحقهم، حيث جعلت مودتهم أجراً للرسالة الخاتمة، ومن لا يدفع ذلك الأجر فهو خائن، وعاصي، ومطهرون بأية التطهير الشريفة، وثلث القرآن نزل بهم، وهذا

ما يدلُّ على فضل عظيم، ومدح جسيم، بما يستحقون لأن الله تعالى لا يحابي، ولا يماري أحداً من عباده.

(لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا؛ هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ)^(١).

فهم أصحاب النعم، وأولياء النعمة التامة التي أكمل الله بها الدين، وأتمَّ بها النعمة في يوم ولايتهم وتنصيب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ إماماً في يوم الغدير الأغر، وبايعه المسلمون، وبأولهم خلفاءهم الأول والثاني صاحبه حيث قال له: بخ، بخ لك يا ابن أبي طالب لقد أصبحت مولانا، ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وهذا الذي قال به الرسول الأعظم (صلوات الله عليه وآله) أن من لا يعرفه فإنه يموت ميتة جاهلية، فالمراد بالميتة الجاهلية؛ هي الموت على الحالة التي كانت عليها أهل الجاهلية من الكفر، والجهل، بأصول الدين وفروعه.

ومن ألفاظ هذا الحديث الكثيرة، ما روي عن أبي اليسع عيسى بن السري، قال: قال أبو عبد الله ﷺ: «إن الأرض لا تصلح إلا بالإمام، ومن مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية، وأحوج ما يكون أحدكم إلى معرفته إذا بلغت نفسه هذه، وأهوى بيده إلى صدره، يقول: لقد كنت على أمر حسن»^(٢).

(١) - نهج البلاغة: خطبة ٢

(٢) - (محاسن البرقي: ١٥٤)

وعن الحسين بن أبي العلاء، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات ليس له إمام مات ميتة جاهلية»، فقال: نعم، لو أن الناس تبعوا علي بن الحسين عليه السلام وتركوا عبد الملك بن مروان اهتدوا، فقلنا: «من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية ميتة كفر؟ فقال: لا، ميتة ضلال»^(١).

لعل الإمام عليه السلام إنما نفى الكفر لأن السائل توهم أنه يجري عليه أحكام الكفر في الدنيا، فنفى ذلك، وأثبت له الضلال عن الحق في الدنيا، وعن الجنة في الآخرة، فلا يدخل الجنة أبداً، لأنه مات على الحالة الجاهلية وأنى لأهل الجاهلية الجنة؟ وهذا لا يُنافي الأخبار الآتية التي أثبتوا فيها لهم الكفر، فإن المراد بها أنهم في حكم الكفار في الآخرة لا في الدنيا، ويُحتمل أن يكون نفى الكفر لشمول من لا يعرف كالمستضعفين، لأن فيهم احتمال النجاة من العذاب فسائر الأخبار محمولة من سواهم.

وعن الفضيل، قال: سمعت أبا جعفر الإمام الباقر عليه السلام، يقول: «مَنْ مات وليس له إمام فموته ميتة جاهلية.. ولا يُعذر الناس حتى يعرفوا إمامهم.. وَمَنْ مات وهو عارف لإمامه لا يضره تقدم هذا الأمر أو تأخره، ومن مات عارفاً لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه»^(٢).

وعن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يا يحيى من بات ليلة لا يعرف فيها إمام زمانه مات ميتة جاهلية»^(٣).

(١) - (محاسن البرقي : ١٥٤)

(٢) - (محاسن البرقي : ١٥٥)

(٣) - (غيبة النعماني : ٦٢)

وعن ابن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام، في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١)، قال: «من اتخذ دينه رأيه بغير إمام من أئمة الهدى». (٢)

وعن أبي عبيدة الحذاء، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن سالم بن أبي حفصة، يقول: ما بلغك أنه من مات وليس له إمام كانت ميتته ميتة جاهلية؟ فأقول: بلى، فيقول: مَنْ إمامك؟ فأقول: أئمتي آل محمد (عليه وعليهم السلام)، فيقول: والله ما أسمعك عرفت إماماً.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «ويح سالم، وما يدري سالم ما منزلة الإمام؟ منزلة الإمام - يا زياد - أفضل وأعظم مما يذهب إليه سالم والناس أجمعون». (٣)

وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام: بإسناد التميمي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن الإمام علي عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات وليس له إمام من ولدي مات ميتة جاهلية، ويؤخذ بما عمل في الجاهلية والإسلام». (٤)

هذا هو الحديث الصحيح، والمروي بكل المجامع الروائية لدى المسلمين عامة، وهو العنوان في الصفحة العقائدية للشريعة الإمامية، وبه تسمى وتفتخر بهذه التسمية، وهذه هي الإمامة التي يعتقدون بها، ويقابلون الله تعالى ورسوله الكريم بها في القبر، والحساب، ويوم يقوم

(١) - القصص: ٥٠

(٢) - غيبة النعماني: ٦٣١

(٣) - رجال الكشي: ١٥٣

(٤) - عيون الأخبار: ٢١٩٠

الأشهاد لرب العالمين، وهذا هو الإمام الذي نعتقد به، وصفاً ونصاً من الله تعالى، لرسوله الكريم، ثم لأهل بيته الأطهار كإماماً عن إماماً عن إمام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها صافية نقية تقية كما بدأت تماماً على يدي صاحب العصر والزمان الإمام المهدي المنتظر، محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر من أئمة المسلمين، الذين من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية بنصوص ثابتة عن صاحب الرسالة الخاتمة (صلوات الله عليه وآله).

وأطال علماءنا الأبرار قديماً وحديثاً ببيان وإيضاح هذه العقيدة المحقة، وأظهروها قولاً، وفعلاً، درساً، وبحثاً، ومنبراً، وكتابةً، وبكل ما سمح لهم الزمان، وأفسح لهم السلطان، لأنهم دائماً وأبداً - كإمامهم في كل عصر - مُقَصَّون مُبْعَدون عن الحياة السياسية، ومطارداتهم السياسية كثيرة، أولها التدبير للانقلاب على السلطان لأن الزكوات، والأخماس، والحقوق الشرعية أحياناً تصل إليهم، فكانوا مراقبين بعدد أنفاسهم إن استطاعت السلطات وهم - روعي فداهم - لم يكن لديهم إلا بعض العبيد والإماء وأولئك السلاطين لديهم جيوش جرارة، لها أول وآخرها منتشر من حدود الصين شرقاً وحتى جبال البرنيه الفرنسية غرباً، ولكن كانوا يعيشون بكابوس اسمه (الإمام)، لعلمه بأن هذا الجالس في كسر البيت النبوي هو إمام القلوب، وله عرش الأفتدة، كما اعترف بذلك هارون الرشيد شخصياً لولده المأمون يوماً، وعندما سأله عن سبب احترامه للإمام موسى بن جعفر - روعي له الفداء - الذي سجنه أكثر من أربعة عشر سنة عجافاً، ولم يخرج من السجن إلا جثة هامدةً يحمله أربعة من جلاوزة السجن، ثم وضعوه على جسر بغداد

وراحوا ينادون عليه: (هذا إمام الرافضة موسى بن جعفر قد مات حتف أنفه تعالوا وانظروا إليه)..^(١)

لماذا هذا النداء، ولماذا هذا التبرير الغير مُبرر، وممن يخاف هارون الرشيد؟ هذا ما بينه وصرَّح به هارون لولده المأمون، كما في هذه القصة، فيروي المأمون أنه دخل الفضل بن الربيع على هارون الرشيد، فقال: يا أمير (المواطنين) على الباب رجل زعم أنه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.. فأقبل علينا ونحن قيام على رأسه، والأميين والمؤمنين وسائر القواد، فقال: أحفظوا على أنفسكم، ثم قال لأذنه: ائذن له، ولا ينزل إلا على بساطي.

فأنا كذلك إذ دخل شيخ قد أنهكته العبادة، كأنه شئٌ بال، قد كلم (جرح) السجود وجهه وأنفه، فلما رأى الرشيد رمى بنفسه عن حمار كان راكبه فصاح الرشيد: لا والله إلا على بساطي.. فمنعه الحجاب من الترجُّل، ونظرنا إليه بأجمعنا بالإجلال والإعظام، فما زال يسير على حماره حتى سار إلى البساط، والحجاب والقواد محققون به، فنزل فقام إليه الرشيد واستقبله إلى آخر البساط وقبَّل وجهه، وعينيه، وأخذ بيده حتى صيَّره في صدر المجلس، وأجلسه معه فيه، وجعل يُحدثه ويقبل بوجهه عليه، ويسأله عن أحواله.

ثم قال: يا أبا الحسن ما عليك من العيال؟

فقال: «يزيدون على الخمسمائة».

قال: أولاد كلهم؟

(١) - (راجع البحار للمجلسي للوقوف على القصة المحزنة لشهادة الإمام العظيم (ع): ج ٤٨

قال: «لا، أكثرهم موالي وحشم، فأما الولد فلي نيف وثلاثون الذكران منهم كذا، والنسوان منهم كذا».

قال: فلم لا تزوج النسوان من بني عمومتهن وأكفائهن؟

قال: «اليد تقصر عن ذلك».

قال: فما حال الضيعة؟

قال: «تعطي في وقت وتمنع في آخر».

قال: فهل عليك دين؟

قال: نعم.

قال: كم؟

قال: «نحو من عشرة آلاف دينار».

فقال الرشيد: يا ابن عم أنا أعطيك من المال ما تزوج به الذكران والنسوان وتعمر الضياع.

فقال له: «وصلتك رحم يا ابن عم، وشكر الله لك هذه النية الجميلة والرحم ماسة، والقراية واشجة، والنسب واحد، والعباس عم النبي ﷺ، وصنو أبيه، وعم علي بن أبي طالب ﷺ وصنو أبيه، وما أبعدك الله من أن تفعل ذلك وقد بسط يدك، وأكرم عنصرك، وأعلى محتدك».

فقال: أفعل ذلك يا أبا الحسن وكرامة.

فقال: «يا أمير المؤمنين إن الله ﷻ قد فرض على ولاة عهده، أن ينعشوا فقراء الأمة، ويقضوا عن الغارمين، ويؤدوا عن المثقل، ويكسوا العاري، ويحسنوا إلى العاني، وأنت أولى من يفعل ذلك».

فقال: أفعل يا أبا الحسن، ثم قام، فقام الرشيد لقيامه، وقبّل عينيه ووجهه، ثم أقبل عليّ وعلى الأمين والمؤمن، فقال: يا عبد الله ويا محمد ويا إبراهيم بين يدي عمكم وسيدكم، خذوا بركابه، وسووا عليه ثيابه، وشيعوه إلى منزله، فأقبل أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام سرّاً بيني وبينه فبشرني بالخلافة، وقال لي: «إذا ملكت هذا الأمر فأحسن إلى ولدي».

ثم انصرفنا، وكنت أجراً ولد أبي عليه؛ فلما خلا المجلس، قلت: يا أمير (المواطنين) مَنْ هذا الرجل الذي قد عظمته وأجللته، وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته، وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟

قال: هذا إمام الناس، وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده.

فقلت: يا أمير (المواطنين) أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟

فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله مني، ومن الخلق جميعاً، والله لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عينك، فان الملك عقيم.

فلما أراد الرحيل من المدينة إلى مكة أمر بصرة سوداء، فيها مائتا دينار، ثم أقبل على الفضل بن الربيع، فقال له: اذهب بهذه إلى موسى بن جعفر، وقل له: يقول لك أمير (المواطنين): نحن في ضيقة وسيأتيك برّنا بعد هذا الوقت.

فقمت في صدره، فقلت: يا أمير (المواطنين) تعطي أبناء المهاجرين والأنصار وسائر قريش، وبني هاشم، ومَنْ لا يُعرف حسبه ونسبه خمسة

آلاف دينار إلى ما دونها وتعطي موسى بن جعفر وقد أعظمته وأجللته مائتي دينار؟ أخس عطية أعطيتها أحداً من الناس؟

فقال: اسكت لا أم لك، فإني لو أعطيت هذا ما ضمنته له، ما كنت آمنه (أي على الخلافة).^(١)

وبالفعل فإن هذا المأمون أخذ رأس أخاه الأمين من أجل الخلافة، وعلقه على باب القصر وأمر كل مَنْ يدخل إليه بالبصاق عليه في سبيل الكرسي والسلطان والملك العقيم.

فالإمام هو إمام المسلمين، وإن أنكره المسلمون ولم يعرفوه فهو حجة الله عليهم، وَمَنْ لم يعرفه لم يكن من أهل ملة الإسلام، ودين سيد المرسلين، حبيب رب العالمين أبو القاسم المصطفى محمد ﷺ.

كحال الأمة الإسلامية اليوم التي زادت على المليارين، ومعظمهم لا يعرفون إمامهم وللأسف الشديد، أن بعضهم يستهزئ بهذه العقيدة، وهي المقياس في أن يكون مسلماً، فالإسلام بالإمام يُعرف، لا بأقوال أولئك الجهال الذين تعرّشوا على مراقبي العلم تطفلاً وليس لهم من العلم لا اسم ولا رسم، بل علمهم محض الجهل بدون أن يعرفوا هذه الحقيقة الكونية التي نطلق عليها اسم (الإمامة)، وصاحبها (الإمام).

وأهيب بالعقلاء من هذه الأمة، وأدعوهم للبحث عن هذا الحديث الشريف (مَنْ مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)، ويسألوا أنفسهم هذا السؤال: مَنْ هو إمامي الذي إن لم أعرفه ميتٌ على غير هذه الملة المباركة؟

وأرجوه، وأناشده الله أن يجيب عليه إجابة ترضي الله عنه، ويقبلها الله تعالى في القبر، وفي الحشر، لأن ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْرَأُ الْمُبْطُلُونَ﴾.

ثقافة الشيعة تتطبع عقائدياً بالإمامة، ولكن طابعها الحضاري وعنوانها الثقافي الأبرز؛ هو (الإمام الحسين عليه السلام)، وشعائره (الشعائر الحسينية) المباركة، فهي ثقافتها التي لا تحيد عنها أبداً إلى أن يأذن الله لوليه الأعظم الحجة بن الحسن عليه السلام بالظهور فيأخذ بالثأر من المنافقين والكفار - وإن لم يرضَ بذلك بعض أصحاب العمائم ودعاة العقلنة، وغيرها من الدعوات الباطلة التي جاءتنا من وراء البحار- فما هي ثقافتنا إذن؟

٢- الثقافة الحسينية

والطابع الحضاري، والثقافة الحضورية للشيعة في هذا العصر، وفي كل عصر هي إقامتهم للشعائر الحسينية المباركة، وتنافسهم في ذلك وإسالة أنهاراً من المياه، والأموال، والطعام والغذاء، والدماء في هذه المناسبة الأليمة، حتى قالت الإحصائيات الأخيرة أن الشيعة يصرفون في عاشوراء من الأموال ما يمكنهم من بناء مدينة من الذهب.

ولا أعلم حقيقة هذا الكلام، ولكن لأولئك المتقولون على هذه الطائفة الحسينية نقول: وما يدريكم أن الله عليه السلام يبني لكل واحد من هؤلاء المشاركين بهذا العزاء الشريف مدينة من الدرّ، والياقوت، وما هو أغلى من الذهب في الآخرة، هذا عدا عن الأجر العظيم والبركة في المال والنفس والعمر في الحياة الدنيا.

وهذه هي الميزة الأخرى التي يتميز، بل ويفتخر بها أتباع مذهب أهل البيت الأطهار عليهم السلام؛ هي أنهم حسينيون حقيقيون، وثقافتهم الحسينية هي طابعهم الغالب ولذا عرفوا في الدنيا بها.. وعرفت الدنيا أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، بإقامة الشعائر الحسينية المباركة.

الثقافة الحسينية: هي ثقافة تطهيرية؛ تُطهر الروح، والجسد، والنفس، من الأدران الضارة، والأورام الخبيثة، والأمراض الفتاكة، لأن الإمام الحسين عليه السلام علمنا الطهارة والنقاء، بأعلى معانيها، وأجلى مبانيها بما فعله وقدمه خلال مسيرته المظفرة من المدينة المنورة، إلى مكة المكرمة والبيت العتيق، وحتى كربلاء الفاجعة العظمى.

والثقافة الحسينية: هي ثقافة ثورية؛ ترفع شأن النفس وتشحذ الهمم لترفض كل أنواع الظلم والجور والطغيان وتعلنها مدوية؛ لا لكل الطغاة في الحياة.. لا لكل الظالمين في كل زمان ومكان، ولا لكل فاسد ومفسد للحياة، والأحياء من بني البشر.

والثقافة الحسينية: هي ثقافة عطاء وفداء؛ وليست ثقافة أنانية واستئثار كثقافة العالم المعاصر اليوم، لاسيما البلاد المتقدمة والمتطورة والصناعية حيث فقد الناس قيمهم وصارت قيمة كل إنسان بما يملك من الدولارات، ويجد لنفسه مبرراً لكي يقتل، وينفي من الوجود المنافس له حتى لو كان ولده، أو والده، فلا إشكال فالمنافس عدو، وهي الثقافة التي انطلق منها الطاغية هارون الرشيد المتقدمة، وسقناه مثلاً ولا تحرم منطقة أو بلداً من آلاف الأمثلة على هذه الثقافة اللا إنسانية.

وأما الثقافة الحسينية المباركة فهي ثقافة العطاء حتى الرضا،
والعطاء لكل شيء، وأعلى، وأنفس الأشياء من المال، والجاه،
والسلطان، وتعدّي بالعطاء حتى الأولاد العظام، والإخوة الكرام،
والأصحاب الأعلام، وبعد ذلك وحين لم يبقَ شيء يُعطيه أعطى نفسه
القدسية لله تعالى قرباناً في سبيل رضاه، وفداء لدين الله الحنيف.

فأعظم بهذا الفداء من فداء، وأكرم بهذا العطاء من عطاء.

فثقافة العطاء اليوم معدومة، بل هي ثقافة الأخذ، ثم التكديس، ثم
التقديس للدينار والدولار، فيتخذ إلهاً من دون الله - والعياذ بالله -
فتحولت القيم، وتغيرت الشيم، فصار الأخذ شطارة، والعطاء خسارة،
والمقدس مُدنس، والمكسد مُقدس.. ولا قيمة لشيء من قيم الإنسانية
فغدا الإنسان في هذا العصر تائهاً حائراً كأى حيوان في الغابات
الاستوائية لا يرى لنفسه قيمة إلا بما يمثله للصيد، وغايته من صيده
فإن احتاج له في حلبة السرك، أو في حديقة الحيوانات، أبقاه حياً، وإذا
احتاج للحمه، أو جلده، وفراءه، وأسنانه، وما يمكن الفائدة منه فقط
قتله دون رحمة.

فأي ثقافة هذه الثقافة البائسة؟

وأى عصر هذا العصر الخاوي من الإنسانية والقيم الأخلاقية..؟!
فهل نُجانب الصّواب إذا قلنا بأنه عصر جاهلية جهلاء لم يسبق التاريخ
له منذ ستة آلاف عام بهذا السوء والبؤس والخواء الروحي..؟!!

والثقافة الحسينية: هي ثقافة أصيلة، وليست دخيلة؛ لأنها من
قلب الإنسان وعقله، فتحاكي عقله، ومشاعره فتخاطب واقعه بما

يغذي الروح والجسد، وينمّي النفس، والعقل بكل القيم الفاضلة، والعلوم الكاملة.

وما هم العلماء الأعلام، من كل علم شريف، ومقام منيف، ترى الشيعة الكرام، من أتباع أهل البيت الأطهار عليهم السلام هم المبرزون، وهم الطليعة والغرّة الجميلة فإن لم يكونوا مؤسسين، فهم مجددون، وبناء مطوّرون من الطراز الأول.

فمن أوائل وأوليات العلوم العربية التي وضعها أبو الأسود الدؤلي بتوجيه من أميرنا، وإمامنا الأول أمير المؤمنين، وإمام الموحدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وحتى علوم الطب الراقي، وعلوم الجسد والروح إلى أن نصل لعلم الفلك والأجرام، والهيئة الكونية، وعلم الفيزياء والكيمياء التي استقاها تلميذهم النبيل العلامة جابر بن حيان الكوفي من مولاه، ومولانا الإمام السادس من أئمة المسلمين الإمام جعفر الصادق عليه السلام.

فالعلوم الهامة، والأصول العامة، وكل ما تحتاج إليه البشرية من قوانين ناظمة، وتشريعات حاكمة، وعلوم مفيدة خرجت من هذا البيت الطاهر الذي وصفه ربنا عليه السلام في كتابه إذ قال بوصفه: ﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا فُلْهِيهِمْ فِجْرَةٌ وَلَا يَخُوعُونَ فِيهِ وَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ يُخَافُونَ يَوْمًا نُنْقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ ﴾^(١)

والعصر الحديث، عصرنا عصر الذرة، والمجرة، وغزو الفضاء، وعصر الأرقام، والحاسوب، والشبكة العنكبوتية العالمية.. استرعى علماءها ولفت انتباههم شخصية فذة، وعالم نوراني الطلعة، إلهي

الرسالة حَيَّرَ ألبابهم، ودَوَّخَ رؤوسهم، وتاهت عقولهم، بنظرياته الدقيقة، رغم أنه قالها قبل حوالي أربعة عشر قرناً من الزمن الحاضر في المكان المُجَدَّب، والزمان المُجَلَّب عليه، من أعدائه المتربصين به الدوائر.

نعم إنه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الذي عقدت ندوات، ومؤتمرات لدراسة نظرياته، وبحث أفكاره البكر في بلاد الغرب وكان كل ذلك مثار جدل خصب فكانت نتيجة ندوة واحدة كتاب (الإمام الصادق بنظر علماء الغرب) حسبما تُرجم إلى اللغة العربية، فإذا قرأته تعرف مدى تأثر أولئك العلماء، وإعجابهم، وإكبارهم للإمام الصادق عليه السلام ونبوغته، وعبقريته، ونحن نُضيف رسالته، ونورانيته، فما خفي عليهم من شخصية إمامنا الصادق عليه السلام كان أعظم بكثير مما ظهر لهم.

فالإمام الصادق عليه السلام هو إمام معصوم، وله ولاية تكوينية على المخلوقات، وهو مُلهم، ومُحدِّث، وعالم بالعلم اللدني، وأنى لأولئك العلماء أن يفقهوا معنى ذلك أو يستوعبوا بعضه.. فعلماء الإسلام، ومنهم ممن ينتسبون إليه لم يستوعبوا، ولن يفهموا معنى ذلك هذا عدا عن غيرهم، فهم سر من أسرار الله في هذه الحياة.

والإمام المعصوم أبو جعفر باقر العلوم يقول لسلمة بن كهيل، والحكم بن عُتَيْبَةَ: «شَرِّقًا أَوْ غَرِّبًا فَلَا تَجْدَانِ عِلْمًا صَحِيحًا، إِلَّا شَيْئًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»..^(١)

وبرواية أخرى عن حال الحكم بن عتيبة، الذي كان يعرف الحق، ويتبع غيره، أن أبا بصير سأل الإمام الباقر عليه السلام عن شهادة ولد الزنا هل تجوز؟

فقال: «لا».

فقلت: إن الحكم بن عتيبة يزعم أنها تجوز.

فقال عليه السلام: «اللهم لا تغفر ذنبه، ما قال الله للحكم: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾^(١) فليذهب الحكم يمينا وشمالاً، فوالله لا يؤخذ العلم إلا من أهل بيت نزل عليهم جبرائيل عليه السلام».^(٢)

فالعلوم الحقة، والنظريات الإنسانية، والقيم الأخلاقية، والتشريعات والقوانين الحاكمة كلها خرجت من عندهم، وتعود في أحكامها إليهم.. فصلوات ربي عليهم ما سمر سمير وأمّ نجم في السماء نجماً.

والثقافة الحسينية: ثقافة كونية شاملة، فهي لا تنظر إلى الحياة وأشرف الأحياء الإنسان بعين السخرية، أو التحقير، والتصغير، بل ينظرون إلى الخلق بمنظار الحق، ويخدمون الحق بالخلق لعلمهم بأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلَأُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٣)

وربنا سبحانه الخالق العظيم، هو عالم وحكيم فهو لم يخلق ذرة عبثاً وبدون حكمة ولم يترك مخلوقاً دون غاية ونهاية لأن الحكيم هو

(١) - الزخرف: ٤٤

(٢) - ن م (الكافي) ص ٤٠٠.

(٣) - (الأنعام: ٧٣)

الذي يضع الشيء في موضعه المناسب له، وربنا سبحانه الحكيم أعلم حيث يجعل رسالته لهذا المخلوق المكرم (الإنسان)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْبِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١).

والإمام الحسين عليه السلام كان ناظراً في نهضته المباركة إلى أشرف المخلوقات وأعظمها شأنًا وتأثيراً، من أجل إصلاح شأنه، وتحسين حياته، وترسيخ رسالته، وتمكين هدايته، على كل المستويات، والصُّعُدِ فصول، وطاول بني أمية، وحاول جاهداً أن يستنهض الأمة الخائفة، فلم يشعروا بنداؤه المبارك، ولما رأى الصُّدود منهم قرر الحرب والقتال ضد جيوش بني أمية الجرارة بأفراد أقلاء جداً من خُلص أصحابه، وأصحاب أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وجده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.. وأعظم إخوته، وأعلى أبنائه فقدّمهم للمقصلة راضياً، قانعاً فجزّروا كالأضاحي، وذبحوا كالكبش في مسلخ كربلاء.

ولما لم يجد إلا نفسه المقدسة، وربّه ينظر إليه كيف يسقي شجرة الرسالة بدمه الطاهر الزكي، وكيف يُقدّم نفسه قرباناً، كأعظم تقي يتقبل الله قربانه، فما أن طغوا، وبغوا، وتعدّوا على ذلك الجسد الطاهر، وسفكوا ذاك الدم الزكي الشّريف، حتى أمر الله صلى الله عليه وآله نبيّه الكريم بأن ينزل إلى كربلاء، ويلتقط تلك الدماء ويجمعها ليرفعها إلى الله مباشرة كما في الرواية التي تقول: أن عبد الله بن العباس استيقظ من نومه فاسترجع، وقال قتل الحسين والله.

فقال له أصحابه: كلا يا ابن عباس كلا.

قال: رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم، فقال: ألا تعلم ما صنعت أمتي من بعدي؟ قتلوا ابني الحسين، وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله ﷻ..^(١)

فثقافة الإمام الحسين ﷺ هي هذه الثقافة الرفيعة التي لا يمكن إدراك بعض شأنها إلا من ذوي الشأن الرفيع من بني البشر، فهي منارة للأجيال في كل زمان ومكان، ولكن الأفاذا هم الذين يعرفون النجم، ويلتقطون الشُعاع فيهدون في الظلمات الحالكات كمحرر الهند (المهاتما غاندي) الذي التقط شعاعاً من الإمام الحسين ﷺ فعرف كيف يُحرر بلاده من الاستعمار البريطاني البغيض، ألم يقل: (تعلمتُ من الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر).

فانتصار المظلوم مدرسة وضع أساسها الحق ورفع شأنها الإمام الحسين ﷺ ولذا قرأ هذه المظلومية ذاك الأديب المسيحي فتمنى أن يكون لديهم شخصاً كالإمام الحسين ﷺ حتى يُبنى له في كل قرية منبراً ويصنعوا له في كل بيت تمثالاً من ذهب، ويدعون الناس إلى المسيحية باسم الإمام الحسين ﷺ.

تلك الكلمات والشهادات من ذوي الرأي والحجى من الأكابر المفكرة في عالم الفكر، والسياسة، والأدب، وأما رأي الأصاغر، وأصحاب العاهات وناقصي المروءة، وقليلي الأدب، ممن ينتسبون إلى أمة الحبيب المصطفى ﷺ جد الإمام الحسين ﷺ فهم ينطقون بلسان الشيطان، وينطلقون من قلوب ناصبيّة، حاقدة، مُبغضة، وحاسدة قالية لأهل البيت الأطهار الأبرار ﷺ.

(١) - تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ١٤ ص ٢٣٧.

ولا عتب عليهم في ذلك كله وكل العتب واللوم على أمهاتهم وآبائهم عند التحقيق والتدقيق وذلك لأنه قضى فانقضى على لسان الرسول المصطفى ﷺ: «أنهم لا يحبهم إلا طاهر الولادة، ولا يبغضهم إلا خبيث الولادة.. ولا يحبهم إلا ابن رُشدة، ولا يبغضهم إلا ابن زنا، أو مَنْ شَرَكَ الشيطان فيه».

والعَتَبُ المتوجه إلى مَنْ يَدْعُونَ الانتساب إلى ثقافة الولاية، و متمسكون ظاهراً بالإمامة، وهم ينفثون السموم، ويتكلمون بكلام على نسق كلام ابن العربي، الذي قال: أن الحسين قتل بسيف جده.. ويُعلل ذلك بقوله: لأنه خرج على إمام زمانه.

وما درى ذاك المأفون، أن الإمام الحسين ﷺ هو الإمام الذي وصفه الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤) ﴿١﴾

وهو إمامٌ على طول المدى، وهو إمام الأحرار في كل الأزمنة، وقبله الأكابر من بني البشر في كل العصور، وأما إمامه الذي يعتقد به، ويُريد أن يلقي الله فهو يزيد سيء الصيت (عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين) الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) ﴿٢﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٢﴾

نعم يزيد إمام أهل النار، ولكن الإمام الحسين (عليه آلاف التحية والصلوة والسلام) هو إمام أهل الجنة، بل هو (سيد شباب أهل الجنة)

(١) - السجدة: ٢٤

(٢) - القصص: ٤١

كما في الحديث الشريف.. ولكن في كل زمان ومكان لدينا مزيداً من يزيد، وأصنافاً من ابن زياد، وشمير، وعمر بن سعد، وآخرين من أولئك الذين نزه ألسنتنا بالنطق بأسمائهم إلا باللعن والبراءة منهم، ومن أعمالهم، وأشياءهم، وأتباعهم، والراضين بأعمالهم.

ونذكيها بذكر أصحاب الإمام الحسين (عليه سلام الله)، كالحر الرِّياحي، وبُرير بن خضير، وزهير بن القين، وحبیب بن مظاهر الأسدي، وكل أولئك الأبطال الذين رفعوا راية الحق عالية، وسقوا شجرة الرسالة المباركة بدمائهم الزكية الطاهرة، فصرنا لا نذكرهم إلا للتبرك بهم ونذكي أنفسنا وأسماعنا وألسنتنا بذكرهم الشريف.

هذا عدا عن الآل الكرام من الأبناء، والإخوة الذين صار ذكرهم عبادة، والسلام عليهم عبادة، فمتى للدنيا أن تنجب كأبي الفضل العباس بطل العلقمي، وإخوته، أو سيدنا علي الأكبر وفتوته؟!

هيات، هيات فذلك الذي لن يكون ما سمر سمير، وغرّد الطير، في هذه الحياة.. إلا أن الدنيا على موعدة في أواخر أيامها وبعد القحط والجذب والفساد بكوكبة أخرى من الرجال الأبطال، والنساء الطاهرات، أعدمهم الله تعالى لإنقاذ الإنسان في هذه الحياة بقيادة ربانية مباركة، خاصة بالإمام المهدي المنتظر ﷺ وجعلنا من أولئك الرجال من أصحابه)..!

لقد ابتلينا اليوم بالعشرات من أمثال يزيد السوء، والمئات من أشباه ابن زياد الشر، والآلاف من عمر بن سعد الخبيث، وربما الملايين من شمير بن ذي الجوشن اللعين، في هذه الأيام السوداء، وهذا العصر الأغبر، والكل يُريد أن يُعيد كربلاء ليُشارك بقتل الإمام الحسين ﷺ،

وإخوته، وأبنائه، وأصحابه، فكم تراهم مُتعتشين لدمائنا نحن لأننا نعشق، ونحب الإمام الحسين عليه السلام؟!!

فهاهم على الفضائيات وأمام الكاميرات كالأفاعي الفاغرة فهاهم ينفثون سمومهم، دون خجل، ولا حريجة من أخلاق، ك (العرعور) الذي يعرُّ، و(الكلباني) الذي ينبُح ويهرُّ، فيسبوننا ويدعون لقتلنا لا لذنوب اقترفناه، ولا لجريمة ارتكبتها - لا سمح الله - بل لأننا شيعة لأهل البيت الأطهار الأبرار (عليهم صلاة الرب الجبار) الذين أمرنا الله بولايتهم وجعل أجر الرسالة مودتهم في هذه الدنيا التي خلقت لأجلهم. ففي كل حين يخرج علينا مسخاً من أصحاب (الذقون الطويلة، والدشداشات القصيرة، والمسواك الغليظ) ليوزع على الأمة سموم الشرك، والتكفير، والضلال.. ولا يسلم منهم أحد من هذه الأمة المرحومة لا سنة ولا شيعة ولا أي طائفة من طوائفها أو مذاهبها المختلفة إلا مَنْ قال بقولهم، والتزم بأفعالهم، لأنهم يكفرون مَنْ التزم بالقول وترك الفعل فهو كافر بالكفر الأكبر، أو مشرك بالشرك الأصغر.

هؤلاء المسوخ بالحقيقة سرطان الأمة، بل الإنسانية اليوم تضجُّ إلى الله منهم، ومن فتاويهم الخالية من أي قيمة أخلاقية، أو أي لمسة إنسانية، ويحكم على الجميع بالقتل دون ذنب، ويعمل على إبادتهم بدون حريجة، وبلا وازع من خُلُق، ولا رادع من ضمير، فهذا خارج عن الإسلام والإنسانية.

لأن الإنسان جُبل على احترام وتقديس القيم الإنسانية المشتركة وأهمها حقُّ الحياة، وأما الإسلام العظيم فكله أخلاق وقيم، وربنا ﷺ

قال بوصفه بأنه (دين قيم) بقوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١) ..

والرسول الكريم كان يُمثّل منظومة القيم، والأخلاق على الأرض، فمن يراه يرى الأخلاق تمشي على رجلين، (فكان خلقه القرآن) كما وصفته السيدة عائشة لمن سألها عن أخلاقه.. فإذا كان القرآن كتاب القيم والأخلاق، والرسول شخص تلك القيم والأخلاق في حياة الأمة، وهؤلاء تركوا ذلك كله واتبعوا (مُسيلمتهم، وسجاحه) (محمد بن عبد الوهاب، وأعوانه)، والأمة تركتهم لمسيلمتهم دفعاً لشهرهم، ولكن سلطوا هؤلاء البدو الرُّحّل على رقاب الأمة بلا ضمير ولا رحمة ففعلوا الذي فعلوه بها من هدم وتدمير لتاريخها المجيد، وتقطيع لأوصالها، وتشتيت لأطيافها، وتبديد لقواها، لأنهم ليسوا منهم بل هم من البدو الرُّحّل الذين لا يملكون أي مقوّم من مقومات الحضارة الإنسانية، ولا يفهمون معنى ذلك كله، فلا قيمة عندهم إلا للسلب والنهب، وقتل الآخرين لأخذ ما معهم من مال أو متاع.. هذا ما تملّيه عليهم بدواتهم.

فمتى كان يحترم البدوي قيمة آثار حضارية، ووثائق تاريخية ترجع لأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن، فهذه لها قيمة فنية، وعلمية، وجمالية، وتراثية، وهي مصدر من أهم المصادر التاريخية، والدراسات الإنسانية، وهاهو أحد أزماتهم بالأمس القريب ولكنه عندما رأى بأّم عينه التدمير المتعمّد لآثار الإسلام والنبوة نادى العالم، وطالب المحافل الدولية، وعلى رأسها (اليونسيف) للتدخل لحماية الآثار الإسلامية

التي هدم الوهابيون أكثر من (٩٦ بالمئة) منها، وهي تراث إنساني، ووثائق حضارية.

نعم؛ ومنذ أن حلَّ ذاك المأفون سيء الصيت (أحمد بن تيمية) على الشام هابطاً من الجزيرة الشامية إلى مدينة دمشق، هبطت بهبوطه كل معاني القيم الإسلامية، ونهضت بأقواله وأفعاله كل القيم الشيطانية، فهو لم يحج حجة الإسلام، ولم يزر قبر الحبيب المصطفى ﷺ في المدينة المنورة، وحتى لم يتزوج رغم أنه عاش أكثر من (٩٠) عام، كما هو معروف عنه، وعندما توفي كان مجنوناً كما يصفه ابن بطوطة في رحلته (بالشيخ ذو اللوثة في عقله).

وهكذا تبعه بعض تلامذته كابن القيم وابن الجوزية، وهكذا حتى حلَّت اللعنة على نجد بحلول (مسيلمة) القرن الثاني عشر، و(سجاحه) عليها، حيث زمرت الشياطين كل جنودها، وتحزبت أحزاب الكفر والشرك والاستعمار، لضرب الإسلام العظيم في منبته، وتفتيته من داخله، فجيَّشوا الجيوش، وجمعوا السلاح، وحشدوا كل ما لديهم من حقد، وبغض، وغیظ على الإسلام والمسلمين، وزحفوا لمعاقله الأصلية، في (مكة والمدينة) في الحجاز، لضرب السنة قاطبة، و(النجف وكربلاء) في العراق، لضرب الشيعة قاطبة.

إلا أنهم نجحوا بالاستيلاء على الجناح الأول الذي ضرب السنة بالسنة، وهنا كان المقتل الذي لم يلتفت له إخوتنا من أهل السنة والجماعة، وبالحقيقة هناك خلل في الفكر السني يجب معالجته، والتعاطي معه بعقلانية ودين أكثر، بالعودة لكتاب الله وسنة نبيه الكريم ﷺ، ذاك هو الخلل الولائي، والفكر السياسي، والفكر الحاكمي، الذي وضعه على أسس خاطئة رجال وحكام بني أمية ليكون

الحكم على مقاسهم ففصلوه كما يريدون لا كما يريد الله تعالى ورسوله
الكريم ﷺ.

ولا مجال هنا للتفصيل بالمسألة ولكن نشير إلى أن هناك خطأ
فكري أدى إلى هذا الداء السرطاني الذي يسمونه بداء (التكفير)، الذي
ألهب ظهورنا بسياطه اللاذعة، وأجرى أنهاراً من الدماء الطاهرة، فأزهق
نفوساً، وبدد الطاقات، وشئت الأمة، وجعلنا سبباً الدهر العنود، ونحن
أمة (الرحمة المهداة).

تلك هي ثقافة (بل سخافة) الفكر - مع تأخير الفاء - (التكفير)
الآن؛ أشكال قميئة، وألوان باهتة، ينطقون بلا أدب، ويتكلمون بلا ذوق،
يتنطعون ويتشدقون بأقوال (مسيلماتهم) تاركين أقوال رسولنا الكريم
صاحب الخلق العظيم، فترى أفواههم تتحلب من الدماء، وأشدقهم
تقطع بأنيابها لحوم الأبرياء، ويوزعون القتل والتدمير والضلال والتكفير
على جميع أمم الأرض، وينشرون سمومهم على الجميع بدم بارد وكأن
لا قيمة للحياة، ولا قدسية للدماء، إلا دماءهم الزرقاء.

وأما دماءنا نحن فحمراء قانية، تشهد لنا على ذلك كربلاء، فأحلوها
البلاد والعباد إلى كربلاء فكل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، فما من
أرض إلا وفيها من أتباع أهل البيت الأطهار (عليهم الصلاة والسلام)
وشيعتهم، وهؤلاء متهمون أينما كانوا وتهمتهم: (أنهم من عشاق الإمام
الحسين ﷺ)، ويحيون عاشوراء ولو في بيوتهم، ومع أهلهم فينوحون
ويبكون ويضربون وجوههم ويلطمون صدورهم ويطبّرون على رؤوسهم
وعلى ظهورهم.. ويصنعون الطعام ويوزعونه باسم الإمام الحسين ﷺ،
ويخرجون إلى الشوارع ليسقوا الماء لكل الناس ويقضون لهم قصة

عطش إمامهم الحسين عليه السلام وكيف قتلوه - روعي له الفداء - عطشاً، وهو يقول: «وحق جدي أنا عطشان».

هذه ثقافتنا نناصر المظلوم ونؤيده، ونواليه، ونلعن الظالم ونبرأ إلى الله تعال منه، في كل العالم اليوم ينهض الشيعة بالشعائر الحسينية، ويُسمعون العالم بالإسلام المحمدي الأصيل من خلال قصة حفيده العظيم، ويدعون إلى كل القيم، ومنظومة الأخلاق الإسلامية التي مثلها المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، في حياته الشريفة المباركة، وختمها بقربان إلى الله عظيم في يوم عاشوراء.

حرب عالمية على الشعائر الحسينية

لا بد من مقدمة توضيحية لبيان المسار الإسلامي العام، ولبيان ضرورة الشعائر الحسينية الشريفة وبالتالي إبراز الدور الهام جداً الذي قامت به على طول المدى التاريخي بحفظ الإسلام الصحيح، بين المسلمين رغم كل جهود الظالمين لإطفاء نور الشعلة الحسينية المباركة، منذ أقدم العصور وإلى اليوم وستستمر إلى آخر (غداً) بإذن الله تعالى، فهي في رحمة الأيام الآتية نوراً تتوهج، وفي ضمير البشر ثورة تتأجج، وفي المستقبل الآتي حياة بالخير تُتَوَجَّج، وبألوان دولة العطاء الكوني المهدوي تتموج.

نعم.. (لقد انبثق الإسلام في منطقة توفرت فيها المؤهلات لأداء رسالة الإسلام إلى العالم، فقد كانت المنطقة الوسطى تمثل سنام الأرض، وكانت متحررة من السلطات القوية التي يكون في وسعها القضاء على الإسلام في مهده، وكانت المنطقة غنية بالخامات البشرية

التي توفرت فيها الطاقات الكفاحية كما لم تتوفر في سواها، فكانت أخرى المناطق بالإسلام، ولكن الظروف التي تفتح فيها الإسلام كانت ظروفًا ملغمة خلفتها العهود الجاهلية مثقلة بركام من العقد والمشاكل، فكان على الإسلام أن يتأهب لمواجهة التحديات المندلعة في نفس المنطقة، ومعالجة العقد والمشاكل ليس بالعنف والإرهاب وإنما بالخلق العظيم والموعظة الحسنة.

غير أنّ القتلة المستهترين الذين احتلبوا لبان الرماح في أحضان أمهاتهم ما كانوا ليرحبوا بالإسلام بالسلم، وما كانوا ليتخلقوا بأخلاق الإسلام، بل كانوا ليمتشقوا السيف على الإسلام قبل الانضواء تحت لوائه ومنافسة أبطاله بعد الاندماج في ظله، فكان على زعمائه أن يقوموا بأحد أمرين: إما أن يشهروا السيف في وجه مناوئهم ويوسعوهم تقتيلًا، وإما أن يواجهوا التنافس بالتضحية بمناصبهم وأنفسهم، فاختاروا الأمر الثاني لكونه أكثر ملاءمة مع روح الإسلام الذي جاء رحمة وسلامًا.

وهنا سؤال لا بد من الإجابة عليه، وهو: أنّ النبي ﷺ الذي كان يعرف أبناء قومه أفضل من غيره لماذا كان يقبل المنافقين في صفوف الإسلام حتى يثيروا المشاكل أمام الإسلام في حياته وبعد وفاته وقد كانت في غنى عنهم؟

والجواب: أنّه لم يكن من صالح النبي ﷺ منذ فجر الإسلام أن يقبل المخلصين فقط، ويرفض المنافقين، وإّما كان عليه أن يجمع ويكدّس جميع خامات الجاهلية ليُسجّع بها الإسلام عن القوى الموضوعية والعالمية التي تظاهرت ضده، فكان يهتف: «قولوا لا إله إلا

الله تفلحوا»^(١) ثم يرحّب بكافة الذين يقولون: لا إله إلا الله ولو كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وهذا التسامح، الواسع في قبول المسلمين أتاح لكل من في قلبه مرض أن ينخرط في صفوف المسلمين، فتسللت العناصر الجاهلية إلى الإسلام بجميع أحقادها وأطماعها وأهوائها، وهذه العناصر استغلت الإسلام كوسيلة ناجحة لبلوغ الأهداف التي عجزت الوسائل الجاهلية عن التوصل إليها، واتخذ النبي ﷺ هذه العناصر لضرب أعداء الإسلام.

وفي نفس الوقت الذي كانت هذه العناصر تدافع عن الإسلام ضد العدو الخارجي كانت بنفسها تنخر في كيان الإسلام، ولكن النبي ﷺ كان يجند طاقاته المادية والمعنوية لاستدراج هذه العناصر في حظيرة الإسلام، وكان القرآن يضغط على المنافقين، ويلقي عليهم الأضواء الكشافة، ويُعريهم أمام الرأي العام علّهم يضغطون بالنفاق إلى أعماق قلوبهم، ويعملون كمسلمين، غير أنهم مَرَدُوا على النفاق، وكان دخولهم في الإسلام نوعاً من الانتهازية، فلم يكونوا يريدون الإسلام للتحول من واقع متفسخ إلى واقع صحيح، وإنما اختاروه واجهة لنيل أغراضهم الجشعة فحسب، فكانت قلوبهم أغلظ من أن يتسلل إليها ولو بصيص من الإيمان.

ولم يكن للنبي ﷺ أن يرفضهم، وإلا لبقى هو وعلي وسلمان وأبو ذر والعدد القليل من الصفوة المنتجبين، ولبقى الإسلام نبعاً صغيراً يتموج في سفوح «حراء» بينما كان النبي ﷺ يحاول أن يجعل من الإسلام قوة زاحفة تطوي الأديان والحكومات، وتتسلسل في الأجيال

(١) - مناقب بن شهر آشوب: ج ١ ص ٥٦، بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٠٢، ح ٣٢

حتى الأبد، بجبروت يجعل (حلال محمد حلالاً إلى يوم القيامة وحرام محمد حراماً إلى يوم القيامة).

وتحت هذا الضغط بين ضيق أفق الجزيرة، وثورة الإسلام اضطر النبي ﷺ إلى قبول المنافقين في الإسلام، وكانوا في الأيام الأولى أعداداً يسيرة، غير أنهم تكاثروا مع الأيام، وعلى أثر كثرتهم استطاع رؤوس النفاق أن يتسللوا إلى المراكز القيادية، فخبطوا في الإسلام خبطاً ذريعاً كاد أن يفارق واقعه، لولا أن تداركه بطله العظيم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي قام بأدوار مختلفة خطيرة حتى أثبت تطفل المنافقين، وبراءة الإسلام منهم ومن أعمالهم، فأصبح للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حق الحياة على الإسلام مرتين:

- مرة عندما تواترت المؤامرات على الإسلام وأسلم المسلمون نبيهم إلى الأعداء، فاخترط سيفه حتى أباد به كل من سولت له نفسه ضرب الإسلام.

- ومرة ثانية حينما تسلل أولئك المتآمرون على الإسلام أنفسهم إلى الإسلام، فتمصوه للقضاء عليه من صميمه بعد ما فشلوا في القضاء عليه من خارجه، فجرد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كل إمكاناته لفصلهم عن الإسلام وأعادته إلى مجراه الطبيعي.

فحق القول: بأن حق الإمام علي على الإسلام مرتين.

ولكن ما هو الإسلام؟ هل هو الذي تشاؤه مصالح الأفراد والجماعات؟ أم هو الذي أنزله الله على نبيه محمد عليه السلام لإنقاذ الناس من الظلمات والويلات؟

ولئن كان الثاني فإن الإسلام ليس سوى التشيع، والتشيع ليس سوى الإسلام، والإسلام والتشيع اسمان مترادفان لحقيقة واحدة أنزلها الله وبشّر بها الرسول الأعظم ﷺ أو ليس الله تعالى هو الذي أنزل قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧) (١)

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أو لم يكن النبي ﷺ هو الذي رفع علياً عليه السلام يوم الغدير بين عشرات الألوف من المسلمين قائلاً: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» (٢) ثم أمر الناس بمبايعته والسلام عليه بإمرة المؤمنين؟

إذا فالرسول بشّر بالتشيع، يوم قال: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) (٣) ولكنه بدأ من القاعدة (يوم حراء) وبلغ القمة (يوم الغدير) غير أن التشيع أصبح في خطر بمصرع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهاج الطوفان يوم دخل معاوية الكوفة، وانتشر الخوارج هنا وهناك يركزون قواعدهم على بغض أمير المؤمنين عليه السلام حتى حفر الحجاج عشرين ألف قبر في ظهر الكوفة بحثاً عن جسد الإمام علي عليه السلام، وبلغ الطوفان ذروته (بل أصبح طامةً كبرى على الحياة برمتها) يوم اعتلى يزيد بن معاوية منبر رسول الله ﷺ، وتربع على عرش الخلافة، ليعاقر الخمر ويلعب القروود.

ويزيد مخلوق لم يخرج على سنن الخلافة والإنسانية فحسب، وإنما خرج على سنن البشرية أيضاً، حتى قال فيه عبد الله بن حنظلة

(١) - المائدة: ٦٧

(٢) - الاحتجاج: ج ١، ص ٩٦

(٣) - مناقب بن شهر آشوب: ج ١، ص ٥٦

(غسيل الملائكة): والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء^(١) فقد كان نهماً بالدماء والأعراض، ولوعاً بالصيد وتربية الحيوانات حتى رشحته صفاته لسياسة اصطبيل لا لخلافة المسلمين، وأصبحت شهوته بترويض الكلاب والقرود مهزلة تجعله جديراً برئاسة البطالين من القرايين والفهادين، لا لقيادة أمة فتية تضرب بأجنحتها في طبقات السحاب، وكان له قرد يدعوه (أبا قيس) فيلبسه الحرير المطرّز بالذهب والفضة، ويركبه أتاناً (حمارة) في السباق، ويحرص على أن يراه سابقاً مجلياً في الجياد، وقد شجعه في إحدى مسابقاته، بقوله:

تمسك أبا قيس بفضل عنانها

فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد الذي سبقت

به جياد أمير المواطنين أتان^(٢)

وإنّ همته بالطرد إذا كان لهواً وفراغاً تشتد حين يكون في الطراد قرود وغزلان، وتتضاعف حين يكون الطراد لقيان وغللمان، وتضعف حين يكون في نقع وفرسان ولو كان دفاعاً عن الدين والدنيا.

(١) - جاء تاريخ الخلفاء: ج١ ص ٥٨ (وكان سبب خلع أهل المدينة له أن يزيد أسرف في المعاصي، وأخرج الواقدي من طرق: أن عبد الله بن حنظلة بن الفسيل، قال: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة.)، وتاريخ الإسلام: ج١ ص ٥٦٤.

(٢) - مروج الذهب للمسعودي: ج١ ص ٣٧٧، عن بعض أهل الشام ولم ينسبها ليزيد الشر.

فلما سَير معاوية جيش سفيان بن عوف إلى القسطنطينية لغزو الروم تمارض يزيد للتخلف حتى رحل الجيش، ثم شاع أنّ الجيش امتحن بالجوع والمرض، فقال يزيد نشوة بالتخلص من الأزمة:

ما إن أبالي بما لاقت جموعهم

بالفرقدونة من حمى مذموم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً

بدير «مران» عند أم كلثوم^(١)

وسرى هذان البيتان في الأندية سريان فضائح السلطات المجرمة في الشعوب المضطهدة حتى اضطر أبوه معاوية إلى إلحاقه بالجيش إنقاذاً لسمعته وسمعة ابنه الغرّ.

وفي مثل هذا الوضع المتأزم لم يكن للإمام الحسين عليه السلام إلا استخدام صلاحياته كإمام مفترض الطاعة، وهو سيد شباب أهل الجنة، واستعمال حقه في الثورة، حيث رأى المقدسات كافة أصبحت في خطر من رعونة هذا الفاسق، حتى لم يبقَ أمل للإصلاح في ظل حكومته، وبالفعل كاد أن يقضي على التشيع (الإسلام) لولا أن تداركه الإمام بثورته العارمة التي كانت لغماً جباراً نفس فأضاء العالم، وخبط الحكم الأموي فانهار، وأخذ التشيع حسيني، وإذا كان الإسلام علوياً والتشيع حسينياً يصح أن يقال بأن الإسلام الذي بذره محمد عليه السلام، أحاطه وحماه الإمام علي عليه السلام، وغذاه الإمام الحسين عليه السلام حتى كمل واستقام.

وكما أنّ كيان الإسلام كان يحتاج إلى جهود محمد عليه السلام وعلي والحسن والحسين عليهم السلام حتى يستقيم، كذلك الإسلام لا يكمل في قلب

ليس فيه محمد ﷺ وعلي والحسن والحسين ﷺ معاً لأن تعاليم محمد ﷺ إنشائية صنعت الأمة، وتعاليم الإمام علي ﷺ تربوية ربّت الأمة، وتعاليم الإمام الحسين ﷺ إمدادية، أمدت الأمة بأسباب البقاء والنهوض، وإذا لم تتفاعل هذه العناصر الثلاثة معاً لا يبرز الإسلام إلى الوجود، وما دام لكل دور رئيس خاص لا يمكن الاستغناء عنه بدور غيره، فلا يكمل إسلام عبد ليس له حبل ولاء خاص بالنبي، والوصي، والسبط الشهيد (عليهم الصلاة والسلام).

وقد فاز أولئك النفر الذين أدركوا محمداً ﷺ وعلياً والحسين ﷺ فقاموا مع كل منهم بدوره الخاص، وأخذوا عن كل تعاليمه المباشرة، وأما الأجيال المتأخرة التي لم تدركهم فلا بد أن تعيش بامتداد تلك الشخصيات الواسعة التي تحتمل الامتداد إلى أبعد آماذ التأريخ والحياة. فأما امتداد الرسول ﷺ ففي قرآنه وآثاره وذكرياته.

وأما امتداد الإمام علي ﷺ ففي نهجه وبطولاته ومواقفه.

وأما امتداد الإمام الحسين ﷺ فبماذا يكون؟

ولا بد أن يكون امتداد الإمام الحسين ﷺ أصعب من امتداد جدّه النبي ﷺ، وأباه الوصي ﷺ لأن دور الإمام الحسين ﷺ كان دور الثورة، وامتداد الثورة يحتاج إلى إحياء الثورة بكل أبعادها ومرافقها في واقع الحياة، لا بالحفلات، والخطب، والقصائد، فإنّها تصلح لإنتاج عطاء الذكرى، ولا تطيق إنجاز فورة الثورة التي تكون امتداداً حقيقياً يقدر على أن يموج الحياة ويزلزل الأرض حتى ترتعد رعدة البطولة،

وتنفذ عنها العروش، والتيجان الجائرة، وتنتزع القيادات من الأيدي القذرة، لتضعها في أيدي الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾^(١)

فكيف يمكن امتداد ثورة الإمام الحسين عليه السلام بهذا النحو الواقعي، حتى تقوم في كل جيل بما قامت به في جيل الإمام الحسين عليه السلام؟

الواقع أنه لا يمكن امتدادها الحقيقي إلا بمجموع ما يفعله الشيعة في بلدانهم أيام العشرة الأولى من شهر محرم الحرام من المآتم الكثيرة الخاصة والعامّة، ولبس السواد، وتسيير مواكب اللدم، واللطم، والسلاسل، والتطبير، والتمثيل.. وكل ما يطوّر الحياة الطبيعية، ويعقد عليها جو الملحمة الذي يُعيد إلى الأذهان واقع الثورة، بكل ضجيجها وتوترها وانفعالها، فهذه المجموعة المتعارفة من المظاهر، والتظاهرات والشعارات هي التي تستطيع نقلنا من أجوائنا المختلفة إلى جو الثورة التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام في معركة كربلاء.

وثورة الإمام الحسين عليه السلام ثورة نادرة امتازت بها الأمة الإسلامية دون سائر الأمم، ولو كانت لبقية الأمم لاستدرت منها طاقات تؤهلها للسيطرة على الأرض، ولكن الأمة الإسلامية تبخسها (حقها)، لهبوط مستوى الوعي في قيادتها، فلا تستفيد منها بالمقدار الممكن، ورغم أنها تهدر هذه الطاقات المعنوية الهائلة يجب عليها إبقاء هذه الثورة حيّة طرية في واقعها عسى أن تؤوب إلى رشدها في يوم من الأيام، فتستنتج مواهبها لبناء كيانها من جديد.

ولو أنّ الأمة فرّطت اليوم بثورة الإمام الحسين عليه السلام لأنها أعجز من أن تعتصر مواردها لحكمت على نفسها، ومستقبلها بالدمار الشامل

المحتوم، إذ تكون قد سدّت على الأجيال الطالعة أغزر مواردها، وحتى لو استيقظت يوماً من الأيام لا تقدر على النهوض، إذ لا تجد مقومات النهوض.

ولا أعدو الواقع إذ قلت بأن ثورة الإمام الحسين عليه السلام أعظم أمانة امتحنت بها الأمة الإسلامية، فحافظت عليها بالضحايا الكثار حتى تناقلتها أجيال الأمم وسلمتها إلى هذا الجيل المملغوم، فيجب على هذا الجيل أن يحافظ عليها بجميع إمكاناته لتسليمه إلى أجيال.

وعندما حاول الاستعمار هضم الأمة الإسلامية بادر إلى انتدال^(١) مصادر القوة فيها.

- فانتدل منها القرآن.

- وانتدل منها الأمة الواحدة.

- وانتدل منها الأخوة الإيمانية.

- وانتدل منها روحانياتها النورانية.

- وانتدل منها الكعبة البيت الحرام والحج.

- وشاء أن ينتدل منها ثورة الإمام الحسين عليه السلام لكنه لم يقدر على انتدالها، وحاول مسخها وتشويهها حتى تشلّ عن التفاعل والإنتاج

(١) - جاء في الوسيط: (ندل) الشيء ندلا نقله بسرعة واختلسه وأخرجه مما هو فيه بكفيه فهو مندل.

(انتدل) الشيء احتمله.

(المندل) العود الطيب الرائحة والخف وضرب من الكهانة يستدل به على الضائع أو المسروق (مو) (ج) منادل

(النادل) من يقوم على خدمة القوم في الأكل أو الشراب.

فاستعصت على المسخ والتشوُّه لوجود مصادرها الأصلية، فانحسر الاستعمار، وبقيت ثورة الإمام الحسين عليه السلام أقوى من أن تُصادر أو تُشوّه.

وقد سلّمت الأمة جميع قواعدها المعنوية إلى الاستعمار، وانهارت مقاومتها في كل معركة إلا ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فإنها القاعدة الوحيدة التي لم تمكّن من نفسها الاستعمار، ولا زالت تقاومه، فمن منابرها ينطلق صوت القرآن الكريم، وفي مواكبها تجري خصال محمّد صلى الله عليه وآله وعلي والزهراء عليهما السلام، وفي ظلها يعيش كل من هدى الله قلبه للإيمان، فشاء أن يتفياً ظلال الإسلام.

ولو ألغينا ثورة الإمام الحسين عليه السلام عن حياة الأمة لم نجد لها قاعدة تتجمع فيها لتواصل مقاومتها للاستعمار، وهذه الحقيقة أفضت مضاجع المستعمرين، فراحوا يجنّدون قواهم، ويركزونها على هذه القاعدة الجبارة التي أبقى الله لها أن تستسلم أو تهادن، فحسّنت هجمات المستعمرين مفلولة خوّارة، وبقيت هي أكثر توهجاً واندلاعاً، فجعلوا يبحثون عن سلاح جديد يهدّد هذه القاعدة التي لم يؤثر فيها أي سلاح، وأخيراً وقع اختيارهم على بعض الأطراف الإسلامية، والمحسوبة على ثورة المولى السبط الشهيد، فحركوها لضرب ثورة الإمام الحسين عليه السلام، من داخلها، فهاجت تلك الأطراف ومن جيّشتهم بالترغيب والترهيب، بعد أن سلّطت عليهم سيوف التحجر والتخلف والسخرية لأنهم أدياء الحضارة ودعاة العقلنة كما يدّعون، فنهضوا مرة واحدة وكأنهم على ميعاد ليحاربوا الأمة والإسلام في قاعدتهما الأخيرة، وهي ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فإذا بهذه الأحزاب تدعي أنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي الصخرة الوحيدة التي تقف في سبيل التقدم الإسلامي، وهي تعلم أنّ

ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي القلعة الوحيدة الصامدة التي تمنع انحسار الإسلام وتقدم الاستعمار، والأطراف التي تتلقى الإيحاء والأموال من المستفيدين بلا واسطة أو مع واسطة ولا يمكن أن تخالف الإيحاء ما دامت تحاذر أن تنقطع عنها الأموال، وحيث إن هذه الأطراف لا تحارب ثورة الإمام الحسين عليه السلام لعقيدة تناقضها كما تفعل الأطراف المعادية وإنما تحاول تنفيذ إرادة المستفيدين فيها لتقبض عمولتها، فهي لا تستند في حربها إلى دليل معين، وإنما تنتهز كل حق وباطل لضرب هذه الثورة المقدسة، فمرة تستدل بالآراء الشاذة لبعض المؤلفين، بينما هي لا تعترف بأولئك المؤلفين ولا بالمراجع الكبار إلا للتستر بأسمائهم فحسب، وطوراً تتذرع بأن الأعداء يضحكون منا فيما هي لا تحذر أن يضحك منها الأعداء والأصدقاء عندما جعلت من نفسها أصابع طيعة للاغيار.

بالإضافة إلى أن هذين الرأيين فاسدان، فأما التمسك بالآراء الشاذة لبعض الكتاب فهو غير صحيح، إذ لم تثبت براءتهم عن الانخداع، على أن للكتاب ولكل صنف من الناس آراء شاذة، غير أن أصحاب المواهب المتزنة لا يتبعون سوى الآراء الصائبة، وأما الذين في قلوبهم مرض فهم الذين يتبعون الآراء الشاذة، وكل شاذ يلائم أهواءهم.

فأصبح هؤلاء - أدعياء الحضارة - أشبه ما تكون ببؤرة الشذوذ التي لا تجمع إلا المرضى المزمينين، ولا تحاول أبداً أن تظفر بالحق، وإنما تهتم بمبررات لأمراضها المزمنة، فتبحث لآرائها الشاذة عن ملجأ، وتضرب هنا وهناك سعياً وراء الشذوذ، فإذا وجدت في رجل سياسي رأياً شاذاً صَفَّقت له، وإذا عثرت في كاتب على رأي شاذ ركعت أمامه، وتباشرت بكتابه الذي يعرض ذلك الرأي الشاذ، وإذا ظفرت في مفكر

على رأي شاذ تنادت باسمه، ورفعته فوق مستواه، فهي عندما تعتصم بهؤلاء وتُهمل زملاءهم وأساتذتهم إنما تأخذ بتلك الآراء الشاذة لهؤلاء، وتهمل بقية آرائهم المستقيمة، لأنها كالذباب الذي يمرُّ على جميع الأعضاء السليمة مرَّ الكرام، فإذا وصل إلى قرحة طنَّ وعكف عليها.

وأما ترك الشعائر الحسينية لضحك الأعداء منها فهذا يكشف عن انهزامية بالغة في نفوس هؤلاء المساكين، ونسألهم فهل ضحك الأعداء يبرر التخلف عن ديننا، وعقائدنا، وشعائرنا؟

ولقد كان الجاهلون والمنافقون ألدَّع سخرية وأكثر ضحكاً من الإسلام، غير أن النبي العظيم لم يُعر سخريتهم من الاهتمام ما كان يعيرها لطنين الذباب، فمضى في سبيله لا يلويه شيء حتى انتصر، وألقى القرآن ضوءاً على واقعهم المتفسخ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا بِكُنُوزِهِمْ لَقَوْا سَخِرْنَا بِكُم يَوْمَ كَفَرْتُمْ تَتَذَكَّرُ لَهُمْ﴾ (١) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا بِكُنُوزِهِمْ لَقَوْا سَخِرْنَا بِكُم يَوْمَ كَفَرْتُمْ تَتَذَكَّرُ لَهُمْ﴾ (١)

ولقد سخر اليهود بالأذان، وسخر المشركون بالسجود، فلم تكن من عزم المسلمين شيئاً، بل ضربوا على ذلك النهج المستقيم غير مباليين بعثرات غيرهم حتى ادخروا لنا التشيع عبر الزوابع الهوجاء.

وحيث إنّ أعداء التشيع ما ملكوا منذ اليوم الأول سلاحاً من العقل والدين لمحاربة التشيع، فلم يجدوا بداً من التوسل بالاستهزاء الذي هو سلاح المبطلين لمطاردة التشيع، غير أنّ الحق الذي مثله التشيع أكمل تمثيل أقوى من أن يهزمه الاستهزاء، وكان الشيعة أصلب من أن ينال منهم الحديد والنار، فكيف بالاستهزاء؟ وكان أئمتهم يشجعونهم على

هذا الصمود، وقد دعا لهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: (اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم بخروجهم، فلم ينهمم ذلك عن الشخوص إلينا خلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تتقلب على حفرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم تلك الصرخة التي كانت لنا)..^(١)

وقد دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مَنْ يستهزئ بالشيعة على إقامة شعائرهم في حديثه لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام قائلاً: (ولكن حثالة الرديء من كل شيء، من الناس يعيرون زوار قبوركم كما تعير الزانية بزناؤها، أولئك شرار أمتي لا أنالهم الله شفاعتي، ولا يردون حوضي)^(٢)

ولكن، ما ضرّ الذين يقيمون شعائر دينهم أن يسخر منهم الجاهلون ما داموا يعلمون أنهم على حق وأن أعداءهم على باطل، ولقد شكوا عند الإمام الصادق عليه السلام استهزاء الأعداء بهم فقال مهذباً روعهم: (والله لحظّهم أخطؤوا، وعن ثواب الله زاغوا، وعن جوار محمد صلى الله عليه وآله وسلم تباعدوا)^(٣)

وعن ذريح المحاربي، قال: قلت لأبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام ما ألقى من قومي ومن بني إذا أنا أخبرتهم بما في إتيان قبر الحسين عليه السلام من الخير إنهم يكذبوني ويقولون: إنك تكذب على جعفر بن محمد عليه السلام، قال: (يا ذريح دع الناس يذهبون حيث شاؤوا، (وكن معنا) والله إن الله ليباهي بزائر الحسين)^(٤)

(١) - كامل الزيارات: ص ٢٢٨، ح ٣٣٦

(٢) - بحار الأنوار: ج ٩٧، ص ١٢١، ح ٢٢، باب ٢.

(٣) - كامل الزيارات: ص ٤٩٢، ح ٧٦١، باب ٩٨ / ٩٨.

(٤) - كامل الزيارات: ص ٢٧١، ح ٤٢٢، باب ٥٦ / ٥٦.

وما قيمة الاستهزاء حتى يميل الإنسان عن خطه الصائب من أجله؟ وما قيمة المستهزئين أنفسهم حتى يعير لهم الإنسان اهتماماً؟ ولو كانت لهم قيمة لعلموا ما ينفعهم وينفع الناس، ولكن حيث لا قيمة لهم ولا هدف تواضعوا بأنفسهم، فرضوا أن يكونوا مستهزئين، فحسبهم هذا الاعتراف العملي بفشلهم وبطلان تجاههم.

بالإضافة إلى أن موقفنا من الشعائر الحسينية يتركز على قاعدة فكرية وطيدة ليس لنا الانحراف عنها وإن تظاهرت قوى العالم ضدها.

وصحيح أنّ علينا أنّ نكفّ ضحك الأعداء عنا، ما استطعنا لذلك سبيلاً، ولكن بماذا يجب أن نكفّ ضحكهم عنا، هل بالتخلي عن واقعنا أو باستعراض فضائحهم حتى ينكمشوا على مخازيهم، ولا يتناولوا على مقدساتنا؟ وهل لنا أن نأخذ بما يشاؤه الأعداء أو بما يمليه علينا واقعنا؟ ثم هل الأعداء أقوى تنكيراً أم أبطال الإسلام؟ وإذا كانت الأجوبة على هذه الأسئلة تؤكد على الأقسام الأخيرة من شقي التردد في الأسئلة فلماذا يضطرب موقفنا بمجرد ضحك الأعداء؟

وإذا كانت ثقتنا بالأعداء أكثر من ثقتنا بأنمتنا فعلياً أن ننبت الإسلام كله، ونعتنق مبادئ الأعداء؟! وإن كنا نؤمن بأنمتنا أكثر من أعدائنا فلماذا نتبع أفعال أعدائنا؟ ولماذا لا نتمسك بتعاليم أئمتنا عليهم السلام؟

وإليك هذه النماذج من السخرية والاستهزاء بالله تعالى، وبرسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وبأئمة المسلمين وهي كثيرة أنقل بعضها فقط للحجة.

أمير المؤمنين علي عليه السلام وذئلب

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، قال: بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة، إذ قام إليه رجل يقال له: ذئلب، ذرب اللسان، بليغ في الخطاب، شجاع القلب، فقال: يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟

فقال: «ويلك يا ذئلب ما كنت أعبد رباً لم أره؟»

قال: يا أمير المؤمنين كيف رأيت؟

قال: يا ذئلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويلك يا ذئلب إن ربي لطيف اللطافة فلا يوصف باللطف، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ، قبل كل شيء لا يقال شيء قبله، وبعد كل شيء لا يقال له شيء بعد، شاء الأشياء لا بهمة، دراك لا بخديعة،^(١) هو في الأشياء كلها غير متمازج بها ولا بائن عنها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجل لا باستهلال رؤية، بائن لا بمسافة، (أو ناء لا بمسافة) قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسم، موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطرار، مقدر لا بحركة، مرید لا بهمامة، سميع لا بألة، بصير لا بأداة، لا تحويه الأماكن، ولا تصحبه الأوقات، (أو لا تضمنه الأوقات)^(٢) ولا تحده الصفات، ولا تأخذه السنوات،^(٣) سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله،

(١) - أي لا بمكر وحيلة يتوسل بهما إلى مدركاته كما هو شأن بعض الناس، بل بعلم وإحاطة على عالم الوجود والنفوس.

(٢) - أي لا يلازمه الأوقات ولا تكون معه سبحانه، ولا تضمنه الأوقات؛ أي لا تشتمل عليه.

(٣) - جمع السنة بكسر السين، فتور يتقدم النوم (الغفلة).

بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبتجهيره الجواهر عرف أن لا جوهر له، وبمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، والجسوء بالبلبل،^(١) والصرد بالحرور (أو اليبس بالبلل والخشن باللين)، مؤلف بين متعادياتها، مفرق بين متدانياتها، دالة بتفريقها على مفرقها، وبتأليفها على مؤلفها، وذلك قوله ﷺ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَفْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) ففرق بها بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد، شاهدة بغرائزها أن لا غريزة لمغرزها، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه، وبين خلقه غير خلقه، كان رباً، ولا مربوب، وإلها ولا مألوه، وعالما إذ لا معلوم، وسميعا إذ لا مسموع. ثم أنشأ يقول:

ولم يزل سيدي بالحمد معروفاً

ولم يزل سيدي بالجود موصوفاً

وكان إذ ليس نور يستضاء به

ولا ظلام على الآفاق معكوفاً

فربنا بخلاف الخلق كلهم

وكل ما كان في الأوهام موصوفاً

ومن يرده على التشبيه ممثلاً

يرجع أخا حصر بالعجز مكتوفاً

وفي المعارج يلقي موج قدرته

موجاً يعارض طرف الروح مكفوفاً

(١) - الجسوء والجس، الماء الجامد.

(٢) - الذاريات: ٤٩

فاترك أخا جدل في الدين منعمقا
 قد باشر الشك فيه الرأي مأوفا
 واصحاب أخا ثقة حبالسيده
 وبالكرامات من مولاه محفوظا
 أمسى دليل الهدى في الأرض مبتسما
 وفي السماء جميل الحال معروفا
 قال: فخرّ ذعلب مغشياً عليه ثم أفاق، وقال: ما سمعت بهذا الكلام،
 ولا أعود إلى شيء من ذلك.^(١)

الإمام الباقر عليه السلام مع النصراني

ويروى أنه جاء للإمام الهمام وبحر العلم القمقام رجل نصراني
 فسبه وسب أمه - والعياذ بالله - وسخر من الإمام أي مسخرة تدبر بهذه
 المسألة جيداً.. جاءه النصراني.

فقال له: أنت بقر؟

قال: «لا أنا باقر».

قال: أنت ابن الطباخة؟

قال: «ذاك حرقتها».

قال: أنت ابن السوداء الزنجية البنية؟

قال: «إن كنت صدقت غفر الله لها وإن كنت كذبت غفر الله لك».

قال فأسلم النصراني^(١).

الإمام الصادق عليه السلام مع ابن أبي العوجاء

قال: كان ابن أبي العوجاء^(٢) من تلامذة الحسن البصري فانحرف عن التوحيد فقبل له: تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة، قال: إن صاحبي كان مخلطاً يقول: طورا بالقدر وطورا بالجبر فما أعلمه اعتقد مذهبا دام عليه، فقدم مكة تمرداً وإنكاراً على من يحج، وكان يكره العلماء مجالسته ومساءلته لخبث لسانه وفساد ضميره، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فجلس إليه في جماعة من نظرائه.

فقال: يا أبا عبد الله إن المجالس بالأمانات، ولا بد لكل من به سعال أن يسعل أفتأذن لي في الكلام؟

فقال الإمام الصادق عليه السلام: «تكلم بما شئت».

فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر^(٣)، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر؟ إن من فكر في هذا وقدر علم أن هذا فعل أسسه

(١) - بحار الأنوار / جزء ٤٦ / صفحة [٢٨٩] عن المناقب ج ٣ ص ٣٣٧.

(٢) - السيد المرتضى عليه السلام في كتابه الامالى عده ممن كان يتستر باظهار الاسلام ويحقن باظهار شعائره والدخول في جملة أهله دمه وماله، وكان في الباطن زنديقا ملحدا، وكافرا مشركا، وقال: حكى ان عبد الكريم بن أبي العوجاء قال - لما قبض عليه محمد بن سليمان وهو والى الكوفة من قبل المنصور، وأحضره للقتل، وأيقن بمفارقة الحياة - : لان قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكدوبة مصنوعة.

(٣) - البيدر: الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويداس ويدق.

غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك اسه ونظامه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن من أضله الله وأعمى قلبه استوخم الحق ولم يستعذبه، وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وجعله محل أنبيائه، وقبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر، الله المنشى للأرواح والصور».

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت - يا أبا عبد الله - الله فأحلت على غائب. (تأمل بهذا الإستهزاء من هذا الفاسق، الله غائب وهو حاضر)

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك كيف يكون غائبا من هو مع خلقه شاهد، وإليه أقرب من جبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم، ويعلم أسرارهم»^(١).

فالأول يسخر من التوحيد، والثاني يسخر من الإمام ويسبّه، والثالث يسخر من الإمام والإيمان والحج، فما رأيك أيها الحصيف بأن نترك كل ذلك من أجل ذلك، وهل هذا يرضيك؟

وشعائر الإمام السبط الشهيد من هذا القبيل، دعهم يسخروا منا نحن ولكن أنت لا تسخر منا، لأنك منا وأولئك أعداءنا، فإن سخرت أنت منا بسبب شعائرتنا وعقائدنا فستكون منهم عندنا.

عقائد الأمم والحضارات

وإذا ألقينا بنظرنا إلى الحضارات من حولنا لرأينا أن لكل حضارة تقاليدھا وأعرافھا في أفرانھا وأترانھا فهذه تتبع العادات الاجتماعية والأعراف السائدة في كل أمة من الأمم، وكل دين من الأديان سواء كانت السماوية أو الأرضية وحتى الإلحادية، فلكل ملة أعيادھا التي تحتفل بها، ومآتمھا التي تؤبن بها أمواتھا، فمنهم من يدفنون بالتراب ومنهم من يحرقونه بالنار ليرتفع دخاناً إلى السحاب.

وما تعتبره أنت خرافة أو أسطورة فهو عندهم دين وعقيدة لا تتزعزع، وما عندك دين وعقيدة هو عندهم مجرد خرافات يضحكون علينا منها، كما نضحك على عقائدهم أيضاً، ولكن تبقى خرافاتهم التي ليس لها وجود إلى يومنا هذا يحتفلون بها دون أدنى عقلية، وعقائدنا عندنا وإن سخروا منها.

هاهم اليهود اللعناء يذبحون قسيساً مسيحياً ويصنعون فطيراً مقدساً ليأكلوه في عيدهم.

وأعياد النصارى نعرفها جيداً لا سيما (عيد الألم) كما يسمونه، وهو اليوم الذي قتل فيه اليهود السيد المسيح وصلبوه كما شبه لهم وفي بعض البلدان يشعلون النيران ويمشون عليها ويصنعون أكثر مما صنعه على المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام فلماذا لا يخجلون من أعمالهم بل يفتخرون بها؟

وفي الصين عامة: يعتقدون بالتنين.. هذا الكائن الحيواني الخيالي الذي يشبه الأفعى لكن لديه قدمين، ويدين، ومن فمه تخرج النار، هذا

الحيوان الأسطوري يؤمن به أهل الصين، ويؤمنون بأن لدى هذا الحيوان قدرات وكرامات يستمدون منه القوة.

رغم أن الواقع والتاريخ يؤكدان أن لا وجود لهذا كائن، وإنما هو من خيالات، وشهوات، الإنسان وتخيلاته، وأوهامه، وصوره المرئية التي قد يراها ما بين اليقظة والنوم لكنها إلى اليوم تجد تغلغلها في المجتمع الآسيوي كله تقريباً.

ولدى أهل التايلند البوذيين ظاهرة يمارسونها وهي مما ياباه ضمير أي إنسان على وجه الأرض، لكنهم يمارسونها بعقيدة ويقين، وهي اختيار مجموعة من البنات أو الفتيات الصغيرات الجميلات وتربيتهم وتهيئتهم لتكون واحدة منهن قرباناً يقدمونها لمعبودهم الموهوم عندنا.. بحيث يتم اختيار أجملهم في كل سنة وعند بلوغهن سن التاسعة (الرشد) ويتم اعتناقها وتقديمها لتكون هذه العذراء قرباناً إلى الصنم على أن تقضي حوائجهم وتغفر ذنوبهم.. ويطلبون منها الشفاعة والكرامة والشفاء من أمراضهم وأسقامهم ويتمسحون بها ويتبركون بها قبل قتلها.

وهذا ينقلون أخباره في التلفاز ببرنامج وثائقي عن تايلند، وإذا تتبعنا الأمر في الشبكة العنكبوتية العالمية فسترى العجب العجاب من هذه العقائد التي نعتقد بطلانها أصلاً وفصلاً ولكن مَنْ من هؤلاء يأبه لكلامنا، فكيف نحن نُغيّر عقائدنا من مجرد سخرية أو استهزاء، والله ربنا قال لرسولنا الأكرم ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(١) وكفاية الله تعالى تشملنا وتشمل هذا الدين الحنيف والملة القويمة في كل عصر

ومصر فلا خوف على ديننا وملتنا من السخرية والاستهزاء أبداً بإذن الله تعالى.

وبعد هذا وذاك علينا أن نعلم أنّ الأعداء يتربصون بنا فيشجعون التوافه، ويضحكون على العظائم حتى نترك العظام ونعيش التوافه، والأعداء عندما يضحكون من شيء فإنّما يضحكون بعقولهم لا بعواطفهم، فلا يضحكون أبداً على نقاط الضعف لأنّهم لا يخافون منها، وإنّما يضحكون دائماً على نقاط القوّة لأنّهم يهابونها، فيحاولون القضاء عليها، فعلينا متى أردنا السيادة أن نستلهم واقعنا بنظرة مستقلة تعي مكاسبها وخسائرها، ولا نلتفت مطلقاً إلى ما يفعله الأعداء.

والواقع أنّ الشعائر الحسينية التي تمثل امتداد ثورة الإمام الحسين عليه السلام لا تهدد مصالح المستعمرين في بلادنا فحسب، وإنّما تهدد مستقبل المستعمرين أنفسهم وفي بلادهم أيضاً، فمن الطبيعي أن يحاولوا إلغائها بألف طريق وطريق، وخلف ألف واجهة وواجهة، ومن وراء ألف مبرر ومبرر، ولكن هذه الإرادة الاستعمارية القوية لا تفرض علينا أن نقف مكتوفي الأيدي إزاءها، بل علينا أن نقف أمامها بإرادة أقوى وأصلب منها حتى نهزمها ولا ننجرف بها.

إن علينا إزاء هذا الموقف الاستعماري واجبين:

- واجب الاحتفاظ بثورة الإمام الحسين عليه السلام لأنها تمثل قمّة واقعنا، وقيمة عقائدنا.

- وواجب الانخراط بثورة الإمام الحسين عليه السلام لأنها تمثل إرادتنا المستقلة.

كما يكون علينا في مثل هذا الموقف أن نكون بتأئين لا هدامين، فنبني طوابق جديدة فوق مجدنا الذي بناه آباؤنا، ولا نهدم صرحنا المشيد اغتراراً بالسراب الذي وصفه تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَغْنَاهُمْ كِرَابٌ بَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَوْقًا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾^(١)

إن المستعمرين لا يحرصون على تحضرنا إلا بمقدار علمهم باستحالة استعمارنا إلا عن طريق حضارتهم، ولا يشفقون علينا حينما يرومون انتزاع مشعل ثورة الإمام الحسين عليه السلام من أيدينا إلا لعلمهم بأننا ما لم نتخبط في الظلام لا يسهل لهم سوقنا مثل الأغنام التائهة إلى المجزرة، ولقد عشنا التجربة في أقسى وأبشع صورها عندما الختطف المستعمرون منا دستورنا القرآن، ومؤتمر الحج بالحضارة والتقدم، ثم بدا أنهم ما كانوا يهدفون مما يقولون إلا تحطيم كيان المسلمين، فخذفوا الحكومة الإسلامية العزلاء في أتون الحرب، وزجوا بالملايين في سجن الشيوعية، ودفعوا مئات الملايين منا في بؤرة الأحزاب وشبكات العمالة والمهاترات..^(٢)

رجحان الشعائر الحسينية

لقد شنَّ الاستعمار بنفسه حملات مباشرة على الشعائر الحسينية، وكان من الطبيعي أن يفشل، فالمسلمون مهما انجرفوا لا يأخذون دينهم عن المشركين، ومن ثم استعار الأوجه المنحرفة التي انحدرت

(١) - النور: ٣٩

(٢) - مقتطفات من المقدمة الرائعة لكتاب الشعائر الحسينية للعبقري الفذ السيد الشهيد حسن

مهدي شيرازي رحمته الله بتصرف.

من أصلاب المسلمين، ثم اتخذ منها نقطة انطلاق امتدَّ منها سرطان الاستعمار إلى شتى أعضاء الكيان الإسلامي، فبرزت مع الأيام في المسلمين وجوه عميلة أو مسيِّرة تسترُّ بها الاستعمار لنشر مبادئه وأفكاره، وقد اجتهد الاستعمار قبل كل شيء لتوجيه بعض الأطراف الإسلامية وجهته، لأنَّها أقدر من المستعمرين وعملائهم على أن تنخر في كيان الإسلام، فإذا بهذه الأطراف الإسلامية تتناصر وقد تتسابق، لمحاربة الشعائر الحسينية، لأنَّ فكرة هؤلاء عن الإسلام فكرة وافدة ألبسوها زيَّ الإسلام، والذين يركزون حركتهم على فكرة غريبة ووافدة فسينتهون إلى أهداف أصحاب الفكرة مهما كانوا مخلصين للإسلام لأنَّ الغاية تكون أبداً من نوع الوساطة، والشر لا ينتج الخير.

وكان من غير الطبيعي ومن غير المتوقع أن تتجاوب مع هذه الآراء وجوه بريئة، ولكن وقع بالفعل ما لم يكن طبيعياً ولا متوقفاً، فقد غرر العملاء والأذئاب برجال صالحين، ودفعوهم إلى القول بأنَّ الشعائر الحسينية مُحرمة، وأخذ العملاء والأحزاب هذه الكلمة، وجعلوا يرددون: (الشعائر الحسينية محرمة)، وليتهم وقفوا عند هذا الحد، إذاً لهان الخطب، ولكن المريب هو أن ينصرف هؤلاء فجأة عن جميع أعمالهم التي عاشوها وعاشوا من أجلها، ويوقفوا أنفسهم على الصراخ والعيول ليل نهار بأنَّ (الشعائر الحسينية محرمة)، وأنها تعرقل تقدم المسلمين، وهذا العمل الفجائي المريب يبعث فينا أكثر من شك، ويوفر لنا الحق في أكثر من سؤال، ومنها:

لو كنتم حقاً تريدون مكافحة المحرمات والاحتفاظ بالإسلام فلماذا لا تحاربون بقية المحرمات العلنية التي لم يختلف فيها اثنان من المسلمين؟ وإن كانت الشعائر الحسينية تعرقل تقدم الإسلام فلم

لم تصرخوا ضدها من أول يوم، وقد كان الشيعة يمارسون مجموعة هذه الشعائر الموجودة وأكثر منها قبل أن ينعقد أجدادكم؟ هل الشعائر الحسينية ابتدعت في هذا اليوم بالذات فأردتم القضاء عليها في مهدها كما تقولون؟ أم أنكم ولدتم في هذا اليوم فوجدتم الشعائر الحسينية قائمة فاستنكرتموها؟ أو أنّ الاستعمار الحضاري حرككم اليوم فتحركتم تشترون مرضاة المخلوق بسخط الخالق؟

وإن كنتم مخلصين في دعوتكم كما تتظاهرون فما الذي دفعكم إلى إهمال أعمالكم السابقة التي عشتموها عمراً، والتفرغ لمحاربة هذه الشعائر المقدسة؟ هل وجدتم أعمالكم السابقة فاسدة فأضربتم عنها؟ أو وجدتم الأهم فتركتموها توفراً على الأهم، أم قال لكم الاستعمار، إنه يأبى أن يمنحكم شهادة العمالة إذا لم تكرّسوا جهودكم لحرب الشعائر الحسينية؟

ومما يدين هؤلاء بالعمالة أنّهم جميعاً كانوا ممن يقيمون الشعائر الحسينية، ويتحمسون لها، ويدافعون عنها، ثم انقلبوا فجأة يحاربونها بكل قواهم، ولم تنزل عليهم آية، ولم يبعث لهم نبي جديد ينسخ شرائع الأولين.

ولكني أنصح هؤلاء بأن ينصرفوا إلى أعمالهم السابقة، ولا يجعلوا الإمام الحسين عليه السلام وأباه وجده والإسلام خصومهم يوم القيامة، وأطمئنهم بأنهم وكل من في الأرض جميعاً لو تناصروا لحرب هذه الشعائر العظيمة فإنّما هم الذين سيفشلون وينهارون وينتصر الإمام الحسين عليه السلام ودعائه، ولا تزداد شعائره إلا توسعاً وانتشاراً، لأنهم ليسوا أقوى من يزيد الذي حشد لحرب الإمام الحسين عليه السلام ثلاثين ألفاً أو يزيد من المجرمين الذين كان كل فرد منهم يتقرب إلى الله بدمه،

فاكتسحهم الإمام الحسين عليه السلام واكتسح يزيد والحكومة الأموية كلها، وارتفعت قبته الذهبية تناطح السحاب، وانتصبت له في كل مكان راية تلوح، وخطيب يروي البطولات.. فهذا من وجهة النظر الاجتماعية.

وأما من وجهة النظر الشرعية فإنّ الشعائر الحسينية ليست بدعة كما يقولون، بل بالعكس إنّ تحريم الشعائر بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنّ البدعة في الدين التي يعاقب عليها المبتدع أشد العقاب لا تعني سوى إسناد حكم إلى الشارع^(١) دون أن يكون عليه دليل شرعي، وتحريم الشعائر الحسينية إسناد حكم إلى الشارع دون أن يكون عليه دليل شرعي فهو بدعة.

وقد منع القرآن من البدعة في الدين بعنف قاصف (الشديد الصوت)، قد لا يوجد نظيره بالنسبة إلى أي حرام آخر، فالقرآن الذي يأبى للنبي عليه السلام أن تذكر كنيته حين التخاطب، فيقول: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٢)

ويأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣)

هو هذا القرآن نفسه الذي يهدد النبي عليه السلام بأخطر تهديد سمعه الرسول الأعظم في حياته، إذ سؤل له البعض أن يغيّر شيئاً من أحكام الله، أو يتقول على الله بعض الأقاويل فيقول: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ

(١) - الشارع: هو النبي عليه السلام، والمتشركة ما عداه، مجمع البحرين ٤ / ٣٥٢

(٢) - سورة الأحزاب، آية: ٤٠

(٣) - سورة الأحزاب، آية ٥٦.

الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِنُنْفِثَ عَلَيْكَ غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ
 ثَبَّنَّاكَ لَفَدَّ كِدَّتْ تَرَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا ذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ
 وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾^(١)

ويقول في آية أخرى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾
 ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآوِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾^(٢)

وهذا العنف الرهيب من القرآن في المنع عن البدعة يكشف عن مدى خطورتها وضخامة جريماتها، كما أنّ هذه الآيات الكريمة حددت مفهوم البدعة بأنها الافتراء على الله والتقول عليه، وما دامت هذه الآيات قد حددت خطورة البدعة ومفهومها فكل مَنْ قال: إنّ الشيء (كذا) واجب دون أن يجد على وجوبه دليلاً معتبراً فقد ابتدع، وكل من قال: إنّ الشيء (كذا) حرام دون أن يجد على حرّمته دليلاً معتبراً فقد ابتدع، وهكذا بالنسبة إلى الاستحباب، والكرهية.

وإذا حقّ ذلك فلنعرض عليه أقوال الذين يحرمون الشعائر الحسينية، ليرى هل أنها من أكمل مصاديق البدعة أم لا؟

فنحن لا نجد في مجموعة الأدلة التي وصلت إلينا من المعصومين عليهم السلام دليلاً، يقول: إنّ الشعائر الحسينية محرمة، ولا دليلاً، يقول: إنّ اللطم على الإمام الحسين عليه السلام حرام، أو إنّ لبس السواد حرام، أو أنّ التطبير حرام، وما داموا يحرمون ما لا دليل على حرّمته فهم يفترون على الله ويتقولون عليه، وبالتالي فهم يتدعون في الدين بدعة.

(١) - سورة الإسراء، آية ٧٥ ٧٣.

(٢) - سورة الحاقة، آية: ٤٧ ٤٤.

والواقع أن الأدلة الشرعية ليست ساكنة عن حكم الشعائر الحسينية حتى يتاح للمبتدعين أن يفتروا على الله سبحانه الكذب، وإنما هي واضحة تفيد أن الشعائر الحسينية مباحة بطبيعتها الأولية ومستحبة بطبيعتها الثانوية.

أما كون الشعائر الحسينية مباحة بطبيعتها الأولية فتدل عليها (أصالة الإباحة العقلية والشرعية)، لأن أنواع الحكم الشرعي خمسة: الوجوب، والحرمة، والاستحباب، والكراهة، والإباحة، وهذه الأحكام الخمسة عامة تشمل كافة الأعمال والأقوال الصادرة عن العباد، وكافة الأشياء الموجودة في متناول العباد، فكل عمل أو قول أو شيء لا بد أن يكون محكوماً بأحد هذه الأحكام الخمسة، إذ لم يترك الشارع عملاً أو قولاً أو شيئاً لم يحكم عليه بحكمه، ولم يصدره إلى العباد ولو في ضمن الأدلة العامة المقررة تفاصيلها في الفقه.

فكل ما لم يوجد له حكم من الأحكام الخمسة فهو مباح للأدلة الأربعة، فأما القرآن: فقد دلت عليه آيات منه، منها: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِنَهَا﴾^(١).

ومنها: قوله ﷺ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٢).

ومنها: قوله عز من قائل: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾^(٣).

(١) - سورة الطلاق: الآية ٧.

(٢) - سورة الإسراء: الآية ١٥.

(٣) - سورة التوبة: الآية ١١٥.

ومنها: قوله عز اسمه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١).

وهذه الآيات تتفق على أن الله تعالى لا يؤاخذ العباد على شيء لم يبينه لهم.

وأما من السنة المطهرة: فأخبار كثيرة، فعن النبي ﷺ: (رفع عن أمتي تسعة... وما لا يعلمون).^(٢)

وفي غوالي اللآلي عن الإمام الصادق عليه السلام: (كل شيء مطلق حتى يرد فيه نهى).^(٣)

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام: (الأشياء مطلقة ما لم يرد عليك أمر أو نهى، وكل شيء فيه حلال وحرام فهو لك حلال أبداً ما لم تعرف الحرام منه فتدعه).^(٤)

وفي التهذيب عن ابن محبوب عن أبي عبد الله عليه السلام: (كل شيء يكون فيه حرام وحلال فهو لك حلال أبداً حتى تعرف الحرام منه بعينه فتدعه).^(٥)

(١) - سورة الأنفال: الآية ٤٢.

(٢) - التوحيد: ص ٣٥٣، ح: ٢٤ / باب ٥٦، وفيه: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي تِسْعَةٌ: الْخَطَاءُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ وَمَا لَا يَطِيقُونَ وَمَا لَا يَعْلَمُونَ وَمَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ وَالْحَسَدَ وَالطَّيْرَةَ وَالتَّفَكُّرَ فِي الْوَسْوَاسَةِ فِي الْخَلْقِ مَا لَمْ يُنْطَقْ بِشَفَقَةٍ، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٨٠، ح: ٤٧ كتاب العلم باب / ٣٢.

(٣) - من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٢٠٨ ح ٩٣٧ / ٢٢، باب / ٤٥، غوالي اللغالي: ج ٣، ص ١٦٦ ج ٦٠ باب الحج و ص ٤٦٢ ح ١ باب الأطعمة والأشربة.

(٤) - أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٧٩، مجلس يوم الجمعة.

(٥) - تهذيب الأحكام: ج ٩ ص ٧٩، ح ٣٣٧ / ٧٢.

وروى الشهيد في الذكرى عن الإمام الصادق عليه السلام: (كل شيء لك حلال حتى تعرف أنه حرام بعينه فتدعه من قبل نفسك، وذلك مثل الثوب يكون عليك قد اشتريته وهو سرقة، والمملوك عندك ولعله حر قد باع نفسه، أو خدع فبيع، أو قهر فبيع، أو امرأة تحتك وهي أختك أو رضيعتك، والأشياء كلها على هذا حتى يستبين لك غير ذلك، أو تقوم به البينة).^(١)

وفي الحديث المشهور: (ما حجب الله عن العباد فهو موضوع عنهم).^(٢)

وفي بعض الأحاديث: (هم في سعة ما لم يعلموا).^(٣)

وبرواية أخرى: (أي رجل ركب أمراً بجهالة فلا شيء عليه).^(٤)

وبحديث آخر: (إن الله يحتج على العباد بما آتاهم، وعرفهم).^(٥)

فهذه الأحاديث تتفق على إباحة ما لم يرد فيه نهي الشارع، وأن أصالة الإباحة تجري في كل شيء لم يصل إلى العباد حكم إلزامي في شأنه.

وأما من الإجماع: فيكفي فيه اتفاق عامة الأصوليين وأكثر الإخباريين على أن الحكم الشرعي هو الإباحة في كل ما لم يرد فيه دليل إلزامي من الشرع أو العقل.

وأما من العقل: فهو حكم العقل بقبح العقاب بلا بيان.

(١) - الكافي للشيخ الكليني: ج ٥ ص ٤٤٧ باب النوادر، الوسائل للحر العاملي: ج ١٧ ص ٨٧.

(٢) - الأصول من الكافي: ج ١، ص ١٦٤، ح ٣، كتاب التوحيد، باب حجج الله على خلقه.

(٣) - ترتيب نوادر الراوندي، ص ٤٩، باب السفارة تؤخذ لقطعة.

(٤) - تهذيب الأحكام: ج ٥، ص ٧٣، ح ٤٧، باب صفة الإحرام.

(٥) - الأصول من الكافي: ج ١، ص ١٦٤، ح ٤، كتاب التوحيد باب حجج الله على خلقه.

إذا أن (أصالة الإباحة) محكمة في كل شيء لم يرد فيه حكم إلزامي، والشعائر الحسينية من الأشياء التي لم يرد فيها حكم إلزامي فتكون مشمولة بأصالة الإباحة، فَمَنْ حَرَّمَهَا فقد ابتدع في الدين، لأنّه أسقط الأصل عن الاعتبار بلا مبرر.

وهنا يسرع أصحاب هذه الدعوة الباطلة إلى القول بأنّ التطبير وضرب الأكتاف العارية بالسلاسل مُضِرَّةٌ بالصحة، وكل شيء يضرُّ بالصحة فهو حرام.. والجواب عنه:

أولاً: ليس في الشعائر الحسينية ما يضرُّ بالصحة، فالتطبير لا يزيد على جرح الرأس ونزف كمية محدودة من الدم لا تضر الجسم، بل قد تنفعه كالحجامة والفصد، وأما ضرب الأكتاف بالسلاسل فإنّه لا يضر الأكتاف، بل يسبب قوة جلدها.

وأما إذا كان هناك إنسان يضرُّ به أية واحدة من هذه الشعائر بحيث يؤدي إلى هلاك نفسه أو طرف من أطرافه فإنّه يحرم عليه بالنسبة إلى نفسه فقط، ولكن هذا داخل في العناوين الثانوية التي لا تؤثر على أحكام العناوين الأولية، وأين هذا من موضوع البحث؟

فكل شيء إذا أصبح ضرورياً يحرم وإن كان بعنوانه الأولي واجباً كالصوم والحج، فهل هذا يبرر أن نقول: إن الصوم والحج مُحَرَّمَانِ لأنهما قد يؤديان إلى ضرر؟.

وثانياً: أنّ الضرر الذي يحرم تحمله باتفاق العقل والشرع هو الضرر الذي يكون بلا هدف عقلائي صحيح، وأما إذا تحمل الإنسان مشقة مضرّة لهدف عقلائي فلا دليل على حرمة، كتحمل المتراضين والزهاد كثيراً من المشقات المضنية التي تنهك قواهم، وكتحمل أصحاب

الحرف الشاقة صعوبات تبري أجسامهم، وتضعف جميع أجهزتهم العضلية دون أن يكون محرماً عليهم.

ثالثاً: ليس في الشرع دليل، يقول: إنّ كل ما يضر بالصحة حرام حتى يصح التمسك بعمومه، كل ما يوجد في هذا الباب هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) وأحاديث جمّة تفيد أنّ إهلاك النفس أو إهلاك أحد الأطراف حرام، ولا نناقش في حرمة إهلاك النفس أو الطرف، فمن انتحر أو شلّ أحد أعضائه فقد اقترف جريمة كبيرة، ولكن ليس كل ما يضر بالصحة داخلياً في عنوان إهلاك النفس أو الطرف.

وأما قول النبي ﷺ: (لا ضرر ولا إضرار في الإسلام)^(٢) فيجيب عنه: أولاً: بأنّه مختص بغير الأحكام الصادرة في مورد الضرر، كالجهاد، والحج، والختان، والخمس، والزكاة، وتمكين النفس من الحدود، والقصاص، والتعزيرات، والصبر على المصائب، ومجاهدة النفس بترك الأخلاق الرديئة، وتحمل المرأة أوجاع الحمل والولادة.

وثانياً: بأن هذا الحديث يعني عدم وجود الأحكام الضرورية في أصل الشرع لا حرمة تحمل الضرر مطلقاً، ولهذا لا يحرم نذر صوم الدهر سوى العيدين، وإدامة الوضوء، والتزام جميع النوافل، والسعي ماشياً إلى الحج والعبات المقدسة، وإحياء الليالي بالعبادة.

كل هذا بالإضافة إلى وجود أدلة تدل على أنّ المعصومين ﷺ كانوا يتحملون الضرر بأنفسهم، ويقررون تحمل الضرر لغيرهم.

(١) - سورة البقرة: الآية ١٩٥.

(٢) - من لا يحضره الفقيه: ج ٤، ص ٢٤٣، ح ٢، باب / ١٧١ ميراث أهل الملل.

فإن آدم عليه السلام بكى على فراق الجنة حتى خدّ الدمع في خديه أخذودين.

ويعقوب بن إسحاق انتحب على فراق نجله يوسف عليه السلام حتى قال له الناس: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوًا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَصًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾^(١)

وحتى قال الله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢)

وورد في أحاديث زهد يحيى بن زكريا عليه السلام: (أن الدمع خدّ خديه، وأكل منهما حتى وضعت أمه عليهما لبداء).^(٣)

وورد في شعيب عليه السلام: (أنه بكى حباً لله وخشية منه حتى عمي فردّ الله بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره)، وعندما استجوب من قبل الله على كثرة بكائه وأجاب بأنه يبكي حباً لله قال الله تعالى: (لهذا أخدمتك كليمي موسى بن عمران).^(٤)

(١) - سورة يوسف: الآية ٨٥.

(٢) - سورة يوسف: الآية ٨٤.

(٣) - قصص الأنبياء: ص ٢١٦، باب / ١٤ في حديث زكريا ويحيى عليهما السلام، بحار الأنوار: ج ٦٧، ص ٣٨٨، ح ٥٤ وفيه، قال: كان يحيى ابن زكريا يصلي ويبكي حتى ذهب لحم خدّه وجعل لبداء وألزقه بخده حتى يجري الدموع عليه.

(٤) - أنظر بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٣٨٠، ح ١، باب / ١١، وفيه عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بكى شعيب عليه السلام من حب الله صلى الله عليه وسلم حتى عمي، فردّ الله صلى الله عليه وسلم عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك، فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أنني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله صلى الله عليه وسلم إليه: أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران، علل الشرائع: ج ١ ص ٧٤ ح ١ باب / ٥١.

والنبي الأكرم ﷺ وقف في محراب العبادة حتى تورّمت قدماه، فقد روى الطبرسي في الاحتجاج بسنده عن الإمام علي عليه السلام: (لقد قام رسول الله ﷺ عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه، واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع حتى عوتب في ذلك).^(١)

وروى الشيخ الطوسي عن أبي جعفر عليه السلام قول الإمام السجاد عليه السلام: (إنّ جدي رسول الله ﷺ قد غفر الله سبحانه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد بأبي هو وأمي حتى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أنفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً).^(٢)

ولم يزل يقف على أطراف أصابعه حتى نزلت سورة (طه) مفتوحة بقوله: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾﴾^(٣) وكان إذا صلى ارتعد واصفر وسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل، وهذا يكون عندما تنتفخ الرئة فتضايق القصبة الهوائية، ولا يكون ذلك إلا عند أشد الخوف والفرع.

وإنّ مولانا فاطمة الزهراء عليها السلام وقفت في محرابها حتى تورّمت قدماهما، ففي البحار عن الإمام الحسن عليه السلام: (ما كان في الدنيا أعبد من

(١) - الاحتجاج: ج ١، ٣٢٦، احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على اليهود، انظر مستدرک الوسائل: ج ١، ص ١٢٢، باب / ١٨، تأكد استحباب الجّد والاجتهاد في العبادة.

(٢) - أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٤٨، مجلس يوم الجمعة / ٢٥ جمادى الآخر ٤٥٧هـ، مناقب بن شهر آشوب: ج ٤، ص ١٤٩، باب أمامة أبي محمد علي بن الحسين عليه السلام فصل في زهده.

(٣) - سورة طه: الآية ١-٢.

فاطمة عليها السلام، كانت تقوم حتى تتورم قدمها(١)، وتورم القدم ونزول الماء إليها من الوقوف مرض خطير يعجز الطب عن معالجتها معالجة شافية. وجاء في أخبار كثيرة: (أن فاطمة عليها السلام استقت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها).^(٢)

وفي الخرائج عن سلمان الفارسي وقد دخل على فاطمة عليها السلام فقال: (كانت فاطمة عليها السلام جالسة قدامها رحي تطحن بها الشعير، وعلى عمود الرحي دم سائل والحسين عليه السلام في ناحية من الدار يبكي).^(٣)

وإن أمير المؤمنين عليه السلام كان في كل ليلة يناجي الله سبحانه، ويذكر الموت والقبر والنار حتى تعتربه من خوف الله غشوة يخر منها كالخشبة اليابسة.

وإن الإمام الحسن عليه السلام حج ماشياً خمساً وعشرين حجة والنجائب تقاد خلفه، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن الحسن بن علي عليهما السلام حج خمسة وعشرين حجة ماشياً وقاسم الله تعالى ماله مرتين، وفي خبر: قاسم ربه ثلاث مرات وحج عشرين حجة على قدميه). أبو نعيم في حلية الأولياء بالإسناد عن القاسم بن عبد الرحمن، عن محمد بن علي عليهما السلام قال الإمام الحسن عليه السلام: (إني لأستحيي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته فمشى عشرين مرة من المدينة على رجليه).^(٤)

(١) - بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٧٦، ح ٦٢.

(٢) - بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ٨٢، ح ٥.

(٣) - الخروج والجرائح: ج ٢، ص ٥٣٠، ح ٦، فصل في ذكر أعلام فاطمة البتول عليها السلام.

(٤) - بحار الأنوار للشيخ المجلسي: جزء ٤٣ صفحة ٣٣٩.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: (خرج الحسن بن علي عليه السلام إلى مكة سنة ماشياً، فورمت قدماه، فقال له بعض مواليه: لو ركبت لسكن عنك هذا الورم، فقال كلا إذا أتينا هذا المنزل فإنه يستقبلك أسود ومعه دهن فاشتر منه ولا تماكسه، فقال له: بابي أنت وأمي ما قدمنا منزلاً فيه أحد يبيع هذا الدواء؛ فقال له: بلى إنه أمامك دون المنزل فساروا ميلاً فإذا هو بالأسود، فقال الحسن عليه السلام لمولاه: دونك الرجل، فخذ منه الدهن وأعطه الثمن، فقال الأسود: يا غلام لمن أردت هذا الدهن؟ فقال للحسن بن علي، فقال: انطلق بي إليه، فانطلق فأدخله إليه، فقال له: بأبي أنت وأمي لم أعلم أنك تحتاج إلى هذا أو ترى ذلك ولست آخذ له ثمناً، إنما أنا مولاك ولكن ادعُ الله أن يرزقني ذكراً سوياً يحبكم أهل البيت، فإني خلفت أهلي تمخض، فقال: انطلق إلى منزلك فقد وهب الله لك ذكراً سوياً وهو من شيعتنا).^(١)

والإمام الحسين عليه السلام حمل على كتفه الجراب إلى دور اليتامى والمساكين حتى وجد على كتفه بعد قتله جرح لم يعرفه الأعداء، فلما سألوا عنه الإمام زين العابدين عليه السلام قال: (إنه أثر الجراب).

وروي في البحار عن ابن شهر آشوب: روى أبو مخنف عن الجلودي أن الحسين عليه السلام حمل على أبي الأعور السلمي وعمرو بن الحجاج الزبيدي وكانا في أربعة آلاف رجل على الشريعة، وأقحم الفرس على الفرات، فلما أولغ الفرس برأسه ليشرب، قال عليه السلام: «أنت عطشان وأنا عطشان والله لا ذقت الماء حتى تشرب».. فلما سمع الفرس كلام الحسين عليه السلام شال رأسه ولم يشرب كأنه فهم الكلام، فقال

(١) - الكافي الشريف للشيخ الكليني: ج ١ ص ٦٧٨، والوسائل، والبحار للشيخ المجلسي: ج ٤٤ ص ١٨٥ عن الكليني.

الحسين عليه السلام: «فأنا أشرب»، فمد الحسين عليه السلام يده فغرف من الماء، فقال فارس: يا أبا عبد الله تتلذذ بشرب الماء وقد هتكت حرمك؟ فنفض الماء من يده، وحمل على القوم، فكشفهم فإذا الخيمة سالمة..^(١)

لماذا لم يشرب المولى الماء وهو أحوج شيء إليه في تلك اللحظة، ليروي عطشه فيكون أقوى بمرات منه وهو عطشان، ويقال بأن العطش قد أضرَّ به حتى حال بينه وبين السماء كدخان، وكان ترك شرب الماء مضرّاً به حتماً في الجسد ويؤثر على العمل والجهاد والقتال.

وإن أهل البيت صاموا ثلاثة أيام دون أن يفطروا بغير الماء حتى كان الحسنان عليهما السلام يرتعشان من الجوع كأنهما فرخان منتوفان، فقدّر الله إيثارهم بسورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كما هو مشهور ومعروف من السيرة العطرة للعترة الطاهرة^(٢).

والإمام الصادق عليه السلام يصف جده السجاد، فيقول: «بكى علي بن الحسين عليهما السلام عشرين سنة، وما وضع بين يديه طعام إلا بكى، حتى قال له مولى له: جعلت فداك يا ابن رسول الله إني أخاف أن تكون من الهالكين، قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون، إني لم أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة».

وفي رواية: أما آن لحزنك أن ينقضي؟! فقال له: «ويحك إن يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً فغيب الله واحداً منهم، فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم، وكان ابنه حياً في الدنيا، وأنا

(١) - بحار الأنوار: جزء ٤٥، صفحة ٥١، عن مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٥٨

(٢) - راجع شجرة طوبى: ج ٢ ص ٧٤، وكل من فسر هذه السورة المباركة تطرق لهذه الرواية المشهورة، وعندنا متواترة.

نظرت إلى أبي، وأخي، وعمي، وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني؟»

وقد ذكر في حلية الأولياء نحوه،^(١) وقيل: «إنه بكى حتى خيف على عينيه، وكان إذا أخذ إناء يشرب ماء بكى حتى يملأها دمعاً، فقليل له في ذلك فقال: وكيف لا أبكي؟»

وقد منع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش.. وقيل له: إنك لتبكي دهرك فلو قتلت نفسك لما زدت على هذا؟ فقال: نفسي قتلتها وعليها أبكي».^(٢)

وقد عاش الإمام السجاد عليه السلام بعد أبيه خمسة وثلاثين سنة باكياً نادباً شهداء كربلاء، دائم الحزن، دائم السقم، نحيف البدن، حيث اصفر لونه باستدامته على الحزن والعبادة، وعمشت عيناه من البكاء والسهر، ودبرت جبهته من الصلاة، وخرم أنفه من السجود لله تعالى.

وفي رواية الصدوق في الخصال قال الإمام الباقر عليه السلام: (كان لأبي عليه السلام في موضع سجوده آثار ناتية كان يقطعها في السنة مرتين في كل مرة خمس ثفنات، فسمي ذا الثفنات لذلك) حتى لُقّب (بذي الثفنات)^(٣).

وفي القاموس: ذو الثفنات هو علي بن الحسين عليه السلام.

وقد ضعف من كثرة العبادة حتى كانت الريح تحركه، أو أنه - روعي له الفداء - كان لا يتحرك منه شيء إلا ما تحركه الريح فقط،

(١) - حلية الاولياء، ج ٣ ص ١٣٨.

(٢) - بحار الأنوار، جزء ٤٦، ص ١٠٩، مناقب ابن شهر آشوب ج ٣ ص ٣٠٣ ط النجف.

(٣) - بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ٦، عن علل الشرايع، ص ٨٨. وقال الجوهري: الثفنة واحدة ثفنات البعير، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استنخ وغلظ كالركبتين وغيرها.

وإليك هذه الرواية الطويلة الجميلة عن أحوال هذا الإمام العظيم من أئمة المسلمين، فقد نقلت الكثير من المصادر المعتبرة لدينا رواية عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام، قال: «إن فاطمة بنت علي بن أبي طالب لما نظرت إلى ما يفعل ابن أخيها علي بن الحسين بنفسه من الأدب في العبادة، أتت جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، فقالت له: يا صاحب رسول الله إن لنا عليكم حقوقاً، ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحداً يهلك نفسه اجتهاداً أن تذكروه الله وتدعوه إلى البقيا على نفسه، وهذا علي بن الحسين بقية أبيه الحسين قد انخرم أنفه، وثفتت جبهته وركبتاه وراحتاه، إءابا منه لنفسه في العبادة.

فأتى جابر بن عبد الله باب علي بن الحسين عليه السلام، وبالباب أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام في أغيلمة من بني هاشم قد اجتمعوا هناك، فنظر جابر إليه مقبلاً، فقال: هذه مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسجيته، فمن أنت يا غلام؟

فقال: أنا محمد بن علي بن الحسين.. فبكى جابر عليه السلام، ثم قال: أنت والله الباقر عن العلم حقاً أدن مني بأبي أنت، فدنا منه فحلَّ جابر أزراره، ووضع يده على صدره فقبَّله، وجعل عليه خدَّه ووجهه، وقال له: أقرئك عن جدك رسول الله صلى الله عليه وآله السلام وقد أمرني أن أفعل بك ما فعلت، وقال لي: يوشك أن تعيش وتبقى حتى تلقى من ولدي من اسمه محمد يبقر العلم بقرأ، وقال لي: إنك تبقى حتى تعمى ثم يكشف لك عن بصرك، ثم قال لي: ائذن لي على أبيك.

فدخل أبو جعفر على أبيه فأخبره الخبر، وقال: إن شيخاً بالباب وقد فعل بي كيت، وكيت، فقال: يا بني ذلك جابر بن عبد الله، ثم قال: أمن بين ولدان أهلك قال لك ما قال، وفعل بك ما فعل؟

قال: نعم، فقال: إنا لله إنه لم يقصدك فيه بسوء، ولقد أشاط بدمك، ثم أذن لجابر فدخل عليه، فوجده في محرابه قد أنصتته العبادة، فنهض علي عليه السلام فسأله عن حاله سؤالاً حفيماً، ثم أجلسه بجانبه، فأقبل جابر عليه يقول: يا ابن رسول الله أما علمت أن الله تعالى إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك؟

فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: يا صاحب رسول الله أما علمت أن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يدع الاجتهاد وتعباً - بأبي هو وأمي - حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟

فلما نظر جابر إلى علي بن الحسين عليهما السلام وليس يغني فيه قول من يستميله من الجهد والتعب إلى القصد، قال له: يا ابن رسول الله البُقيا على نفسك فإنك من أسرة بهم يُستدفع البلاء، ويُستكشف الأواء، وبهم تُستمطر السماء.

فقال له: يا جابر لا أزال على منهاج أبويّ مؤتسباً بهما (صلوات الله عليهما) حتى ألقاهما.

فأقبل جابر على مَنْ حَضَرَ، فقال لهم: والله ما أرى في أولاد الأنبياء، بمثل علي بن الحسين إلا يوسف بن يعقوب عليهما السلام، والله لذرية علي بن الحسين أفضل من ذرية يوسف بن يعقوب إن منهم لمن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.^(١)

(١) - بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٦١، أمالي ابن الشيخ المطبوع بأخر أمالي أبيه ص ٤٠٧

فكان علي بن الحسين عليه السلام شديد الاجتهاد في العبادة نهاره صائم، وليله قائم فأضر ذلك بجسمه، فاصفرَّ لونه حتى تمرَّض، وعندما قال له نجله الإمام الباقر عليه السلام: (يا أبة كم هذا الدَّؤب؟) أجابه قائلاً: (أتحبب إلى ربي لعله يزلني)^(١).

والإمام الكاظم عليه السلام قد هزل من العبادة حتى إذا سجد بدا كأنه ثوب مطروح على الأرض، وصار كالشن البالي.

وفي رياض المصائب: فلما أراد العباس عليه السلام أن يشرب غرفة من الماء ذكر عطش الحسين عليه السلام وأهل بيته، فرمى الماء على الماء، وملاً القربة، وعاد، وهو يقول:

يا نفس من بعد الحسين هوني

وبعده لا كنت أن تكوني

هذا الحسين وارد المنون

وتشربين ببارد المعين

تالله ما هذا فعال ديني^(٢)

فلماذا لم يشرب هذا البطل العملاق، ألا يعرف تكليفه الشرعي، أم أنت أعلم به منه فتتفاقه عليه وتقول بأنه رمى بنفسه للتهلكة، وأسلم نفسه وروحه وجسده للسيوف حتى ذاق الحتوف، فداءً لأخيه وسيدته المولى أبو عبد الله الحسين (عليهما آلاف التحية والسلام)؟.

وهل تعلم بأن الرباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام وأم أصغر الشهداء سنأ في يوم عاشوراء (عبد الله الرضيع) آلت على نفسها بعد رجوعها

(١) - بحار الأنوار، ج ٤٦ ص ٩١، عن المناقب.

(٢) - بحار الأنوار / جزء ٤٥ / صفحة [٤١]

إلى المدينة أن لا تستظل تحت سقف، وعاشت بعد الإمام الحسين عليه السلام سنة واحدة، ثم ماتت حزناً وكمداً، وقيل: إنها أقامت على قبره سنة وعادت إلى المدينة فماتت أسفاً عليه.

وهذه الأعمال والكثير من أمثالها التي ملأت السيرة الطاهرة تدل على أنّ مجرد الإضرار بالصحة غير مُحَرَّم في الإسلام، بل محمود إن كان في سبيل الله كما يظهر من وصف أمير المؤمنين عليه السلام للمتقين في خطبته المشهورة التي يقول فيها (صلوات الله عليه): (فالمتمقون فيها هم أهل الفضائل؛ منطقتهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيمهم التواضع؛ غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم؛ نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالثي نزلت في الرخاء؛ ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين؛ شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب).^(١)

وروى بن قولويه في كامل الزيارات عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبي جعفر عليه السلام أنه، قال: كان علي بن الحسين عليه السلام، يقول: (أَيُّمَا مُؤْمِنٍ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ لِقَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ دَمْعَةٌ حَتَّى تَسِيلَ عَلَى خَدَيْهِ بَوَاهُ اللَّهِ بِهَا فِي الْجَنَّةِ غُرْفًا يَسْكُنُهَا أَحْقَابًا، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ دَمْعًا حَتَّى يَسِيلَ عَلَى خَدَيْهِ لِأَذَى مَسْنَا مِنْ عَدُونَا فِي الدُّنْيَا بَوَاهُ اللَّهِ مَبُوءًا صَدَقَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَسَّهُ أَذَى فِينَا فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ حَتَّى يَسِيلَ دَمْعُهُ عَلَى خَدَيْهِ مِنْ مَضَاضَةِ مَا أَوْذَى فِينَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ الْأَذَى وَآمَنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَخَطِهِ وَالنَّارِ).^(٢)

(١) - راجع نهج البلاغة: خطبة صفات المتقين لهمام.

(٢) - تفسير القمي ص ٦١٦، ثواب الاعمال ص ٤٧، كامل الزيارات ص ١٣٠.

ومن كل هذا ظهر أنّ كل ما يضر بالصحة ليس حراماً كما يبدو لبعض الناس، بل قد يكون مستحباً شرعاً،^(١) والعلماء والفقهاء يقولون برجحان الشعائر الحسينية كلها، بعد أن عرضوها على الأدلة الشرعية وتأكّدوا من رأي الإسلام فيها.

وعلى مَنْ يدّعي غير ذلك فليراجع أدلته إن كان له باعاً أو معرفة بالفقه الشريف، أو ليراجع فطرته إن كان من هذه الملة المباركة، أو يراجع عقله إن كان من العقلاء وليدعنا وشعائرنا وإماننا لنعبر عن حزننا ولوعتنا عليه كما نشاء ونستطيع فإننا على قناعة راسخة أننا لن نؤدي جزء بسيط ولا حتى معشار العشر من حقه علينا.

رأي الشيخ عبد الوهاب الكاشي

وإليك ما يقوله العلماء الأعلام والفقهاء الكرام عن تلك الشعائر المباركة وتعليقهم على دعاة الحضارة الرقمية، ومحاربي الشعائر الحسينية بأي اسم أو غطاء، فقد كتب الشيخ عبد الوهاب الكاشي بحثاً بعنوان: هل في مراسيم عاشوراء عمل حرام شرعاً؟ جاء فيه ما يلي:

(أكثر ما يثير الاستغراب والتساؤل في مظاهر عاشوراء عند الشيعة هو ما يقوم به بعضهم من مظاهر عزائية قاسية تتصف بالعنف أحياناً، مثل اللطم على الصدور العارية، والضرب على الظهر والأكتاف المجردة بالسلاسل الحديدية الجارحة، وإدماء الرؤوس بالسيوف وغير ذلك. مما يثير الاستغراب لدى البعض، بل يثير الاستهجان والانتقاد لدى البعض الآخر، ويتساءلون: لماذا يفعل هؤلاء هكذا بأنفسهم؟

(١) - الشعائر الحسينية للسيد الشهيد حسن الشيرازي رحمته الله ص ٤٣ بتصرف.

ولماذا لا يمنعهم العلماء ورجال الدين؟ وهل إن هذه الأعمال جائزة شرعاً وصحيحة بحسب العرف العقلائي؟

والجواب على هذا السؤال، هو: أن تلك الأعمال من حيث الأصل مباحة شرعاً إذا كان القيام بها لهدف مشروع وغرض عقلائي، ولم يترتب عليها ضرر كبير أو خطر على حياة الإنسان.. هذا ما يقوله العلماء ومراجع التقليد العليا في كل زمان ومكان.. هذا من حيث الأصل.

وأما قيام الشيعة بها في عاشوراء فهو أولاً لأغراض عقلائية مشروعة وبدافع الحب والولاء الشديد للحسين عليه السلام، فهم بتلك الأعمال يعبرون عن تأسيهم بالحسين عليه السلام ومواساتهم له في تحمّل ألم الجراح وجريان الدماء. وفي نفس الوقت يمثلون بها دور العمل الفدائي في سبيل قضية الحسين عليه السلام التي استشهد دفاعاً عنها. ويظهرون استعدادهم للتضحية من أجلها بكل غال وعزيز.

بالإضافة إلى أنها - أي: تلك الأعمال - عندهم كظاهرة كبرى ضد أعداء الحسين عليه السلام الذين يخطئون الحسين عليه السلام في قيامه ضد الدولة الأموية ويبشرون إقدام يزيد على قتل الحسين عليه السلام، وهؤلاء موجودون بيننا وفي عصرنا بكثرة.

ومن جهة أخرى هي كتأييد عملي ودعم شعبي لثورته المقدسة، بالتالي هي استنكار صارخ للظلم والعدوان، وتأييد التحرير والإصلاح في كل زمان ومكان.

كيف لا ومظاهر القسوة والعنف في أعمال الاحتجاج أمر متداول في عصرنا هذا. فكم نسمع عن أشخاص أحرقوا أنفسهم حتى الموت

وأضربوا عن الطعام حتى أشرفوا على الموت، كل ذلك احتجاجاً على ظلم أو اعتداء، فلم يسخر منهم شباب العصر، بل يعتبرونهم بذلك أبطالاً مناضلين، ولكن إذا قام شيعة أهل البيت بما هو أقل من ذلك وأبسط، اتهموا بالتخف والرجعية والوحشية، لماذا؟

أضف إلى ذلك أن قيامهم بتلك الأعمال هو بمثابة تدريب وتمارين على خلق الروح النضالية الفعّالة والمعنوية العسكرية الراقية لا تتحققان لدي شباب الأمة بمجرد بعض التمارين الخالية الجوفاء والتمثيلات الفارغة التي لا تخلق سوى جيشاً انهزامياً فراراً غير كرار، يصدق عليهم قول الشاعر العربي القديم:

وأنا في الحرب ما جرّبت نفسي

ولكن في الهزيمة كالغزال

ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ مُسْمِدٌ مُسْتَدَّةٌ يُحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوٌّ﴾ (١).

أجل! إن الاستهانة بالموت تحتاج إلى تهيو، وتدريب جدي وتمارين شاقة خشنة، وإلا فالواقع ما قاله البطل الثائر زيد بن علي بن الحسين عليه السلام: (ما كره قوم حرّ السيف إلاّ ذلوا).

والخلاصة هي أن هذه دوافع الشيعة وأهدافهم لدى قيامهم بتلك الأعمال في عاشوراء، وهي - كما تراها - دوافع مشروعة وأهداف عقلانية نافعة.

هذا مع العلم بأنهم لا يرون فيها ضرراً، ولا يحسون فيها خطراً على صحتهم ولا على حياتهم حسب ما يؤكدونه هم أنفسهم القائمون

بتلك الأعمال، وحسب ما يشاهد بالوجدان. بل الثابت منهم وعنهم عكس ذلك، أي: أنهم قد يستفيدون من بعضها فوائد صحية.

نعم قد تقع بعض الأخطاء من قبل بعض القائمين بتلك الأعمال أو بعض المشرفين عليها، فتؤدي عفواً إلى بعض الأضرار البسيطة، وذلك نادراً، والنادر الشاذ لا يقاس عليه.

أما إذا أيقن أحد بحصول ضرر بالغ على نفسه من تلك الأعمال، فلا يجوز له خاصة أن يقوم بها حتماً.

هذه خلاصة وجهة نظر الشيعة ورأي علمائهم الكبار، والمطابقة لفتاوى مراجعهم العليا في النجف الأشرف وغيرها، منذ خمسين عاماً أو أكثر حتى اليوم، وتلك الفتاوى مجموعة ومدونة مع ذكر تواريخها وبنصوصها التفصيلية في ضمن بعض الكتب المؤلفة حول موضوع الشعائر الحسينية، أو في كراسات خاصة مطبوعة يمكنك الإطلاع عليها إذا شئت.

ولا أعلم مرجعاً دينياً من مراجع التقليد عند الشيعة سئل عن حكم هذه الأعمال العزائية في عاشوراء إلا وأجاب بالجواز والمشروعية.

هذا مع العلم بأن هذه الأعمال كانت تجري ويقوم بها الشيعة أيام عاشوراء منذ قديم الزمان وتحت سمع وبصر كبار العلماء السابقين أرباب الكلمة النافذة واليد المبسوطة، أمثال الشيخ المفيد والكليني والصدوق والسيد المرتضى والسيد الرضي والشيخ الطوسي والسيد مهدي بحر العلوم الكبير والشيخ جعفر الكبير والشيخ الأنصاري وهكذا إلى عصرنا هذا أمثال الميرزا النائيني والسيد أبو الحسن والشيخ كاشف

الغطاء والسيد الحكيم وغيرهم. فكانوا يؤيدون تلك الأعمال ويدعمونها مادياً ومعنوياً.

وفي هذا دلالة كافية على جواز تلك الأعمال ومحبوبيتها شرعاً، وفيه أيضاً قناعة كافية لمن يطلب الحق ومعرفة الواقع بدون تعنت وتصلب واستبداد في الرأي.

أما الناقدون والمعارضون لتلك الأعمال العزائية فليس عندهم سند منطقي ولا قاعدة عامة عقلائية يصح الاستدلال بها في معارضتهم لها، فإنهم يقولون - مثلاً - أن القيام بهذه الأعمال توجب السخرية والاستهزاء بهم من قبل الأجانب.

ونقول في الجواب: أن السخرية والاستهزاء والاشمئزاز من قبل بعض الناس على عمل ما، لا يثبت فساد ذلك العمل، ولا يقتضي تركه لمجرد ذلك، ولا توجد قاعدة عقلائية تقول أن كل عمل أثار السخرية من قبل شخص أو أشخاص فذلك العمل باطل فاسد يجب تركه لا شيء سوى استهزاء بعض الأشخاص البعيدين عن معرفته وحقيقته.

ولا يوجد عاقل في العالم يؤمن بأن محض السخرية ومجرد الاستهزاء بشيء ما سبب كاف وعلّة تامة لفساد ذلك الشيء.

إذ لو كان الأمر هكذا لوجب على رسول الله ﷺ في بدأ الدعوة أن يترك الرسالة والدعوة إلى الإسلام لماذا؟ لأن قريش صارت تستهزئ به وتسخر من دعوته وتشمئز منه لذلك، أو لوجب أن يترك الصلاة على الأقل، لأنها كانت أكثر ما في الإسلام إثارة لسخرية المشركين واستهزائهم منه بها، فهل ترك الصلاة؟ طبعاً كلا.

بل أقول: لو كان مجرد استهزاء البعض على القيام بعمل ما يبرّر تركه لكان يلزمنا نحن المصلين في هذا العصر أن نترك الصلاة لأنها أصبحت موضع سخرية واستهزاء من قبل أكثر الشباب والمتمدنين من أهل زماننا هذا، فهل يصح تركها لذلك خوف أن يقال لنا رجعيين؟

وها هو الحجاب للمرأة أصبح عيباً وعاراً ومدعاة للسخرية والانتهاز بالرجعية، فهل صار حراماً وخلعه واجباً أو جائزاً شرعاً لذلك؟ وهامي أكثرية النساء في البلاد الإسلامية قد خلعن حجابهنّ وبرزن سافرات، فهل أحسنّ بهذا صنعاً؟

وأعوذ فأكرر القول بأن مجرد الاستهزاء ومحض سخرية تصدر من أناس على أفعال وأعمال أناس آخرين لا يبرر الحكم على تلك الأعمال بالفساد والسوء حتى يثبت فساد تلك الأعمال من حيث العوامل والنتائج. فإذا كان العمل صحيح العوامل والأسباب وصحيح النتائج والثمرات بشكل عام، فحينئذ الاستهزاء به كهواء في شبك، قال تعالى:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا زَابِقًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ النُّعْمِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴿١﴾

وأنسي إذ أقول هذا لا أستبعد أن يكون أكثر هؤلاء المنتقدين للشعائر الحسينية قد وقعوا تحت تأثير الدعاية الأموية من حيث يشعرون أو لا يشعرون أو لا يشعرون. تلك الدعاية التي نشطت بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة في كثير من البلدان الشيعية، وبقصد القضاء نهائياً على كل أثر من ذكر ثورة الحسين عليه السلام علماً منهم بأن

هذه الذكرى هي الوسيلة الوحيدة الباقية للدعوة الصادقة المخلصة إلى الحق ومكافحة الباطل.

من إحياء ذكرى الحسين فقط ترتفع أصوات المعارضة الصحيحة ضد الظلم والظالمين. من هذه الذكرى تنطلق الأضواء الكاشفة فتسلط على كل زوايا المجتمع ومنعطفات طريق السعادة الاجتماعية لتلفت أنظار الناس إلى ما أمامها من أخطار وعقبات، فيتجنبونها ويواصلون سيرهم بسلام آمنين.

أيها القاري الكريم! إن ساحة كربلاء يوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هجرية كانت أشبه بمسرح تمثيل، في جانب منه قام الحسين عليه السلام وأصحابه بتمثيل أروع دور لمثالية الإنسان، وأسمى ما يمكن أن يرتفع إليه بروحه وخلقه وأريحيته، بحيث لا يبقى في الوجود ما هو أشرف منه وأفضل سوى خالقه العظيم.

في الطرف الآخر قام أعداء الحسين عليه السلام بتمثيل أدنى وأسفل درك من الحضيض يمكن أن يتدنى إليه ويهوى فيه هذا البشر من اللؤم والخبث والقوة والأنانية، بحيث يتندى منه جبين الوحش ولا يبقى في الوجود ما هو شر منه ولا أسوأ مطلقاً.

ولا تزال حوادث تلك المعركة هي المعالم الواضحة والحد الفاصل والسماوات الظاهرة بين الحق والباطل وهي المقياس الدقيق لمعرفة الخير من الشر إلى أبد الأبد.

أجل! إن معركة كربلاء لم تنتهي بنهاية يوم العاشر من المحرم، بل هي لا تزال قائمة بصورها المختلفة وأحجامها العديدة وفصولها

المتغيرة في كل زمان ومكان وما دام في الحياة خير وشر وحق وباطل..
وما أحسن تصوير الشاعر لهذا المعنى في معركة كربلاء حيث قال:

كأن كل مكان كربلاء لدى عيني وكل زمان يوم عاشوراء

فالحسين عليه السلام من وجهة نظر الشيعة وكل الخبراء في العالم إنما هو
رمز الخير والعدل والديمقراطية الحققة والعدالة الاجتماعية.. والأمويون
هم رمز الرذيلة والجور والاستبداد والظلم الاجتماعي.

وكل الأعمال العزائية التي يقوم بها الشيعة أيام عاشوراء إنما
يعبرون بها عن دعمهم وتأييدهم للخير والعدل والحق، واستنكارهم
وكرههم للظلم والباطل.

وهذا دليل على وعيهم الاجتماعي ونضجهم السياسي الكامل
حسب ما يؤكد الباحثون وحسب ما هو واضح من ثوراتهم التحريرية
عبر تاريخهم الطويل والمليء بالتضحيات.^(١)

نعم؛ أحسنت وبررت أيها الشيخ الجليل، فالإمام الحسين عليه السلام
قضيتنا، وشعارنا، وشرفنا، وكرامتنا، وإنسانيتنا، في هذه الحياة فمنذ
أن أنتهت أحداث يوم عاشوراء الدامية تحولت تلك الدماء إلى راية
للق، والصدق والتضحية في سبيل الدين والواجب لرب العالمين،
فتحولت الأشخاص إلى شواخص، والأسماء إلى رايات، والكلمات إلى
شعارات، يلوذ بها الأحرار في العالم أجمع وفي كل زمان ومكان، فلم
يعد المولى الشهيد أبناءه وإخوته وأصحابه الكرام حصراً للمسلمين -
الذين قتلوهم بتلك الطريقة المأساوية - بل تحولوا قمم وقيم إنسانية
والدنيا تنادي بهم.

(١) - الشيخ الخطيب عبد الوهاب الكاشي (مأساة الحسين بين السائل والمجيب) ص ١٤٥ - ١٥٠.

وللتأكيد الفقهي وباعتبارنا ملتزمون بالمرجعيات فنقول: لا أقل من أن لنا الحق بأن نلتزم برأي مراجعنا الكرام، وأوجه الأخوة الكرام بضرورة الرجوع لمرجع تقليدكم وتلتزوا بفتواه وكونوا على بصيرة من أمركم وحيطة من دينكم فلا يشوش رؤيتكم المتصيدون بالماء العكر في هذه الأيام، وإياك من الإجهاد بمقابل النص، فأنت بيدك رأي وفتوى تسلح بها إذا واجهك الآخر بفتوى لا نعلم أن لها نص ومستند شرعي أو عقلائي، أم أنها مجرد رأي واستحسانات شخصية، من هذا العالم، أو من ذلك المتفاهة؟

فعلمائنا الأعلام، ومنذ عهد النص المعصوم، يتوارثون هذه الشعائر مع ما أضافت لها أجيال الأمة المتلاحقة، وكل حسب ثقافته وعاداته وتقاليد في البلد الذي هو منه، وذلك لأن الإمام الحسين عليه السلام وشيعته انتشروا - بحمد الله - في كل بلاد الله الواسعة، فالعالم أجمع اليوم يسمع ويرى أعمال الشيعة في أيام عاشوراء، فيسألون لماذا، وما القضية؟ وما أن يتعرفوا عليها حتى ينضموا إليها، أو يعجبوا بها فيحيوا أبطالها فيشاركونا في عزائنا لسيد الشهداء، فمجالس السبط الشهيد تنتشر اليوم من أعلى نقطة مأهولة في جبال الهيمالايا، وحتى أدنى الأرض عند أقدام المجاهدين في الجنوب اللبناني البطل، ومن أقصى الأمريكيتين، وحتى أقاصي آسيا ترى رايات، وتسمع أصوات العزاء على الإمام الحسين عليه السلام والعجب العجاب أنه لا أحد يستنكر علينا أعمالنا إلا النواصب والخوارج بالنسخة الوهابية وبعض أبناء جلدتنا، وهذا ما يحز في النفس، ويؤلم القلب، ويحير اللب حقاً.

رأي الشيخ علي الكوراني العالمي

ولسماحة الشيخ المجاهد علي الكوراني العالمي رأي جميل وورصين كأرائه في محاوراته الطويلة على شبكة النت العالمية وعندما وجه إليه أحدهم هذا السؤال: إلى سماحة العلامة الشيخ علي الكوراني حفظه الله ورعاه بعينه التي لا تنام ما هي وجهة نظركم في قضية التطبير حالياً؟ وهل هي موهنة للمذهب الشيعي؟

قال في الجواب: (التطبير وجرح الهامات حزناً على سيد الشهداء في يوم عاشوراء، حالة استنفار عاطفي عالمي في قسم من شباب الشيعة، وحكمه الشرعي يجب أن يتبع فتوى مراجع الطائفة، والسيد القائد (الخامنئي) حفظهم الله.

وفي رأبي الشخصي، أنه يجب تهذيبه وتنظيمه، واستثماره لإرهاب أعداء الأمة كاليهود، وإظهار الشيعة في العالم بأنهم فدائيون، يبذلون أرواحهم لنصرة قضية أهل البيت عليهم السلام، التي هي قضية الإسلام.

وقد رأينا بأم أعيننا في عام ١٩٨٣^(١) كيف كان التطبير سلاح مقاومة فريد في النبطية، رغم الإحتلال اليهودي، وكيف زلزل أركانهم، وجعل جنودهم يهلعون خوفاً ويهربون من سيوف المتطبرين ومن نداء.. حيدر.. حيدر.. وكيف كانوا بعد ذلك يبحثون عن حيدر؟!

ومما كتبه في مناقشاتي في الموضوع (المجلد التاسع من الإنتصار): كل حكم شرعي مرتبط بمرجع التقليد، ولذا يراعي السيد القائد حفظه

(١) - ولدي قرص لايزري عن تلك الحادثة وقد شهدت معجزة من معاجز أبو عبد الله الحسين عليه السلام، وهي امرأة عاجزة وقفت على رجلها الناقصة وشبه الميتة.. ولا عجب فإنها بركة دماء طاهرة في سبيل الإمام الحسين عليه السلام.

الله وجود مقلدين لغيره ويحترمهم.. ولا بد أن يكون سماحته أوعز للدولة أن تتسامح في بعض المسائل التي يرجع فيها الناس إلى غيره، ويختلف رأيه هو مع رأي مرجعهم.

وهذا مثل لكم في المحافظة على حرية رأي المكلف الشيعي ضمن فتوى مرجع تقليده.

الأخ أمين.. قولك: القياس في مثل هذه القضايا ينبغي أن يكون واضحاً وجلياً فهل المتبع في معرفة المجد الحاصل من مزاوله التطبيق هو عدم فتوى الفقهاء بتحريمه أو عدم فتواهم برجحانه.

أقول: لم أقس ولم أفِت في المسألة، وجواب سؤالك: نعم، فإن الأصل في الأشياء هو الحل حتى تثبت الحرمة.

وأرجو أن تلاحظ أنك دافعت عن حلية اللطم واستسغته، وكلامك مطلق يشمل كل أنواعه إلا المستثنى بالقواعد العامة.. فشكراً لأن كلامك موافق لفتاوى المراجع.

أما تسميتك للتطبير بالتنكيل فهو مصادرة في الموضوع الذي تناقش فيه، وفتوى منك بالحرمة وعدم احترام لمن يعتقد أنه عبادة ويفتي له مرجعه بذلك، وقد استعمل غيرك نفس هذا الأسلوب في اللطم الذي دافعت عنه وشجعته، وسماه جلدأ للذات.

ولا بد أنك تجييه على كلامه غير المنطقي، فأجب نفسك به عن التطبير.

وأما قولك: (وبالمعنى الأدق: ما فلسفة التطبير وما هي القيمة الاجتماعية، والدور الثقافي، والتوعوي لها؟).

فأقول: التطبير حالة عنف في العاطفة الولائية، يستعملها بعض الشيعة في كل البلاد تقريباً.. ومصلحته تتبع فتوى مرجع التقليد لأهل ذلك البلد.. وربما يرى مرجع التقليد جوازه ويشجع عليه، في مثل منطقة لبنان الذي يعيش المسلمون فيه حالة مقاومة مع العدو، ويحتاجون إلى عاطفة عالية وعنفة في التحدي والمقاومة.. وربما يرى جوازه ولكن يقول لا مصلحة فيه هذه السنة، كما فعل الإمام الخميني في سنة انتصار الثورة.

التطبير مخزون من الطاقة العاطفية عند أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، يحتاج إلى فكر عملي لاستثماره وتنظيمه وتهذيبه، وليس إلى فتح جبهة مع المعتقدين به، وجبهة مع فتاوى مراجعهم. والتطبير صرخة سنوية شيعية يهتزُّ لها خصومهم والطامعون.. ولو كان يملكها اليهود لرأيت كيف يستثمرونها ويحولوها إلى ثقافة مقبولة عالمياً.

ولكن اليهود والحمد لله أجبن الناس وأحرص الناس على حياة.

ورحم الله الشيخ الأمين عندما كان يجلس يوم عاشوراء في صحن الإمام الحسين (عليه السلام) مع بعض علماء السنة ويشاهدون دخول المواكب، فدخل موكب طويريج بعنقه في اللطم، فقال له أحدهم: هذا صحيح يا شيخ عبد الحسين؟ فسكت.. ثم بدأت تدخل مواكب التطبير، فجن جنون المشايخ السننيين وصاح أحدهم: وهل هذا صحيح يا شيخ عبد الحسين؟! فأجابه: نعم وهذا صحيح، فأنتم بسبب هذه المراسم لم تستطيعوا إنكار شهادة الحسين (عليه السلام) وأفعال يزيد.. ونحن اشتبهنا لماذا لم نجعل مراسم تطبير لعيد الغدير حتى لا نستطيعوا إنكاره.

وقد يكون على هذا الجواب إشكال، لكن هدفي منه الإلفات إلى دور المراسم الشعبية في تثبيت العقائد الصحيحة.

أما قولك: ثم كيف نتخذ له محاولات لكي نجعله معتقداً لا يحق لأحد أن يعارضنا فيه، بل يلزمه احترامه كمعتقد؟

فأقول: أنا لا أدعو إلى جعله معتقداً فهو من مراسم شعوبنا في الحسين عليه السلام، ولو طلبت مني هيئة حسينية أن أختار لهم من المراسم لاخترت لهم غيره، إلا في مقابل اليهود.

لكنني أدافع عن حرية المكلف الشيعي أن يختار من المراسم ما يجوزه مرجع تقليده.. لأن سلب هذه الحرية وإلزام الناس بهذه الرسم دون ذلك، وبهذه الهتافات دون تلك.. مصادرة للحرية المشروعة، وتتضمن خطراً على المذهب والحكم الشرعي في المدى الطويل.

أما قولك: أم هل أن العقيدة لها مشرب غير ذلك فتأتي بفعل العوام وتفرض فيما بعد؟

فأقول: هذا من الإتهامات التي لا دليل لك عليها، وهي شبيهة بتهم الوهابيين لنا.

فهذه عقائد الشيعة واحدة، واحدة، فأخبرني أيها أخذها علماؤنا من العوام؟ وهل يمكنك أن تتهم مثل المرحوم الإمام الخميني وكبار مراجعنا عبر التاريخ بذلك؟

أما مدحك لبعض العلماء الذين (حثوا الشيعة أن تتقدم بالتبرع بالدم في أيام عاشوراء وقد نصبت المخيمات لذلك). فما داموا عملوا برأي المرجع الذين يقلدونه.. فعليهم أن يحترموا حرية المكلف الذي يعتقد بجواز التطبير، ولا يصادروا حريته ويحرموا فعله، أو يسخروا به

ويقولوا له إنك تنكل بنفسك وترتكب الحرام، أو أنك تجلد نفسك باللطم، أو أنك تذرف الدموع وتستغرق في شخصية الحسين ويجب أن تستغرق في الإسلام.

وأمثال ذلك من عبارات التهويل والتضليل الإعلامي، والسخرية بفتاوى المراجع، والسخرية بدموع الشيعة ومخزون عواطفهم المقدسة، ومراسمهم التي هي العامل الشعبي الأول في حفظ تدين المتدينين.

إنها كلمات قاسية مزللة.. ابتدئها وبدأ بإشاعتها في عصرنا شخصٌ أعرف أنه لم تجر من عينيه على الحسين دمعة واحدة؛ ولا خامر مقامه الرفيع المقدس أبداً.. ولا تفاعل مع ظلامته الفريدة اليتيمة في تاريخ الأنبياء والأوصياء (صلوات الله عليهم).

رأي كتاب فتاوى الفقهاء حول الشعائر الحسينية

جاء في كتاب (فتاوى الفقهاء) كلام جميل نقتطف منه هذه الزهرات، ونشم منها عبقات، (لما مات معاوية بن أبي سفيان وعقبه ابنه يزيد، بلغ الانحراف ذروته، والاستهتار قمته، فقد كان أبوه معاوية يضمير جاهليته، بالرأي العام الإسلامي، بل راح باسم الإسلام وخلافة المسلمين يرتكب كل دعارة ومجون.. فبدأ يعاقر الخمرة جهاراً.

ويلعب بالشطرنج علانية ويلعب الكلاب والقروود بلا تكتّم، ويخادن المومسات بلا تحرّج.

وهنا أحس الإمام الحسين عليه السلام بالخطر يحدق بالإسلام، ويهدد كيانه، ورأى أن قدرة المحركات القوية التي أبقت الإسلام ودفعتته إلى الأمام، قد أوشكت جراء ذلك على الضعف والجمود، والتوقف

والركود، لولا أن تداركها طاقة جديدة، وحياة نابضة متدفقة، تبعث فيها الروح والحركة، والحياة والبقاء من جديد.

وعلم أن ذلك لا يتسنى بأي ثمن اتفق، ولا بأي تضحية حصلت، وإنما القضية في هذه المرة، تستدعي أن يكون الثمن غالباً ونفسياً، والتضحية كبيرة وعظيمة، إذ ليس الثمن الكافي هو الفداء فقط، ولا التضحية الناجعة هي التضحية بالنفس فحسب.

وإنما القضية تستدعي هذه المرة أكبر من ذلك كله، إنها تستدعي القيام بثورة إصلاحية جذرية شاملة، كما أن هذه الثورة هي الأخرى أيضاً، تستدعي أن تكون ثورة لا كالثورات المتعارفة، يلزمها أن تكن متميزة على غيرها بكونها:

١. نهضة إلهية من ألفها إلى يائها، في التخطيط والتنفيذ والتفاصيل.
٢. إصلاحية، لا غرض ولا هدف شخصي فيها، خالصة مخلصه لله.
٣. سلمية، لا عنف فيها.
٤. إنسانية، لا قسوة فيها.
٥. قيّمة أخلاقية، لا أثره فيها لأحد على أحد.
٦. تضحية، لا بُخل فيها بنفس وأهل ومال.
٧. تربوية، تربي الثوار المصلحين، والأبطال المجاهدين.
٨. كونية لا شيعية، وعالمية لا إسلامية فقط بالأهداف والنتائج.

وثورة هذه مواصفاتها، لم تعرف لنفسها قائداً غير الإمام الحسين عليه السلام، فحلّت بفنائها وأناخت برحله، وهو عليه السلام لم يعرف أحداً

غيره يقوم بها، ويؤدي حقها حسب ما يرام، كما أخبره بذلك جده الرسول الأعظم ﷺ، عن الله تعالى.

لذلك شمره ﷺ عن ساعد الجد، وحمل أهل بيته وخاصته، وأسرته وأطفاله، ولم يستأثر بهم أحداً، وودّع مهبط رأسه، ومدينة جده المدينة المنورة بعد أن زار قبر جده رسول الله ﷺ وودّعه واتجه نحو بيت الله الحرام مكة المكرمة، ليجدد عهده بها ويودعها، ومنها نحو العراق.

وهو في ذلك كله عازم على التضحية، موطن نفسه بها، باذل مهجته في سبيل الله، راض برضا الله تعالى، حيث شاء الله أن يراه قتيلاً ممرضاً بدمائه، وأن يرى أسرته بنات الرسول سبايا، يحدوا بهن الأعداء من بلد إلى بلد، من كربلاء إلى الكوفة، ومنها إلى الشام لتبليغ نداء الإمام الحسين وأهدافه وليتركن فيها طفلتهم الصغيرة (رقية) لتكون بقبرها الصغير رمزاً كبيراً للمظلومية، ولغمماً قوياً ينسف عروش الظالمين من بني أمية وغيرهم.

وقد كان كما أراد الله تعالى له، وكما عزم ووطن نفسه عليه، فقد أدى الثورة كاملة بجميع شروطها، وافية لكل امتيازاتها، إصلاحية سلمية، إنسانية أخلاقية، تضحوية تربوية.

فكانت خير محرك للإسلام، غذته بالروح والحركة، ووفرت له الحياة والبقاء، وأصبح الإمام الحسين ﷺ بثورته هذه معلماً كبيراً، يعلم الأجيال دروس العز والإباء، والتضحية والفداء في سبيل الله والإسلام، وأضحت ثورته مدرسة عالمية، تربّي في أحضانها الثوار والمصلحين، وترعرع في ربوعها أصول الإنسانية وجذور الأخلاق، وتخرّج حاملي شهادة البطولة والفداء، والجهاد والتضحية في سبيل الله ودينه الحق لا

يخافون في ذلك لومة لائم، ولا سخرية مستهزأ، ولا يترقبون من أحد مدحاً ولا ثناءً، ولا صلة ولا أجراً.

ومفتاح هذه الثورة المباركة، وبوابة مدرستها التربوية، هي الشعائر الحسينية، فإنها هي التي تهدي الأجيال إلى معرفة الثورة، وإلى تحكيم أهداف قائدها الكبير ابن رسول الله الإمام الحسين الشهيد عليه السلام، ومن إحياء الشعائر الحسينية، تستمد ثورة الإمام الحسين عليه السلام الحياة، وتبقى مدرسته العالمية، مفتوحة على مصراعيها أمام الأجيال، كما أن من حياة الإمام وتحركه، وزحفه واستمراريته، إلى يومنا هذا، وحتى يوم القيامة.

ولهذا الترابط الوثيق بين حياة الإسلام وبقاءه، وحياة الإمام الحسين عليه السلام وبقاء ثورته المجيدة، نرى أن الله تعالى منح الإمام الحسين عليه السلام امتيازات خاصة، لم يمنحها أحداً غيره من أنبيائه وأوليائه، وأعار قضيته اهتماماً بالغاً لم يعر أية قضية أخرى بمثلها، ليكون محفزاً للمسلمين نحو الإمام الحسين عليه السلام وثورته المجيدة وإقامة الشعائر الحسينية تمهيداً لإحياء الإسلام، فقد جعل الأئمة المعصومين التسعة الباقين من ذريته، واستجابة الدعاء تحت قبّته، والشفاء في تربته، حيث أن تربة كربلاء بقعة من بقاع الجنة، وروضة من رياضها.. وجعل إقامة العزاء والتأسي به جوازاً على الصراط، والبكاء والإبكاء وحتى التباكي على مصائبه ثمناً للجنة، والمشاركة في شيء من الشعائر الحسينية سبباً لنيل شفاعته عليه السلام وشفاعة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمه فاطمة الزهراء عليها السلام، وأباه أمير المؤمنين علي عليه السلام.

كيف لا يكون كذلك، وقد بذل عليه السلام كل ما يملكه من غال ونفيس، وقدم نفسه وأولاده، حتى طفله الرضيع، وأهل بيته وأسرته، وخاصته وأصحابه، في سبيل الله تعالى، ولإعلاء كلمته ونصرة دينه، والله تعالى

هو أكرم من كل أحد، لا ينقص عاملاً حقه، ولا يضع أجره، ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) فلا غرو أن يعوضه بهذه الكرامة، ويمنحه هذا العطاء الكبير.

ولهذا أيضاً نرى أن الأنبياء من لدن آدم أبي البشر إلى النبي الخاتم رسول الله ﷺ وفاطمة الزهراء ع، والأئمة المعصومين ع، قد تأدبوا بأدب الله تعالى، وفتحوا للإمام الحسين ع، كما فتح الله تعالى له، حساباً خاصاً، لم يفتحوه لغيره، فقد بكوه قبل ولادته، وأقاموا عليه العزاء بعد شهادته، وحثوا المسلمين على زيارته وإقامة العزاء والبكاء عليه حتى جاء في زيارة الناحية المقدسة، لصاحب الأمر، وولي العصر، وناموس الدهر، يخاطب جده المظلوم الشهيد: (فَلَيْتَ أَخَّرْتَنِي الدُّهُورُ، وَعَاقَنِي عَنْ نَصْرِكَ الْمَقْدُورُ، وَلَمْ أَكُنْ لِمَنْ حَارَبَكَ مُحَارِباً، وَلِمَنْ نَصَبَ لَكَ الْعِدَاوَةَ مُنَاصِباً، فَلَا نَدُبْتُكَ صَبَاحاً وَمَسَاءً، وَلَا بَكَيْتَ لَكَ بَدَلَ الدَّمُوعِ دَمًا، حَسْرَةً عَلَيَّكَ، وَتَأْسُفًا عَلَى مَا دَهَاكَ وَتَلَهَّفًا، حَتَّى أُمُوتَ بِلَوْعَةِ الْمُنْصَابِ، وَغُصَّةِ الْإِكْتِيَابِ..) كل ذلك كما في إحيائها حياة الإسلام وبقاؤه وتجذره في قلوب الناس ونفوسهم، فكانوا ع يمثلون في إحيائهم الإمام الحسين ع وثورته بعد شهادته، دور المحرك القوي للإسلام، وكانوا بذلك هم المحركون الباقيون من الأئمة المعصومين التسعة بعد الإمام الحسين ع.

وامتداد ثورة الإمام الحسين ع الذي هو امتداد للإسلام، لا يتم في ظل بعض المجالس التأبينية والمآتم الحسينية وإلقاء الخطب والقصائد فحسب، فإن إقامتها ضرورة في طيلة أيام السنة لإنتاج عطاء الذكرى،

(١) - زيارة الناحية المقدسة ذكرها علماؤنا الأعلام في كتب الزيارات، راجع البحار للشيخ

لكنها لا تطبق إنجاز فورة الثورة، وإعادة جو الملحمة بكل ما فيها من هياج وضجيج، إلى الأفكار والأذهان، بل لابد من مجموع ما يقوم به الشيعة من الشعائر الحسينية في شهري محرم وصفر وتعميمه في كل العالم والربيع المسكون من المجالس والمآتم، ومنابر العزاء والبكاء، ولبس الأسود، وتغطية الشوارع والطرق والمساجد والحسينيات بالسواد واللافتات والشعارات الحسينية، ونصب أعلام العزاء السود وتسيير مواكب اللطم وضرب السلاسل، والشبيه والتطبير، وما إلى ذلك لإيصال نداء الثورة الذي هو صوت الإسلام إلى كل بقاع الأرض، حتى تستطيع أن تموج الحياة، وتزلزل الأرض، فتهوي بالعروش والتيجان الجائرة، وتنزع القيادات الظالمة لتسلمها الصالحين الذين إن تمكنوا في الأرض، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر.

وثورة الإمام الحسين عليه السلام ومظلوميته سلاح نافذ ونعمة كبيرة لا مثيل لها في الأمم السابقة امتازت بها الأمة الإسلامية وامتن الله بها عليهم ليرفعهم بها إن عرفوا قدرها، ولو كانت لغيرهم، لأقاموا بها الدنيا وأقعدوها، ولا استطاعوا عبرها من السيطرة على الأرض، كما يفعله المسيحيون اليوم في محاولتهم تنصير العالم بتصوير مظلومية موهومة للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام للتأثير في الناس وكسب عواطفهم، لكن الأمة الإسلامية لم تقدرها حق قدرها، ولم تستطع أن تستقصي كل عوائدها، ولم تعرف كيف تستدر جميع منافعها، مع أن مظلومية الإمام الحسين عليه السلام ليست كمظلومية عيسى موهومة ومصطنعة، حيث قال عنه القرآن الحكيم مكذباً ما يدعيه المسيحيون من مظلوميته وصلبه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ

لَفِي شَكِّ مَنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ، مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَنَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ
اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١﴾.

بل مظلومية الإمام الحسين عليه السلام وكذلك الأئمة المعصومين عليهم السلام مظلومية حقيقية وواقعية، بكى لها الملائكة والأنبياء والأولياء والأوصياء، والأرض والسماء، والجن والإنس. بالإضافة إلى أنها في منتهى درجات المظلومية، وأقصى مراتبها، تتضاءل أمامها كل مظلومية، وتتصاغر لدى عظمتها وتذوب خجلاً عندها، كل مظلومية في التاريخ سواها.

ذكرها يثير العواطف، ويهز النفوس، ويقلع القلوب، ويستهوِي الأفتدة، ويستميلها نحو الإسلام، ونحو تعاليمه الإنسانية، ودساتيره الأخلاقية، فالأمة الإسلامية رغم أنها كانت تستطيع عبرها من بسط الإسلام ونشر رحمته وعدله على كرة الأرض، بقيت ولا تزال منذ قرن أو أكثر ترزح تحت وطأة الظالمين ونير المستعمرين، لكن احتفاظها بالشعائر الحسينية هو احتفاظها بمقومات النهوض ومؤهلات السيادة والسعادة، ولو فقدتها، فإنها تفقد آخر شيء من قواعدها المعنوية، وآخر ورقة يمكنها أن تفتح عليه لنفسها حساباً في الساحة العالمية، وتواصل به مقاومتها للاستعمار، وتثبت به وجودها وكيانها.

وقد عرف الاستعمار ذلك وأقضى مضاجعه، فراح يجتد كل طاقاته، ويحشد كل عملائه لضرب هذه القاعدة الصلبة، والمقوم الأساسي للمسلمين، وأخذ يصب كل دعاياته وجميع شبهاته حول الشعائر الحسينية، وما يرتبط بالإمام الحسين عليه السلام، وبقي يحاربها بكل

حوله وطوله، وعدته وعدده، علّه يستطيع القضاء عليها. لكنه بفضل الله وجهود العلماء العاملين والمؤمنين المجاهدين، رجع بغيظه لم ينل خيراً، غير أنه أقبل أخيراً بدسيسة أخرى، وهي ضرب المظلومية واغتيالها، عبر تحويرها وتشويهها، ونسبة الشيعة إلى العنف والقسوة، فإنه إذ لم يستطع من القضاء على الإسلام عن طريق القضاء على الشعائر الحسينية، راح يشوّه مظلومية الأئمة وشيعتهم بكل وسائل بثه وتلفزته، وصحفه ومجلاته، علّه يسلبهم هذا السلاح النافذ المتفاعل مع نفوس الناس وقلوبهم. فعلى الغيارى الواعين لدسائس الاستعمار، العمل من أجل إحباط هذه المؤامرات ورد كيده في نحره.^(١)

رأي الشيخ محمد جميل حمود

في أول شهر محرّم وأواخر كلّ عام تبدأ الحملات المسعورة من قِبَل العامة وأذناهم من الشيعة ضدّ عاشوراء وما تختزنه من مشاعر وعواطف قلّ نظيرها في بقيّة المناسبات، بغية تشويهها، وتشكيك القواعد الشيعيّة بمضامينها عبر إثارة الشبهات حولها بدءاً بالبكاء وانتهاءً بالتطبير والضرب بالسلاسل واللطم، فتبدأ المحاضرات وإلقاء الخطب هنا وهناك ليشككوا بكل شيء يمتّ إلى عاشوراء، ويكشّر الصحفيون المنافقون ذوو المطامع والمطامح عن أنيابهم كلّ سنة ليفترسوا بأقلامهم المأجورة وألسنتهم الحُداد الشحيحة تلکم المراسم العاشورائيّة البريئة والعدراء، فيحاولون افتضاضها واغتصابها لينفّسوا عن شهواتهم ونزواتهم التي طالما اختزنوها لشهر محرّم الحرام،

(١) - مقدمة كتاب فتاوى العلماء حول الشعائر الحسينية.

فليس ثمة منكر أو فساد في محرّم سوى مراسم عاشوراء، إذ ليس وراء عبادان قرية.

فلا يعجبهم شيء من شعائر عاشوراء، فلا قارئ العزاء ولا الخطيب المفوّه... ولا الباحث النحرير يروق لهم أو يستريحون لأفكاره... لمّ؟ لأنه يدافع عن مراسم الطف الشجّية ويربط الناس بأشرف قضيّة وأعظم رزية ألا وهي كربلاء مولى الأحرار الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام، فلماذا كلّ هذا الكيد بل النصب والعداوة لمراسم عاشوراء؟ ألأنّها قتلت آباءهم واختلست أموالهم؟ كلاً، وإنما لأنّها تنتمي للإمام الحسين عليه السلام فأرعبت قلوبهم وصعقت عقولهم، فلم يستطيعوا أن يحاربوا الإمام الحسين عليه السلام مباشرة كما حاربه أعداء عصره، فحاربوا المراسم والشعائر الملتصقة به، ولو كانوا صادقين بمحبتهم للإمام الحسين عليه السلام لَمَا حاربوا مراسمه وشعائره التي تقرب الناس إلى أهدافه، وتشدّهم إلى الإنتساب إليه عليه السلام، ومَن أحبّ شخصاً أحبّ كلّ ما ينتسب إليه، من هنا قيل شعراً عن مجنون ليلي:

وما حبّ الديار شغف قلبي

ولكن حبّ من في الديار

إنّ مظلوميّة الإمام الحسين عليه السلام هي في منتهى درجات المظلوميّة وأقصى مراتبها، تتضاءل أمامها كلّ مظلوميّة، فذكرها يثير العواطف والأشجان والعبرات، وتخلع الأفئدة وتهزّ المشاعر والمدارك، ولو أنّ أمة الإسلام أحبّت الإمام الحسين عليه السلام - كما تدّعي - لاستطاعت عبر ذكره العطرة من بسط مفاهيم الإسلام ونشر رحمته وعدله على العالمين ولتحرّرت من نير المستعمرين، ولا أعني بالمستعمرين الإفرنج فحسب بمقدار ما يشمل هذا المصطلح كلّ من يريد للباطل أن يهيمن

وينتشر، وهل ثمة باطل أعظم من أن يتحكّم بنا - نحن الشيعة - عصابة من المخالفين لا يرحمون صغيرنا ولا يوقرون كبيرنا، ولا حرمة لأعراضنا وأموالنا لديهم، فنحن بنظرهم طائفة من اليهود تستباح أموالنا وأعراضنا ودمائنا على حدّ تعبير ابن تيمية وأذنا به اليوم؟ وهل ثمة ظالم غاشم كأولئك الذين هدموا قبور أئمتنا عليهم السلام في بقيع المدينة وحاولوا هدم قبورهم في العراق في الآونة الأخيرة وبالضبط في أيام محرّم الحرام من العام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م؟

كلّ ذلك من أجل أنّ قبور أئمتنا عليهم السلام منارات تنير دروب الحيارى في صحراء المادة، ولأنّ هاتيك المقابر الشريفة شعار إلهي يقصّ مضاجع أولئك الظالمين، فراحوا يجنّدون كلّ طاقاتهم، ويحشدون عملائهم لضرب الشعائر الحسينية وكلّ ما يمتّ إلى أئمتنا عليهم السلام بصلة، لكنّ جهودهم باءت بالفشل الذريع بفضل تماسك الموالين وجهود العلماء العاملين العارفين بأمر آل البيت عليهم السلام لا الذين يزحفون على بطونهم إلى المخالفين وما أكثرهم اليوم حيث باتوا يعزفون على وتر آخر وهو تشويه مظلومية الأئمة عليهم السلام وشيعتهم خلف شعار نسبة الشيعة إلى العنف والقسوة، وهو سلاح فتاك ذو حدّين.

فهو من جهة ينخر في مفاهيمنا ليهشمها شيئاً فشيئاً بنفث الشبهات والتشكيكات حولها لا سيّما ما يتناول الجانب المأساوي الذي تعرّض له أئمتنا عليهم السلام من قبَل طواغيت عصرهم.

ومن جانب آخر ينعت القواعد الشيعية بالتخلف عن مواكبة الحداثة وترويج الفتاوى الترخيصة التي تحرر المسلم من ربة الإنقياد والإنصياع للحكم الشرعي الداعي إلى تقييد النزوة والشهوة والإسترسال في الإباحة، وكأنّ الحداثة بنظر هذا الفريق وذاك هو أن

تخلع عن نفسك كلَّ قديمٍ سوءٍ أكان حكماً أم شعاراً وتقليداً أقرته الأعراف والشرائع، ويتماشى مع أصول الأديان والأحكام، والأعجب من ذلك أنّ قبولهم لكلِّ جديدٍ طبقاً لمفهوم الحدائث عندهم هو أنّ بعض مراسم عاشوراء ليس قديماً جداً ومع هذا يرفضونه لأنه يتوافق مع توجهات ورغبات المخالفين المعادين لمواكب عاشوراء، لذا فإنّ هذه القوارض البشريّة في ثغاء مستمر، وثغيم لا ينقطع، ما دامت الشعائر والمراسم.

لكلِّ رسولٍ ووصيٍّ إمتدادٍ بعده، فامتداد الرّسول الأكرم ﷺ في القرآن المعجزة، وامتداد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في نهجه الذي رسمه لنا وبطولاته ومواقفه المشرفّة، وامتداد سيّدة النساء بصرختها الكبرى بوجه الظالم المستبد، وامتداد الإمام الحسن عليه السلام بحفظه لمصالح المؤمنين وشفقته على عاقبة المستضعفين، وامتداد الإمام الحسين عليه السلام إنّما كان بثورته على الظالمين، فدوره عليه السلام يختلف عن أدوار من سبقه من الأولياء الطاهرين بشكل عام، حيث كان دوره العظيم في الانقضاض المبارك على المبادئ الفاسدة والمفاهيم البائرة المترسخة في مجتمع الجزيرة العربيّة.

فدوره ثورة، وهي بحاجة إلى إحياء بكلِّ أبعادها ومرافقها في واقع الحياة، ولا يمكن أن تحيي بالحفلات والقصائد والخطب لأنّ ذلك يصلح أن يكون ممسكاً لإنتاج عطاء الذكرى ولا تصلح لأن تخلق شعلةً ثوريّةً هي في الواقع امتداد للثورة الأمّ، فالشعلة هي الوحيدة القادرة على أن تموج الحياة وتزلزل الأرض بعروش المستكبرين ولو كانوا بعمائم رجال دين، وتنفض عنها التيجان الجائرة، وتنزع القيادات من الأيدي القذرة، لتضعها في أيدي الذين لا يريدون علواً في الأرض

ولا فساداً، والكفيل بذلك ثورة الإمام الحسين عليه السلام من خلال الامتداد الواقعي لها وهو مجموع ما يفعله الشيعة الكرام في بلادهم أيام عاشوراء من المراسم الحسينية المتنوعة كالتطبير، واللدم، واللطم، وما شاكل ذلك من الأمور التي تعيد إلى الأذهان واقع المأساة التي عاشها غريب كربلاء عليه السلام، فمواكب عاشوراء بكل ضجيجها وتوترها وانفعالها هي الوحيدة التي تنقلنا من أجوائنا المعقدة والهزيلة إلى جو الثورة التي عاشها غريب الطف عليه السلام في صحراء العراق.

والثورة الحسينية بما تملكه من زخم عقيدي لا يمكن أن تززعها جهة سياسية أو تنظيم اجتماعي، مهما كانت هذه الجهة وهذا التنظيم يخترنان أفكاراً وتوجهات، ولا يمكن أن تقف جهة بوجه المد الثوري الحسيني، من هنا خشيتها الأعداء والأقرباء الأعداء، ولو كانت - هذه الثورة - لبقية الأمم لاستدرت منها طاقات تؤهلها للسيطرة على الأرض، لكن الأمة الإسلامية تبخسها حقها لهبوط مستوى الوعي لدى قياداتها، فلا تستفيد منها بالمقدار الممكن الذي يريده منا أهل البيت عليهم السلام من خلال إحياء الذكرى.

فعلى المخلصين من أفراد الأمة أن يصعدوا درجة الإخلاص إلى مراسم هذه الثورة لعل عامة الأفراد يؤوبون إلى رشدهم يوماً ما لينبوا كيانهم من جديد، ولو أن الأمة تغافلت أو تناست ثورة الإمام الحسين عليه السلام أو فرطت في مراسمه المقدسة لحكمت على نفسها ومستقبلها بالموت الروحي والنفسي والفكري، إذ قد تكون قد سدت على الأجيال الطالعة أغزر مواردها، ولو استيقظت يوماً من الأيام فلا تقدر على النهوض إذ لا تجد حينئذ مقومات النهوض والصمود.

علينا أن نحافظ على ثورة الإمام الحسين عليه السلام وامتدادها الحقيقي لكونها أمانة كبرى امتحننا الله تعالى بها، فكما إن أجدادنا وأسلافنا حافظوا عليها بالأضاحي والقربان الكثيرة حتى تناقلتها أجيالاً فآجيال إلى أن وصلت إلى جيلنا المنكوس الملعوم، فيجب على هذا الجيل أن يحافظ عليها بكل ما أوتي من قوة ليتمكن أن يسلمها إلى الأجيال بعده.

وقد حاول الأعداء أن يخزّبوا على مفاهيم ثورة الإمام الحسين عليه السلام بإلقاء الشكوك حولها فلم يفلحوا، فغيّروا طريقتهم في المحاربة، فحاموا حول المراسم لكنهم أيضاً باؤوا بالفشل الذريع، لأنّ حربهم كانت من نداء إلى نداء آخر، فكانت خسارتهم مضمونة النتائج، لذا ارتأوا أن تكون الحرب هذه المرّة من أجل الصف الشيعي ليحارب الشعائر بدلاً عنهم، وخير بديل لهم هو أن يخترعوا مرجعيات خاصة بهم أو أحزاب ومنظمات تحقق أهدافهم، وكان الذي أرادوا، فتحرّكت هذه المرجعيات والقيادات التنظيمية لضرب مراسم عاشوراء بكلّ مصاديقها وتنوعها تحت ظلال حجج واهية كبيت العنكبوت.

لقد اعتقد المخالفون "بأنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام هي الصخرة الوحيدة في سبيل تقدّم الإسلام بل هي القلعة الوحيدة الصامدة التي تمنع انحسار الإسلام وتقدّم الاستعمار، والأحزاب التي تتلقى الإيحاء والأموال من المستعمرين - بلا واسطة أو مع واسطة - لا يمكن أن تخالف الإيحاء ما دامت تحاذر أن تنقطع عنها الأموال، وحيث إنّ هذه الأحزاب لا تحارب ثورة الإمام الحسين عليه السلام لعقيدة تناقضها - كما تفعل الأحزاب الإلحادية - وإنما تحاول تنفيذ إرادة المستعمرين فيها لتقبض عمولتها، لا تستند في حربها إلى دليل معين، وإنما تنتهز كلّ حق وباطل لضرب هذه الثورة المقدّسة، فمرّة تستدل بالأراء الشاذة

لبعض المؤلفين، بينما هي لا تعترف بأولئك المؤلفين ولا بالمراجع الكبار إلاّ للتستّر بأسمائهم فحسب، وطوراً تتذرع بأنّ الأعداء يضحكون منا، فيما هي لا تحذر أن يضحك منها الأعداء والأصدقاء عندما جعلت من نفسها أصابع طيعة للاستعمار.

إنّ موقفنا من الشعائر الحسينيّة يتركز على قاعدة فكرية وطيدة، ليس لنا الانحراف عنها، وإنّ تظاهرت قوى العالم ضدها، وهل نكفّ ضحك الأعداء علينا بالتخلي عن واقعنا أو باستعراض فضائحهم حتى ينكمشوا على مخازيهم ولا يتناولوا على مقدّساتنا؟

وهل لنا أن نأخذ بما يريده الأعداء أو بما يمليه علينا واقعنا؟

ثم هل الأعداء أقوى تنكيراً أم أبطال الإسلام؟

ولماذا يضطرب موقفنا بمجرد ضحك الأعداء؟

وإذا كانت ثقتنا بالأعداء أكبر من ثقتنا بأئمتنا عليهم السلام فعلينا إذن أن

ننبذ الإسلام كلّه، ونعتنق مبادئ الأعداء؟

وإن كنا نؤمن بأئمتنا عليهم السلام أكثر من أعدائنا فلماذا نتبع أفعال أعدائنا؟

ولماذا لا نتمسك بتعاليم أئمتنا عليهم السلام؟؟؟

علينا أن نعلّم أنّ الأعداء يتربّصون بنا فيشجعون التوافه

ويضحكون على العظائم حتى نترك العظائم ونعيش التوافه، والأعداء

عندما يضحكون من شيء فإنما يضحكون بعقولهم لا بعواطفهم،

فلا يضحكون أبداً على نقاط الضعف لأنهم لا يخافون منها، وإنما

يضحكون دائماً على نقاط القوّة لأنهم يهابونها، فيحاولون القضاء

عليها، فعلينا متى أردنا السيادة أن نستلهم واقعنا بنظرة مستقلة تعي

مكاسبها وخسائرها، ولا تلتفت مطلقاً إلى ما يفعله الأعداء.

في وسط مجتمعنا فئة لها خلفيات عامية، تسعى دائماً لتحطيم القيم الدينية والثوابت التاريخية تحت شعارات بَرّاقة ينخدع بها جيل اليوم، وتحت ظلّ هذه الشعارات يسهل الترتّب على سدة القيادة والمرجعية التي اصطنعوها لأنفسهم لإحداث تغيير جذريّ في الأمة بتغيير مفاهيمها وعقائدها إلى مفاهيم وعقائد غريبة عن التشيع، بل هي في الواقع مفاهيم أشعرية تطمح إلى إنشاء حكومة قومية، ترفع شعار الإسلام بيدٍ، والمنجل بيدٍ أخرى لتحصد كلّ مخالفٍ لها أو مشاكسٍ لتوجهاتها.

إنّ علينا إزاء المواقف المتشنجة على المراسم العاشورائية ومفاهيمنا الدينية واجب الصمود المرتكز على الولاء الحقيقي لأهل بيت العصمة عليهم السلام، مع التأكيد على عنصر البرائة من أعدائهم.

كما لا يفوتنا أنّ نعلّم أنّ رضا الله تعالى لا يكون إلّا بمقدار تعلقنا بآل البيت عليهم السلام والذود عنهم، وإنّ تحريم شيء لأجل إرضاء الغير مهزلة وحرام، وأنّ مَنْ قدّم رضا المخلوق على سخط الخالق هو ملعون.

وعليه فمن تصوّر أنّ التطبير حرام لأجل أنه سبب لتوهين المذهب وإساءةً لسمعته مخطئ، ويجب أن يراجع تصوراته التي بنى عليها دليله على الحرمة، فإنّ الاعتراف بالخطأ فضيلة، والانصياع للحق مكرمة، لأنّ مَنْ زهد بالحق، زواه الله تعالى عن الجنة فأدخله النار وبئس القرار.^(١)

الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء قدس سرّه

وهذا بعض ما كتبه سماحته في كتابه (الآيات البينات).

(١) - مقدمة كتاب الشعائر الحسينية للشيخ محمد جميل حمود العاملي.

لما شاعت الشبهة في مواكب؛ عزاء الحسين (سلام الله عليه)؛ وقامت لها عواصم بلاد الشيعة وقعدت وبالأخص بلاد البصرة تواردت عليه البرقيات مستفتين عن جواز تلك المواكب وعدم جوازها فكتب فيها بقلمه الشريف جملة جوابات قالعة لجرائم الشبهة وجادة لخراطيم الضلالة.

بحيث كتب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أجوبة الأسئلة الواردة إليه عن فتواه في المواكب الحسينية زادها الله عزاً وكرامة، عدة مقالات وكتب مطولة ومختصرة ومتوسطة، ونحن ننتخب منها ثلاثاً على ذلك النسق، وكان أول استفتاء ورد إليه في النجف من جماعة من ذوي الفضل وهذه صورته:

السؤال: ما يقول مولانا حجة الإسلام شيخنا الشيخ محمد حسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على رؤوس الأنام في المواكب المشجبة التي اعتاد الجعفرليون اتخاذها في العاشر من المحرم الحرام تمثيلاً لفاجعة الطف وإعلاماً لما انتهك فيها من حرمة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عترته المجاهدين بالتمثيل للشهداء وجهادهم وما جرى عليهم وما جرى على الأطفال من القتل والقسوة وإعلانهم الحزن لذلك الفادح بأنواعه من ندب ونداء وعويل وبكاء وضرب بالأكف على الصدور وبالسلاسل على الظهر فهل هذه الأعمال مباحة في الشرع الأزهر أم لا أفتونا مأجورين؟

فكتب دامت بركاته ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى (١) وَلَا رَيْبَ أَنْ تَلِكَ

المواكب المحزنة وتمثيل هاتيك الفاجعة المشجية من أعظم شعائر الفرقة الجعفرية شيد الله أركانها.

ونحن إذا لم نقل باستحبابها ورجحانها لتوفر الأدلة من الأخبار والأحاديث المتضافرة المشعرة بمحبوبة تلك المظاهرات لأهل البيت عليهم السلام فلا أقل من القول بالجواز والإباحة، وما يتداول ويستعمل فيها من ضرب الطبول ونحوه غير معلوم اندراجهم فيما علم حرمة من آلات اللهو والطرب.

نعم لو علم كونها منها فاللازم تنزيه تلك الأعمال الشريفة مما يشينها ويحبط أجرها وفضلها الجسيم، وما احسب التعرض للسؤال عن تلك الأعمال التي استمرت السيرة عليها منذ مئات السنين وذلك بمشاهدة أعظم العلماء لها وصلحاء أهل الدين مع عدم النكير من واحد منهم لا حديثاً ولا قديماً مع أنها بمرئى منهم ومسمع ما أحسب وضعها في مجال السؤال والتشكيك إلا دسيسة أموية أو نزعة وهابية يريدون أن يتوصلوا بذلك إلى إطفاء ذلك النور الذي أبى الله إلا أن يتمه ولو كره الكافرون.

كما أنني لا ارتاب في أنه لو تمت لهم هذه الحيلة، ونجحت لا سمح الله هذه الوسيلة، وعطلت تلك المواكب والمراسم في سنتين أو ثلاث سرى الداء واستفحل الخطب وتطرقوا إلى السؤال والتشكيك فيما يقام في بلاد الشيعة من المآتم وجعلوا ذلك باباً إلى إماتة تلك المحافل والمحاشد التي بإحيائها إحياء الدين وبإماتتها إماتة ذكر الأئمة الطاهرين (سلام الله عليهم).

ومن له أقل إمام ووقوف على المجتمعات والجمعيات التي عقدت في هذه الأعصار في مصر ودمشق وغيرهما،^(١) وما أصبحت تنشره من المقالات والمؤلفات في إحياء ذكر بني أمية وتنزيههم وتبرير أعمالهم وتبرئتهم من قتل الحسن والحسين عليهما السلام والتنويه بذكر يزيد وأنه من الخلفاء الراشدين والأئمة المرضيين عرف من أين سرى هذا السم الخبيث، وجاءت تلك البلية التي تريد أن تقضي على حياة الشيعة وتزهق روح الشريعة ولا يروج هذا إلا على السذج والبسطاء والمغفلين الذين يقتلون الدين باسم الدين من حيث لا يشعرون.

فالرجاء والأمل من جميع إخواننا المؤمنين - ثبتهم الله بالقول الثابت وأيدهم بروح منه - ترك الخوض في مثل هذه الأمور المتسالم عليها خلفاً عن سلف والتي هي من أعظم الوسائل إلى نيل الشفاعة والدخول في سفينة النجاة وأبواب الرحمة، وليصرفوا أوقاتهم الثمينة في الاتفاق والتعاقد والتعاون على البر والتقوى فيما يعود إلى إصلاح شؤون دينهم ودنياهم وجمع كلمتهم على الحق والهدى إن شاء الله تعالى، ولا يخوضوا في ما يوجب اختلاف الأمة وتفرقة الكلمة، والله ولي التوفيق وبه المستعان.

ثم تتابعت البرقيات من البصرة وغيرها سائلين منه دام علاه طالبين فتواه في تلك الأعمال فكتب إليهم كتاباً أبسط من الجواب المتقدم، ومما قال فيه:

(١) - المقصود عصر الشيخ عليه السلام أي قبل أكثر من سبعين عاماً فالمسألة ليست جديدة بل متجددة لعلو شأن الشعائر في أيامنا .

أما الحكم الشرعي في تلك المظاهرات والموكب فلا إشكال في أن اللطم على الصدور وضرب السلاسل على الظهر، وخروج الجماعات في الشوارع والطرق بالمشاعل والأعلام مباحة مشروعة بل راجحة مستحبة وهي وسيلة من الوسائل الحسينية وباب من أبواب سفينة النجاة.

وأما الضرب بالطبول والأبواق وأمثالها، مما لا يعد من آلات اللهو والطرب فلا ريب أيضاً في إباحتها ومشروعيتها للإعلام والأشعار وتعظيم الشعائر.

التطبير: وأما الضرب بالسيوف أو الخناجر والإدماء فهو كسوابقه مباح بمقتضى أصل الإباحة بل راجح بقصد إعلان الشعار للأحزان الحسينية، نعم إلا أن يعلم بعروض عنوان ثانوي يقتضي حرمة شيء من تلك الأعمال الجليلة مثل كونه موجباً للضرر بتلف النفس أو الوقوع في مرض مزمن أما الألم الذي يزول بسرعة فلا يوجب الحرمة.

وكذلك الخروج في الشوارع إذا أوجب الفساد بالمقابلة أو المقاتلة فهو حرام أيضاً، وهذه عوارض وقتية وموارد شخصية لا يمكن ضبطها، وليس على الفقيه إلا بيان الأحكام الكلية، أما الجزئيات فليست من شأن الفقيه ولا من وظيفته، على أن أستلزمها للفساد أحياناً لا يوجب تحريمها أبداً.

(أما الشبيه) فلا ريب أن أصل تشبه شخص بآخر مباح جائز. كيف وقد ألقى الله سبحانه شبه نبيه عيسى عليه السلام على أبغض خلقه وهو (يهودا

الأسخريوطي) الذي نمّ على عيسى ﷺ عند اليهود وحرصهم على قتله كما أشار إليه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا قَنَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ هُمْ﴾^(١).

وكان أمين الوحي جبرائيل ﷺ يتشبه بدحية الكلبي إذا حضر في السدة النبوية والملائكة تشبهت يوم بدر بأمر المؤمنين (صلوات الله عليه).

نعم خروج النساء سوا فر محرم سواء كان في التشبيه أو غيره، وهذا لا يقتضي حرمة الشبيه بل ينبغي ويلزم التجنب عنه بنفسه ولو أن كل راجح يستلزم محرماً أو يقع فيه محرم تركناه لبطلت سنن الشريعة وقوّضت دعائم الدين، ولكن يلزم على أمناء العلم وحملة الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالموعظة الحسنة والقول اللين فإنها أنجع وأنفع في تهذيب الأخلاق وإصلاح النفوس.

ووصيتي ونصيحتي ورغبتني وطلبتني من كافة إخواننا المؤمنين البصريين خصوصاً ومن في سائر الأقطار عموماً أمران مهمان:

(الأول): تنزيه المواكب الحسينية الشريفة من كل ما يشينها ويدلسها ويخرج بها عن عنوان مظاهر الحزن والفجيعة، إذ ليس الغرض من تكرار فاجعة الطف كل سنة بل كل يوم اللهو واللعب بقصة من الأقايص وعجبية من الأعاجيب، بل في ذلك من الحكم السامية والأسرار المقدسية ما يقصر عنه اللسان ويضيق به البيان، فاللازم تطهير تلك المواكب الشريفة عن كل ما يمس شرفها وكرامتها حتى يترتب عليها آثارها المشروعة وغاياتها الشريفة التي من أجلها وفي سبيلها بذل الحسين (أرواحنا فداء) نفسه وأفلاذ قلبه وأعز أهل بيته وأصحابه

(١) - النساء : ١٥٧، وإنه استدلال متين من الشيخ الأجل كما لا يخفى على أهله.

حتى جرى عليه من زوابع الفجائع ما لم يجر على بشر، ولا نحسبه يجري على أحد من بعده.

(الأمر الثاني) ولعله أهم من الأول: ألا وهو رفض هذه الخلافات والمشاجرات التي لا تعود إلا بالضرر المبيد والضعف المهلك علينا معشر المؤمنين إنما اللازم المحتم علينا سيما في مثل هذه الأعصار أن نكون يداً واحدة أمام العدو الذي لا يزال يجد ويدأب في هدم ﴿يُؤْتِي أَذْنَ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمَهُ﴾^(١).

ولعمر الله والحق لئن استمر هذا الحال من تخاذلنا وتضارب بعضنا ببعض وتكالب الأعداء علينا من كل حدب وصوب لنذهبن ذهاب أمس الدابر ولا يبقى لهذه الطائفة أثر ولا عين. فالله الله يا عبادي الله الصالحين في جمع الكلمة ولمّ الشعث وتدارك الخطر قبل فواته ورتق الفتق قبل اتساعه، ونبذ تلك المشاجرات المفارقة والمؤججة لنيران العداوة المحرقة على غير طائل.

كونوا يا عباد الله إخواناً في دين الله رحماء بينكم أشداء على أعدائكم ولا تعكسوا الآية، فإن ذلك أربح وأنجح وأفضل وأجمل في الدنيا والآخرة، والله سبحانه ولي التوفيق لنا ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأرجو أن يكون هذا القدر على اختصاره يغني عن تأليف الرسالة وعسى مع سنوح الفرصة أن يوفق الله سبحانه لذلك إن شاء الله.^(٢)

(١) - سورة النور، ٣٦

(٢) - في ١٧ صفر سنة ٤٥

وحيث لم تنحسم الشبهة، ولم تبرء العلة، ولم تمسك السنة المعارضين بتلك البيئات الشافية لذلك تظاهرت وتضافرت عليه البرقيات من عدة جهات يرقبون إليه في أن يكتب، ما هو أبسط من ذلك فعزز ذلك بكتاب لم يبق للشبهة مجالاً ولا للشك موضعاً وكتب بقلمه ما نصه:

سألتكم (أعزكم الله) في عدة برقيات وردت إلينا منكم ومراسلات تتابعت لدينا عنكم عن المواقب الحسينية زاد الله شرفها وعمما يجري فيها من ضرب الرؤوس والصدور بالسلاسل والسيوف والإدماء وقرع الطوس والطبول والشبيه أو الخروج في الشوارع والأزقة بالهيات المتعارفة والكيفيات المتداولة في أكثر بلاد الشيعة (نصرها الله) سيما في العتبات المقدسة دام شرفها.

التشكيكات: ولعمري ما كنت أحسب أن هذا الموضوع يعرض على مطرقة النقد والتشكيك؛ أو يطرح في منطقة السؤال والترديد، كيف وقد مرت عليه الدهور والأحقاب وخضعت له أساطين الملة وأعلام الشريعة في جميع الأعصار والأدوار، وما أنكره منكر ولا اعترضه معترض، وهو بمراى منهم ومسمع ومنتدى ومجمع؛ وقد كان يجري في القرن الماضي أزمنة السيد بحر العلوم وكاشف الغطاء رحمهما الله من التشبيهات التي كانت تسمى (الدائرة) ما هو أوسع وأشيع، وأكثر وأوفر، مما يجري في هذه العصور وفضلاً عن سكوت أولئك الأساطين كانوا يمدونهم بالمساعدة، ويعضدونهم بالحضور والمشاهدة وفي كشف الغطاء وجامع الشتات للمحقق القمي وغيرهما من أقرانهما ما يشهد بذلك أكبر شهادة.

دع عنك هذه الشواهد والمشاهد وانظر إلى المسألة من وجهها العلمي ومن حيث القواعد والأدلة.

(أما أولاً): فالأصول الأولية تقضي بإباحة جميع تلك الأعمال وعلى مدّعي الحرمة إقامة الدليل عليها والأصل مع المنكر أي منكر الحرمة ومطالبته بالدليل تضليل.

(وأما ثانياً): فكل واحد من تلك الأعمال على الإجمال مما يتخرج لمشروعيته وجه وجيه عند المتصلّع الفقيه من عمومات الأدلة ومحكمات القواعد المعقولة والمنقولة.

اللطم واللدم: مَنْ ذَا يَشْكُ وَيَرْتَابُ فِي رَجْحَانِ مَوَاسَاةِ أَهْلِ الْبَيْتِ الرَّحْمَةِ الْمَهْدَاةِ، وَسَفْنِ النِّجَاةِ وَالتَّأْسِي بِهِمْ فِي الْأَفْرَاحِ وَالْأَتْرَاحِ وَالضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ، أَوْ مَنْ ذَا يَشْكُ أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَدْ لَطَمُوا فِي فَاجِعَةِ الطِّفِّ وَجُوهَهُمْ، وَلَدَمُوا صُدُورَهُمْ وَقَرَحَ الْبِكَاءُ خُدُودَهُمْ وَعَيُونَهُمْ، وَفِي زِيَارَةِ النَّاحِيَةِ الْمُقَدَّسَةِ: (فَبَرَزْنَ مِنَ الْخُدُورِ نَاشِرَاتِ الشُّعُورِ لِأَطْمَاتِ الْخُدُودِ سَافِرَاتِ الْوُجُوهِ) وَلَا تَقُلْ أَنَّ هَذَا مَخْصُوصٌ بِيَوْمِ الطِّفِّ وَمَا قَارِبِهِ، فَقَدْ رَوَى الصَّدُوقُ (رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِ) أَنَّ دَعْبِلَ لَمَّا أَنْشَدَ الرِّضَاءَ عليه السلام تَأْتِيَتُهُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي فِيهَا: (إِذَا لَلَطَمْتَ الْخَدَّ فَاطِمَ عِنْدَهُ) لَطَمْتَ النِّسَاءَ وَعَلَا الصَّرَاخَ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ وَبَكَى الرِّضَاءُ عليه السلام فِي إِنْشَادِ الْقَصِيدَةِ حَتَّى أَغْمِيَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ..^(١)

(١) - راجع البحار للشيخ المجلسي: ج ٤٥ ص ٢٥٧ لتقف على قصة الإمام الرضا مع دعبل وتأثيره الشهيرة.

فإذا جاز للرضاء عليه السلام أن يتعرض لسبب الإغماء الذي هو أخ الموت، فلماذا لا يجوز لشيعته ضرب الرؤوس والظهور ولدم الصدور وأمثالها مما هو دون الإغماء بكثير؟

خروج المواكب في الطرقات: بزغت شمس هذه الحقيقة المكنونة من عهد يناهز الألف سنة أعني من زمن معز الدولة وركن الدولة حيث أمرا بخروج مواكب العزاء يندبون سيد الشهداء (سلام الله عليه) وبأيديهم المشاعل ليلاً حتى تعود بغداد وطرقاتها ضجة واحدة وذلك في أخريات القرن الرابع على ما ذكره ابن الأثير في كامله في مواضع وكان ذلك العصر الزاهي حافلاً بأكابر علماء مذهب الإمامية كالشيخ المفيد وابن قولويه والسيدان الإمامين المرتضى والرضي (نور الله مرقداهم) وكان ملوك آل بويه قيد إشارة أولئك الأساطين ورهن أوامرهم ونواهيهم وحسبك ما شاع وأخذ بمجامع الأسماع من أن السيد رضي ورد لزيارة جده الحسين عليه السلام يوم عاشوراء في بعض السنين فرأى جماعة من الأعراب يعدون وهم ينوحون ويلطمون متهافتين للهجوم على الحائر الحسيني أي كما هو المعروف من عزاء طويريج فدخل في زمرتهم وانشأ في ذلك الحال على البديهة قصيدته الغراء المشهورة التي يقول في براعتها:

كربلا لا زالت كرباً وبلا ما

لقي عندك آل المصطفى

ولولا خروج المواكب في الطرقات لبطلت الغاية وفسدت الثمرة وانتفى الغرض المهم من التذكار الحسيني بل ومن الشهادة الحسينية كما يعرفه كل متعمق في الأسرار.

وأما ترتب بعض المحرمات عليه من فتنة وفساد ومضاربة ومقاتلة فذلك لا يستوجب حرمة الخروج الراجح فإن حرمة الشيء لا توجب حرمة ما يقع فيه، ومن تغنى في القرآن لا يقال له: إن قراءة القرآن حرام، بل التغني بالقرآن حرام، فليس الخروج حراماً بل المضاربة والمقاتلة محرمة أينما كانت.

ضرب الرؤوس والظهور بالسيوف والسلاسل: لا ريب أن جرح الإنسان نفسه وإخراج دمه بيده في حد ذاته من المباحات الأصلية ولكنه قد يجب تارة وقد يحرم أخرى، وليس وجوبه أو حرمة إلا بالعناوين الثانوية الطارئة عليه وبالجهات والاعتبارات فيجب كما لو توقفت الصحة على إخرجه كما في الفصد والحجامة، وقد يحرم كما لو كان موجباً للضرر والخطر من مرض أو موت وقد تعرض له جهة تحسنه ولا توجبه، وناهيك بقصد مواساة سيد أهل الإبا، وخامس أصحاب العبا، وسبعين باسل من صحبه وذويه، حسبك بقصد مواساتهم وإظهار التفجع والتلهف عليهم وتمثيل شبح من حالتهم مجسمة أمام عيون محبيهم، ناهيك بهذه الغايات والمقاصد جهات محسنة وغايات شريفة ترتقى بتلك الأعمال من أخس مراتب الحطة إلى أعلى مراتب الكمال.

(وإن الأولى بالطف من آل هاشم

تأسوا فسنوا للكرام التأسيا)

أما ترتب الضرر أحياناً بنزف الدم المؤدي إلى الموت أو إلى المرض المقتضى لتحريمه، فذاك كلام لا ينبغي أن يصدر من ذي لب فضلاً عن فقيه أو متفقه.

(أما أولاً): فلقد بلغنا من العمر ما يناهز الستين وفي كل سنة تقام نصب أعيننا تلك المحاشد الدموية وما رأينا شخصاً مات بها أو تضرر ولا سمعنا به في الغابرين.

(وأما ثانياً): فتلك الأمور على فرض حصولها إنما هي عوارض وقتية، ونوادير شخصية، لا يمكن ضبطها ولا جعلها مناسباتاً لحكم أو ملاكاً لقاعدة، وليس على الفقيه إلا بيان الأحكام الكلية، أما الجزئيات فليست من شأن الفقيه ولا من وظيفته.

والذي علينا أن نقول: إن كل من يخاف الضرر على نفسه من عمل من الأعمال يحرم عليه ارتكاب ذلك العمل.. ولا أحسب أن أحد الضاربين رؤوسهم بالسيوف يخاف من ذلك الضرب على نفسه ويقدم على فعله، ولئن حرّم ذلك العمل عليه فهو لا يستلزم حرمة على غيره.

وأما ما ورد في الأخبار وذكره الفقهاء في كتاب الحدود والديات من أقسام الشجاج (كالحارصة) وهي التي تقشر الجلد وفيها بعير (والدامية) وهي التي تأخذ من اللحم يسيراً وفيها بعيران وهلم جرا إلى (الهاشمية) وفيها عشرة، فمعلوم أن المراد ما لو جناه إنسان على آخر عدواناً، لا ما إذا فعله الإنسان بنفسه، ضرورة أن الإنسان لا يملك على نفسه شيئاً، وهذا مما لا أظنه يخفى على جاهل فضلاً عن فاضل، هذا وأن بالأصل الذي شيدناه من أن المباح قد تعرض له جهات محسنة يتضح لك الوجه في جميع تلك الأعمال العزائية في المواكب الحسينية.

ضرب الطبول ونفخ الأبواق وقرع الطوس: كلها أمور مباحة، فإنك أيها السامع تحس وكل ذي وجدان أنها لا تُحدث لك بسماعها طرباً ولا خفةً ولا نشاطاً، بل وبالعكس توجب هولاً وفزعاً وكمداً وحزنًا، فإذا

قصد منها الضارب الإعلام والتهويل ونظم المواكب وتعديل الصفوف والمناكب، حسنت بهذا العنوان، ورجحت بذلك الميزان.

الشبيه ومواكب التمثيل: مباح في حد ذاته وإن كان بتشبيه الأدنى بالأعلى والسافل بالسامي، والشريف بالعامي وذي الميزة بالعادي، كيف لا وقد ألقى الله تعالى شبه نبيه وروحه عيسى عليه السلام على أبغض خلقه إليه (يهودا الأسخر يوطى) الذي نم على عيسى وحث اليهود على صلبه. وكان أمين الوحي جبرائيل عليه السلام يتشبه بدحية الكلبى إذا حضر عند السدة النبوية وتشبهت الملائكة بأمر المؤمنين عليهم السلام يوم بدر.

وروى السيد ابن طاووس رضوان الله عليه في كتاب الإقبال في فضل زيارة النبي صلى الله عليه وآله يوم المولد ما نصّه: وفي حديث عن الصادق عليه السلام وذكر زيارة النبي صلى الله عليه وآله فقال: (إنه يسمعك من قريب ويبلغه عنك من بعيد، فإذا أردت ذلك فمثل بين يديك شبه القبر واكتب عليه اسمه وتكون على غسل ثم قم قائماً وقل أنت متخيل بقلبك مواجته..)^(١) إلى كثير من أمثال ذلك مما يضيق المقام عن تعداده كما يضيق المقام عن تعداد الحكم والمصالح والفوائد المترتبة على تلك المواكب التمثيلية، ولعلها أحد أسرار الشهادة ومفادات الإمام (سلام الله عليه) بنفسه وبأعز الأنفس على وجه الأرض.

الدروس السامية: إن تلك الأسرة السامية قد مثلت للناس مقام استهانة النفس واحتقار هذه الحياة الفانية في جنب تلك الحياة السرمدية والسعادة الأبدية وبذل كل عزيز إزاء العزة والإبء، علّمت الناس البسالة والأقدام، والتفاني في الحفيظة، ومجانبة الخضوع والذلة،

وما للنواميس الإلهية وللدِين من القداسة والتعظيم الذي تهون عندها تلك الأرواح المقدسة، والأعراض المصونة، علّمت الناس قوّة العزائم التي تهون عندها العظائم وتسهل دونها المصاعب.

ولعمر الله الحق أن تعطيل تلك المظاهرات والمواكب لا يلبث رويداً حتى يعود ذريعة إلى سد أبواب المآتم الحسينية، عندها (لا سمح الله) لا يبقى للشيعّة أثر ولا عين، ولتذهبن الشيعة ذهاب أمس الدابر، فإن الجامعة الوحيدة والرابطة الوثيقة لها هي المنابر الحسينية؛ والمآثر العلوية.. وما تلك الهنابث والوساوس إلا من جراء هاتيك الدسائس نزعة أموية ونزعة وهابية يريدون إحياء ذكر بني أمية؛ وإزهاق الحقيقة المحمدية ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ الْآلَانَ يُنِيرُ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

ويحسن هنا أن نورد لك ما ذكره جدّنا الشيخ الأكبر في كتاب (كشف الغطاء) فإنه قد أحرز جوامع التحقيق، وتكفّل بإيصالك إلى الحقيقة من أقرب طريق.

قال عليه السلام ما نصه: وأما بعض الأعمال الراجعة إلى الشرع ولا دليل عليها بالخصوص فلا تخلوا من أن تدخل في عموم الدليل، ويقصد بالإتيان بها الموافقة من جهته لا من جهة الخصوصية، كقول: أشهد أن علياً ولي الله لا بقصد الخصوصية ولا بقصد النصوية لأنهما معاً تشريع بل بقصد الرجحان الذاتي، أو الرجحان الفرضي، لما ورد من استحباب ذكر اسم علي متى ذكر اسم النبي.. إلى أن قال:

وكما يصنع مقام تعزية الحسين عليه السلام من دق طبل إعلام، أو ضرب نحاس، وتشابيه صور، ولطم على الخدود والصدور، ليكثر البكاء

والعويل، ثم ختم الفصل، بقوله: وجميع ما ذكر وما يشابهه إن قصد به الخصوصية كان تشريعاً، وإن لوحظ الرجحانية من جهة العموم فلا بأس فيه.

ولكنك عرفت مما قدمناه أن بعض تلك الأمور قد وردت فيه نصوص بالخصوص مثل اللطم واللدم فضلاً عن البكاء والعويل.

فذلكة المقام وخالصة الفتوى:

إن واقعة الطف وما جرى فيها من زوابع الفجائع واقعة خرقت النواميس الطبيعية والغرائز البشرية فضلاً عن الشرائع الإلهية، وما رأت عين الدهر ولا سمعت واعية الأزمان بواقعة مثلها ولا تسمع بمثلها أبداً، وكما أنها أخذت بمجامع الغرابة والتفرد في بابها فكذلك أحكامها غريبة الشكل، عديمة النظير، بديعة الأسلوب، متفردة في بابها.

الجزع والبكاء في المصائب مهما عظمت قبيح مكروه، ولكن صادق أهل البيت (سلام الله عليه وعليهم) يقول في حديث معتبر: (كل الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين (صلوات الله عليه).^(١))

شق الجيوب على الفقيد وخمش الوجوه محرم في الأشهر، ولكن صادق أهل البيت (سلام الله عليه) يقول في حديث وثيق: (لقد شققن الجيوب، ولظمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي عليه السلام.. وعلى مثله تلطم الخدود، وتشق الجيوب).^(٢)

(١) - آمالي الشيخ الطوسي: ج١ ص ١٨١، بهذيل حديث طويل وجميل.

(٢) - أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين: ج ٨ ص ٩

إيذاء النفس وإدناء الجسد مرغوب عنه مذموم، سيما من الأعظم وأرباب العزائم، والإمام الحجة عليه السلام يقول في زيارة الناحية: (فلأندبنك صباحاً ومساءً، ولأبكين عليك بدل الدموع دماً).^(١)

وقد سبقه إلى ذلك جدّه الإمام زين العابدين عليه السلام ففي بعض روايات المجلسي على ما يعلق ببالي من زمن متقادم: إن الإمام زين العابدين عليه السلام كان أحياناً إذا قدم إليه قدح فيه ماء بكى حتى يملأه دمعاً.^(٢)

وعلى هذه الوتيرة فاسحب وجرّ سائر الأعمال التي يؤتى بها بقصد الحزن والتوجع لفاجعة الطف، وأنها لعمر الله باب الرحمة الواسعة وسفينة النجاة من كل هلكة، ومنّ ذا يقدر على سد باب رحمة الله؛ أو يقطع أعظم الذرائع والوسائل إلى الله.

أقوال باهرة وكلمات زاهرة، من أحد العلماء الذين ملؤوا ولاء وإيمان، قال: إن من أمعن النظر وسبر غور الوقائع التاريخية في يده الديانة المقدسة الإسلامية وفلسفة نشوئها وارتقائها، وانتشارها واعتلائها، وجد أقوى الأسباب العادية بعد العناية الربانية، هو سيف الإمام أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) ومواقفه المشهورة، ومساغفه المشكورة، بحيث لولا كفاحه وصفاحه لما أخضر للإسلام عود، ولما قام له عمود، وكذلك من أعطى التدبر حقه وأمعن النظر في أسباب انتشار مذهب التشييع، واتساع نطاقه، وارتفاع رواقه، لم يجد له سبباً حقيقياً، وسراً جوهرياً، سوى شهادة الإمام أبي عبد الله الحسين (صلوات

(١) - زيارة الناحية المقدسة.

(٢) - أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين: ج ٨ ص ٩.

الله عليه) بذلك الشكل الغريب، والوقوع الهائل، ولولا شهادته (سلام الله عليه) لكانت الشريعة أموية، ولعادت الملة الحنيفية يزيدية، فحقاً أقول: أن الإسلام علوي، والتشيع حسيني.

أقول وحقاً ما أقول: إن من ليس له حبل ولاءٍ خاص إلى علي (صلوات الله عليه) فليس من الإسلام على شيء، ومن ليس له حبل ولاءٍ خاص بالحسين (سلام الله عليه) فليس من التشيع على شيء.

ولعل من هنا تجد أن لكل شيعي علاقة خاصة مع الحسين عليه السلام ليست له مع غيره من سائر الأئمة (سلام الله عليهم) مع أنه يعتقد بإمامتهم وفرض طاعتهم.

نعم، قد كان لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولذات الأئمة عليهم السلام علاقة خاصة بالحسين بخصوصه ليست لبعضهم مع بعض، فلقد كانت لهم لهجة خاصة بذكره، يعرفها من أنس بإخبارهم، ووقف على بعض أسرارهم، وهذه ميزة قد امتاز (سلام الله عليه) بها، ومزية قد تفرّد هو فيها، وكانوا جميعاً يشيرون إلى أن الحسين عليه السلام هو مستودع ذلك السر الإلهي الذي يستبين به الدّين ويميّز الله به الخبيث من الطيب؛ والحق من الباطل. وما تبين الرشيد من الغي، والهدى من الضلال، إلا بالحسين (سلام الله عليه)، وإلا فقد ارتبك الأمر بعد النبي على عامة المسلمين واختلط الحابل بالنابل، والحق بالباطل، سيما بعد صلح أخيه الحسن (سلام الله عليه) الذي كان أيضاً بأمر من الله سبحانه، ولكن نهض الحسين (سلام الله عليه) تلك النهضة الباهرة فقصّ سحب الأوهام؛ وانتزع النور من الظلام، وأصحر بالهدى لطالبه، وبالحق الضائع لناشده.

وهذه إحدى المزايا التي امتاز بها وتفرّد وكان من قبله من الأئمة ومن بعده يشيرون إليها، ويدلّون الناس عليها، وكانت نسبتها إليهم في تلك على حد قول القائل:

ولست ترى في محكم الذكر سورةً تقوم مقام الحمد والكل قرآن
ويتفرّع من هذه المزية مزايا تفوت حدّ العدّ؛ ويحصر عنها لسان
الحصر؛ كان من مزاياه التي انفرد بها؛ وامتاز عن غيره فيها:

أنه ربما رآه وكلمه أعدى عدو له، فانقلب أكبر محب له، وحسبك
بحديث زهير بن القين وكان عثمانياً أبغض شيء إليه أن ينزل
الحسين عليه السلام في منزل فما اجتمع به وكلمه بضع كلمات حتى طلق
الدنيا وزوجته وفداه بنفسه، ولا تحسب أن هذه من منفردات الشيعة
ورواياتهم، فإن في كتب علماء السنة قد يوجد ما هو أعجب من ذلك.

هذا مجد الملك بن شمس الخلافة أحد وزراء العلماء في مصر،
المتوفى في حدود الستمئة على ما ذكره ابن خلكان في ترجمته، ذكر
في كتاب له ألفه في محاسن المحاضرة وآداب المسامرة، فقال: إن
عصام بن المصطلق وكان شامياً أمويّاً، قال:

دخلت المدينة فرأيت الحسين بن علي (سلام الله عليهما) ومعه
غلمانة وحاشيته فأعجبني سمته ورواؤه؛ وحسنه وبهاؤه؛ وأثار الحسد
ما كان يخفيه صدري لأبيه من البغض فجئت إليه، وقلت له: أنت ابن
أبي تراب؟

فقال: نعم.

فبالغت في شتمه وشتم أبيه.. فنظر إليّ نظرة عاطف رؤوف برقة
ورحمة، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّكَ الَّذِي
 اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٣١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ
 يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١﴾﴾

ثم قال لي: «خَفَضَ عَلَيْكَ، اسْتَغْفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكَ، إِنَّكَ لَوْ اسْتَعْتَنَّا
 لِأَعْنَاكَ، وَلَوْ اسْتَرْفَدْتَنَا لَرَفَدْنَاكَ، وَلَوْ اسْتَرَشَدْتَنَا لِأَرَشَدْنَاكَ»

قال عصام: فندمت على ما قلت وتوسم مني الندم على
 ما فرض مني فقال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ
 أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٢﴾﴾

ثم قال ﷺ: «أَمِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَنْتَ؟»

قلت: نعم.

فقال: «شَنْشَنَةُ أَعْرَفَهَا مِنْ أَحْزَمٍ،^(٣) حَيَّانَا اللَّهُ وَإِيَاكَ انْبَسَطَ إِلَيْنَا فِي
 حَوَائِجِكَ وَمَا يَعْرُضُ لَكَ تَجَدْنَا عِنْدَ أَفْضَلِ ظَنِّكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

قال عصام: فضاقت عليّ الأرض بما رُحِبْتُ ووَدَدْتُ لَوْ أَنَّهَا سَاخَتْ
 بِي، ثُمَّ انْسَلَلْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ لَوْ إِذَا وَمَا عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ
 وَمِنْ أَبِيهِ.^(٤)

وكم لهذه الواقعة من نظائر لا يسعها المقام ولكن من عرف
 للحسين ﷺ بعض هاتيك المزايا والخصوصيات لا شك أنه يستقل في

(١) - الأعراف: ٢٠١

(٢) - يوسف: ٩٢

(٣) - مثل عربي مشهور.

(٤) - كلمات الإمام الحسين ﷺ: ج ١ ص ١٠٤

عزائه الكثير، ويستحققر الأمر الخطير، ويرى دون ما يستحقه كل تلك الشعائر والمظاهرات، والموكب، والنزعات.

نعم وإذا كان الشامي الأموي بنظرة واحدة وكلمات معدودة يعود وما على وجه الأرض أحب إليه من الحسين وأبيه، فما عذر الشيعة في إبداء الوهم والتشكيك في المواكب الحسينية والشؤون العزائية؟

وأما والله لولا استمرار تلك الشعائر، وقيام أعواد هذه المنابر، واستدامة التوجع والتفجع، لانظمت أعلام التشيع.. ولكن نسأله تعالى أن يمن علينا بنفوذ البصيرة، ونزع بذور الأغراض من لوح السريرة، لنرى الحقائق كما هي إن شاء الله.

الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري قده

وهذا علم الأعلام وأستاذ أساتذة المذهب الشريف وكبير علماء الطائفة المحقة فقد نُقل عن كتاب (سرور العباد) الرسالة العملية لسماحة آية الله العظمى الشيخ مرتضى الأنصاري قده المحشاة بحاشية سماحة آية الله المجدد الميرزا الشيرازي الكبير السيد محمد حسن قده: جواز ورجحان التطبير الذي لا يوجب ضرراً على النفس، قال في سرور العباد آخر الصفحة الثانية من المسائل المتفرقة (طبعة عام ١٣٠٤ هـ) ما ترجمته بالعربية: (مسألة في إقامة عزاء الحسين عليه السلام إذا أورد شخص الجرح بمثل السيف ونحوه على نفسه ولم يكن مضراً جائز).

الإمام المجدد الشيرازي الكبير قَدَسَ سَمُوهُ

وجاء في كتاب (رنة الأسي بمراسم العزاء لسيد الشهداء) للشيخ عبد الله السببتي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نقلاً عن سماحة آية الله الميرزا علي الشيرازي نجل الميرزا الكبير الشيرازي قَدَسَ سَمُوهُ: إنه كان يدفع بأمر من والده قَدَسَ سَمُوهُ ثمن الأكفان لمواكب التطبير في سامراء من أموال والده قَدَسَ سَمُوهُ الخاصّة.

وأضاف أيضاً، نقلاً عن سماحة آية الله الشيخ جواد البلاغي قَدَسَ سَمُوهُ كما في كتاب (نصرة المظلوم) للشيخ إبراهيم حسن آل المظفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن مواكب التطبير كانت تجتمع في بيت سماحة آية الله الميرزا محمد حسن الشيرازي الكبير قَدَسَ سَمُوهُ وكانوا هناك يجرحون رؤوسهم ويشدخونها بالقامات، ثم يخرجون منه والدماء تسيل من رؤوسهم على أكفانهم، كما أن الميرزا قَدَسَ سَمُوهُ كان قد تعهد بدفع ثمن أكفانهم التي يلبسونها في عزاء التطبير.

فإذا كانت المواكب المعزية تجتمع في بيت المرجع، وتشدخ رؤوسها هناك، بعد أن يدفع لهم ثمن الأكفان التي يلبسونها من ماله الشخصي، فهل يعني ذلك أنه يحرمها، أو أن فيها إشكال شرعي، فلو كان فيها أدنى شك بمجاورة الحرام، أو حماه هل كان المجدد الشيرازي يفعلها؟ لا أعتقد ذلك والله.

فتوى الشيخ حسين النائيني قَدَسَ سَمُوهُ

ولزيادة الفائدة ولمزيد من الإطلاع لمن لم يطلع ننقل بعض النصوص والفتاوى لكبار مراجعنا - رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقيين ذخرًا وذخيرة - وهي مما اشتهر عنهم وليست بخافية، وإليك نص الفتوى العظيمة التي أصدرها المرجع الديني العملاق آية الله

الشيخ محمد حسين النائيني حول جواز واستحباب الشعائر الحسينية، والتي أعلن كبار مراجع الطائفة تأييدهم لها:

بسم الله الرحمن الرحيم

١- خروج المواكب العزائية في عشرة عاشوراء ونحوها إلى الطرق والشوارع مما لا شبهة في جوازه ورجحانه، وكونه من أظهر مصاديق ما يقام في عزاء المظلوم، وأيسر الوسائل لتبليغ الدعوة الحسينية إلى كل قريب وبعيد.

لكن اللازم تنزيه هذا الشعار العظيم عما لا يليق بعبادة مثله، من غناء، أو استعمال آلات اللهو، والتدافع في التقدم والتأخر بين أهل محلّتين، ونحو ذلك. ولو اتفق شيء من ذلك، فذلك الحرام الواقع في البين هو المحرّم، ولا تسري حرمة إلى الموكب العزائي، ويكون كالنظر إلى الأجنبية حال الصلاة، في عدم بطلانها.

٢- لا إشكال في جواز اللطم بالأيدي على الخدود والصدور إلى حدّ الاحمرار والاسوداد، بل يقوى جواز الضرب بالسلاسل أيضاً على الأكتاف والظهور إلى الحدّ المذكور، بل وإن تأدّى كل من اللطم والضرب إلى خروج دم يسير على الأقوى.

وأما إخراج الدم من الناصية بالسيوف والقامات، فالأقوى جواز ما كان ضرره مأموناً (مقصود الشيخ من الضرر؛ هو الانجرار إلى الموت، أو الإصابة بمرض ذي ألم شديد دائم لا يتحمّل عادة، أو استئصال (إفساد) عضو من أعضاء الجسم.. كما يظهر ذلك من تقارير دروس الشيخ النائيني في الأصول والفقه)، وكان من مجرد إخراج الدم من الناصية بلا صدمة على عظمها، ولا يتعقب عادة بخروج ما يضر خروجه من

الدم ونحو ذلك.. كما يعرفه المتدربون العارفون بكيفية الضرب، ولو كان عند الضرب مأموناً ضرره بحسب العادة، ولكن اتفق خروج قدر ما يضر خروجه، لم يكن ذلك موجباً لحرمته، ويكون كمن توضع أو اغتسل أو صام أمناً من ضرره، ثم تبين ضرره منه.

لكن الأولى، بل الأحوط، أن لا يقتحمه غير العارفين المتدربين، ولا سيما الشبان الذين لا يباليون بما يوردون على أنفسهم، لعظم المصيبة، وامتلاء قلوبهم من المحبة الحسينية، ثبتهم الله تعالى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

٣- الظاهر عدم الإشكال في جواز التشبيهات والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة الإمامية باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون، وإن تضمنت لبس الرجال ملابس النساء على الأقوى.

٤- الدِّمَامُ المستعمل في هذه المواكب مما لم يتحقق لنا - إلى الآن - حقيقته، فإن كان مورد استعماله هو إقامة العزاء وعند طلب الاجتماع، وتنبية الراكب على الركوب، وفي الهوسات العربية ونحو ذلك، ولا يستعمل في ما يطلب فيه اللهو والسرور، كما هو المعروف عندنا في النجف الأشرف، فالظاهر جوازه. والله العالم^(١)

تأييد الفقهاء لفتوى الشيخ النائيني

تسالم واتفق المثات إذا لم نقل الألف من أعلام الطائفة على تأييد ومساندة الشيخ النائيني في فتواه الشهيرة حول الشعائر ومشروعيتها

(١) - طبعت هذه الفتوى مرات عديدة بشكل مستقل وغير مستقل في العراق وبعض دول الخليج. وكانت بتاريخ: ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٥هـ

بل ورجحانها، ومن هؤلاء الأعلام نختار ربما الأشهر والأعلم، لتكون الحجة أكمل وأتم على المهرجين بشعائرننا المحترمة.

سماحة الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم قده

ما سطره أستاذنا الأعظم قده في نهاية المتانة، وفي غاية الوضوح بل هو أوضح من أن يحتاج إلى أن يُعَضد بتسجيل فتوى الوفاق، والمظنون أن بعض المناقشات إنما نشأت من انضمام الحزن على سيد الشهداء عليه السلام فالأمل بل اللازم والاهتمام بتنزيهها عن ذلك والمواظبة على البكاء والحزن من جميع مَنْ يقوم بهذه الشعائر المقدسة، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.^(١)

سماحة الإمام السيد الأستاذ أبو القاسم الخوني قده

ما أفاد شيخنا الأستاذ قده في أجوبته هذه عن الأسئلة البصيرية هو الصحيح، ولا بأس بالعمل على طبقه، ونسأل الله تعالى أن يوفق جميع إخواننا المؤمنين لتعظيم شعائر الدين والتجنب عن محارمه.

وباستفتاء آخر له حول الشعائر الحسينية، قال قده:

المنع من الشعائر المذهبية والتي من جملتها إقامة التعازي على الأئمة الهداة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام بالإضافة إلى أنه لا أساس له، مخالف لما ورد عنهم عليهم السلام من تشجيعها والحث عليها.

كما أنه لا تنافي بين نشر وتبليغ أهداف الإمام الحسين وسائر الأئمة المعصومين عليهم السلام، وبين ذكر مصائبهم، بل ذكر مصائبهم وإظهار الحزن والتأثر عليهم يؤكد لتحقيق أهدافهم، وذلك لما فيه من بيان ظلم الغاصبين لحقوقهم، والبراءة منهم، كما أن فيه الدرس الوافي للتعلم من سلوكهم ومظلوميتهم، والموالاتة لهم، صلوات الله عليهم أجمعين^(١).

فتاوى ومسائل الإمام السيد أبو القاسم الخوئي قدس سره (٢)

مسألة (٢٤٣): يقام في ذكرى الأربعين من كل عام مواكب العزاء ويصور مشاهد ذلك اليوم من الخيام والخنادق وما شابه، ويصادف أن يقف النساء لمشاهدة الموقف، ومن هنا قال بعض الناس: لما كانت هذه الأعمال تسبب موقف النساء إلى جنب الرجال وما قد يسببه هذا من أمور لا ترضي الله سبحانه فإنه يجب ترك هذا العمل فما تقولون؟

بسمه تعالى: لا يجب ترك العمل المزبور، ولا بأس به في نفسه، بل هو من شعائر المذهب، ولكن اللازم أن يسد طريق الفساد ويمنع منه، والله العالم.

مسألة (٢٤٤): بعض الناس في اليوم العشرين من شهر صفر أو اليوم العاشر من المحرم وفي أثناء المواكب يحملون معهم صوراً مجسمة تمثل مثلاً: الرضيع وهو مذبح من الوريد إلى الوريد أو رأس الحسين عليه السلام محمولاً على الرمح كل ذلك تصويراً للموقف ومنهم من

(١) - ١٦ / رجب الحرام / ١٣٩٩ هجرية

(٢) - (من كتاب: مسائل ورود ج ١ ص ٨٦ و ٨٧)

يتمثل بشخصية شمر بن ذي الجوشن أو حرملة بن كاهل أو عمر بن سعد عليهم اللعنة الدائمة... فماذا تقولون؟

بسمه تعالى: لا بأس بكل ذلك في نفسه إلا إذا استلزم الهتك أو المحرم الآخر فعندئذ لا يجوز والله العالم.

مسألة (٢٤٥): هل يجوز خلع الثياب للغزاة؟

بسمه تعالى: نعم لا بأس فيه والله العالم.

مسألة (٢٤٦): في المواكب الحسينية يدرج (طبل)، فهل هو من

آلات اللهو؟ وما رأيكم؟

بسمه تعالى: الطبل المعمول في المواكب ليس من آلات اللهو فلا

بأس به في نفسه إذا لم يصاحب حرماً والله العالم.

سماحة الشيخ جواد التبريزي رحمته الله

قراءة المراثي والتعازي على أهل البيت النبوة والعصمة (سلام الله عليهم) من الأعمال الشرعية المستحبة، وكذلك إقامة المنبر الحسيني ومذاكرة الفضائل الأخلاقية، والخصائص الإنسانية لهم عليهم السلام من أفضل المجالس الدينية، التي يقف المسلمون من خلالها على حقيقة الإسلام، ومعرفة التوحيد، وعلى أهمية البحث عن الحق، والتعرف على مدى تضحية الأئمة المعصومين عليهم السلام وأصحابهم الأوفياء في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين.

وعلى المؤمنين الكرام، الاهتمام بإقامة هذه المجالس والمحافل، بكل ما يقدرون عليه من عظمة وجلال، فإن في ذلك نشر الإسلام، وتعميم الثقافة الإسلامية الصحيحة، ودرك الحقائق والأحكام الإلهية.^(١)

سماحة آية الله السيد كاظم المرعشي دامّ ظلّه

في تعليقه على استفتاء حول ما أفتى به سماحة آية الله النائيني قدس سره فيما يرتبط بإقامة الشعائر الحسينية: ما أفتى به سماحة الأستاذ المحقق المرحوم آية الله العظمى النائيني قدس سره في رجحان وجواز إقامة عزاء أبي عبد الله الحسين عليه السلام بصورها المختلفة، في أعلى مراتب الصحة، ولا يشوبه شك ولا تردد إلا من أعداء الدين، وإغواء الشياطين، وعلى محبي أهل البيت ومواليهم وشيعتهم، أن لا يقعوا عرضة لهذه التسويلات، بل عليهم أن يشتدوا في مقابل ذلك حماساً ونشاطاً في إقامة الشعائر الحسينية، وخصوصاً مجالس التعزية والقراءة، فإنها توجب الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.^(٢)

سماحة آية الله السيد مهدي المرعشي دامّ ظلّه

إقامة عزاء سيد الكونين أبي عبد الله الحسين (روحي وأرواح العالمين له الفداء) فرع مضيء من الأنوار الملكوتية، وشعار مبارك من الشعائر الإلهية.. وقد أثبت التاريخ أن مذهب التشيع هو المذهب الوحيد من بين المذاهب الإسلامية، الذي استطاع عبر إقامة الشعائر

(١) - في ١١/ شوال المكرم / ١٤٠١ هجرية

(٢) - ١ شعبان المعظم ١٤٠١ هـ

الحسينية من تحكيم موقعية الدين الإسلامي المبين، والترويج لأحكام سيد المرسلين، ونشر المذهب الجعفري وإيصال صده إلى العالم الإسلامي، وإحياء القسط والعدل، وإدانة الظلم والعدوان، وإيابة المفسدين والظالمين وأعاونهم في القرون الماضية، وكذلك في الحاضر وسيظل ويبقى في القرون الآتية.

وإن ما أفاده الأستاذ سماحة آية الله العظمى الحاج ميرزا حسين النائيني قدس سره في هذا المجال إنما هو في الحقيقة نفحة من نفحات الرحمن، فقد صدر من أهله ووقع في محله.

وعلى المؤمنين أن يسعوا غاية جهدهم في متابعة ما أفتى به سماحته، وتطبيقه كاملاً وبحذافيره، دون أي تقصير.^(١)

المجدد الثاني سماحة المرجع السيد محمد الشيرازي قدس سره

الشعائر الحسينية بجميع صورها جائزة وراجحة توجب الأجر والثواب إن شاء الله تعالى، ما عدا ما يسبب قتل النفس أو تلفاً لبعض الأعضاء، فإنهما محرمان في الشريعة الإسلامية، والضرر القليل الذي لا يؤدي إلى القتل أو التلف لا يوجب تغير الحكم، والاستهزاء لا يسبب رفع اليدين عن الأحكام الشرعية، والله المستعان.

سماحة المرجع السيد محمد صادق الروحاني قدس سره

فقد كثر التساؤل عن حكم المواكب العزائية، والشعائر الحسينية، والمظاهرات وما يتعلق بها من خروج الجماعات في الشوارع والطرق بالمشاعل والأعلام واللطم على الصدور والوجوه والرؤوس وضرب السلاسل على الظهور والضرب بالطبول والأبواق والتطبير والضرب بالسيوف أو الخناجر على الرؤوس والتشبيهاً والتمثيلات التي جرت عادة الشيعة باتخاذها لإقامة العزاء.

وقبل الجواب على هذا السؤال لابد من تقديم مقدمات:

الأولى: إن قيام سيد شباب أهل الجنة ورأس أباة الضيم أبي عبد الله عليه السلام وتلك التضحية المقدسة صارت سبباً لإحياء الدين بعد اندراسه وافتطاسه، بحيث ما كان من الإسلام شيء باقياً إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، ولذلك قالوا من قديم: أن الإسلام محمدي الحدوث وحسيني البقاء.

وعليه فإقامة العزاء له عليه السلام وتحليل تلك التضحية المقدسة تكون تربية عملية للمسلمين تعلمهم بأن لا يسكنوا أمام المبتدعين في الدين المعاندين للحق الذين إذ خلا لهم الجو بدّلوا أحكام الله تعالى وغيروا سنة رسول الله عليه السلام وإن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، ويؤثر في التخلص عن الظلم والتعدي وعن استعباد الظلمة والطغاة وهذا أمر واضح لا يدخله الشك، والتجربة القطعية دلّتنا على أنه في كل عصر تركت هذه الوظيفة لزوم من ضعف التشييع والدين وفي أي عصر عملوا بها آل أمر المجتمع إلى الصلاح والعزة ولاحت لهم آيات السعادة.

الثانية: أن تلك التضحية كما صارت سبباً لإيقاظ المسلمين وقوة للدين مما دعا رؤساء الدين في تشكيل مجالس العزاء وتحليل تلك الواقعة وتربية المسلمين على ضوئها، وكل أعداء الإسلام قعدوا لهم بالمرصاد وفكروا في القضاء على الإسلام بإخماد تلكم الشعائر، لما رأوا من عظم تأثيرها في حفظ كيان الإسلام والتشيع، فأخذوا يسعون بشتى الطرق والوسائل لتضعيفها ومحوها علق في نفوس المسلمين من السير على هداها ومن أشدها فتكاً هو خلق إشكالات تافهة ومناقشات واهية على هذه المواكب والشعائر الحسينية فأوردوا إشكالات لا نصيب لها من الحقيقة ولاحظ لها من الواقع وليست هي إلا مغالطات أوجبت ضلالة ضعفاء الإيمان والعقيدة.

الثالثة: أن قبل قرنين من الزمن تقريباً أنشب الاستعمار الأوروبي مخالفه في إيران وفي كثير من بلاد الشرق الإسلامي، ولكن الاستعمار الأوروبي علم من أول وهلة أن استعمار هذه البلاد لا يتم مادام المسلمون يطبقون أحكام الإسلام وقوانينه ويتبعون إرشاداته وتعاليمه ويسيروا على هدى هذه التضحية وضوئها وبهذا صرح (كلادستون) رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت فخلقوا الأحزاب السياسية وأعطوا بعضها صبغة دينية ليكون تأثيرها في النفوس أشد، واجتهدوا في ترويجها في بلاد المسلمين وكان من المناهج الدستورية والتربوية لبعض تلكم الأحزاب المبارزة مع الشعائر الحسينية التي بها تقوى شوكة الطائفة الجعفرية وترغم أنوف أعدائهم وبها توحد الصفوف وتتشكل الأفراد وتأتلف الجماعات.

إذا تمهدت هذه المقدمات ظهر لك أن إقامة هذه المواكب والشعائر الحسينية بشرط خلوها عن المحرمات الشرعية في هذا الزمان الذي قعد

أعداء الإسلام لهم بالمرصاد وهم يفكرون في إخماد هذه الشعائر يكون من الواجبات، فعلى كل مسلم السعي في إقامتها.

وأما الجواب عن الأسئلة الموجهة إلينا ففي ضمن مسائل:

الأولى: لا شبهة في جواز اللطم على الصدور والوجوه حد الاحمرار والاسوداد، بل وإن أدى إلى خروج الدم.

وكذا الضرب بالسلاسل على الأكتاف ورُجحان ذلك كله، فعن صادق أهل البيت عليهم السلام: (على مثل الحسين فلتشق الجيوب ولتخمش الوجوه ولتظلم الخدود).^(١)

الثانية: لا إشكال في جواز خروج المواكب في الشوارع والطرق بالمشاعل والأعلام ورجحانه وهو وسيلة من الوسائل الحسينية وباب من أبواب سفينة النجاة.

الثالثة: أن الضرب بالطبول والنفخ في الأبواق وأمثالها، إن كان مورد استعمالها هو إقامة العزاء وعند طلب الاجتماع وتنبيه الراكب على الركوب وفي الهوسات العربية ونحو ذلك فجائز وراجح ومن الوسائل لتبليغ الشعائر الحسينية.

الرابعة: إن الضرب بالسيوف أو القامات أو الخناجر على الرؤوس وإخراج الدم (التطبير) إن لم يوجب هلاك النفس ولا شلّ قوة من قواها فهو جائز وراجح وهو من الشعائر الدينية الحسينية التي أمرنا بتعظيمها.

الخامسة: لا إشكال في جواز التشبيهات التي جرت عادة الشيعة باتخاذها لإقامة العزاء والبكاء والإبكاء منذ قرون وإن تضمنت لبس

الرجال ملابس النساء وبالعكس، ورجحانها جميعاً.. وعلى ذلك بناء العقلاء في الأمور المهمة التي يبتني عليها المسلك والمرام فإن بنائهم على ارائة التشبيهاً لتكلم الأمور إذ في الرؤية أثر ليس في السماع وهذا أمر وجداني يدركه كل أحد.^(١)

فتوى الشيخ المرجع الوحيد الخراساني دَامَ ظِلُّهُ

فقد جاء بمحاضرة رائعة لسماحة آية الله العظمى الشيخ (وحيد الخراساني) (دام عزه، ورُفِعَ ذكره، ودَامَ ظِلُّهُ) التي ألقاها في آخر درس من دروس بحثه الخارج قبل يوم الأربعاء للسبب الشهيد، ردّ فيها بشدة على المعارضين للشعائر الحسينية، وكما حذّر بشدة أولئك الذين يسعون بأية طريقة لمحاربة الشعائر الحسينية واصفاً أعمالهم تلك أنهم يكسرون ظهر خاتم النبيين ﷺ، وفعرف مَنْ هو الفقه، ومَنْ هم الذين يُلقَبون بالفقهاء؟

ومما قال فيها: (بما أننا على أعتاب الأربعين والبعض عازم على السفر، هذا السفر الذي لا بد على الجميع أن يبدي اهتماماً للتوفيق بالإنذار والإرشاد فيها، وهو نتيجة التفقه في الدين؛ وفي الدرجة الأولى معرفة الله؛ ولا يمكن معرفة الله إلا بمعرفة سبيل الله، وباب الله، وصراط الله، وبنص القرآن: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)

لذلك فإن لمعرفة الله حيثيتان:

(١) - ٨ / صفر / ١٣٩٧

(٢) - البقرة: ١٨٩

إحدى هذين الحثيثتين أمر بنفسه به الوجود، وبه النعم، وكل ما في الكون به، وجهة الطريق؛ هو أنه وسيلة معرفة مبدأ ومنتهى الوجود ويتيسر بمعرفته، معرفة مَنْ منه الوجود ومعرفة الذات القدوسي الذي هو أعلى وأجل من أن يوصف وهو بوسيلته.

إن ما ورد في زيارات الأئمة وما حظي باهتمام العلماء هي هذه الجملة «عارفاً بحقه»؛ فيجب التأمل بدقة في هذه العبارة؛ هنالك أمرين يمكن استفادتهما من عبارة (عارفاً بحقه):

إحداها: الحق العام؛ وهو حق الإمامة الكبرى، والولاية العظمى.

وإحداها: الحق الخاص؛ (عارفاً بحقه)؛ لكل إمام حق، ومعرفة ذلك الحق هو أهم أصل في معرفته.. ويجب أن تكون المعرفة قائمة على أساس الحكمة، وما غير الحكمة فإن أصل المعرفة ليست ميسرة.

(والحكمة) عبارة عن المعرفة الحقيقية: إمّا ب (اللّمي)؛ وإمّا

ب (الإنبي).

هذين الطريقتين جوهر الحكمة، وأساس المعرفة، فيجب أن تكون حجة، والحجة عبارة عن العلم، والعلم إذا كان بناءً على الأساس المؤسس، فإنه معرفة تنتهي إلى المعرفة بالنورانية وهو لا يمكن وصفه.

سيد الشهداء الذي تنتهي هذه الأيام إلى أربعينه؛ معرفته (لّمياً)، ومعرفته (إتياً)، تنتهي إلى درجة عظيمة، وكبيرة بحيث لا يستطيع غير الخصيصين من الأولياء أن تكون لديهم صلاحية درك هذا الأمر.

الميرزا الشيرازي وهو فحل الفحول، وكذلك من تعظيم النائيني، والآخوند، ومن عظمة الميرزا يتبين هذا الأمر، ذلك المحقق، وهو مؤسس مدرسة سامراء، وخريج تلك المدرسة هو الميرزا الثاني،

وأساطين فقه المتأخرين هم خريجي تلك المدرسة، هذه العبارة تدل على كيف أن هذا الرجل وصل إلى هذه الحقيقة؛ حينما صعد أحد العظماء المنبر في مجلسه، ذاك المجلس الذي كان قارئه مَنْ؟ قارئه المحقق العظيم مؤسس الحوزة الكبرى لقم (الشيخ عبد الكريم الحائري) التي تحولت اليوم إلى أكبر المراكز العلمية للتشيع؛ هذا الرجل العظيم في ذلك اليوم كان يقرأ ماتم المُصاب في محضر الميرزا. المجلس كان مثل ذلك المجلس؛ وحينما جلس ذلك العالم النحرير على المنبر في محضر الميرزا، قال كلمة؛ كل شخص يمكنه أن يسمع هذه الكلمة، ولكن الأمر يتطلب إلى معرفة ليفهم ما معناها؟، بمجرد أن بدأ بقراءة المقتل، أول عبارة قالها هي هذه العبارة: (دخلت زينب على ابن مرجانة)، بمجرد أن قالها صرخ الميرزا: كفى؛ يكفي؛ ومن الصباح، وحتى الظهر.. كان الميرزا يلطم على رأسه وصدرة.

هكذا كان المجلس؛ هذه هي المعرفة، أين هذه المعرفة؟ مَنْ عرف مَنْ هي زينب؟ هو عرفها؛ حينما سمع مَنْ دخل على مَنْ، انكسر ظهره. نحن، لا لسنا نحن، الأولين والآخرين قد انمحوا هنا، من هو؟ ما عمله؟ هنالك موضوعين: الأول الفاعل، والآخر الفعل؛ الأول المؤثر، والآخر الأثر؛ الأول العلة، والآخر المعلول؛ على أساس قانون التناسب والسنخية بين الفاعل والفعل؛ والمؤثر والأثر، هنالك بحثين:

أحدهما: هو أنه مَنْ هو الحسين بن علي؟ هذا البحث دركه فوق الطاقة البشرية.

وأما البحث الثاني: ما هو عمل الحسين بن علي؟

الدهر قد رأى أياماً، رأى يوم آدم، رأى يوم نجى الله نوح، رأى يوم خليل الله إبراهيم، رأى يوم كلیم الله موسى، رأى يوم كلمة الله عيسى بن مريم، رأى يوم جوهرة العالم وعصارة الخلقة، أي قلب عالم الوجود خاتم النبيين (اللهم صل على محمد وآل محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين)، هذا الدهر رأى أيام مائة وأربعة وعشرون ألف نبي؛ أولهم آدم وآخرهم الخاتم، رأى مائة وأربعة وعشرون ألف وصي؛ أولهم هبة الله وآخرهم أمير المؤمنين، ويعسوب المسلمين (عليه صلوات الله وصلوات المصلين).

الدهر رأى كل هذه الأيام، أيام جميع الشهداء، من البدو إلى الختم، أيام الصديقين من البدو إلى الختم؛ لكن ما هو محيّر العقول هو أن حجة الله، لسان الله، أي الذي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(١)

يقول: (لا يوم كيومك)^(٢)؛ أنتم الحاضرين هنا وبلا مجاملة بعضكم أساتذة خارج الفقه والأصول، وبعضكم أساتذة السطوح العالية للفقه، يجب عليكم أن تفهموا هذه الأمور وتُفهموه للآخرين، حينما يقول: (لا يوم كيومه)؛ إنه يرى جميع الأيام، ويرى جميع الأحداث، ثم يقول: (لا يوم كيومه)، هذا كان عمل مَنْ؟ وماذا فعل؟

(١) - النجم: ٣

(٢) - العوالم: ١ ص ١٥٦، عن المفضل بن عمر، عن الصادق، عن أبيه، عن جده: أن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ دخل يوماً إلى الحسن ﷺ فلما نظر إليه بكى، فقال له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: أبكي لما يصنع بك، فقال له الحسن ﷺ: إن الذي يؤتى إلي سم يدس إلي فاقتل به، ولكن لا يوم كيومك يا أبا عبد الله، يزدلف إليك ثلاثون ألف رجل يدعون أنهم من أمة جدنا محمد ﷺ ويتحلون دين الإسلام فيجتمعون على قتلك وسفك دمك، وانتهاك حرمتك، وسي ذراريك ونسائك، وانتهاج ثقلك، فعندها تحل بني أمية اللعنة، وتمطر السماء رماداً ودماً، ويبكي عليك كل شيء حتى الوحوش في الفلوات، والحيتان في البحار.

يمكن إيجازه في كلمة: توحيد الله، المبدأ والمعاد، نبوة الأنبياء، وصاية الأوصياء، جميع الكتب السماوية، كلها ممتنة لدماء سيد الشهداء.. لهذا الدم كان هذا الأثر.. ويجب اليوم ذكر حديث؛ ولو أن شرحه يتطلب طاقة كبيرة، لكن يجب على أهله أن يتدبروا فيه بدقة؛ لأن الأساس على الحكمة، وجذر المعرفة يجب أن تكون حجة قطعية.

هذه الرواية نقلت عن ثلاثة طرق؛ طريقين عن ثقة الإسلام (الكليني)؛ والثالث عن طريق شيخ المحدثين (الصدوق)، ونحن نقرأ هذه الرواية عن طريق الشيخ؛ لكن مع الدقة في السند والمتن؛ لأن المجلس ليس مجلس العوام، يجب عليكم أن تتجهزوا بالمعرفة التامة، وأن تأثروا على سائر الناس.

شيخ المحدثين صدوق ابن أبيه، مَنْ هو أبوه؟ علي بن موسى بن بابويه، موثق بتوقيع الشيخ، العلامة، والنجاشي؛ عن سعد بن عبد الله، مَنْ هو سعد بن عبد الله؟ موثق بتوثيق شيخ الطائفة، وابن شهر آشوب، والعلامة، عن يعقوب بن يزيد، مَنْ هذا الرجل؟ موثق بتوثيق شيخ الطائفة وأول متبحر في الرجال، معتمد الكل، النجاشي، بعد مَنْ؟ عن ابن أبي عمير؛ مَنْ أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عنه، بعد مَنْ؟ عن معاوية بن وهب موثق بتوثيق مثل النجاشي والعلامة.

فالسند هو سند كهذا؛ هذا السند يعرفه أهله أن مَنْ هو مثل الشيخ الأنصاري الذي يبحث في أدق مباحث النفوس، والدماء، والأعراض، والأموال أي في صغريات (أصالة الاحتياط)، يُصدر على هذا السند فتوى قطعية.. هذا عن السند وهو سند بهذا (الاعتبار).

(ولكن) ما هو المتن؟ المتن هذا، قال معاوية بن أبي وهب: دخلت على الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام؛ رأيته على السجادة؛ العبارات التي على هذه السجادة محيرة للعقول، يقول: يا من خصنا بالكرامة،^(١) تأملوا جيداً من أين تبدأ، يخاطب الله، الأمر مهم لهذه الدرجة: «يا من خصنا بالكرامة، وخصنا بالوصية، ووعدنا الشفاعة، وأعطانا علم ما مضى، وما بقي، وجعل أفئدة الناس تهوي إلينا». (ذكر خمسة مطالب مع الله وكل مطلب يحتاج إلى بحث، ولا وقت لدينا؛ بعد هذه الكلمات) يقول: «اغفر لي»؛ وإخواني. (بعد هذا لم يدع لأحد؛ ما هو الدعاء الثالث؟ من هنا يجب أن نعرف؛ ذاك الدليل الإتي الذي قلته هو هذا): «اغفر لي وإخواني ولزوار قبر الحسين». ما الخبر؟ ما الضجيج لكي يصل زائر قبره إلى هذه الدرجة؟

ثم له كلام كثير مع الله، في محل هو محل كلام الإمام السادس مع رب الأرباب؛ هنا يعجز كمية أي عقل، وما يدعو إلى البهت والحيرة هي هذه العبارة: وارحم؛ هذا الـ «وارحم» الذي يقوله أتدري ما هو؟ الرحمة التي يطلبها من أرحم الراحمين؛ أقرئوا القرآن: ﴿أَهْرَيْقِسْمُونَ رَحِمَتْ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢)

هذه الرحمة يطلبها مسترحم هو [الإمام الصادق] من أرحم الراحمين كذاك [الله تعالى]، لمن؟) «وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا»؛ «إنني أصلا عاجز عن البيان، جرت دموعها رحمة لنا؛ رحمة لنا، له كلام كثير: أي تلك الدموع التي تجري من هذه الأعين،

(١) - الكافي الشريف للكليني: ج ٤ ص ٨٢٨، ح ٨١٩٦، والرواية طويلة وجميلة جداً.

(٢) - الزخرف: ٣٢

رحمة لـ: للضلع المكسور؛ لمحسن الذي سُقط؛ لضرب الهامة التي
فلقت؛ للحلق الذي استهدف بالسهم؛ (وارحم تلك الأعين التي جرت
دموعها رحمة لنا وارحم تلك القلوب).

لكن أية قلوب؟ (تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا).

هذه هي المصيبة.. هذا كلام مَنْ؟ تأملوا في (احترقت لنا).

ماذا حدث؟! ماذا جرى؟! هذا العزاء لا تظنون أنه شيء قليل؛
(احترقت لنا)؛ لو احترقت الدنيا فهو لا يزال قليل؛ هل تعلم
ماذا حدث؟!

الويل للذين يريدون خدش هذه الشعائر؛ استيقظوا يا أهل إيران،
واعلموا: إن أصغر كلمة تؤدي إلى تضعيف الشعائر الحسينية إنما
تكسر ظهر خاتم النبیین.

كل هذا العزاء، كل هذا اللطم، كل ضرب السلاسل هذا؛ يجب
الحفاظ عليها بالحد الأعلى؛ القضية ليست لعبة؛ هذا كلام مَنْ؟
(وارحم الصرخة التي كانت لنا)؟

هؤلاء الجهلة يتفوهون بالخزعبلات حينما يقولون: لا تعلوا
صوتكم بالبكاء؛ هذا هو إمامنا السادس؛ رئيس مذهبنا؛ الحديث هو
هذا الحديث؛

فمن هو الفقيه؟!

الفقهاء قد انتهى زمنهم!.

الفقيه هو النائيني.

الفقيه هو البروجردي.

الفقيه هو الحائري.

هؤلاء هم الفقهاء، وهم يقولون:

الطموا.

اضربوا السلاسل.

وإن سالت الدماء فلتسيل.

هذا هو الفقيه.

هذه هي الفقاهة.

ابكي بصمت؟ ما هذه الخزعبلات التي يقولونها؟

الصيحة؛ ما تعني الصيحة؟

الصيحة عبارة عن العويل.

ما هي الصرخة؟

الصهل الشديد هي الصرخة.

يقول الإمام السادس: (و ارحم الصرخة التي كانت لنا)

المحقق النائيني؛ ذلك الذي هو فخر كبار الفقهاء وكان الفقهاء يفخرون أنهم قد فهموا بحث دقائق اللباس المشكوك في الفقه المطروح من قبله، هذا الفحل يقول: (اللطم وضرب السلاسل لسيد الشهداء عليه السلام جازر حتى وإن سالت الدماء).

والجواز هنا ليس بمعنى الإباحة، أنتم أهل الفقه فقط هم من تعرفون أن هذه الفتوى صادرة من أي فحل؟ وحينما أصدر هذه الفتوى أيده أعظم المذهب وأكابر الدين مثل السيد محسن الحكيم مع

مستمسكه ذاك حيث كتب تحت هذه الفتوى: (إن فتوى شيخنا أعلى من أن يحتاج لتوقيع من هو مثلي)

أو مثل الفقيه الشاهرودي الذي يقول: (حق في كمال التحقيق).

أو مثل جميع الأعظم؛ إلى أن يصل إلى هؤلاء الذي دُفِنوا هنا (بجوار حرم السيدة المعصومة (سلام الله عليها) وكانوا أعمدة الفقه.

ذاك الحائري بفتواه، وذاك البروجردي بفتواه، فالبروجردي حينما كانوا يُستفتون منه حول حمل الأضرحة ويلقون عليها الستائر على شكل (الشاه سلام)، كان يقول: (لكل مدينة مراسيمها وتقاليدها ويجب أن يقام العزاء بناء على تقاليدها ومراسيمها).

هذا هو الفقيه، هؤلاء هم فقهاء المذهب، ذاك هو الذي درس بدقة، وأتم جميع مباحث «إضرار النفس» وطالع جميع الأحاديث سنداً ودلالة، ودقق جميع العناوين الثانوية والأولية وانتهى من جميع مباحث «اللا ضرر»، وبعد كل ذلك أفتى:

(في هذا الطريق لا إشكال أبداً إن حصل هذا القدر من الضرر).

يجب على الناس في يوم عاشوراء أن ينظروا إلى كربلاء فقط.

إلى أين؟

إلى المكان الذي كان فحل الفحول أي الميرزا الشيرازي، والميرزا الثاني ذاك الذي يفخر به المئات من أمثال البلاغي كانوا يفخرون أنهم من أصغر تلامذته، ذاك الذي رأوه يوم عاشوراء يلطم حاسر الرأس وحافي القدمين في موكب عزاء الطويريج.

هذا هو الفقيه.

هذا هو سند الأمة.

فانظروا إليه يوم عاشوراء.

في الفاطمية يجب أن تستمعوا لمن؟

لمن كان أمثال المرحوم آية الله الميلاني، وآية الله الخوئي يفخران
أنهما من أصغر تلامذة تلاميذه؛ أصغوا آذانكم له؛ ماذا يقول؛ يقول:

وهل أتاك خبر المسمار؟

سل صدرها خزينة الأسرار

فلتخرج الهيآت ومواكب اللطم ومواكب ضرب السلاسل في البلاد
في عاشوراء وفي الثالث من جمادي الثانية وليضربوا السلاسل على من
قال علي بن أبي طالب ذاك العملاق العظيم لعالم الوجود وقطب دائرة
الإمكان حينما أتى عند قبرها:

نفسي على زفراتها محبوسة

ياليتها خرجت مع الزفرات

عطاء الشعائر الحسينية

في كتاب (إقناع اللائم على إقامة المآتم) للإمام السيد محسن الأمين
العاملي قَدِيسَ عَلَيْهِ الذي يتذرع به الكثير من الناس في محاربتهم للشعائر
الحسينية الشريفة، لأنه أفتى أو صرح ببعض الكلمات ولا نعلم ظروفها،
كرسالة (التنزيه) التي نتركها لسماحته ولكن نأخذ منه ما كتب وسطر
دفاعاً عن الشعائر، في كتابه المذكور، وهو من أجمل الكتب في عصره
بالحث على إقامة المآتم الحسينية، لتعداده فوائدها الجليلة، ومنافعها
الجزيلة، فهو يقول:

ولذلك اتفق العقلاء كافة على تجديد الذكرى لعظمائهم في كل عام والاهتمام بها على قدر عظم الشخص الذي تعمل لأجله.

وأي عظيم في أي أمة قام بمثل ما قام به الحسين بن علي عليه السلام من الأعمال العظيمة لإقامة الحق وإماتة الباطل وهدم ما أسسه الظالمون لهدم الدين الإسلامي، وقاوم الظلم والاستبداد بأقوى الوسائل، فلو أنصف جميع المسلمين ما تعدوا خطة الشيعة في هذه المآتم التي اعترف بعظيم فوائدها عقلاء الأمم ومفكروهم كما ستعرف عند نقل كلام: (جوزيف) الفرنسي (ومارلين) الألماني.

ونحن نشير إلى جملة من فوائد هذه المآتم التي نقيمها؛ وهي في غاية الظهور والبدهة لمن تأمل وأنصف إذا روعيت شروطها وأقيمت على أصولها:

(الأول): مواساة النبي ﷺ وأهل بيته؛

فإنه حزين لقتل ولده بلا ريب، وقد دلت عليه جملة من الأحاديث تقدمت في محالها وأي أمر أهم وأوجب وأعظم فائدة من مواساته ﷺ؟ وهل يمكن أن يكون المرء صادقاً في دعوى حبه للنبي ﷺ وأهل بيته وهو لا يحزن لحزنهم ولا يفرح لفرحهم أو يتخذ يوم حزنه ﷺ يوم عيد وسرور؟ (كما يفعله الكثير من العامة ويسمونه بعيد عاشوراء).

(الثاني): أن فيها نصرة للحق وإحياء له وخذلاناً للباطل وإماتة له؛

وهي الفائدة التي من أجلها أوجب الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب وباللسان وبالجوارح، فإن لم يكن بالجوارح اقتصر على اللسان والقلب، فإن لم يكن باللسان اقتصر على القلب.

(الثالث): أن فيها حثاً على وجوب معرفة الفضل والصفات السامية لأهلها وفي ذلك من الحث على وجوب الاقتداء بهم ما لا يخفى.

(الرابع): (التأريخ) أن في تلاوة أخبار هذه الواقعة العظيمة وتذكرها في كل عام فائدة عظيمة هي الفائدة في تدوين التواريخ وحفظها وضبطها.

(الخامس): أنه لولا إعادة ذكرها في كل عام لنُسيت، وآل أمرها إلى الاضمحلال، ولوجد أهل الأغراض وسيلة إلى إنكارها وإنكار فظائعها، وقد وقع ذلك في عصرنا فقام بعض من يريد التنويه بشأن بني أمية ويتعصب لهم وينفي عن يزيد قتل الحسين عليه السلام ويقول: أنه وقع بغير أمره وبغير رأيه، ويودع ذلك مؤلفاته، ويقوم به خطيباً على المنابر فذكرنا بذلك قول (أحمد) بن منير (الطرابلسي) في رائيته المشهورة:

أَنْ يَزِيدَ مَا

شَرِبَ الْخَمُورَ وَلَا فَجَرَ

وَلَجِيْشَهُ بِالْكَفِّ عَنِ

أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ أَمْرٍ

وَلَهُ مَعَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

مَ يَدُ تَكْفِيرٍ مَا غَبَرَ

وذكرنا بذلك أيضاً ما وقع مع بعض علماء الشيعة حين قيل له:

أن الحسين عليه السلام قتل قبل ألف ومئات من السنين فما معنى تجديدكم لذكرى قتله في كل عام؟

فقال: خفنا أن تنكروا قتله كما أنكرتم بيعة الغدير.^(١)

(١) - هذه القصة تُروى عن العلامة الشيخ الأميني عليه السلام صاحب الغدير.

(السادس): أن فيها تهجيناً للظلم والقسوة؛ حيث أنها تصورها بأقبح صورها، وفي ذلك من الحث على التباعد عنها وبغض الظلم وأهله ما لا يخفى.

(السابع): أنها ترقق القلوب، وتبعث على الرحمة والشفقة والانتصار للمظلوم.

(الثامن): أنها تغرس في النفس حبّ الفضيلة، والاعتماد على النفس والشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم وعدم الخنوع للظلم ومقاومته بأقصى الجهد بإيراد ما صدر من الحسين عليه السلام من اختيار المنية على الدنية وموت العزّ على حياة الذلّ وميتة الكرام على طاعة اللثام وإلى ذلك أشار مصعب بن الزبير، بقوله:

وَأَنْ الْأُولَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

تَأْسُوا فَتَسْنُوا لِلْكَرَامِ التَّأْسِيَا

(التاسع): أنها مدرسة، يسهل فيها التعلم والاستفادة لجميع طبقات الناس فيتعلمون فيها التاريخ والأخلاق والتفسير والخطابة والشعر واللغة وغير ذلك، وتوقف السامع على بليغ الكلام من نظم ونثر زيادة على ما فيها من تهذيب النفوس وغرس الفضيلة فيها لأن ما يتلى فيها لا يخلو غالباً من شيء مما ذكر ويشغل فيها الخاصة بمذاكرة المسائل العلمية من كل علم والبحث عنها وتبادل الآراء فيها كما هي العادة المألوفة في العراق وغيره.

(العاشر): إنها نادٍ للوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يجري هذا المجرى ففيها جلب إلى طاعة الله وإبعاد عن

معصيته بأحسن الطرق وأنفعها بما يلقى فيها من المواعظ المؤثرة وقضايا الصالحين والزهاد والعباد وغير ذلك.

(الحادي عشر): (الصد عن اجتماع البطالين) أن الاجتماع في تلك المجالس يكون مانعاً عن اجتماع البطالين في المقاهي والمجالس المعلوم حالها، خصوصاً في مثل هذا الزمان (فما رأيك بزماننا زمن الفضائيات والإنترنت سيدنا؟) فإن الإنسان مدني بالطبع ولا بد له من الاجتماع مع أبناء جنسه أما على خير أو على شر، فالاجتماع في هذه المجالس مانع عن الاجتماع في مجالس الشر لا سيما أنها تشتمل على ما يجذب النفوس إليها ويُرغبها فيها.

(الثاني عشر): إنها جامعة إسلامية دينية، تجتمع فيها القلوب على مقصد واحد وترمي إلى هدف واحد في جميع أقطار الأرض وهو مواساة النبي وأهل بيته (عليه وعليهم الصلاة والسلام) في مصابهم وفي ذلك من إعلاء شأنهم والتمسك بحبلهم وجمع القلوب على حبهم والائتمار بأمرهم والانتفاء عن نهيمهم ما لا يخفى.

(الثالث عشر): أنها مجمع ومؤتمر ديني وديني، يتسنى فيه للمجتمعين البحث وتبادل الآراء في شؤونهم وشؤون إخوانهم النائين عنهم الدينية والدينية بغير كلفة ولا مشقة.

(الرابع عشر): أنها نادي تبشير بالدين الإسلامي ومذهب أهل البيت، في جميع أنحاء المعمورة بأقوى الوسائل وأنفعها وأسهلها وأبسطها وأشدها تأثيراً في النفوس بما تودعه في قلوب المستمعين من بذل أهل البيت الذين هم رؤساء الدين الإسلامي أنفسهم وأموالهم ودماءهم في نصرة دين الإسلام، وما تشتمل عليه من إظهار محاسن

الإسلام ومزاياه وآياته ومعجزاته التي أبانوا عنها بأقوالهم وأفعالهم وشؤونهم وأحوالهم مما لا يدانيه ما تبذل عليه الأموال الطائلة من سائر الأمم وتتحمل لأجله المشاق العظيمة.

(الخامس عشر): أن فيها عزاء عن كل مصيبة وسلوة عن كل رزية، فإذا رأى الإنسان أن سادات المسلمين، بل سادات الناس وآل بيت المصطفى ﷺ جرى عليهم من أنواع الظلم والمصائب ما جرى، هانت عليه كل مصيبة، وفي المثل المشهور من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته، وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله:

أنست رزيتكم رزاينا التي

سلفت وهونت الرزايا الآتية

(السادس عشر): إن فيها حثاً على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، فإذا علم المرء أن سادات المسلمين وأئمتهم وأهل بيت النبوة قد ابتلوا بهذه المصائب في الدنيا فكانت سبباً لعلو درجتهم في الآخرة علم أن الدنيا لو كانت تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة لما ابتلى أوليائه فيها بما ابتلاهم، ولما سقى الكافر منها شربة ماء كما جاء في الأثر، وكما أشار إليه الشاعر بقوله:

لهم جسوم على الرمضاء مهملة

وأأنفس في جوار الله يقربها

كان قاصدها بالضر نافعها

وإن قاتلها بالسيف محيها

(السابع عشر): أن فيها تأليفاً للقلوب، بالتزاور والاجتماع والتحدث

والتعاون والتعارف.

(الثامن عشر): ما فيها من البر والمواساة وإعانة الفقراء والضعفاء، بما ينفق فيها من المال والزاد في ثواب الحسين عليه السلام.

(التاسع عشر): (إحياء الدين) وهو من أهمها، أن المصلحة التي استشهد الحسين عليه السلام من أجلها وفي سبيلها والغاية السامية التي كان يرمي في جهاده واستشهاده إليها وهي: إحياء دين جده عليه السلام وإظهار فضائح المنافقين تقضي باستمرار هذه المآثم طول الدهر، وإقامة التذكار لها في كل عصر، وإظهارها للخاص والعام تقوية لتلك المصلحة وتثبيتاً لها.

فلولا قتل الحسين عليه السلام لما ظهر للخاص والعام فسق يزيد وكفره وفجوره وقبائح من مهّد له ومكّنه من رقاب المسلمين، وذلك لأن الذين دفعوا أهل البيت عن حقهم ظهروا للناس بمظهر النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وتظاهروا بتأييد الدين، فخفي أمرهم على أكثر الناس وبدلوا من أحكام الشريعة ما شاؤا واتبعهم جل الأمة جهلاً أو رغباً أو رهباً، وأمروا على الأمة أعوانهم وأتباعهم، وأقصوا أولياء الله وأبعدوهم وحرموهم وساموهم أنواع الأذى من: القتل والضرب والنفي والصلب، ولعنوا أمير المؤمنين عليه السلام على منابر الإسلام، وكتّوا به عن أخيه وابن عمه، وأظهروا للأمة أنهم هم آل رسول الله صلى الله عليه وآله وقرابته والأحق بمقامه.

وقد قال أهل الشام لبني العباس: إنهم ما كانوا يعرفون قرابة لرسول الله صلى الله عليه وآله إلا بني أمية، ولو دام الحال على ذلك لأصبح الدين أثراً بعد عين فلما نار عليهم الحسين عليه السلام وأبى أطاعتهم والانقياد لهم قائلاً: (إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح الله وبنا ختم

ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق ومثلي
لا يبايع مثله).^(١)

وسلّم نفسه وولده وخواص شيعته وأهل بيته للقتل وأطفاله للذبح
وعياله ونساءه للسبي وأمواله للنهب ولسان حاله، يقول:

إن كان دين محمدٍ لم يستقم

إلا بقتلي يا سيوف خذياني

ظهر بذلك ما هم عليه خصومه من الكفر والنفاق بل الخروج عن
حدود الإنسانية، وظهرت عداوتهم لله وانتقامهم من رسول الله ﷺ كما
صرح بذلك رئيسهم (يزيد) بقوله:

لست من خندف إن لم أنتقم

من بني أحمد ما كان فعل^(٢)

فلم يكتفوا بقتل ولده وسبطه وأهل بيته وأنصاره عطشاً حتى
قطعوا رأسه ورؤوس أصحابه وداروا بها في البلدان وداسوا جسده
الشريف بحوافر الخيل ونهبوا رحله وأحرقوا خيامه، ولم يكتفوا بذلك
حتى حملوا عقائل بيت النبوة سبايا على اقتاب المطايا من بلد إلى
بلد كأنهن سبايا الترك أو الديلم وأدخلوهن على مجالس الرجال،
وقابلوهن بأخشن المقال، وأوقفوهن على درج باب المسجد الجامع
بدمشق حيث يقام السبي، ووضعوا الأغلال في عنق (الإمام المعصوم)

(١) - تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٣٧٦، أنساب الأشراف: ج ٤ ص ١٥، وكل من أرخ لحادثة الطف
ومقدماتها.

(٢) - هو من أبيات نسبت لابن الزعبري في التاريخ تمثل بها يزيد الشر عندما جاؤوا له برأس
الإمام الحسين عليه السلام فقرعته السيدة زينب العقيلة بخطبتها الشهيرة، فراجع كتب المقاتل والتاريخ
المختلفة.

زين العابدين عليه السلام حتى كأنه من أسارى الكفار العاتين فأظهر الإمام الحسين عليه السلام بقتله فضائح المنافقين وأسقطهم من قلوب المسلمين، واستلقت الأنظار بمصيبته إلى سائر مصائب أهل البيت، وأبان بمصيبته أن هذا البناء على ذلك الأساس، وهذا الحصد من ذلك الزرع، وهذا السيل من ذلك المطر، وهذه النار من ذلك الشرر، وأن الحسين عليه السلام لم يقتل في يوم كربلاء، بل قتل قبله بعشرات من الأعوام، ونبه الأفكار إلى البحث عن أساس هذه الفاجعة وأسبابها، وعن أول شرارة قدحت لأضرامها.

بنى لهم الماضون أساس هذه

فعلوا على أساس تلك القواعد

ولولا قتل الحسين عليه السلام لكانت الناس كلها إلى اليوم تأخذ معالم دينها عن يزيد وسلفه، ولما كان يعرف أحد حملة دين الله، ومعادن علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ظاهر لمن تدبّر وأبصر، ولم يعمه الهوى والتعصب..^(١)

فوائد وعظمة المجالس الحسينية

لكي لا نغرق بالتنظير، ويتهمنا أهل العصر بالجهل بمقتضيات هذا العصر الأغبر، أو يتهمنا دعاة العقلنة للشعائر الحسينية بتأجير العقل أو حجره ومنعه من التفكير في أيام عاشوراء، فنضرب رؤوسنا، ونجلد ظهورنا، ونلطم صدورنا، ونخمش وجوهنا بدم بارد على الحسين -

(١) - إقناع اللائم على إقامة المآتم، السيد محسن الأمين العاملي؛ ص ٣١٣ وما بعدها بشيء من التصرف البسيط منا.

كما يقولون طبعاً - هل يعقل أن يفعل ذلك أحد بدم بارد أيها العاقل، أم أن ذلك من حرارة الإيمان والدم يخرج الإنسان عن طوره ويفعل بعض الأعمال التي تملئها عليه العاطفة، وأما مَنْ ينظر ويتفلسف، من فوق الكرسي، أو خلف الطاولة فنعم فهذا يفعل ذلك يقيناً بدم بارد، لأنه يتحدث عن شيء في عمق الفكر، لا عن شيء يعيشه بالعاطفة، فينطق بكلام منمق، بأعصاب هادئة، ودون أي توتر، فيصح عليه وصف (أنه من أصحاب الدم البارد).

ولهم نقول: أن الإمام الحسين عليه السلام لا يحتاج إلى تنظير من أمثالكم، ولا إلى عقلنتكم التي تتدعون، لأنه (قتيل العبرة وما ذكره مؤمن إلا وبكى)، ولم يقل المعصوم إلا وتعقلن، أو تفكر، أو تدبر، ولأنه يخاطب العاطفة والقلب والضمير الحي في الإنسان، - علماً بأن الإمام الحسين عليه السلام عقل من الخارج كما في الرواية الكاظمية الشريفة لهشام، ولكن أي عقل بشري يتصور أو يتخيل ما قدمه المولى السبط الشهيد على أرض كربلاء، هل يعقل ذلك؟ فالأمر أكبر مما تتصورون بعقولكم القاصرة - ولكن العقلاء عندما يفكرون يصلون إلى بعض تلك الغايات النبيلة التي ترشدنا بل وتوصلنا إليها شعائر الإمام الحسين عليه السلام.

مؤامرة لتحطيم المذهب الشيعي

وإليك الآن خلاصة ما جاء في الكتاب (مؤامرة التفريق بين الأديان الإلهية) الذي كتبه الدكتور (مايكل برانت) المساعد السابق لـ (وود وردز) الرئيس السابق لجهاز المخابرات المركزية الأمريكية (C. I. A)، إثر طرده من منصبه بسبب سوء استخدامه الصلاحيات المخولة له،

وثأراً لنفسه في ذلك، عمد برانت إلى كشف بعض الخطط السرية لـ (c. i. a)، ومنها أنه تحدث بمقابلة صحفية عن خطة لاستخدام (٩٠٠) مليون دولار من أجل تحطيم المذهب الشيعي (الجعفري).

وقال برانت إنه في عام (١٩٨٣ م) عقد مؤتمر هام لـ (c. i. a) وبحضور وفد كبير من جهاز المخابرات البريطانية (mix)، وذلك لخبرة بريطانيا الكبيرة في المنطقة الإسلامية (الشرق أوسطية)، وموقفها من الشيعة، ومواقف الشيعة منها لفترة من الزمن، ويكشف المسئول المخابراتي الأمريكي عن إن المؤتمر توصل إلى ما يلي:

«إن النظرية الإسلامية في الحكم أصبحت حقيقة واقعة.. وهي الأساس للساسنة الإسلاميين، وإن الشيعة بالذات يقتدون بسبط الرسول محمد ﷺ الإمام الحسين ﷺ في مكافحة الظلم، والذي ثار ضده قبل ألف وأربعمائة سنة، وحتى اليوم تقام المواكب والمآتم بمناسبة استشهاده وبطولاته في كربلاء. لإحيائها بقوة من جديد».

ويضيف برانت إنه على ضوء هذين العاملين، قررنا أن يكون هناك قسم خاص لدراسة وبرمجة ما يمكن عمله ضد الشيعة، وتم تخصيص ميزانية بسقف أربعة ملايين دولار لرسم الخطط فقط.

أما مراحل إنجاز المشروع (مؤامرة ضرب المذهب الشيعي) فهي تقوم على ثلاث مراحل:

- (١) مرحلة جمع المعلومات.
- (٢) مرحلة معالجة الأهداف القصيرة الأجل.
- (٣) مرحلة معالجة الأهداف البعيدة المطلوبة.

فالنسبة للمرحلة الأولى تم إرسال عدد من الباحثين إلى جميع أنحاء تواجد الشيعة، وحدد ستة من كبار المتخصصين إلى باكستان وحدها، أحدهم الدكتور (شوما ويل) الذي حصل على شهادة الدكتوراه في مراسم إقامة العزاء على الإمام الحسين عليه السلام في كراچي.

والثاني امرأة يابانية حصلت على شهادة الدكتوراه أيضاً حول (الشيعة الهزارة) في منطقة بلوشستان وكويته.

وتتركز المعلومات عن الشيعة في هذه المرحلة حول إجابات الأسئلة التالية:

(١) أين يسكن الشيعة في العالم وما هي نسبتهم العددية في مناطق سكنهم.

(٢) تقديم صورة كاملة عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والتركيز على الخلافات الموجودة فيما بينهم.

(٣) كيفية اصطناع الصراعات والخلافات داخل أوساطهم حسب مناطق تواجدهم؟.

(٤) توسيع الهوية والخلاف، ثم التناحر بين السنة والشيعة في مناطق العالم الإسلامي.

(٥) تشخيص وتحديد أسباب الخوف الواقعية من الفكر الشيعي.

* بعد جمع المعلومات من مختلف مناطق العالم، وبعد البحث وأخذ وجهات النظر حصلنا على النتائج مهمة للغاية:

١/ فقد عرفنا أن قدرة المذهب الشيعي وقوته في يد المراجع وعلماء الدين، وأنهم يتولون حفظ هذا المذهب وحراسته.

٢/ إن مراجع الشيعة لم يتابعوا ولم يتعاونوا طيلة التاريخ مع أي حاكم غير مسلم أو حاكم ظالم.

* ففي إيران فشلت بريطانيا بفتوى آية الله الشيرازي (بما سمي بثورة التنباك).

* واقتلعت حكومة الشاه الموالي لأمريكا من جذورها بيد آية الله الخميني.

* وفي العراق لم يستطع صدام بكل قواه إجبار الحوزة العلمية في النجف الأشرف على الانقياد له، مما اضطره لتضييق الخناق عليها ومحاصرتها سنين عديدة.

* وفي لبنان أجبر آية الله الإمام موسى الصدر جيوش بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على الفرار.

كما أن حزب الله لبنان أوجع جيش إسرائيل وألحق به خسائر فادحة (ودحره نهائياً من لبنان ومرَّغ أنفه بوحد الخزي وعار الهزيمة التي لم يعرفها إلا على أيدي رجالات المقاومة الأبطال، رفع الله رايتهم وزاد نصرهم وتأيدهم).

إن تحقيقاتنا في هذا المجال أوصلتنا إلى نتيجة: وهي أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال مواجهة المذهب الشيعي ومحاربه بصورة مباشرة، وإن هزيمته أمر في غاية الصعوبة، وأنه لا بد من العمل خلف الستار.

** نحن نأخذ ونعمل طبق المثل القائل: (فرَّق وأبد) بدلاً من المثل الانجليزي (فرق تسد).

** من أجل ذلك خططنا ووضعنا برامج دقيقة وشاملة للمدى البعيد، من ذلك رعاية الشخصيات المخالفة للشيعة، (من هنا ظهر حامل الذكر كابن لادن والملا عمر والزرقاوي وأمثال هذه الحثالات التي ليس لها ذكر في الذاكرين لولا المخبرات المركزية الأمريكية) والترويج لمقولة كفر الشيعة بنحو يفتي بالجهاد ضدهم من قبل المذاهب الأخرى في الوقت المناسب (وهذا الدور أنيط بالوهابية فنفضه رجالها أبشع تمثيل كما ترى وتسمع على الفضائيات).

ومن ذلك تشويه سمعة المراجع وعلماء الدين عبر الشائعات ونحوها كي يفقدوا مكانتهم عند الناس ويزول تأثيرهم (وهذه الخطة من أخبث الخطط لأنها ضربت المذهب من الداخل لأنها أيدت بعض الشخصيات الطامحة لهذا المنصب الشريف فطرحوها وراحوا يغرون الناس بسؤالها والسؤال عنها، فصرنا ما من يوم إلا ونسمع أو نقرأ قال فلان عنك وماذا تقول عنه، أو ما رأيك بفلان الذي يقول بكذا وهو من مسلمات المذهب.. وهكذا غرقنا بالقييل والقال، فصار أكثر الشباب حيراناً بأمره، فأسأل الله تعالى أن يذهب هذه الغمة عن هذه الأمة سريعاً..).

من المسائل التي يجب الاهتمام بها مسألة ثقافة عاشوراء والاستشهاد في سبيل الله، حيث إن الشيعة تبقي هذه الثقافة مضيئة ووهاجة عن طريق مراسم عاشوراء السنوية.

لذا صممنا على تضعيف عقائد الشيعة وإفسادها، والعبث بثقافة (الشهادة) والاستشهاد، وأن نحرف المفاهيم بحيث يبدو للناظر أن الشيعة ليسوا سوى طائفة جاهلة تهوى الخرافات، وهذا يكون عبر الدعم المالي لبعض الخطباء والمداحين والمؤسسين الرئيسيين لمجالس عاشوراء، فإن فيهم النفعيين ومحبي الشهرة.

* وفي المرحلة الآتية يجب أن نجمع ونعد الشيء الكثير مما يسقط المراجع، ونبث ذلك بلسان وقلم الكتاب النفعيين.

ويكشف (مايكل برانت) إلى أنهم توصلوا إلى حقيقة مفادها أن المواجهة المباشرة مع الشيعة فاشلة، لأنها تقوي شوكتهم، وتضاعف من مواجهتهم، وعليه يجب إتباع السياسة البريطانية (فرق تسد) وإشاعة التفرقة بين الشيعة أنفسهم، وكذلك بينهم وبين السنة، وذلك من خلال دعم وتمويل جماعات سنية متطرفة وإرهابية ودفعها لافتعال الاقتتال والحرب ضد الشيعة، وهذا ما حصل بالفعل مع جماعات طالبان في أفغانستان وجيش الصحابة في باكستان، وزمر الوهابية في المنطقة العربية.

ومن السبل والوسائل اللازم إتباعها لتحطيم المذهب الجعفري، استخدام الدعاية الفاعلة ضد قادة الشيعة من المراجع، لتأجيج أتباعهم ضدهم.

أما ما يخص مواكب العزاء الحسيني والشعائر الحسينية لدى الشيعة، يشير برانت أنه ولأهمية هذا الموضوع، فإن الخطط المرسومة من الـ (C. I. A) و (mix) تقتضي اعتماد شرائح معينة من جمهور ضعيفي المعرفة والخبرة لغرض تشويه صورة هذه الشعائر والحط من مكانتها في نظر الرأي العام، والاعتماد على صنف آخر يضطلع بمهمة اختراق مجالس العزاء هذه وإرباكها وتصوير المراسيم الحسينية على أنها ممارسات يقوم بها الجهلة والأوباش (ومثل هذه الممارسة موجودة في بعض مواقع الإنترنت)، وكذلك تهويل وإعطاء حجم كبير لما يتكلم به بعض الخطباء بأشياء غير مقبولة لأحداث البلابل والفوضى داخل الوسط الشيعي.

أما عن المدة التي يستغرقها مشروع المؤامرة فيقول د. برانت إن عام ٢٠١٠ م سيكون آخر موعد لتحطيم قوة الشيعة الأساسية (كما يظن هذا المأفون الغبي، وها نحن في العام ٢٠١٠ فتعالى وانظر إلى الشيعة ولا سيما شعائر المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام فقد غدت ظاهرة من أعظم ظواهر هذا العقد وهي في كل يوم ببريق وتأجج وسناء بحمد الله وفضله رغم أنوف الحاقدين، وأعاونهم من الجاهلين ممن ينتسب لهذه الأمة).. ثم يقول كاذباً: وقد أنجزنا بعضاً من مخططاتنا والآخر في طريق التنفيذ والإنجاز.

نظرة إلى الماضي لبناء المستقبل المشرق

وهنا سأرجع للماضي لنخطط للمستقبل - باعتبار أننا نتحدث عن المستقبل - نقل السيد محسن الأمين قدس سره كلام المسيو (ماربين) الألماني، والدكتور (جوزف) الفرنسي، وهو اعتراف لبيت الأمة تقرؤه وتنتبه لما فيه من حقائق يسطرها هذين الأجنيبين في الفكر والدين والتربية، لأنها وثيقة علمية وحقيقة واقعية غفلت عنها الأمة الإسلامية، بل حاربتها إلى اليوم، والجدير بها أن تأخذ بها لأنها من أسباب العزة والكرامة والنهضة وبالتالي بناء الحضارة الإسلامية المنشودة بإذن الله تعالى.

قال السيد الأمين مقدماً: نقله لبيان تطابق العقلاء على استحسان مثل هذه المآتم التي أثبتنا بما تقدم تحسين الشرع لها، وهو ينقلها عن جريدة (الحبل المتين) باللغة الفارسية نشرت قبل قرن من الزمن الحاضر، في (٧ محرم ١٣٢٩ من الهجرة، ١٩١١ من الميلاد) نقتطفه من الكتاب لما فيه من الفائدة والعبرة لنا في هذا العصر لأنه عصر

التحويلات الكبرى في تاريخ البشرية ونتعلم من الإمام الحسين كما تعلم غاندي الهند، وتدبر جيداً في أسرار شهادة الإمام الحسين عليه السلام وفوائد مآتمه، لكي لا نلقي الكلام على عواهنه، أو نجتهد مقابل الإرادة الإلهية والنصوص الرسالية، لأن الإمام الحسين عليه السلام رباني في نهضته، إلهي في ثورته، إنساني في أهدافه.

قال المسيو (ماريين) الألماني ذلك الفيلسوف المعروف والحكيم المشهور من أكبر مؤرخي الإفرنج وأعلمهم بالسياسة الإسلامية في رسالته المسماة ب (السياسة الإسلامية) المبينة على فلسفة الإسلام تحت عنوان: (الثورة الكبرى أو السياسة الحسينية)

١. تعريفه بالإمام الحسين عليه السلام.

الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هو سبط محمد المتولد من ابنته وحبيبته فاطمة الزهراء، ويمكننا القول بأنه كان جامعاً للأخلاق والصفات المستحسنة عند العرب في ذلك الزمان ووارثاً للشجاعة من أبيه وأعلم المسلمين بأحكام دين جده وحاوياً بدرجة كاملة للوجود الذي هو أحب الصفات، وكان طلق اللسان، فصيح البيان للغاية.

اتفق المسلمون بلا مخالف على حُسن العقيدة في الحسين، حتى أن الطوائف التي تدم أباه وأخاه تمدحه وتثني عليه، وكتبهم مشحونة بذكر ملكاته الحسنه، وسجاياه المستحسنة.. وكان غيوراً صادقاً غير هيّاب، وإن لغالب فرق المسلمين عقائد عظيمة في الحسين، ولكن الذي نقدر أن نكتبه في كتابنا بكمال الطمأنينة، وبلا خوف المعارضة هو؛ أن تابعي علي يعتقدون في الحسين أكثر مما تقوله النصارى

في المسيح، فكما أننا نقول: أن عيسى تحمل هذه المصائب لتكفير السيئات، هم يقولون ذلك في الحسين ويعدونه الشفيح المطلق يوم القيامة.^(١)

٢- سياسة الإمام الحسين عليه السلام

والشيء الذي لا يقبل الإنكار أبداً إذا قلناه في الحسين، هو أنه كان في عصره أول شخص سياسي ويمكن أن نقول أنه لم يختر أحد من أرباب الديانات سياسة مؤثرة مثل سياسته، ومع أن أباه علياً هو حكيم الإسلام وحكمياته وكلماته الشخصية لم تكن بأقل مما هو لسائر حكام العالم المعروفين، لم يظهر منه مثل السياسة الحسينية.

٣- لمحة تاريخية.

ولأجل إثبات هذه المسألة يلزم الالتفات قليلاً إلى تاريخ العرب قبل الإسلام فنرى أنها كانت قرابة بين بني هاشم وبني أمية، أي أنهم بنو أعمام لأن أمية وهاشم أنجال عبد مناف،^(٢) ومن قبل الإسلام كان بينهم نفور وكدورة بدرجة متناهية، وحصل بينهم مراراً مجادلات، وقاتل وكان كل من الطرفين طالبا ثأره من الآخر وكان بنو هاشم، وبنو أمية أعزاء محترمين في قريش ولهم السيادة، فبنو أمية من جهة الغنى والرياسة الدنيوية، وبنو هاشم من جهة العلم والرياسة الروحانية.

(١) - ويجب أن لا يخفى الفرق الشاسع بين من يقول بالربوبية أو نصفها بالمسيح عليه السلام، ومن يقول بالعبودية الكاملة بالإمام الحسين عليه السلام وشفاعته لمحبيه وشيعته.

(٢) - هذه شبهة تاريخية أبطلناها في كتابنا (الإمام علي وحروب التأويل)، لأن أمية لم يكن ولد عبد شمس ولكنه عبده الذي تنبأه.

وفي بدء الإسلام ازدادت العداوة بين بني هاشم وبني أمية إلى أن فتح النبي محمد مكة، وادخل في طاعته وتحت أمره عموم قريش، وبني أمية وفي الواقع استولى على رياسة العرب وأطاعتهم بنو أمية.

وأضرم هذا التقدم في الباطن نار الحسد لبني هاشم في صدور بني أمية وكانوا على استعداد للإيقاع ببني هاشم حقداً عليهم، فلما توفي النبي وعلى أصول ولاية العهد، بل على أصول أكثرية الآراء، ولم تدع شدة مخالفة بني أمية أن تكون أكثرية الآراء في الخلافة بجانب بني هاشم، فهنا نال بني أمية مآربهم وتغلبوا على بني هاشم.

وبسبب الخلافة تمكن بنو أمية من الحصول على مقام منيع فسهلوا الطريق لمستقبلهم وكانوا يسعون في رفعة منزلتهم عند الخلفاء يوماً فيوماً وأصبحوا ركناً من أركان السلطنة الإسلامية حتى أصبح الخليفة الثالث منهم، وأصبح بنو أمية متفوقين تفوقاً مطلقاً في كل عمل ومكان ووطدوا مقامهم للمستقبل.

٤- إسلام بنو أمية.

ونظراً إلى تلك العداوة، والشارات التي كانت لبني أمية عند بني هاشم، حسب عوائد العرب في ذلك الزمان كان إظهارهم لخلوص العقيدة والنية الصافية للإسلام أقل من سواهم، وكانوا باطنياً يرون من العار أن يتبعوا ديناً يكون ختامه باسم بني هاشم، ولكثرة المسلمين في ذلك الزمان كان بنو أمية يسيرون وراء مقاصدهم تحت ظل هذا الدين، ولم يعلنوا بمخالفته وتظاهروا بمتابعته، ولما رأوا أنفسهم في المقامات العالية، ووطدوا مقامهم في الجاه والجلالة، اظهروا تمردهم عن أحكام الإسلام حتى أنهم كانوا في المحافل يستهزئون بدين جاء به بنو هاشم.

ولما رأى بنو هاشم أن الأمر صار إلى هذا واطلعوا على نوايا بني أمية لم يقعدوا عن العمل واطهروا للناس أعمال الخليفة الثالث بأساليب عجيبة فأثاروا المسلمين عليه حتى آل الأمر إلى أن اشترك رؤساء طبقات المسلمين في قتله وبأكثرية الآراء أصبح علي الخليفة الرابع.

٥- تمرد معاوية وسياسته التدميرية

من بعد هذه الواقعة تأكد بنو أمية انه ستكون لبني هاشم السيادة والعظمة كما كانت لهم في زمن النبي فلهذا قام معاوية الذي كان حاكماً لبلاد الشام من قبل الخلفاء السابقين وكان ذا اقتدار ودهاء ونظر بعيد ناشراً لواء العصيان على علي بدعوى أن قتل عثمان كان بإشارة منه وألقى الخلاف بين المسلمين، وبتلك الطريقة التي كانت بين العرب قبل الإسلام شهر السيف بينهم، ومعاوية وان لم يغلب علياً في هذه الحروب العديدة لكنه لم يكن مغلوباً ولم يطل زمن تمرد بني أمية على رياسة بني هاشم حتى قتلوا علياً، وعندئذ تغلب معاوية وصالحه الحسن الذي هو الأخ الأكبر للحسين وهو الخليفة الخامس، وعادت الخلافة إلى بني أمية.

فكان معاوية من جهة يسعى في تقوية ملكه، ومن جهة أخرى يسعى في اضمحلال بني هاشم، ولم يفتر دقيقة واحدة عن محوهم..^(١)

وكان الحسين معه أنه تحت نفوذ أخيه الحسن لم يطع بني أمية ولم يظهر مخالفتهم، وكان يقول علناً: لا بد أن اقتل في سبيل

(١) - تأمل بهذه الحقيقة التي غفلت عنها هذه الأمة، وما زالت تتجاهلها رغم أنها بيّنة واضحة بأدنى تأمل بتاريخ بني أمية.

الحق، ولا استسلم للباطل، وكان بنو أمية في اضطراب منه، وبقي هذا الاضطراب إلى أن مضى الحسن ومعاوية، وجلس يزيد في مقام أبيه على أصول ولاية العهد وأبطلت الخلافة بأكثرية الآراء من بعد علي، ولكن بعد تعيينه لولاية العهد استحصل معاوية على صك بأخذ البيعة له من رؤساء القوم ورأى الحسين من جهة أن حركات بني أمية الذين كانت لهم السلطة المطلقة والرياسة الروحانية الإسلامية قاربت أن تززع عقيدة المسلمين من دين جده ومن جهة أخرى كان يعلم انه إذا أطاع يزيد، أو لم يطعه فبنو أمية نظراً لعداوتهم، وبغضهم لبني هاشم لا يألون جهداً في محوهم وإذا دامت هذه الحالة مدة لا يبقى اثر لبني هاشم في عالم الوجود.

٦- ثورة السبط الشهيد علي يزيد

فلهذا صمم الحسين على إلقاء الثورة بين المسلمين ضد بني أمية، كما أنه رأى من حين جلوس يزيد في مقام أبيه وجوب عدم إطاعته، ولم يخف مخالفته له، وجدد يزيد في اخذ البيعة من الحسين ودخوله في طاعته فلهذا سلم الحسين نفسه للقتل عالماً عامداً لما كان يدور في خلده من الأفكار السامية.

وإذا تأمل المنصف بدقة في حركات تمثيل ذاك الدور وتقدم مقاصد بني أمية وكيفية تززع المسلمين واستيلاء بني أمية على جميع طبقات المسلمين يحكم بلا تردد أن الحسين أحى بقتله دين جده، وقوانين الإسلام، ولو لم تقع هذه الواقعة ولم يحصل ذاك الاهتزاز الكهربائي في المسلمين من قتل الحسين لم يبق الإسلام على حالته الحاضرة أبداً.

وبما أن الإسلام كان قريب العهد كان من المحتمل أن تضحل أحكامه وقوانينه، ولما كان الحسين بعد أبيه مصمماً على القيام بذلك المقصد النبيل خرج من المدينة بعد جلوس يزيد في مقام أبيه لينشر أفكاره العالية في مراكز الإسلام المهمة مثل مكة والعراق، وكل نقطة كان يطأها الحسين كان يتولد في قلوب أهلها لبني أمية النفور الذي هو مقدمة للثورة، وان يزيد لم تخفَ عليه هذه النقاط الدقيقة ولقد علم أنه لو حصل في نقطة من مملكته ثورة ونشر له الحسين لواء المقاومة سادت هذه الفكرة في جميع البلاد الإسلامية سيادة عامة بسرعة تامة:

أولاً: لنفور المسلمين لكيفية سلوك بني أمية وحكومتهم.

ثانياً: لانعطاف القلوب نحو الحسين وكانت سبباً لزوال السلطنة الأبدية من بني أمية.

فلهذا صمم يزيد بعد جلوسه على تخت الملك قبل كل شيء على قتل الحسين، وكانت هذه أكبر الغلطات السياسية لبني أمية، وبهذه الهفوة السياسية محوا اسمهم ورسمهم من صفحة عالم الوجود..^(١)

أكبر دليل على أن الحسين كان ذاهباً لمصرعه ولم يقصد السلطنة والرياسة أبداً،^(٢) هو أنه مع ذلك العلم وتلك السياسة والتجربة التي اكتسبها في عهد أبيه وأخيه في قتالهم مع بني أمية كان يعلم أنه لفقده الاستعدادات اللازمة مع تلك القوة التي كانت ليزيد لا يمكنه المقاومة، وأيضاً الحسين بعد قتل أبيه كان يخبر عن نفسه أنه مقتول لا محالة،

(١) - تأمل أرجوك بهذه النتيجة التي اعترف بها المروانيون من الحكام الأمويين، كيف تتغافل عنها الأمة إلى الآن.

(٢) - وما زال كثير من علماء الأمة وربما ممن ينتسبون للتشيع، يقولون بأنه عليه السلام ذهب للكرسي وقلب السلطنة الأموية.

ومن الساعة التي خرج فيها من المدينة كان يقول بصوت عال وبلا تستر: إنني ذاهب للقتل وكان يُصرِّح بذلك لأصحابه إتماماً للحجة، ليتركه مَنْ اتبعه طمعاً في الجاه وكانت لهجته على الدوام أن أمامي طريق المصرع (الشهادة).

ولو لم يكن الحسين بهذه الأفكار لم يكن ليستسلم للموت بل كان يسعى لإعداد جيش لا أنه يفرق الجماعة الذين معه، ولما لم يكن له قصد سوى القتل الذي هو مقدمة لتلك الأفكار السامية، وتلك الثورة المقدسة، التي كانت في نظره رأى أن أكبر وسيلة لتلك الثورة هي فقد الأنصار والقتل مظلوماً فأختارها لتكون مصائبه أشد تأثيراً في القلوب.

ومن الواضح انه مع تلك المحبة التي كانت للحسين في نفوس المسلمين في ذلك الزمن لو صمم على جلب قوة لتمكن من جمع جيش جرار ولو قتل على تلك الحالة لقليل أنه قتل في سبيل المُلْك ولم تحصل له المظلومية التي أنتجت تلك الثورة العظمى، فلماذا لم يبقَ معه سوى الأشخاص الذين لم يمكن انفكاكهم عنه كأولاده وإخوته وأبناء إخوته وأبناء أعمامه وبعض خواص أتباعه.

حتى إن هؤلاء أيضاً كلفهم بالانفكاك عنه فلم يقبلوا وهؤلاء أيضاً كانوا عند المسلمين موصوفين بالتقديس وجلالة القدر وصار بسبب قتلهم مع الحسين زيادة في عظم هذه الواقعة وتأثيرها، وكان الحسين بقوة العلم والسياسة لم يفتر آنا عن إفشاء مظالم بني أمية وإظهار نواياهم السيئة في عداوتهم لبني هاشم وآل محمد.

منها: أنه لعلمه بعبادة بني أمية له ولأهل بيته كان يعلم أنه بعد قتله سيأسرون نساء وأطفال بني هاشم الذين هم آل محمد وأنها

ستؤثر هذه الواقعة في قلوب المسلمين خصوصاً العرب منهم بدرجة فوق التصور كما جرى ذلك، فحركات ظلم بني أمية وعدم رحمتهم لحریم وصبية نبيهم أثرت في قلوب المسلمين تأثيراً لم يكن بأقل من تأثير قتل الحسين وأصحابه وقد أظهر ذلك عداء بني أمية لآل بيت محمد وعقائدهم في الإسلام، وسلوكهم مع المسلمين فلهذا كان يقول الحسين علناً لأصحابه الذين ينهونه عن السفر للعراق؛ أنا ذاهب للقتل..^(١)

ولما كانت أفكارهم محدودة، ولم يطلعوا على مقاصده السامية كانوا يُصرون على منعه حتى كان جوابه الأخير لهم: هكذا شاء الله، وأمر جدي.

فكانوا يجيبونه بتأكيد إذا كنت ذاهباً للقتل فلا تأخذ النساء والأطفال معك فكان يجيبهم: قد أراد الله أن يكون عيالي أسرى..^(٢)

ولما كان الحسين يومئذ رئيساً روحانياً للمسلمين (إماماً) لم يجدوا لتلك الكلمات جواباً وكانت دليلاً على عدم تصوره لسوى تلك الأفكار العالية وأنه لم يتحمل هذه المصائب للحصول على السلطنة، ولم يرد هذه المهلكة العظيمة على غير علم كما تصور ذلك بعض مؤرخينا بدليل أنه كان قبل هذه الواقعة بسنين متطاوله يترنم بذكر مصائبه التي ستقع على سبيل التسلية لخواص أصحابه من ذوي الأفكار العالية، والأدمغه الواسعة قائلاً سيظهر الله بعد قتلي، وظهور تلك المصائب المفجعة أقواماً يميزون الحق من الباطل ويزورون قبورنا ويكون

(١) - قال عليه السلام: (شاء الله أن يراني قتيلاً).

(٢) - وقال عليه السلام: (شاء الله أن يراهن سبايا).

على مصائبنا ويأخذون الثأر من أعداء آل محمد، هؤلاء الجماعة يروجون دين الله وشريعة، جدي ونحبهم أنا وجدي وسيحشرون معنا يوم القيامة^(١).

٧- عمل الإمام الحسين عليه السلام الذي حَيَّرَ العقول

فإذا أنعم النظر في كلمات الحسين وحركاته يرى أنه لم يفتقر لحظة عن إظهار قبائح بني أمية وعداوتهم القلبية لبني هاشم ومظلوميته وهذه السياسة البالغة إلى النهاية، وقوة القلب، والاستماتة تثبت سلوكه في طريق أفكاره السامية حتى أنه في آخر لحظة من حياته أتى بعمل بمسألة طفله الرضيع حَيَّرَ فيه عقول الفلاسفة، ففي تلك الساعة العصبية مع تلك المصائب المفجعة، وتراكم الأفكار، والعطش، وكثرة الجراحات أيضاً، لم يصرف نظره عن أفكاره السامية مع أنه كان يعلم أن بني أمية لا يرحمون طفله الصغير، ولكنه لتعظيم مصيبيته، حمله على يديه وتظاهر بطلب الماء له فسمع الجواب بالسهم.

كأن الحسين كان قصده من هذه الحركة أن يعلم العالم أن عداوة بني أمية لبني هاشم إلى أي درجة كانت وأن لا يتصوروا أنه كان إقدام يزيد على هذه الفجيعة اضطراراً لأجل الدفاع عن نفسه لأن قتل هذا الطفل الرضيع في مثل هذا الحال مع تلك الوضعية المدهشة لا تُظهر إلا وحشيتهم وعداوتهم السبعية، التي تنافي قواعد كل دين ومذهب.

وهذه النكتة وحدها ترفع الستار عن وجه قبائح أعمال بني أمية ونواياهم الفاسدة، وعقائدهم السيئة، وتُظهر للعالم أجمع وللمسلمين خاصة أن بني أمية لم تسع في مخالفة النبوة والإسلام فقط بل تسعى

(١) - هذا مضمون روايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته لاسيما حديث أم أيمن .

عن طريق العصبية الجاهلية في أن لا تبقي من بني هاشم، وعلى الأخص بقايا آل محمد دياراً.

فالحسين بتلك الأفكار السامية، وسعة العلم، والعقل، والسياسة التي كانت مسلمة له إلى أن قتل، لم يرتكب أمراً يُلجئ بني أمية لدفعه حتى أنه مع ذلك النفوذ الذي كان له يومئذ، وتلك المقدره العظيمة لم يستول على بلدة من بلاد المسلمين، ولم يهاجم حكومة من حكومات يزيد، وأخيراً قبل أن تظهر منه حركة عصيان أو تبدو منه إساءة حاصروه في فلات غير ذات زرع.

أبدأ لم يقل الحسين إني سأكون ملكاً أو أريد الملك إنما كان يظهر مساوئ بني أمية واضمحلال الإسلام من سيرهم، ويُخبر عن قتله وكان فرحاً جداً من مظلوميته، ولما حاصروه في البيداء أظهر أنهم لو تركوه فهو مستعد لأن يخرج بعياله وأطفاله من سلطنة يزيد، أي من الممالك الإسلامية، وهذه النكته وحدها التي تثبت سلامة نفس الحسين أثرت في قلوب المسلمين غاية الأثر ضد بني أمية.

٨- مقتل الإمام الحسين ﷺ فريد كل العصور

قبل الحسين، قتل أيضاً كثير من الرؤساء الروحانيين وأرباب الديانات ظلماً وقامت الدعوة من بعد قتلهم وسلّ أتباعهم السيوف على أعدائهم كما تكرر ذلك في بني إسرائيل، وقضية يحيى هي إحدى الوقائع التاريخية الكبرى، وتلك الخطة التي سلكها اليهود مع السيد المسيح.

إلى ذلك الزمان لم يقع نظيرها، ولكن لواقعة الحسين مزية على جميع تلك الوقائع.

لم يرد في التأريخ أن أحد الروحانيين وأرباب الديانات سلم نفسه للقتل عالماً عامداً لأفكار عالية متأخرة، أي أن كل واحد من أرباب الديانات الذين قتلوا هجم عليهم أعداؤهم وقتلوهم عنفاً وظلماً وعلى قدر مظلوميتهم كانت قوة الثورة من بعدهم.. ولكن واقعة الحسين كانت عن علم وحكمة سياسية وليس لها نظير في تاريخ الدنيا.

تأهب الحسين للقتل سنين متوالية ونظره ممدود إلى مقاصد عالية جداً ولم يوجد في التأريخ أحد سلم نفسه للقتل عالماً عامداً لترويج دينه في المستقبل سوى الحسين.

إن للمصائب التي تحملها الحسين في سبيل إحياء دين جده مزية على السالفين من أرباب الديانات، ولم ترد على أحد من الماضين وعلى فرض القول بأن أشخاصاً آخر خسروا نفوسهم أيضاً في طريق الدين لكنهم ليسوا كالحسين.

الحسين جاد بنفسه العزيزة وجميع أبنائه، وإخوته، وأبناء، وإخوته، وأبناء أعمامه، وخواص أحبائه وأقربائه، جاد بالمال، سلم عياله للأسر.

هذه المصائب لم تفاجئه على حين غرة، وعلى غير علم لتكون في حكم مصيبة واحدة بل وردت هذه المصائب على مرور الزمان واحدة بعد واحدة، وهجوم هذه المصائب المترادفة مختص بالحسين وحده في تاريخ الدنيا.

فمن عظم مصائب الحسين ارتفع الستار فجأة عن سرائر بني أمية وظهرت قبائح أعمالهم، بمجرد قتل الحسين، وورود تلك الرزايا المؤلمة وأسر نسائه، وبناته ظهر في المسلمين حس السياسة ومادة الثورة ضد سلطنة يزيد وآل أمية، وعلموا أن بني أمية هم مُخربوا

الإسلام فردوا بدعهم ومجعلواتهم وسموهم الظالمين والغاصبين، وبالعكس بنو هاشم فسموهم مظلومين مستحقين للرياسة، وعرفت فيهم حقيقة روحانية الإسلام كأنما أخذ المسلمون حياة جديدة وظهر لروحانية الإسلام رونق جديد.

٩- أول نتائج الثورة الحسينية المباركة.

رياسة روحانية الإسلام التي كانت قد زالت دفعة واحدة، والمسلمون كأنهم قد نسوا واجهة الروحانية الإسلامية، تجددت بنورانية شفافة، كما كانت عظمة مصائب الحسين على جميع مصائب روحاني السلف مسلمة كذلك كانت للثورات التي ظهرت بعد واقعة الحسين مزية على ثورات السلف وكان امتدادها أكثر وآثارها أعظم، ومن هذا الوجه ظهر للعالم أجمع مظلومية آل محمد.

أول نتيجة لهذه الثورة أن الرياسة الروحانية التي لها أهمية عظمى في عالم السياسة تجددت في بني هاشم، وعلى الأخص في البقية الباقية من آل الحسين وإلى الآن ينظر جميع المسلمين إلى بني هاشم وخصوصاً ذرية الحسين بنظر الروحانية ولم تطل المدة حتى زالت تلك السلطنة ذات السعة والاقتدار عن آل يزيد ومعاوية وفي أقل من قرن سلبت السلطة من بني أمية قاطبة، وانمحي ذكرهم واضمحلوا بحيث أنه لم يبقَ لهم اليوم اسم ولا رسم، ولا ذكر وأينما ذكر لهم في متون الكتب اسم يقرنه المسلمون بكلمة شماتة، وهذه كلها نتائج السياسة الحسينية التي يمكن أن يُقال فيها انه لم يذكر التاريخ في أرباب الديانات، والسلف من الروحانيين إلى اليوم شخصاً كالحسين مُفكراً في عواقب الأمور، مُراعياً لها، بعيد النظر إلى المستقبل، مستقبل الفكر

قبل أن تصل أسرى الحسين إلى يزيد نشر لواء طلب ثار الحسين وقامت الثورة ضد يزيد.

١٠- الأمويون حسدوا بني هاشم حتى بالشهادة

مظلومية الحسين كشفت جميع أسرار بني أمية ورفعت الستار عن نواياهم السيئة حتى انه طال لسان اللوم والشماتة على يزيد من أهل داره وحرمه مع انه لم يكن بالإمكان ذكر الحسين وأهل بيت علي بخير حول يزيد وحاشيته، وبعد هذه الواقعة أصبح يزيد مُرغماً على سماع ذكر اسم الحسين وأهل بيت علي في الملاء العام، وفي الخلوات والجلوات بالتقديس، والتعظيم، والمظلومية، وكان ذلك أسخط شيء له ولكن لا يسعه إلا السكوت، ولما رأى تبراُ الناس من هذه الأعمال نسب التقصير إلى أمرائه.

ولما رأى شدة إطراء الناس للحسين وذكر محامده عزَّ عليه ذلك حتى قال يوماً: كان أحب إليَّ أن يكون الملك والسلطنة للحسين من أن أرى وأسمع لآل علي وبني هاشم هذا التعظيم والتقديس.

وبالآخرة فلم يزل أولياء الحسين يستفيدون من هذه الثورات وتزيد قوة وعظمة بني هاشم، ولم يمضِ أقل من قرن حتى صارت السلطنة الإسلامية الوسيعة في بني هاشم بلا مزاحم، وأبادوا بني أمية بحيث لم يبقَ لهم اسم ولا رسم غير أنه بعد بضعة قرون ترأس جماعة منهم في الأندلس، واحداً بعد واحد، واليوم لا يمكن أن يوجد من ذلك البيت (اللثيم) الذي مرَّت عليه قرون وهو ذو ملك وسلطنة شخص واحد ولو حامل الذكر، ولو وجد لستر حسبه ونسبه على الناس من شدة الطعن

كما هو المشهور أن العائلة القاجارية الذين هم سلاطين إيران هم من بني أمية ولكنهم ينكرون هذه الشهرة ويتبرؤون من هذه النسبة.

وتحلى بنو هاشم بعد قرن بقلادة الملك وكانوا أولاد عم الحسين لا أولاده لان أولاده كانوا قد اختاروا العزلة وكانت رياسة الإسلام الروحانية على الإطلاق مسلمه لهم.

إن أبناء عم الحسين وان يكونوا قد حازوا السلطنة ببركة ثورات أتباع الحسين لكنهم بعد أن قبضوا على زمامها ورسخت فيها أقدامهم خافوا على مقامهم وسلطنتهم فمنعوا أصحاب تلك الثورات منها منعاً شديداً خوفاً من أن تعود السلطنة الإسلامية في أبناء الحسين شيئاً فشيئاً فهدئت فورة تلك الثورات شيئاً فشيئاً.

(أولاً): للمنع الشديد من أبناء عم الحسين.

(ثانياً): لاضمحلال بني أمية.

فلما رأى عقلاء أتباع الحسين وعلي شدة المنع من قبل بني العباس وضعف مادة الثورة علموا أن لا قدرة لهم على مقاومة بني العباس الذين هم في غاية القدرة، وعلي الثورة ضدهم مع تشتت الأفكار العمومية، فتركوا الثورة ظاهراً وغيروا صورتها باطناً باجتماعهم وتذكر تلك المصائب، والفظائع التي وردت على الحسين عليه السلام، فأحيوا تلك الثورة العظمى وأظهرورها بمظهر جديد.

لما اطلع سلاطين بني العباس على هذا التدبير الذي دبره أتباع الحسين خافوا زيادة على خوفهم الأول ورأوا من اللازم شدة معارضة ذلك التدبير على وجه أنهم تتبعوا أتباع علي والحسين فإذا ظهرت تابعيتهم على أحد يعاملونه معاملة أكبر جان سياسي، وبهذا الجرم

صلب وقتل وجرح وحبس ألوف من أتباع الحسين، ومع هذه الشدة لم يتمكنوا من قلع مادة الثورة من أتباع علي، وكلما ازدادوا شدة ومعارضة ازداد أتباع علي والحسين قوة واشتداداً في الثورة، وكانت العاقبة أنه بتدابير أتباع الحسين زالت سلطنة هذه الطبقة.

١١- عظمة ورقية الشيعة بالولاية والشعائر

وتداول السلطنة أولاد الحسين مدة من الزمان كانت الرياسة الروحانية بعد الحسين في أولاده واحداً بعد واحد وهؤلاء أيضاً جعلوا إقامة عزاء الحسين الجزء الأعظم من المذهب وألبست هذه النكته السياسية شيئاً فشيئاً اللباس المذهبي وكلما ازدادت قوة أتباع علي ازداد إعلانهم بذكر مصائب الحسين، وكلما سعوا وراء هذا الأمر ازدادت قوتهم وترقيهم، وجعل العارفون بمقتضيات الوقت يغيروا شكل ذكر مصائب الحسين قليلاً قليلاً فجعلت تزداد كل يوم بسبب تحسينهم وتنميقتهم لها حتى آل الأمر إلى أن صار لها اليوم مظهر عظيم في كل مكان يوجد فيه مسلمون حتى أنها سرت شيئاً فشيئاً بين الأقوام وأهل الملل الأخرى خصوصاً في الصين والهند، وعمدة أسباب تأثيرها في أهل الهند هو أن المسلمين جعلوا طريق إقامة العزاء مشابهاً لمراسيم إقامة العزاء عند أهل الهند، قبل مائة سنة لم تكن إقامة عزاء الحسين شائعة في الهند شيوعاً تاماً وظاهرة علناً وفي هذه المدة القليلة استوعبت بلاد الهند من أولها إلى آخرها، ويظهر أنها كل يوم في زيادة لعدم اطلاع بعض مؤرخينا على كمية وكيفية هذه المآتم ورواجها استرسلوا في كلامهم على غير علم وجعلوا يصفون إقامة أتباع الحسين لها أنها أفعال جنون، ولم يقفوا أبداً على مقدار ما أحدثته هذه المسألة من التغييرات والتبديلات في الإسلام.

الحس السياسي والثوران والهيّاج المذهبي التي ظهرت في هذه الفرقة من إقامة هذه المآتم لم ير مثلها في قوم من الأقسام.

إن مَنْ يسبر غور الترقيات التي حصلت في مدة مائة سنة لأتباع علي في الهند الذين اتخذوا إقامة هذه المآتم شعاراً لهم يجزم بأنهم متبعون أعظم وسيلة للترقي، كان أتباع الحسين في جميع بلاد الهند يُعدون على الأصابع واليوم هم في الدرجة الثالثة بين أهل الهند من حيث العدد وكذلك في سائر البلدان.

عندما نقيس منهج دعائنا (المبشرين) مع صرف تلك القوة والثروة بمنهج دعاة هذه الفرقة نرى أن دعائنا لم يحوزوا العشر من تقدم هذه الفرقة، رؤساء ديننا، وإن كانوا يحزنون الناس بذكر مصائب حضرة المسيح ولكنه ليس بذلك الأسلوب والشكل الذي يتخذه أتباع الحسين، ويحتمل أن يكون السبب في ذلك أن مصائب المسيح في جنب مصائب الحسين لا تكون مؤثرة مشجبة للقلب بتلك الدرجة التي لمصائب الحسين.

على مؤرخينا أن يطلعوا على حقائق رسوم وعادات الأغيار ولا ينسبوا إلى الجنون.

١٢- صيانة الإسلام بدماء الإمام الحسين ﷺ

إنني اعتقد أن صيانة قانون محمد، وترقي المسلمين، وظهور رونق الإسلام، هو من قتل الحسين وحدث تلك الوقائع.

إن هذا القسم من الدماغ السياسي والحس الثوري - الذي هو عدم الاستسلام للظلم وهو عند حكماء السياسة اشرف شعار وأعظم سعادة وأفضل صفة ممدوحة لكل إنسان - قد ظهر في هؤلاء القوم

بواسطة إقامتهم مآتم الحسين، ومادام هذا العمل ملكة لهم لا يقبلون
الذل والضميم.

ينبغي تدقيق النظر فيما يُذكر في المجالس المنعقدة لإقامة عزاء
الحسين من النكبات الدقيقة الباعثة في الإنسان روح الحياة التي
يسمعا بعضهم لبعض وفي الحقيقة يُعلمه إياها.

حضرتُ مجالس إقامة عزاء الحسين مراراً في اسطنبول مع مترجم
خاص فسمعتهم يقولون: (الحسين الذي هو إمامنا ومقتدانا وطاعته
وإتباعه واجبان علينا، لم يتحمل الضيم ولم يدخل في طاعة يزيد ولأجل
حفظ شرفه وعلو حسبه وارتفاع مقامة بذل ماله، بذل نفسه، بذل أولاده،
بذل عياله واستعاضة عن ذلك بحسن الذكر في الدنيا والشفاعة في الآخرة
والقرب من الله وقد خسر أعدائه الدنيا والآخرة)

من بعد ذلك رأيت وعلمت أنهم في الحقيقة يعلم بعضهم بعضاً
علناً؛ أنكم إن كنتم من أتباع الحسين، إن كان لكم شرف، إن كنتم
تطلبون السيادة والفوز، فلا تدخلوا في طاعة أمثال يزيد ولا تحملوا
الضميم واختاروا موت العز على حياة الذل تنالوا حسن الذكر في
الدنيا والسعادة في الآخرة.

من المعلوم أن أمة تُلقى عليها هذه التعاليم من المهد إلى اللحد
في أي درجة تكون في الملكات العظيمة، والسجايا العالية؟

نعم تكون حائزة كل سعادة وشرف، ويكون كل فرد منها جندياً
حقيقياً مدافعاً عن عزِّ قومه وفخرهم، هذه هي نكتة التمدن الحقيقي
للأمم اليوم، هذا هو تعاليم معرفة الحقوق، هذا هو معنى تدريس
أصول السياسة.

نحن الأوربيون بمجرد أن نرى لقوم حركات ظاهرية في مراسمهم الملية أو المذهبية منافية لعاداتنا ننسبها إلى الجنون، والتوحش، ونحن غافلون عن أننا لو سبرنا غور هذه الأعمال لرأينا عقلية سياسية، كما نشاهد ذلك في هذه الفرقة، وهؤلاء القوم بأحسن وجه، والذي يجب علينا هو أن ننظر إلى حقائق عوائد كل قوم وإلا فإن أهل آسيا أيضاً لا يستحسنون كثيراً من عوائدنا ويعدون بعض حركاتنا منافية للأداب ويسموننا بعدم التهذيب بل بالوحشية.

وعلاوة على تلك المنافع السياسية التي ذكرناها التي هي طبعاً اثر التهيج الطبيعي فإنهم يعتقدون أن لهم في إقامة ماتم الحسين درجات عالية في الآخرة.

كل عارف بالتاريخ واقف على طبائع أهل آسيا يعتقد ويدعن بأنه لا يمكن اليوم بل وإلى ما بعد قرنين إصلاح أخلاقهم وإلقاء التعاليم السياسية عليهم إلا باسم الدين والمذهب.

١٣- خطة الهدم التدميرية

ينبغي اقتطاف ثمرات حب القومية والوطن من أهالي آسيا تحت ظل المذهب كما كانت أوربا قبل بضعة قرون.. لا يمكن اليوم طلب خدمة من أهالي آسيا كأهالي أوربا باسم الخدمة القومية والوطنية ولكن يمكن أخذ خدمات منهم تعود ثمراتها على الأمة والوطن باسم المذهب.

لا يرى اليوم من المسلمين البالغين ثلاثمائة مليون^(١) من هو حائز على الاستقلال سوى خمسين مليون فإذا نبذ المسلمون الدين ظهيراً وراموا التقدم السياسي باسم القومية فسينالون عوض النفع ضرراً لأن خمسة أسداس المسلمين تحت ضغط ملل أخرى، ومضمحلة في أقوام آخرين.

فإذا طلبوا التقدم باسم القومية فيكون الحرمان من الحياة السياسية نصيب هذه الخمسة أسداس فلا تشترك مع السدس الباقي، ولكنهم إذا راموا التقدم باسم الجامعة الإسلامية فلا بد أن تنبعث روح النهضة في جميع آحاد المسلمين، وبواسطة الرابطة الروحانية ستنجو من الاضمحلال جميع الفرق الإسلامية التي هي تحت ضغط أقوام آخرين.

وليس لواحدة من الروابط الروحانية التي بين المسلمين اليوم تأثير في نفوسهم كتأثير إقامة مآتم الإمام الحسين فإذا دام انتشار وتعميم إقامة هذه المآتم بين المسلمين مدة قرنين لا بد أن تظهر فيهم حياة سياسية جديدة، وان الاستقلال الباقي للمسلمين اليوم نصف أسبابه هو إتباع هذه النكتة وسنرى اليوم الذي يتقوى فيه سلاطين المسلمين تحت ظل هذه الرابطة وبهذه الوسيلة سيتحد المسلمون في جميع أنحاء العالم تحت لواء واحد لأنه لا يرى في جميع طبقات الفرق الإسلامية من ينكر ذكر مصائب الحسين، وينفر منها بسبب ديني بل للجميع رغبة طبيعية بطريق خاص في أداء هذه المراسيم المذهبية، ولا يرى في المسلمين المختلفين في العقائد سوى هذه النكتة الاتحادية.

(١) - قبل قرن من الزمن ولكنهم اليوم ربما تجاوزوا المليارين من البشر ولله الحمد .

الحسين أشبه الروحانيين بحضرة المسيح ولكن مصائبه كانت أشد وأصعب كما أن أتباع الحسين كانوا أكثر تقدماً من أتباع المسيح في القرون الأولى فلو أن المسيحيين سلكوا طريقة أتباع الحسين أو أن أتباع الحسين لم تمنعهم من ترقياتهم عقبات من نفس المسلمين لسادت إحدى الديانتين في قرون عديدة جميع المعمور كما أنه من حين زوال العقبات من طريق أتباع الحسين أصبحوا كالسيل المنحدر يحيطون بجميع الملل وسائر الطبقات..^(١)

شهادة المستشرق الفرنسي الدكتور جوزيف

من كتاب (الإسلام والمسلمون) للمستشرق الدكتور جوزف الفرنسي حيث يقول هذا المستشرق الفرنسي في كتابه تحت عنوان (الشيعة وترقياتها المحيرة للعقول)، قال من جملة كلام له طويل:

(لم تكن هذه الفرقة يعني الشيعة ظاهرة في القرون الأولى الإسلامية كأختها، ويمكن أن تنسب قلتهم إلى سببين: أحدهما: أن الرئاسة والحكومة التي هي سبب ازدياد تابعي المذهب كانت بيد الفرقة الأخرى.

والسبب الآخر: هو القتل والغارات التي كانت تتوالى عليهم في كل زمان ومكان، ولهذا

ونظراً لحفظ نفوس الشيعة حكم أحد أئمتهم في أوائل القرن الثاني عليهم بالتقية، فزادت في قوتهم، لعدم تمكن العدو القوي الشكيمة

(١) - إقناع اللائح على إقامة المآتم، للسيد محسن الأمين العاملي؛ ص ٣٤٨ وما قبلها.. والعناوين من عندنا للتبويب والتوضيح.

من قتلهم والإغارة عليهم، بعد أن لم يكونوا ظاهرين، وصاروا يعقدون المجالس سرّاً ويبكون على مصائب الحسين، واستحكمت هذه العاطفة في قلوبهم على وجه لم يمض زمان قليل إلا وارتقوا، حتى صار منهم الخلفاء والسلاطين والوزراء، وهؤلاء بين مَنْ أخفى مذهبه وتشيعه، وبين من أظهره.

وبمقتضى تخمين بعض سواح فرنسا أن الشيعة فعلاً: سدس المسلمين أو سبعمهم.. والإحصائيات الآن تنبئنا بأن الشيعة تتراوح نسبتهم بين الربع والثلث من عدد المسلمين.. ونظراً إلى هذا الترقى الذي حازته فرقة الشيعة في زمان قليل، من دون جبر وإكراه، يمكن أن يقال: إنهم سيفوقون سائر فرق الإسلام بعد قرن أو قرنين.. والسبب في ذلك هو إقامة عزاء الحسين الذي قد جعل كل واحد منهم داعياً إلى مذهبه، ولا يوجد اليوم مكان فيه الواحد أو الاثنان من الشيعة إلا ويقيمان فيه عزاء الحسين، ويبدلان في هذا السبيل الأموال الكثيرة.

فقد رأيتُ في بندر (مارسل) في الفندق شخصاً واحداً شيعياً عربياً من أهالي البحرين يقيم المآتم الحسيني منفرداً جالساً على كرسي، وييده كتاب يقرأ في كتاب ويكي، ثم يقسم ما أحضره من الطعام على الفقراء.

هذه الطائفة تبذل الأموال في هذا السبيل على وجهين:

١. فبعضهم يبذلها من خالص أمواله في كل سنة بقدر استطاعته، وصرفيات هذا القسم تزيد على ملايين الفرنكات.
٢. وبعضهم يعين أوقافاً لهذا المشروع لخصوص هذه الطائفة، وهذا القسم أضعاف الأول.

وهذه المبالغ طائلة جداً،^(١) ويمكن أن يقال: إن جميع فرق الإسلام من حيث المجموع لا يبذلون في سبيل تأييد مذهبهم بمقدار ما تبذله هذه الفرقة في سبيل ترقيات مذهبها،^(٢) وموقوفات هذه الفرقة ضعفاً أوقف سائر المسلمين، أو ثلاثة أضعافها.

وكل واحد من هذه الفرقة هو في الحقيقة داع إلى مذهبه من حيث يخفى على سائر المسلمين، بل إن الشيعة أنفسهم لا يدركون هذه الفائدة المترتبة على عملهم، وليس في نظرهم إلا الثواب الأخروي.

ولكن حيث أن كل من عمل في هذا العالم لا بد وأن يكون له أثر طبيعي في العالم الاجتماعي، قصده الفاعل أو لم يقصده، لم تحرم هذه الفرقة فوائد هذا العمل الطبيعية في هذا العالم.

ومن المعلوم أن مذهباً دعاه خمسون أو ستون مليوناً (كيف الآن وربما وصلوا المليار والله الحمد والفضل والمجد) لا بد وأن يرتقي أربابه على وجه التدرج إلى ما يليق بشأنهم، حتى أن الرؤساء الروحانيين من هذه الفرقة وسلاطينها ووزرائها لم يخرجوا عن صفة كونهم دعاة، وسعي الفقراء والضعفاء في محافظة إقامة عزاء الحسين من حيث

(١) - واللطف أن أحد هؤلاء الغربيين الذين لا يعرفون قيمة إلا للمادة قام منذ سنوات بحساب ما يصرفه الشيعة في أيام السبط الشهيد فرأى فيها العجب العجاب من الأرقام، ونتيجة الحساب لديه قال: أن ما يصرفه الشيعة في أيام عاشوراء يبني مدينة من الذهب.

(٢) - ولهذه النكتة الدقيقة صنع الاستكبار العالمي خوارج القرن الماضي وسلطوهم على أشرف بلاد المسلمين، وأغنى بقاع العالم، واخترعوا لهم سموه ديناً وما هو بحقيقته إلا فكرة سياسية لضرب الدين الإسلامي من داخله، وفي معقله لاسيما الشيعة لأنهم الطرف الأقوى لما لديه من مقومات القوة والتنامي، التي من أقواها وأعظمها الإمام الحسين عليه السلام وعاشواته الدامية التي توحد وتقوي وتزيد الشيعة في كل عام - ولله الحمد - فسلطوا عليهم وليدتهم الغير شرعية التي تسمى (بالوهابية).

انتفاعهم من هذا الباب أكثر من الأعيان والأكابر، لأنهم يرون في ذلك خير الدنيا والآخرة.

لهذا ترى جماعة كثيرين من عقلاء هذه الفرقة قد تركوا سائر أشغالهم المعاشية وتفرغوا لهذا العمل، وهم يكابدون المشاق في تحري العبارات اللائقة والجمل الواضحة عند إلقاء فضائل رؤساء دينهم ومصائب أهل البيت على المنابر في المجالس العمومية، ولأجل هذه المشقات التي اختارتها هذه الجماعة فاق خطباء هذه الفرقة على خطباء جميع فرق المسلمين.

المجالس مدارس

وحيث أنّ تكرار الأمر الواحد يوجب اشمئزاز القلوب ومللها وعدم التأثير، تسعى هذه الجماعة في ذكر تمام المسائل الإسلامية الراجعة إلى مذهبهم بهذا العنوان على المنابر، حتى آل الأمر إلى عوام الشيعة بفضل هؤلاء الخطباء أن أصبحوا أعرف بمسائل مذهبهم من معرفة كل فرقة من فرق المسلمين بمذهبها، كما أنّ اكتساب الشيعة واحترافهم بهذه الوسيلة وسائر الوسائل الراجعة إليها أيضاً أكثر من سائر المسلمين.

ولو نظرنا اليوم في أقطار العالم، نرى أنّ الأفراد التي هي أولى بالمعرفة والعلم والصنعة والثروة إنما توجد بين الشيعة، والدعوة التي قام بها الشيعة إلى مذهبهم أو سائر الفرق الإسلامية غير محدودة، بل أنّ آحاد وأفراد الطائفة دعاء، ما دخلوا بين أمة إلاّ وسرى هذا الأثر في قلوبها، وليس العدد الذي نراه اليوم في الهند من الشيعة إلاّ هو أثر إقامة هذه المآتم.

فرقة الشيعة حتى في زمان السلاطين الصفوية لم تسع في ترقي دينها بقوة ولا سيف، بل أنهم بلغوا هذه الدرجة من الترقي المُحَيَّر للعقول بقوة الكلام والدعوة التي أثرها أمضى من السيف.. ولقد بلغ اهتمام هذه الفرقة في أداء مراسم مذهبها مبلغاً عظيماً، حتى جعلت ثلثي المسلمين من أتباع سيرتها.

ومن المعلوم أنّ بعد مضي قرن وصل هذه الأعمال بالإرث إلى أبناء أولئك الطوائف يذعنون بها ويصدقون هذا المذهب.. وبما أن فرقة الشيعة تعتقد بان جميع المطالب والمقاصد موكول نجاحها إلى أكابر مذهبهم، وهم يفزعون إليهم في قضاء الحوائج، ويستمدون منهم عند الشدائد، سرت هذه الروح أيضاً إلى سائر الفرق التي اشتركت معهم في تلك الأعمال والأفعال، ومن المعلوم أنّ بمجرد قضاء حاجتهم وبلوغ آمالهم تزداد عقيدتهم بهذا المذهب رسوخاً.

من هذه القرائن والأسباب يمكننا أن نقول: لا يمضي على هذه الفرقة زمان قليل إلاّ وتفوق سائر المسلمين من حيث العدد، وكانت هذه الفرقة قبل قرن أو قرنين تلازم التقية فيما عدا إيران نظراً لقلّتهم، وعدم قدرتهم على إظهار شعائر مذهبهم، ولكن من يوم استولت الدولة الغربية على الممالك الشرقية ومنحت جميع المذاهب الحرية قامت هذه الفرقة تقيم شعائر مذهبها علناً في كلّ مكان، واستفادوا من هذه الحرية فائدة تامة حتى أنهم تركوا التقية.

لهذه الأسباب المذكورة كانت هذه الفرقة أعرف من غيرها بمقتضيات العصر الحاضر، وأكثر سعياً باكتساب المعاش وتحصيل المعارف، لذلك ترى العمّال في هذه الفرقة أكثر مما تراه في سائر فرق المسلمين، لاشتغال الغالب منهم المستلزم لمتابعة غير الغالب،

مضافاً إلى أنّ مثابرتهم على العمل مما توجب احتياج الغير إليهم، كما أنّ اختلاطهم مع سائر الفرق وصلاتهم الودادية مع غيرهم تلازم غالباً اشتراك الغير في مجالسهم ومحافلهم، فيسمعون أصول مذهبهم، ويصغون إلى كلماتهم وعباراتهم، وبتكرار ذلك يأنسون بطريقتهم ومذهبهم.

وهذا هو عمل الدعاة، والأثر الذي يترتب على هذه السيرة هو الأثر الذي يتطلبه جميع ساسة الغرب في رقي دين المسيح مع تلك المصارف الباهظة.

ومن جهة أنهم يذكرون في مجالس قراءة التعزية المتواصلة، وعلى المنابر المصائب التي وردت على رؤساء دينهم، والمظالم التي وردت على الحسين عليه السلام، ومع تلك الأحاديث المشوقة إلى البكاء، على مصائب آل الرسول.

فتمثيل تلك المصائب للأنظار أيضاً له تأثير عظيم، ويجعل العام والخاص من هذه الفرقة راسخ العقيدة فوق التصور، وهذه النكات الدقيقة صارت سبباً في أنه لم نسمع من ابتداء ترقى مذهب الشيعة إلى الآن أن واحداً منهم ترك دين الإسلام أو دخل في أي من الفرق الإسلامية الأخرى.

هذه الفرقة تعمل الشبيه بأقسام مختلفة، فتارة في مجالس مخصوصة ومقامات معينة، وحيث أنه في أمثال هذه المجالس المخصوصة والمقامات المعينة يكون إشتراك الفرق الأخرى معهم أقل أو وجدوا تمثيلاً بوضع خاص فعملوا الشبيه في الأزقة والأسواق وداروا به بين جميع الفرق وبهذا السبب تتأثر قلوب جميع الفرق منهم ومن

غيرهم بذلك الأثر الذي يجب أن يحصل من التمثيل، ولم يزل هذا العمل شيئاً فشيئاً يورث توجه العام والخاص إليه، حتى أن بعض الفرق الإسلامية الأخرى وبعض الهنود قلدوا الشيعة فيه، واشتركوا معهم في ذلك.

ومن جملة الأمور التي أوجبت رقي هذه الفرقة وشهرتهم في كل مكان هو إظهار أنفسهم بالمظهر الحسن، (أي الدعوة إلى الإمام الحسين بالكلمة الطيبة والأخلاق الحسنة التي كانت للإمام الحسين عليه السلام) بمعنى أن هذه الطائفة قد جلبت إليها قلوب سائر الفرق من حيث الجاه والقوة والشوكة والاعتبار بواسطة المجالس والمآتم والشبيه واللطم والدوران وحمل الرايات والألوية في عزاء الحسين.

إن من المعلوم أن كل جمعية وجماعة تجلب إليها الأنظار والخواطر بدرجة ما، مثلاً لو كان في بلد عشرة آلاف متفرقين، وفي محل ألف نفس مجتمعة، كانت شوكة الألف المجتمعين وأبتهتهم في أنظار الخاصة والعامّة أكثر من العشرة آلاف المتفرقين، مضافاً إلى أنهم لو اجتمع ألف نفس انضمت إليهم من غيرهم مثل عددهم، إمّا للتفرج، أو لأجل صداقة ورفاقة، أو لأغراض أخرى، وبهذا الانضمام تزيد شوكة الألف وقوتهم في الأنظار وتتضاعف.

لهذا ترى أنه في كل مكان ولو كانت جماعة من الشيعة قليلة يظهر عددها في الأنظار بقدر ما هي عليه مرتين، وشوكتها وقوتها بقدر ما هي عليه عشر مرات وأكثر، فأسباب معروفة (أي ظهور واشتهار) هؤلاء القوم وترقيهم هي هذه النكته.

ومن جملة الأمور الطبيعية التي صارت مؤيدة لفرقة الشيعة في التأثير في قلوب سائر الفرق هو: إظهار مظلومية أكابر دينهم (أي أئمتهم من أهل البيت الأطهار عليهم السلام)، وهذه المسألة من الأمور الطبيعية لأن كل أحد بالطبع ينتصر للمظلوم ويحب غلبة الضعيف على القوي، والطبائع البشرية أميل إلى الضعيف ولو كان مبطلاً والمظلوم منها إلى القوي وإن كان محقاً، والظالم خصوصاً إذا كان بعيداً أو مرت عليه أعوام.

ومصنفوا أوروبا الذين كتبوا تفصيل مقاتلة الحسين وأصحابه وقتلهم مع أنه ليس لهم عقيدة بهم أصلاً أذعنوا بظلم قاتليهم وتعديهم وعدم رحمتهم ويذكرون أسماء قاتليهم بالاشمئزاز.

وهذه الأمور طبيعية لا يقف أمامها شيء وهذه النكتة من المؤيدات الطبيعية لفرقة الشيعة^(١).

(١) - للتفصيل راجع كتاب إقناع اللائم على إقامة المآتم، السيد محسن الأمين العاملي: ص ٣٥٧ ببعض التصرف منا..

دمع الختام

لست أدري، أهو دمع يجري من الآماق، أم دماء تسري في الأعناق.
وما عسى الإنسان أن يقول، لك أو عنك يا ابن البتول،
ويا ابن الطهر الرسول، وأنت ربان السفينة، وأبوك صاحب اللواء وساقى
الحوض، وأمك الكوثر، وجدك سيد المحشر، وربك الحكم العدل؟

سيدي يا ابن الزهراء، أزهـر نورك في قلبي فلمع فخضع وخشع،
لذكرك، ولحبك، ولمجدك، لست أدري، ولكن كل الذي أدريه أنني
كلما ذكرتك تلجلج قلبي وسال دمعي وغلى الدم في قلبي فصار
كالمرجل، ووقف عقلي ببابك، وصار فكري وقفاً على مصيبتك التي
تهون عندها كل مصيبة، كما قال صنوك المطهر لك يوماً: (لا يوم
كيومك يا أبا عبد الله).

مولاي يا ابن الحيدرة الإنسانية، وسيد الكائنات بعد جدك المبارك
ذاك أمير الأمراء، وسيد الأوصياء، وإمام الأتقياء، ولسان البلغاء،
وقاتل الأعداء، وناصر الأولياء، وسعد السعداء، وشقاء الأشقياء، أعني
الأسد الضرغام، والبحر القمقام، وحجة الملك العلام على الأنام،
أمير المؤمنين وسيد المسلمين رغم أنف الحاسدين والناصبين، زينة
الدنيا ورجاها، وحسب الأخرى وشفاعته منهاها، أسد الله الغالب سيدي

ومولاي وإمامي علي بن أبي طالب (عليه من الله أزكى تحية ومني سلام دائم ومنتصل أبدا).. أ أعزیه أم أهنته بكم یا أصحاب الطفوف، یا من سقتکم السیوف كأس الحتوف.؟

أهنته بكم لأنه ليس في الكون مثلكم غابراً وكابراً.

وأعزیه بكم لأنه ما من مصيبة في هذه الدنيا، أو في هذه الحياة تشبه عشر معشار ما جرى عليكم من المصائب والرزايا.؟

فيحَقُّ لي بل يجبُ عليَّ التهنة، ولكن يعزُّ بل يحزُّ بقلبي التعزية، ولكن أقول كما علمتمونا القول الفصل: يا ليتنا كنا معكم سيدي فنفوز والله فوزاً عظيماً.. وجعلنا الله ممن يتمسك بعروتكم الوثقى، ويسير بمنهجكم، وعلى محجتكم البيضاء، ويطلب ثأركم معكم، ويقتل عدوكم، ويقتله عدوكم بين أيديكم وتحت رايتكم المظفرة، وأن يحشره معكم وفي ركابكم في الدنيا والآخرة، ولا يُبعده عنكم شيء لحظة، ولا طرفة عين أبداً، بداية ونهاية فكلي منكم ولكم.

سيدي ومولاي، أيها السبط الشهيد، أيها الوتر السعيد، يا سيد شباب أهل الجنة، يا من سقيت الإسلام العظيم - وهو دين الله في الأرض - بدمك الطاهر الزكي، ودماء تلك الصفة الصافية من أبناء الإنسانية، يا من علمتم الحياة العزيزة برفضكم الخضوع للذل، وأعطيتم الأحياء من بني آدم المثال الذي يحتذى للفوز بخلود الدنيا لمن أَرادها، وخلود الأخرى لمن آمن بها.

(هيهات مِنَّا الذلة).. صرخة دَوَّت في كربلاء فرددتها كل الأرجاء وما زالت الأحرار في العالم يرددونها نداء ويرفعونها شعاراً، لتعلم الدنيا بأن

حياة العزة والكرامة، حياة الشموخ والإباء، حياة الفخر والنصر، حياة الدين والقرآن إنما هي حسينية بامتياز كربلائي.

(ومثلي لا يبايع مثله).. وَمَنْ مثلك يا ابن الرسول، وأين مثلك يا ابن البتول؟ وَمَنْ فيه شأن بسيط من شأنك، أو درجة دانية من درجاتك، فأين الثريا من الثرى، بل أين الثريا من تراب أقدامك الطاهرة؟

ولكن كلمتك سيدي صارت مدرسة ومنهجاً لبني آدم للعز والفخر والكرامة، ومعنى كاملاً للقيادة والسيادة في هذه الحياة، فالحياة يجب أن يديرها مَنْ هو مثلك لا مثل يزيد السوء، والأحياء يجب أن يقودهم من أمثالك لا من أمثال أولئك الأشرار، لأن الحياة وقيادتها جديرة بالأخيار، وهكذا أرادها الله تعالى خالقها منذ اللحظة الأولى، ولكن شاءت حكمته ﷺ أن يجعلها مركبة على الامتحان والاختبار، وذلك لإتمام الحجة، وإكمال الغرلة، لمعرفة معادن البشر، (فبالامتحان يكرم المرء أو يهان)، تلك هي حكمة الباري جلّ شأنه، وتبارك مجده، وتعالى جده.

والله جعلكم محنة، ومقياساً يقاس عليه البشر، فأنتم المعيار لا الأغيار، وعليكم مسطرة الوجود تستوي، وتستقيم لكي لا تلتوي، وإن الدنيا أرادت لويها أو كسرهما أو حرفها فهي أعجز من ذلك بكثير، لأنكم نور الله في الأرض، وصراطه إلى السماء، ويأبى الله لنوره أن يطفأ ولصراطه أن يحرف عن مساره، (فمن أراد الله بدأ بكم)، ومن أراد الله جعله من شيعتكم ومحبيكم ومواليكم، جعلنا الله منهم وفيهم ومعهم أبد الأبدین.

مولاي يا أبا عبد الله أنت سيدي واجهت الشر كله، والباطل كله، والكفر والنفاق كله، في يوم عاشوراء وعلى أرض كربلاء، لأنك الخير كله، والحق كله، والإيمان كله، في ذلك الزمن وما بعده من الأوقات والأزمان، وكنت على علم وبصيرة ودراية كاملة بكل ما سيجري عليك وعلى مَنْ معك من الآل الأبرار والصحب الأخيار، فأقدمت بثقة واقتدار لما أَرَادَهُ الملك الجبار، وقَدِّمْتَ نفسك الطاهرة وكل ما عندك لله بصدر رحب، لا تردد ولا تذر بل قلت (إلهي رضاً برضاك لا معبود سواك).. هكذا أنتم وهذا معدنكم النقي الطاهر.

ولكننا سيدي ومولاي نحن، نحن وأنتم، أنتم ولا قياس أصلاً إلا بالشكل فقط، ولكننا خلقنا من فاضل طينتكم وفضل مائتكم، وأطياف شعاعكم، فتمسكنا بكم وتمسكنا من عطرکم ففاح المسك وعرفنا الخلق بأننا نتمسح، ونتمسك بالحسين ﷺ.

فأنت فخرنا ومعادنا وملاذنا وشعارنا ومنارنا وشعورنا وشعرنا ونثرنا وكل حياتنا أنت يا سيدي (يا حسين)، ولكن يا سيدي تملأت وتضافرت قوى الشر العالمية الآن علينا، وللأسف ساعدتهم أبناء جلدتنا فحاربونا باسمك، وعادونا من أجلك، وعذبونا ونبذونا لتمسكنا بشعائرك التي تؤرقهم وتخجلهم أمام الأعداء لأن بعض شبابنا يخرجون عن طورهم لعظيم المصيبة بك، وهذا أمر طبيعي وحق مشروع لكل إنسان، إلا نحن يا سيدي فمحظور علينا أن نعبر عن عواطفنا تجاهك ويطلبون منا أن نتعقلن، أو نعقلن شعائرك، وما عرفوا بأن دعوتهم غير ممكنة لتناقضها مع الشعائر التي ترتبط بالشعور، والعاطفة، والقلب والحب، وأين العقل من ذلك كله؟

سيدي أعداؤك من خوارج هذا

العصر جلدونا بسياط التكفير.

وبعض المدعين بالانتساب إليك

جلدونا بسياط العقل والتفكير.

ولا أدري أي السيات ألم، فالخوارج، والنواصب نتوقع منهم كل شيء وهذا ما يهون خطبهم، فلا يجلدون إلا أنفسهم وأهل ملتهم، وأما الطائفة الكبرى، والمصيبة العظمى، هي هؤلاء المُدَّعين للتشيع، ولم تثبت لهم أسس التشيع بدليل قاطع، فينكرون أبسط مسلمات التاريخ عدا عن العقيدة إلا أنهم وعندما يقترب المحرم فيأتيهم كل الحماس وكل الكلام للتشكيك بشعائرك الشريفة، ومحاولة إبعاد الناس عنك وعن محبيك ومجالسك الحاشدة.

لماذا كل هذه الفقاهاة علينا وعلى شعائرتنا التي نقدها وتنفسها، ونعيش فيها كالهواء، ونعيش فيها كالهواء، أو كالماء، ولن يضيرنا ما يقولون فإننا إليك يا سيدي سائرون فخذ بأيدينا، وقوي عزيمتنا حتى النهاية يا مولاي..

دعاء وابتهاال الختام

سيدي ومولاي يا صاحب العصر والزمان، هذا حالنا لا يخفى عليك، واعترافنا بين يديك، وهذا ما عندنا والأمر إليك.. يا حجة الله، يا ولي الله، يا ابن السبط الشهيد، يا صاحب الثأر العتيد، نخاطبك بلسان الحال والمقال يا مولاي فخذ بأيدينا لما يرضيك ويصلحنا.

(اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةِ كَرِيمَةٍ تُعَزِّزُ بِهَا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَتُدِلُّ بِهَا النَّفَاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةِ إِلَى سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ مَا عَرَفْتَنَا مِنَ الْحَقِّ فَحَمَلْنَا، وَمَا قَصُرْنَا عَنْهُ فَبَلَّغْنَا، اللَّهُمَّ أَلْمَمْ بِهِ شَعْنَنَا، وَأَشْعَبْ بِهِ صَدْعَنَا، وَارْتُقْ بِهِ فَتَقْنَا، وَكَثِّرْ بِهِ قِلَّتَنَا، وَأَعِزِّزْ بِهِ ذِلَّتَنَا، وَأَغْنِ بِهِ عَائِلَتَنَا، وَأَقْضِ بِهِ عَنْ مَغْرَمِنَا، وَاجْبُرْ بِهِ فَقْرَنَا، وَسُدِّ بِهِ خَلَّتَنَا، وَيَسِّرْ بِهِ عُسْرَنَا، وَبَيِّضْ بِهِ وُجُوهَنَا، وَفُكِّ بِهِ أَسْرَنَا، وَأَنْجِجْ بِهِ طَلِبَتَنَا، وَأَنْجِزْ بِهِ مَوَاعِيدَنَا، وَاسْتَجِبْ بِهِ دَعْوَتَنَا، وَأَعْطِنَا بِهِ سُؤْلَنَا، وَبَلِّغْنَا بِهِ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ آمَالَنَا، وَأَعْطِنَا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنَا، يَا خَيْرَ الْمَسْئُولِينَ وَأَوْسَعَ الْمُعْطِينَ، اشْفِ بِهِ صُدُورَنَا، وَأَذْهِبْ بِهِ غَيْظَ قُلُوبِنَا، وَاهْدِنَا بِهِ لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِأَذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ، وَأَنْصُرْنَا بِهِ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنَا إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقَدْ نَبَّيْنَا صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَغَيْبَةَ وَلِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَقِلَّةَ عَدَدِنَا، وَشِدَّةَ

الْفِتَنِ بِنَا، وَتَظَاهَرَ الزَّمَانَ عَلَيْنَا، فَصَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدَ وَآلِهِ، وَأَعِنَّا عَلَى ذَلِكَ بِفَتْحِ
مِنْكَ تُعَجِّلْهُ، وَبِضُرِّ تَكْشِفْهُ، وَنَصْرِ تُعِزَّهُ وَسُلْطَانِ حَقِّ تَظْهِرُهُ، وَرَحْمَةِ مِنْكَ
تَجَلِّلُنَاهَا وَعَافِيَةِ مِنْكَ تُلْبِسُنَاهَا، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ).

حرره بيمينه الفانية، من جوار مسجد الإمام الحسين عليه السلام بقابون
الشام.. وجوار بطله كربلاء، العقيلة الهاشمية، واللبوة العلوية،
بنت سيدة النساء فاطمة الزهراء، السيدة زينب بنت علي (عليهم
الصلاة والسلام).

بمولد الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام

٢٠ جمادى الآخرة ١٤٣١ هـ ٢٠١٠/٦/٢ م

الفقير إلى ربه الغني

الحسين أحمد السيد أبو علي

المحتويات

٧ الباب الأول
٧ علم المستقبل أو المستقبلية
٩ تمهيد
١٩ التطور الكوني والمستقبل
٢٣ قيمة الإنسان الحقيقية
٣٠ المستقبل الذي نريد
٣٧ صناعة المستقبل النظيف
٤٢ المستقبل صناعة الفكر لا الكفر
٦٠ أهمية الأفكار بصناعة المستقبل
٧١ دور التكنولوجيا مستقبلاً
٨٠ الآثار السلبية للمعلوماتية
٨٠ ١- الواقع المزيف
٨٢ ٢- استبداد معلوماتي ودكتاتورية جديدة
٨٦ ٣- المعلوماتية الرأسمالية
٩٠ الآثار الفكرية والنفسية والأخلاقية

- ١- تُخمة معرفية: ٩٠
- ٢- فقدان النقد والتحليل: ٩١
- ٣- الاغتراب والعزلة: ٩٢
- ٤- إنتاج وتوليد العنف: ٩٤
- إلى أين تقودنا المعلوماتية؟..... ٩٦
- المعلوماتية مواجهة تاريخية جديدة..... ٩٨
- مكمن الخطر في المعلوماتية..... ١٠٣
- المعلوماتية انتقال لتاريخ جديد..... ١٠٧
- تقنية الاتصال السريع وصناعة المعلوماتية..... ١٠٩
- أباطرة المعلومات وطغاتها..... ١١٢
- الغزو الثقافي واندثار اللغات..... ١١٤
- اقتصاد قائم على المعلوماتية..... ١١٦
- المعلوماتية سلطة جديدة..... ١١٨
- الإنترنت بوابة القرن الواحد والعشرين..... ١٢٠
- المعلوماتية وآليات الاستيعاب..... ١٢٤
- موقعنا وموقعهم..... ١٣٠
- بين المقاطعة والعزلة والذوبان..... ١٣٧
- إشكاليات في مواجهة التحدي..... ١٣٨
- خطوات وآليات لاستيعاب المعلوماتية..... ١٤٤
- مهارة استقراء الآتي..... ١٤٩
- إبرة تفاؤل أميركية..... ١٥٣
- أوضاعنا في شرقنا..... ١٥٤

- هل المستقبل طلسم وفرضيات حائرة؟..... ١٦٣
- التخطيط للمستقبل..... ١٦٥
- الباب الثاني..... ١٦٩
- التشيع ثقافة المستقبل..... ١٦٩
- تمهيد حضاري..... ١٧١
- ما هي الثقافة؟..... ١٧٢
- المُثقف مَنْ هو..... ١٧٦
- ثقافة العولمة..... ١٨٢
- الثقافة المقاومة (ثقافة المقاومة)..... ١٩٠
- الثقافة الشيعية أو (ثقافة التشيع)..... ٢١٤
- حرب عالمية على الشعائر الحسينية..... ٢٦٠
- أمير المؤمنين علي عليه السلام وذعلب..... ٢٧٥
- الإمام الباقر عليه السلام مع النصراني..... ٢٧٧
- الإمام الصادق عليه السلام مع ابن أبي العوجاء..... ٢٧٨
- عقائد الأمم والحضارات..... ٢٨٠
- رجحان الشعائر الحسينية..... ٢٨٣
- رأي الشيخ عبد الوهاب الكاشي..... ٣٠٣
- رأي الشيخ علي الكوراني العاملي..... ٣١٢
- رأي كتاب فتاوى الفقهاء حول الشعائر الحسينية..... ٣١٦
- رأي الشيخ محمد جميل حمود..... ٣٢٣
- الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء رحمته الله..... ٣٣٠
- فذلكة المقام وخلاصة الفتوى:..... ٣٤٤

- ٣٤٩..... الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري رحمته الله
- ٣٥٠..... الإمام المجدد الشيرازي الكبير رحمته الله
- ٣٥٢..... تأييد الفقهاء لفتوى الشيخ النائيني
- ٣٥٣..... سماحة الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم رحمته الله
- ٣٥٣..... سماحة الإمام السيد الأستاذ أبو القاسم الخوئي رحمته الله
- ٣٥٤..... فتاوى ومسائل الإمام السيد أبو القاسم الخوئي رحمته الله
- ٣٥٥..... سماحة الشيخ جواد التبريزي رحمته الله
- ٣٥٦..... سماحة آية الله السيد كاظم المرعشي رحمته الله
- ٣٥٦..... سماحة آية الله السيد مهدي المرعشي رحمته الله
- ٣٥٧..... المجدد الثاني سماحة المرجع السيد محمد الشيرازي رحمته الله
- ٣٥٨..... سماحة المرجع السيد محمد صادق الروحاني رحمته الله
- ٣٦١..... فتوى الشيخ المرجع الوحيد الخراساني رحمته الله
- ٣٧٠..... عطاء الشعائر الحسينية.....
- ٣٧٨..... فوائد وعظمة المجالس الحسينية.....
- ٣٧٩..... مؤامرة لتحطيم المذهب الشيعي.....
- ٣٨٥..... نظرة إلى الماضي لبناء المستقبل المشرق.....
- ٤٠٥..... شهادة المستشرق الفرنسي الدكتور جوزيف.....
- ٤١٣..... دمع الختام.....
- ٤١٨..... دعاء وابتهاال الختام.....